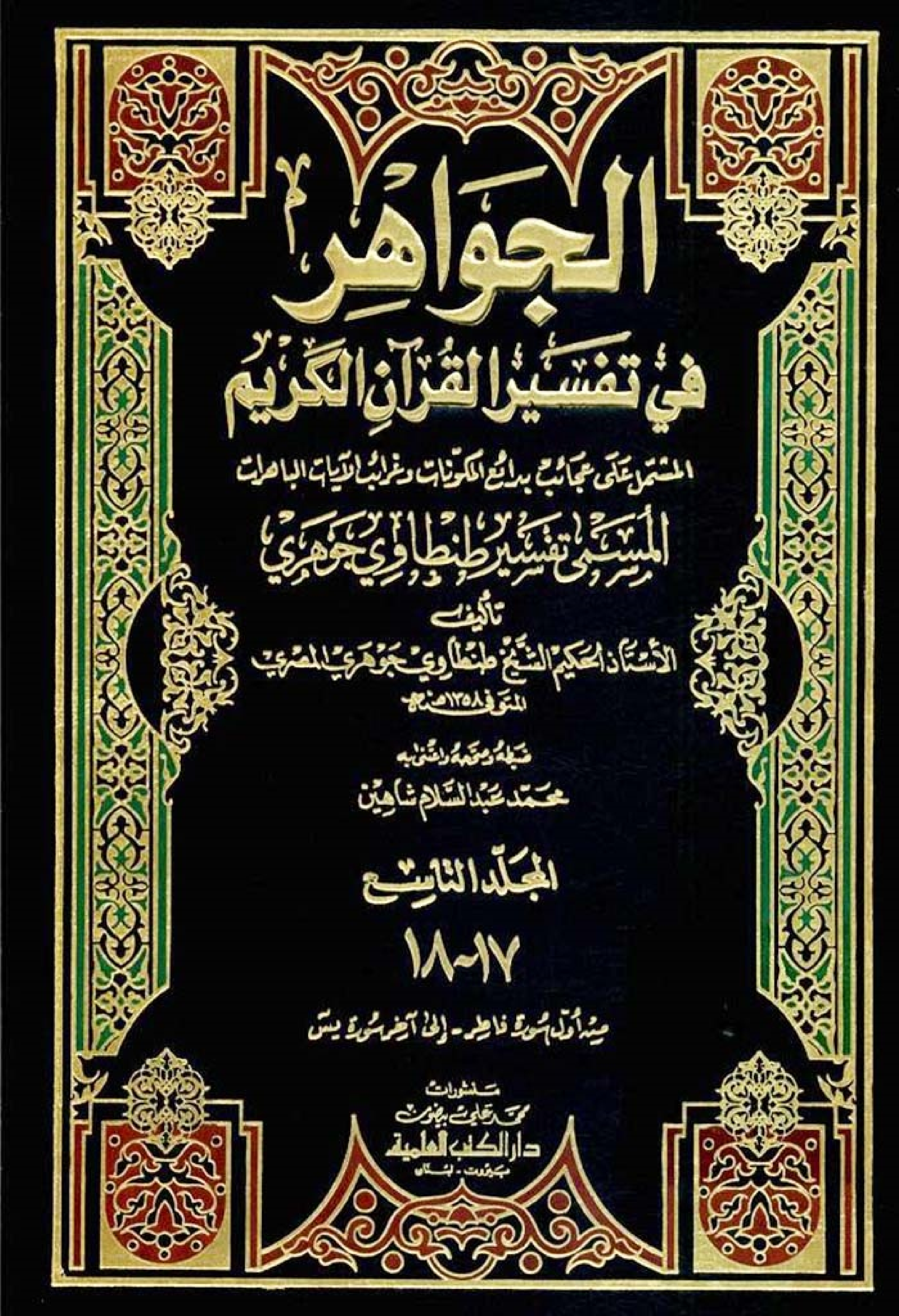

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد التاسع
١٧-١٨
من أول سورة فاطر - إلى آخر سورة يس
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر

في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

١٧ – ١٨

المحتوى :

من أول سورة فاطر – إلى آخر سورة يس

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت – لبنان

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل: ٤٤]
قرآن كريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة « فاطر »
هي مكية
آياتها ٤٥، نزلت بعد الفرقان
مقدمة في مبادئ السور

لقد اتصلت هذه السورة بالسورة التي قبلها فإنه جاء في آخرها: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[سبأ: ٥٤]، فهؤلاء شاكون في أمر البعث وقلوبهم محجوبة ونفوسهم محبوسة؛ وذلك لأن النفوس الضعيفة التي تنزل إلى هذا العالم ولم تستعد بعد إلى فهم العالم اللطيف والملائكة والأرواح والبعث والحشر، تكون كل آمالها موجهة إلى عالم المادة فلا تبغي به بديلاً.

فجاء ابتداء هذه السورة مبشراً المطيعين بالملائكة الذين هم يبشرونهم عند الموت ويوم القيامة ويحبونهم ويلهمونهم مدة الحياة بالخيرات لأجل استعدادهم.

ابتدأ الله سورة « الفاتحة » بأن الحمد لله لتربيته لجميع العوالم، وفي « الأنعام » بتفصيل العالم المادي إلى ظلام وضياء ولطيف وكثيف، وفي « الكهف » بالتصرف في العالم العقلي بالديانات وإنزال القرآن لتجعل للقلوب وجهة شريفة، كما ازدانت المادة بالأنوار في سورة «الأنعام»، وفي سورة « سبأ » بأن العالم المادي يتصرف فيه من حيث النتائج الحاصلة فيه إدخالاً وإخراجاً في الأرض، وتبياناً للتنوع والتفنن في المادة بالأثمار والأزهار والنعم التي لا نهاية لمداها ولا حد لأقصاها، وتسخير الأولين لنفع الآخرين كنزاً في الأرض ودفناً في الثرى وبنياناً في العصور القديمة، ثم ظهروا في الأجيال المتأخرة. وهكذا عالم السماء فيه التصرف المناسب له. ثم أبانه أيما تبيان في هذه السورة.

فكما كان الإدخال في الأرض والإخراج منها بعضه من فعل الإنسان الأول للإنسان الآخر في « سبأ »؛ هكذا في سورة « فاطر » يكون صعود الملائكة إلى عالم السماء ونزولهم إلى عالم الأرض نفعاً للعباد وتسخيراً لمنفعتهم بالتدبير في النظام وتبليغ الوحي والإلهام. وكما يختلف الكانزون من نوع الإنسان والمؤلفون والمعلمون الأول في آرائهم وعقولهم وآثارهم يختلف الملائكة في درجاتهم ومقدار قواتهم، ولا يعرف الناس ذلك إلا بمقياس وهو الطائر ذو الجناحين وذو الأربعة وفوق ذلك.

فتبين من ذلك أن الحمد في « الفاتحة » على مجمل، وفي « الأنعام » لتفصيل الكثيف واللطيف وفي « الكهف » لتزيين العقول بالعلوم كما زينت المادة بالعجائب البهجة، وفي « سبأ » بأنواع الجمال

الأرضي من نبات وثمر وبما خزن الأولون للآخرين من مال وكمال، وفي سورة «الملائكة» بنهاية النهايات، وزينة الأرض والسماوات، وهو عالم الملائكة الذي إليه تتجه الأنظار، بل هو مرمى أهل الجنة ليتخلصوا من المادة ويصلوا إلى مقام الكمال، فكأن العالم المجمل في «الفاتحة» فصل بعدها في الأمور المادية وفي العقلية، وانتهى بأرقى العقلاء وهم الملائكة، وليس بعد ذلك من نهاية لنوع الإنسان. ولذلك يقول تعالى في سورة «سبأ»: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأٓخِرَةِ ﴾[سبأ: ١]، ومعلوم أن الحمد لا يكون إلا على النعم، ولا تعرف النعم إلا بالعلم، وقد ذكر العالم المادي والمعنوي في المحامد المختلفة، كأن الإنسان لا يصل إلى العالم الأعلى عند سدرة المنتهى ويشاهد عالم الملائكة إلا بعد المرور على درجات هذه العوالم دراسة وتفكيراً ثم ينتهي إلى عالم الجمال.

انظر هذا الترتيب. انظر كيف أخر هذا المعنى إلى سورة «الملائكة». انظر كيف لم يذكره في سورة «الفاتحة» ولا في سورة «الأنعام» ولا في «الكهف» ولا في «سبأ»، بل ألمع في «سبأ» إلى أن الحمد لله في الآخرة وحده، وأظهر المقصود في سورة «فاطر».

وإذا شئت منهجاً آخر في هذا أخصر أقول لك: الحمد في فواتح السور جاء لمقدمتين، وخاتمة المقدمة الأولى: حمد على نعم ظاهرية في العالم المشاهد في «الفاتحة» و«الأنعام».

المقدمة الثانية: حمد على نعمة العلم والحكمة في «الكهف» وعلى حسن الترتيب في انتقاله من الأولين إلى الآخرين ومن العلماء للجهلاء، فإن بعض ما يلج في هذه الأرض الإلهامات للعقلاء والوحي للأنبياء وبهما يخرج أنواع الأعمال الصالحات والمنافع العامة التي بها زينة الدنيا، فأما النتيجة فهي العوالم المفطورون على الحكمة والعلم، إذ هم الذين بهم ينزل العلم والوحي في الأرض ويخرج للفوائد العامة، وهم يتزلون من السماء بالعلوم فيلهمونها للناس ويعرجون بأعمال الناس، فالولوج في الأرض والخروج منها نتائج النزول من السماء والصعود فيها من حيث التأثير ومقدمات من حيث الدرس والتفكير. فالعوالم السفلية نتائج العوالم العلوية من حيث النظام ولكنها لا يتوصل إليها إلا بعد المرور على العوالم السفلية طبقة طبقة، فندرس العالم المشاهد كما في «الفاتحة» و«الأنعام» ثم العالم المعقول بالتفكير، ونترك آثاراً لمن بعدنا وحينئذٍ نستحق الرقي إلى عالم السماوات مع الملائكة.

هذا ما حضر في نظام هذه الآيات بالنسبة لما قبلها من المحامد في أوائل السور. فانظر مناسبتها لما بعدها في هذه السورة. فانظر كيف يقول سبحانه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[فاطر: ١٠]، ثم انظر كيف خص خشية الله بالعلماء الناظرين في السماوات والأرض والألوان والجبال، ثم أوضح درجات العاملين، فمنهم المقتصد والمتوسط والسابق. ولا ريب أن السابقين هم المقربون في جنات النعيم، والقرب إنّما يكون بالعلم والعمل، جعل الله الذين ورثوا الكتاب ثلاثة أقسام، وجعل الملائكة ذي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، فذكر ثلاث درجات أيضاً، وأعقب ذلك بأنه يزيد في الخلق ما يشاء، وأنه إذا فتح للناس رحمة فليس يمسكها أحد، فللملائكة درجات وللذين ورثوا الكتاب درجات، والدرجات ليست واقفة عند حد، فإن باب الزيادة مفتوح لمن هو أهل من نوع الإنسان.

إن ذكر الملائكة في أول السورة مقدمة لصعود الكلم الطيب ورفع العمل وارتقاء درجات المؤمنين كلما تتابعت درجات الملائكة .

إن عالمنا الذي نعيش فيه عالم دراسة ، فليدرس الناس في الدنيا وعلى قدر دراستهم يكون مقامهم بعد الموت ، أفلم ينظر الناس كيف كانت الأمم تعلم التلاميذ في المدارس وإذا أتموا دروسهم وضعوهم في أعمال تناسب ما كانوا يدرسونه ؟ وما مثل الناظرين في العوالم المادية والمعنوية المذكورة في أوائل السور المبدوءة بالحمد وفي الآيات الآتية في هذه السورة المحببة للنظر في اختلاف الألوان في الجبال والحيوان والإنسان إلا كمثل التلاميذ الذين يدرسون في المدارس السياسة ليحرفوا نظام الممالك وسياستها ، ثم يكونون من رجال السياسة ، هكذا هؤلاء الحكماء والمفكرون إذا ماتوا كانت نفوسهم عاكفة على ذلك الجمال وعجائب العالم كأنهم ملحقون بالملائكة ، ينظرون في التدبير العام الإلهي مفكرين في فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً الخ . انتهت المقدمة .

تقسيم السورة

فلأجعل الكلام على هذه السورة في ثلاث مقامات :

المقام الأول : في تفسير البسملة .

المقام الثاني : في تفسير الألفاظ .

المقام الثالث : في تفسير السورة ، مراعي فيه تقسيمها .

المقام الأول : في تفسير البسملة

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

وقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

لقد يبدو للناظر أول وهلة أن هنا تباعداً فيما بين هذه الثلاثة ، وهي البسملة والآيتان بعدها ، وأنها ليست في مقام واحد ، وأنا أشرح المقام شرحاً تاماً فأبين أولاً كيف يكون الله رحيماً وغفوراً وشكوراً وخبيراً وبصيراً مع أن العبد يكون كذلك ، فهو رحيم رحمن ، وخبير وبصير ، وغفور وشكور ، ثم كيف كان اشتراك الخالق والمخلوق في الاسم اشتراكاً لفظياً اشتبه على الجهال من المبتدعة في الأمم الإسلامية ، فضلوا باعتقادهم الألوهية في بعض أناس من الأئمة كما تقدم في هذا التفسير ، ثم كيف كان الإسلام هو الممحص للحقيقة وحده ومظهراً وحدانية الإله موافقاً في ذلك حقائق الديانات القديمة مخالفاً لظواهرها ، وكيف كان هذا الموضوع مما يجب إيضاحه لأنه ألبس على كثير من جهلاء المسلمين وبعض خاصتهم .

لقد تقدم في أوائل سورة « الروم » و« لقمان » و« السجدة » عند البسملة تفسير موجز لبعض أسماء الله الحسنى ، وأن اشتراك الأسماء بين الخالق والمخلوق لم يكن إلا بالاسم . فإن صفات العبد لا مناسبة بينها وبين صفات الله ، والأسماء دالات على صفات ، فالاشتراك لفظي لا غير وهذا واضح هناك وضوحاً تاماً ، ولكني أريد أن أبين هنا أمراً لا مناص لي من تبيانه لأن الأمم الإسلامية اليوم يتناقل فيها

الناس أقاويل عن الصوفية ملتبسات مهوشات على العقول مثيرات للشكوك ، وكثير من الصالحين الجهلاء يوجهون وجوههم تلقاء أناس مشهورين فيعتقد فيهم كأنهم غياث لهم وملجأ ، وكأن الربوبية حلت فيهم وانتهت إليهم كما هو مشهور ومذكور ، فأقول :

يروى في الآثار المنقولة : « تخلقوا بأخلاق الله ، إن الله كذا وكذا خلقاً ، من تخلق بواحد منها دخل الجنة » ، ويقول الشيخ أبو علي الغارمدي إن شيخه أبا القاسم الكركاني قال : إن الأسماء التسعة والتسعين اسما تصير أوصافاً للعبد وهو بعد في السلوك غير واصل . وقال بعضهم : أنا الحق . وقال أبو يزيد البسطامي إن صح ما روي عنه : سبحاني ما أعظم شأني ، ويشاع على ألسنة الناس أن الأستاذ الأكبر محيي الدين يقول :

الرب عبـد والعبد رب فليت شعري من المعذب

وأمثال هذا كثير ينقل عنه . ولقد اعتقد كثير من الفرق الإسلامية في بعض الأئمة من آل البيت الألوهية . وتقدم في هذا التفسير أن الصوفية في آخر أمرهم مالوا إلى التشيع وتدخلوا مع الإمامية ، وهناك اعتقدوا اعتقادهم كما قدمته في هذا التفسير . فهذه مجامع المصائب التي حلت بهذه الأمم الإسلامية وهي التي أضاعت العقائد وأوجبت التفريق ، فأنا الآن أبين الحقائق تبياناً واضحاً وأشرحها شرحاً وافياً بمعونة الله عز وجل ، فهو الذي وفقني وهو الذي شرح صدري وهو الذي هداني لهذا وما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله ، فأقول :

إن كل علم لا يبحث عن تاريخه فهو قليل الفائدة يحفظه الناس ولا يدركون سره ولا يسبرون غوره . ومسألة الله وخلقه والرب والعبد قديمة العهد منذ الخليقة . فهل لك أيها الذكي أن أحدثك عنها حديثاً جميلاً يشرح صدرك لتعلم أن ما دخل على عقول المسلمين حديثاً لم يكن رمية من غير رام ، بل إن المسلمين لما خالطوا الأمم قرؤوا علومهم فنقلوا فلسفتهم وعقائدهم ، وهناك تدخلت بينهم وهم لا يشعرون .

ألم أقدم لك في هذا التفسير أن علوم الصابئين دخلت في أمم الإسلام؟ حتى إن البوني أدخل دعوات الكواكب السبعة في دين الإسلام ، ووزع آيات القرآن على تلك الكواكب ، ألم أبين لك سابقاً أن بعض فرق الشيعة مثل ابن الصباح القائم في أواخر القرن الخامس عكفوا على حساب الجمل وحسبوا آيات القرآن به وأدخلوا حساب الأسماء في التعاليم والدعوات؟ ولكن ابن الصباح اتخذ له سبيلاً آخر تقدم إيضاحه ، ومنع الناس من قراءة العلوم وشوقهم إلى الأخذ عن الإمام من آل البيت إلى آخر ما تقدم ، ألم أذكر لك أن الأوفاق من مثلث ومربع ومخمس إلى المتسع كانت تكتب عند قدماء المصريين وبقية الصابئين للتقرب بها للكواكب فنقلها المسلمون إلى دين الإسلام وطبقوها على الآيات؟ وهاهي ذه الكتب تباع وتقرأ في أقطار الإسلام وثلاثة أرباع المتعلمين في ديار الإسلام عاكفون عليها مغرمون بها ، وهم لا يعلمون أن هذه أديان منسوخة جاهلة ودين الإسلام هو الذي نزل لإبطالها .

إذا عرفت هذا سهل عليك أن تفهم ما سأورده لك من علوم قديمة تناقلتها الأمم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، والأمم الإسلامية أدخلتها في الدين وأكثر الناس لا يعلمون ، فهذا كان هو السبب

في الانتكاس على الرأس وسقوط كثير من الأمم الإسلامية في هذه الجهالة العمياء، ومتى عرفت الحقائق في أمثال هذا التفسير فهناك يكون الارتقاء والسعادة العظمى لأمم الإسلام.

اعلم أنه لم يبق مجال للريب أن لكل دين قديم وجهين: أحدهما سري والآخر ظاهري كدين البرهمية في الهند والهرمسية في مصر والوثنية في اليونان، فظواهر كل هذه الديانات إشراك وتثليث وطقوس ورموز صعبة الحل وأصنام وهياكل، فهذه الظواهر كلها قد جعلوها للعامة معتقدين أنهم لن يعقلوا إلا المحسوسات، فأما الرؤساء فإنهم جميعاً كما دل عليه الكشف الحديث الذي كشفه علماء الفرنسيس والإنكليز مجمعون في جميع هذه الديانات على أن الله واحد سرمدي، يقول «مانو» الفيلسوف الهندي: الله هو الكائن بنفسه الذي لا يمكن أن تصيبه الحواس المادية بل الروح فقط، وهو المنزه عن أجزاء منظورة أولي سرمدي روح الكائنات الذي لا يمكن العقل أن يدركه على ما هو عليه.

وقال «كولوكا» الهندي وهو من أشهر مفسري أسفار «الفيدا» والأكثر اعتباراً عند الشعب الهندي: إن الأقدمين مع تأليههم لقوى الطبيعة المتعددة لم يكونوا يعتقدون إلا إلهاً واحداً فقط هو مبدع وعلة الكائنات وهو أزلي غير هيولي حاضر في كل مكان سعيد ـ هذه الكلمة لا تجوز في ديننا ـ منزه عن كل كدر وهم وهو الحق بالذات ومنبع كل عدل وحكمة المدبر الكل والمرتب نظام العالم. لا شكل له ولا صورة ولا حد ولا نسبة.

وكان من عادة «البراهماثما» عند قبوله التلميذ في الدرجة الثانية أن يقول له هكذا: تذكر يا بني أنه لا يوجد إلا إله واحد فقط رب الكون وعلة الكائنات والواجب على كل برهمي أن يعبده في الباطن. واعلم أن هذا السر يجب كتمه عن العامة والجهلاء وإن كاشفت به أحداً يحل بك البلاء.

ويقولون: إن الله وحده هو الموجود الحقيقي الثابت الحياة وهو الذي خلق المادة وبث فيها الحياة. ويسمون هذه الثلاثة الجوهر «الله» والمادة والحياة ومن هذا نشأ التثليث. فليس التثليث عند تلك الأمم أن الله ثلاثة، بل معناه أن الموجودات كلها ثلاثة، واحد هو الله واثنان هما المادة وحياتها، فالمادة ظاهرة وحياتها لا تكون إلا بنفوس وعقول، وهي التي تعبر عنها الشرائع بالملائكة.

هذه هي علوم الأمم السابقة، فجهالهم كانوا يعتقدون التثليث، وقد جاء علم الأرواح الحديث الذي امتلأت به أوروبا فأفاد أن توهم الجهلاء التثليث هو رأي مادي بشري لا إلهي، فالعلوم الروحانية اليوم منطبقة على التعاليم السرية عند الأمم القديمة ومنطبقة تمام الانطباق على دين الإسلام. وبالجملة فالأمم الهندية والأمم المصرية كان جهالهم يكتفون بقشور الألفاظ والأصنام والهياكل وحكماؤهم يعتقدون أن الله واحد ويحبونه حباً جماً، ويبحثون في أسرار الطبيعة ونظامها العجيب غراماً بربهم الواحد الأحد ومنفعة لعباده باستخراج كنوز الطبيعة التي يعرف بعضها اليوم نساك الهند في الغابات.

هذا ملخص ما عرف في الكشف عن هاتين الأمتين، فإذا سمعت أن الديانة البرهمية عندهم مؤسسة على التثليث وأن «برهم» عندهم هو الأزلي الواحد الأحد المنزه عن المادة وأن «براهما» و«فيشنو» و«سيفا» صفاته، فهو الخالق الحافظ لخلقه المقلب لهم من حال إلى حال، وأن هذه الثلاثة إله واحد.

فاعلم أن الكشف الحديث أظهر أن هذا التثليث وإن رجع إلى الصفات فليس له وجود البتة في « سفر الريجفيد » القديم، فهو اختراع اخترعه البراهمة ثم جعلوا لكل واحد من هؤلاء الثلاثة هيكلاً خاصاً وعبدوها، ثم أكثروا من الأصنام في بلاد الهند وما جاورها من الصين واليابان، لأن عقول الناس إذا أدركت الحقائق لاتنقاد إلى الرؤساء، كما أن البهيمة إن لم نضع الغطاء على عينيها لا ننتفع بها في إدارة الطاحون ولا الساقية. وإذا سمعت في كلام طيماوس الحكيم اليوناني كما تقدم في سورة « الشعراء » تحت عنوان « بهجة العلم والطب » إنه يقول ما نصه: إن هذا العالم هو إله محسوس على مثال الإله المعقول. وقد قلنا هناك: إن هذه العبارة في ديننا كفر، وهو قصد بها أن العالم آثاره، وهو يدل على حكمته وقدرته. انتهى بالمعنى.

فاعلم أن ذلك القول يقرب من أقوال البراهمة، وقد قلت لك هنا: إن الأمم الإسلامية سرت لهم ظواهر العلوم والاعتقادات فنطقوا بها تارة واعتقدها الجهلاء تارة أخرى. فمن قال منهم: أنا الحق. ومن قال: سبحاني، الخ، فليس معناه أن الله هو نفسه عين عبده، فإن هذه غير معقولة وليس عند أولياء المسلمين من الأسرار ما ينافي العقل، فليس من أسرار الولاية أن يقال باجتماع النقيضين ولا بالمحالات العقلية، فهل يقول الولي: إن النفي والإثبات يجتمعان؟ أو يقول: العدم والوجود يكونان معاً. كلا ثم كلا، وإذا قال أبو يزيد البسطامي: انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها فنظرت فإذا أنا هو؛ فليس معناه أنه هو نفس الله، بل معناه أنه انسلخ من شهوات نفسه وهواها وهمها، فلم يبق فيه متسع لغير الله، ولم يكن له هم سوى معرفة الله تعالى. قال: فإذا لم يحل في القلب إلا جلال الله وجماله حتى صار مستغرقاً به يصير كأنه هو لا أنه هو تحقيقاً. قال الإمام الغزالي في كتاب « المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » ما نصه:

وفرق بين قولنا: كأنه هو، وبين قولنا: هو هو. ولكن قد يعبر بقولنا: هو هو، عن قولنا: كأنه هو، كما أن الشاعر تارة يقول: كأني من أهوى، وتارة يقول: أنا من أهوى، وهذه مزلة قدم، فإن من ليس له قدم راسخة في المعقولات ربما لم يتميز أحدهما عن الآخر فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تلألأ فيه من جلية الحق، فيظن أنه هو، فيقول: أنا الحق، وهو غالط غلط النصارى حيث رأوا ذلك في ذات عيسى، فقالوا: هو الإله، بل غلط من ينظر إلى مرآة قد انطبع صورة ملونة فيها، فيظن أن تلك الصورة هي صورة المرآة، وأن ذلك اللون لون المرآة، وهيهات بل المرآة في نفسها لا لون لها، وشأنها قبول صور الألوان على وجه يتخايل إلى الناظرين إلى ظاهر الأمور أن ذلك هي صورة المرآة، حتى إن الصبي إذا رأى إنساناً في المرآة ظن أن الإنسان في المرآة، فكذلك القلب خال من الصور في نفسه وعن الهيئات، وإنّما هيئته قبول معاني الهيئات والصور والحقائق، فما يحله يكون كالمتحد به لا أنه متحد به تحقيقاً، ومن لا يعرف الزجاج والخمر إذا رأى زجاجة فيها خمر لم يدرك تباينهما، فتارة يقول: لا خمر، وتارة يقول: لا زجاجة، كما عبر عنه الشاعر حيث قال:

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنّما خمر ولا قدح وكأنّما قدح ولا خمر

وقال ما ملخصه في خاتمة ذلك الكتاب: وتحقيق الأمر في قول القائل: إن معاني أسماء الله تعالى صارت أوصافاً للمخلوق، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون نفس أوصاف الله من العلم والقدرة والرحمة والشكر صارت أوصافاً للعبد، وإما أن تكون أمثالها هي التي صارت أوصافاً للعبد لا أعينها، فإذا قلنا بالأول أي أن صفات الله نفسها صارت للعبد، فهذا لا يكون إلا بالانتقال، أي: انتقال نفس صفات الله من الله للعبد، فيكون هذا العبد خالقاً للسماوات والأرضين وهو أزلي أبدي عليم بكل شيء مرسل الأنبياء الخ، وإما أن يكون بغير الانتقال، وهذا يكون بأحد أمرين: إما بالاتحاد أي: اتحاد ذات الله للعبد حتى يكون هو هو فتكون صفاته صفاته، وإما بطريق الحلول.

فهذه الأقسام الثلاثة تفصيل للقسم الأول، وهو أن تكون نفس أوصاف الله هي نفس أوصاف العبد. فأما القسم الثاني وهي أن تكون أوصاف العبد مماثلة لأوصاف الرب، فتلك المماثلة إما مماثلة مطلقة من كل وجه بحيث يكون هذا العبد قادراً على كل شيء مثل الله تعالى، وإما أن تكون المماثلة عبارة عن الاشتراك من حيث الاسم في عموم الصفات دون خواص المعاني، فهذان قسمان آخران، فتكون الوجوه خمسة والصحيح منها واحد فقط والباقية باطلة، وهو أن يثبت للعبد من هذه الصفات أمور تناسبها على الجملة وتشاركها في الاسم، ولكن لا تماثلها مماثلة تامة، فبقيت الأربعة الباطلة.

(١) فإذا قلنا: إن صفة العبد تماثل صفة الرب مماثلة تامة بأن يكون محيطاً بجميع المعلومات خالقاً لجميع المخلوقات لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم كما أن الله عزيز حكيم، فإذن يكون العبد خالق نفسه لأنه من جملة ما في السماوات والأرض، ثم إذا ثبتت هذه الصفات لعبدين فإن كلاً منهما يكون قد خلق صاحبه، فكل منهما خالق من خلقه وكل ذلك خرافات وجهالات وترهات.

(٢) وإذا قلنا: إن الصفات العالية انتقلت من الله للعبد فذلك محال عقلاً، لأن انتقال الصفات على وجه العموم مستحيل، وهل تفارق الصفة موصوفها كأن ينتقل بياض زيد إلى عمرو وعلم خالد إلى إبراهيم؟وهل تقوم الصفة إلا بموصوفها؟ ولو أن صفات الربوبية انتقلت من الرب إلى العبد لصار الرب إذ ذاك ليس رباً لأن صفات الربوبية قد فارقته، فإذا هو رب وليس برب في آن واحد وهو محال.

(٣) وإذا قلنا: إن العبد اتحد مع الرب فمعناه أن العبد هو نفس الرب، بل إن قولك: إن زيداً صار هو نفس عمرو محال، واتحاد شيء بشيء محال، لأنهما إما موجودان أو معدومان أو أحدهما موجود والآخر معدوم أو بالعكس، ولا خامس لهذه الأقسام، فإذا كانا موجودين فمستحيل أن يكون أحدهما عين الآخر، بل كل منهما موجود، وقد يتحد مكان الموجودين، وهل اتحاد مكان اثنين يوجب اتحاد الذاتين. كلا. بل كل منهما موجود فإن العلم والإرادة والقدرة قد تجتمع في ذات واحدة ولا يتباين محالها، ولا تكون القدرة هي العلم ولا الإرادة، ولا يكون قد اتحد أحدهما بالآخر، وتكون التفاحة ناعمة ذات رائحة جميلة وهي حمراء.

فهاهنا صفات ثلاث اختلفت وإن اتحد محلها، فاتحاد المحل لا يوجب اتحاد ما يحل فيه، فإذن الأمور الموجودة يستحيل أن يكون أحد هو عين الآخر وإن كان أحدهما موجوداً والآخر معدوماً، فلا

اتحاد لموجود بمعدوم، والاتحاد بين شيئين مطلقاً محال، فهل يصير هذا البياض أو السواد ذلك البياض أو السواد مثلاً؟ كما يستحيل أن يقال: ذلك السواد هو ذلك البياض، فالشيئان من نوع واحد لا يتحدان كما لا يتحد الشيئان من نوعين مختلفين.

(٤) وأما الحلول وهو الرابع من الأقسام الأربعة الباطلة فهو أن يقال: الرب حل في العبد أو العبد حل في الرب تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً، ولو صح هذا لم يوجب الاتحاد ولا أن يتصف العبد بصفات الرب، فإن صفات الحالّ لا تصير صفات المحل بل تبقى صفة الحال كما كان.

واعلم أنه لا معنى للحلول إلا بأحد أمرين: إما النسبة بين الأجسام وأمكنتها، كالنسبة بين زيد ومكانه الجالس هو فيه، وذلك لا يكون إلا بين جسمين، ومن لا جسم له لا يكون له حلول بهذا المعنى وإما بالنسبة بين العرض والجوهر، فالعرض لا قوام له إلا بالجوهر كالبياض والسواد بالنسبة للموصوف فيعبر عنه بأنه حال فيه، ولا جرم أن الله لا قوام له إلا بنفسه، ولا جرم أن كل ما قوامه بنفسه لا يمكن أن يحل فيما قوامه بنفسه حلول العرض والجوهر، فإذا كان العبدان لا يحل أحدهما في الآخر فكيف يعقل الحلول بين العبد والرب تعالى، إذن بطل الحلول، وانتقال الصفات والاتحاد والاتصاف بأمثال صفات الله على التحقيق، ولم يبق إلا المشاركة في الاسم فقط، فالله رحيم وشكور الخ على الحقيقة، والعبد كذلك، ولكن على معنى الاشتراك في الاسم. ثم إن معنى قولهم: إن العبد مع الاتصاف بجميع ذلك سالك لا واصل، فبيانه أن السلوك تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف، والوصول هو أن ينكشف له جلية الحق ويكون مستغرقاً به، وينسلخ من نفسه بالكلية، ويتجرد له فيكون كأنه هو، والولاية يستحيل أن تخالف طور العقل. وإذا كوشف الولي بأن فلاناً يموت غداً فهذا من الممكنات. ولكن إذا كوشف بأن الله يخلق المستحيل فذلك غير ممكن. ومن المستحيل أن يكاشف بأنه هو صار نفس الله وصفاته كصفاته من كل وجه. انتهى ما أردته من الكتاب المذكور للإمام الغزالي رحمه الله تعالى مع حذف وإيضاح تارة واختصار أخرى.

واعلم أيدك الله أني أطلت الكلام في هذا المقام لأني أعلم أن الأمة الإسلامية قد دخلت فيها آراء غريبة، فلكم سمعت من أناس يقولون: إن شيوخنا هم نفس الإله، وأذكر منهم رجلاً كان معي ببلدة الجيزة يسمى عبد الشافي وله أستاذ كان موظفاً بمحافظة مصر. فهذا كان يقول: إن الله هو نفس أستاذي فأما نفس الله فلا يعقل أن يكون موجوداً إلا على هذه الشريطة. وهكذا نسمع من وقت لآخر أن صوفياً يقول: إن شيخي يتصرف في أحوال الناس بل هو الله، ونسمع أمم النصارى يقولون: إن عيسى هو الله أو ابن الله، والأمم المصريون والبوذيون الذين ذكرتهم آنفاً كانوا هم أول ناشرين لهذه الآراء عند عامتهم وهي مضطربة، فانحطت مداركهم ثم تحولت محورة إلى بلاد الإسلام، فاستبدل الجهال من المسلمين جهلاء الشيوخ بالأصنام واستغنوا بالصالحين من بني آدم عن الكواكب وأصنامها وعن الملائكة، وكل هذه لا تنزع من الصدور إلا بالعلم والحكمة وأمثال ما سطرناه في هذا المقام.

هذا واعلم أيها الذكي أيدك الله أن الله عز وجل رتب العالم العقلي كما رتب العالم الحسي، وجعل الحسي كأنه نموذج للعقلي. يا سبحان الله ويا سعدانه. اللهم إني أحمدك على العلم وعلى

الحكمة وعلى التوفيق، وأعلن للملأ موقناً أن من اتجه إليك وهو مخلص فإنك تعلمه والعلم هو غاية السعادة في الدارين. هانحن أولاء نرى الإنسان وأنواع الحيوان درجات بعضها فوق بعض، أفليس الطير والذين يركبون الطيارات قد تمتعوا بالهواء الجميل عند طيرانهم؟ أفليس في الأرض حشرات دنيئات لا تعيش إلا في التراب؟ وهكذا أمثال الحيات والعقارب والفيران، فهذه مسجونات حقيرات ولكنها من صنعك، كل هؤلاء وهؤلاء يمدهم الله بالعطاء والنعمة، ولكن فرق ما بين درجة الإنسان والطير في الجو وبين درجة الفيران والصراصير في خفيات الأرض. هذا من جهة الأحوال الجسمية. أما من جهة الأحوال العقلية فإننا إذا وازنا بين الإنسان والبهائم نجد فرقاً شاسعاً فله عقل ولها شيء سموه غريزة. فكما رأينا البون شاسعاً بين مراتب الحيوان فهكذا كان البون شاسعاً بين معتقدات طوائف الناس فمنهم من يرى إلهه حجراً ومدراً، ومنهم من يرتقي فيراه شمساً وكوكباً. ومنهم من يراه فوق المادة، ومنهم من لا يرى إلهاً وإنّما يرى نفسه فقط وهو الملحد ـ والعياذ بالله ـ فكما تباين الحيوان في أحواله الجسمية والفكرية اختلف الإنسان وتبين في معتقداته، والبون هناك كالبون هنا شاسع في الحالين.

نوع الله الحيوان ونوع المعتقدات وهكذا نراه نوع أنواع النبات، ولكل فائدة كالدواء وكالغذاء وكالفاكهة وكالسم، إن أرضنا والله معرض للصور أو هي صور متحركة «السينماتوغرفيا» عالم يشرح صدر الحكيم إذ يراه أمامه صور متحركة والجاهل جامد القريحة، وبينما الحكيم المفكر يفرح بسعة الحكمة في نظام المادة، إذ يرى من جهة أخرى أنه عالم متأخر، فكأن أرضنا جعلت محل تربية لأرواح ضعيفة تباينت أقدارها الناقصة وأحوالها الطبيعية واستعداداتها، فحشرت في هذه الأرض وربيت على مقتضى درجاتها، وستبعث على هذه الدرجات، وأمرهم والله عجب، قوم نراهم يسجدون للصنم فعقولهم لم تعرف صفات الله، ولكنهم في الوقت نفسه عرفوا نظام الدنيا، وآخرون أتيح لهم تنزيه الإله ولكنهم لا يزالون ضعيفي الإدراك في صنعه وإبداعه، فهذه الأمم جمعاء أبناء التقاليد صرعى الأوهام، والأوهام التي هي سبب ضعفهم قد جاء أوان خذلانها بنشر العلوم العقلية في الأمم كلها في العالم العقلي. فكما أتيح للأطباء كله اليوم أن يقتلوا المخلوقات الذرية القاتلات للإنسان والحيوان والأرض قد كثر فيها التطهير بالمواد لقتل المكروبات فعاش وتكاثر الحيوان والإنسان، فهكذا نرى الآراء العقلية تنشر والخرافات تضمحل بنسب مطردات في عوالمنا الأرضية.

وكما أن الحشرات والمكروبات لم يبدها نوع الإنسان وإن سطا عليها بالعقاقير وقللها؛ هكذا أضاليل الإنسان وإن سطا عليها العلم فقللها لا تزال باقية في الأرض، فإذا رأينا بعض علماء الأمريكان والإنجليز وغيرهم يرون الإسلام ديناً صحيحاً وأكثر المستشرقين كذلك؛ ويدخلون فيه ويعلنون وينشرون مبادئهم؛ وأكثر أبناء الإنجليز يودون لو يسلمون ولكن يخافون من ذويهم؛ كما أخبرنا بذلك «اللورد هيدلي»؛ فإن أكثر القوم غافلون. وهكذا إذا رأينا أمم الإسلام أولئك الذين صفت عقائدهم ونسوا الأصنام والمعبودات الباطلة، فإنه لا يزال كثير منهم لا يعلم أن النظر في مصنوعات الله من الفلك والطبيعة والحيوان والنبات مقربات لله موجبة لحبه والغرام بجماله والهيام بلقائه؛ وإن عرف كثير منهم ذلك. فهذا النوع الإنساني هذه شنشنته، ملكه التقليد ولكنه كالدنيا التي عاش فيها، فهم كالثوب الخلق

كلما رقع يوماً فانخرق. حظ الحكيم من هذه المناظر أن يفرح بجمال الحكمة ونظام الدنيا، ويرى أن الله حكيم في صنعه إذ جمع في أرضنا بين أرقى عالم وهي النفوس المشرقات الفرحات بنظام ربها المتعطشة للقائه الباحثات عن رحماته، وبين النفوس النائمة اللاتي كأنها حجرية لا تعي ما يراد بها؛ فالحكيم في الأرض في جنة وهو الشاهد وأهل الأرض مشهودون، وهو السعيد بما يشاهد وهو من أصحاب الأعراف الذين يعرفون كلاً بسيماهم، فإذا رأى عقلاً قاصراً ألحقه بحيوان دنيء. وإذا وجد عقلاً كبيراً ألحقه بالملك، وهناك يدرك أن هذه الدنيا هي جنته، وأنها ما هي إلا معرض ومجتلى أو سوق الصور العقلية والحسية، يلبس كل مخلوق صورته التي عشقها، أو هي معمل تصنع فيه أدوات مختلفات تقوم بالطرق تارة والصقل أخرى، وهذا يرمز له سورة «الضحى»، فاليتم والضلال والفقر رمز للرزايا والنكبات في هذا العالم الأرضي، وهذه الرزايا جعلت مقومات لا معذبات، لأن الرحيم الحكيم يضع الأمور مواضعها، فيجعل المصائب مقومات كما تقوم الآلات بطرقها، فإذا قومت فقد حان صقلها، وهذا هو المرموز له بالإيواء والهداية والغنى وشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، فالمصائب ثلاثة والنعم ضعفها، وهذه النعم للإنسان العام مقابلات للصقل في الآلات.

إن الدنيا دار كبيرة فيها وليمة عظيمة قد أعدها ملك لرعيته ورتبهم درجات في إعداد الطعام، ورتبهم ونظمهم فهم يأكلون وكل بأصحابه مقرون، و﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣] وبعد انقضاء هذه الوليمة يرجع كل منهم إلى داره التي خرج منها. وهذا هو تفسير ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فرحمته شاملة تعطي كلاً ما يليق له. انتهى الكلام على المقام الأول في تفسير البسملة، والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الأحد ١٦ فبراير سنة ١٩٣٠م.

المقام الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا

يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ
ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ
إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾
وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ
مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ
هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ
إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾
وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ
إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ
إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ

وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ خالقهما ومبتدعهما على غير مثال سبق ، ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ إلى الأنبياء ﴿ أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ ذوي أجنحة . وليس معنى الأجنحة في العالم المادي إلا ما يقدر به على الطيران . فأما في عالم الأرواح فهو ما تمتاز به الملائكة من القوى والقدر والروحانية التي لا نسبة بينها وبين القوى المادية ، ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء كما يزيد في أرجل الحيوان ما يشاء حتى بلغت فوق العشرين . هكذا في عقول الآدميين

ورقيهم النفسي. ويروى «أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيزيد كل ما هو أهل للزيادة مادية أو معنوية كعقول الآدميين ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ما يطلق لهم ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ مطر ورزق وعافية ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ﴾ وما يمنع ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد إمساكه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما أرسل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ احفظوها واعرفوا حقها ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك؟ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ فتأس واصبر ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازيك وإياهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالحشر والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فيذهلكم نعيمها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم.

وقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: أفمن زين له سوء عمله بأن غلب هواه على عقله حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقاً والقبيح حسناً كمن لم يزين له، بل وفق حتى عرف الحقائق فاستحسانه واستقباحه على مقتضى الحق وذلك قدر مقدور، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ على مقتضى الاستعداد ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي: فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم.

وقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ على حكاية استحضار لتلك الصورة العجيبة الدالة على كمال الحكمة ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: نسوقه، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: مثل إحياء الموات نشور الأموات، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يريد العزة فليتعزز بطاعته بخلاف الكفار عباد الأصنام ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: إن الله يقبل الكلم الطيب وهو التوحيد والذكر والدعاء وقراءة القرآن. ومن الذكر: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وكذلك يرفع الله العمل الصالح، فإذا صعد الكلم الطيب بنفسه إلى الله فالعمل الصالح يرفعه الله، والمراد بصلاحه الإخلاص فيه، فما لا إخلاص فيه لا يقبل وذلك كأداء الفرائض.

واعلم أن هذا المعنى به يعرف المسلمون أن العلوم والمعارف والتحقق من نظام هذه العوالم لا يخرج عن كونها من الكلم الطيب. إن هذه المعارف من حيث نظمها وترقيتها للفكر الإنساني من جملة الكلم الطيب، بل قولنا: لا إله إلا الله، وما عطف عليه لا سبيل إلى صعودها إلى الله إلا إذا صعدت النفس في المعارف. فالتسبيح والتحميد والتوحيد درجات للسالكين في العلم، فالتسبيح درجة والتوحيد أعلى والتحميد أعلى، وذلك العلو ليس يكون إلا بالعلوم. فإذا رأيت في بعض الأحاديث أن سبحان الله ثوابها عشر درجات، ولا إله إلا الله عشرون درجة، والحمد لله ثلاثون درجة، فليس ذلك لمجرد نطق اللسان، بل العلم والمعرفة، فإذا أيقن بذات مبرأة من المادة فهو أول الإيمان، ثم إذا عرف أن العالم كجسم واحد يديره مدبر واحد كان ذلك أرقى. ثم إذا عرف أن جميع من في هذا الوجود منه وإليه وأصبح ذلك ملكة راسخة في النفس بتكرر البرهان والنظر. فهناك تكون الدنيا والآخرة عند الإنسان نظاماً جميلاً، ويعرف ما لا يعرفه كثير من العلماء، وإذ ذاك يتمتع بالسعادة

العلمية، ومتى خلص من الدنيا كان ذلك أوفر سعادة له، هذا هو المقصود من التسبيح والذكر. وهذا معنى صعود الكلم الطيب لله، فالصعود هنا لن يكون إلا بصعود النفوس من الجهالة إلى العلم ومن العمى إلى الهدى.

بهذا فلنفهم كلام الله سبحانه وتعالى، فأما الذكر المجرد من العلم فذلك درجة العباد والصالحين وهؤلاء أواخر المراتب في دين الإسلام. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩]، فهؤلاء الذين ذكرتهم لك الآن هم الصديقون، فأما الصالحون فهؤلاء يكون كل مقصودهم وهمهم العمل، بهذا نفهم السر في قوله تعالى أن الكلم الطيب يصعد بنفسه والعمل يرفعه الله، إشارة إلى أن الكلم الطيب أفضل من العمل الصالح. وبعبارة أخرى العلم والحكمة أفضل من الأعمال، والحمد لله على التوفيق.

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي: المكرات السيئات، كقريش في دار الندوة إذ تشاوروا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم من حيث الحبس والقتل والإجلاء ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ يفسد ولا ينفذ، لأن الله مقدر الأمور، والله سبحانه يحفظ المصلحين من الأنبياء وتابعيهم، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ إذ خلق آدم منه، وأيضاً الأغذية التي تتحول إلى الأجسام كلها من التراب والأغذية تصير دماً، ومن الدم النطفة، ولذلك قال: ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ نطفة الآباء ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ ذكراناً وإناثاً بقدر معلوم، بحيث يكاد الفريقان يستويان عدداً، فلو لم يكن كذلك لفني نوع الإنسان وهكذا كل حيوان، فحفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم، وهذا معنى قوله: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ أي: إلا معلومة له، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هي القائمة في هذه العوالم لم يتزن العدد في الزوجين ولم يحفظ التوازن في الإنسان والحيوان، وهؤلاء الذكور والإناث يعيشون على الأرض أياماً محدودة، ولو أن الأعمار طالت مئات السنين وتناسلت الذرية وكثرت لكان على القدم ألف قدم، ولكانت الحياة الدنيا ناراً وجحيماً إذ يكثر الناس وتقل الخيرات، فلذلك تفاوتت الأعمال في جميع الأعصار وكانت بمقدار بحيث لا تطول فوق ما تقتضيه الحكمة، فاعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب. هذا هو نظام الأرض العجيب، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ أي: ولا يمد في عمر من مصيره إلى الكبر ﴿ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ من عمر المعمر، أي: لا يجعل ناقصاً ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ. ذلك لحفظ الموازين في الأرض حتى ينتظم العمران، فلو لم يكن ذلك بمقادير لاختلط الحابل بالنابل وساء مصير العمران، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب وليس ذلك عسيراً على الله ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ هين بغير كتابة. ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ الفرات: الذي يكثر العطش، والسائغ: الذي يسهل انحداره، والأجاج الذي يحرق بملوحته، وفي قراءة «سيغ» بالتشديد والتخفيف، ذلك ضرب مثل للمؤمن والكافر، ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ هذا استطراد لصفة البحرين، يقول الله تعالى: هما وإن خرج من كل منهما السمك واستخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح

فليسا متساويين فيما هو المقصود الأصلي، فأحدهما قد دخل فيه ما أفسده وهو الملح فغيره عن المقصود منه وهو سقي الأنعام والنبات، فإذن الكافر كالملح والمؤمن كالعذب، بل البحر الملح أفضل من الكافر، إذ يستخرج منه الدر والمرجان، والكافر لا فضل له.

واعلم أن هذا القول منطبق على ما نشاهد في الناس، فهم شركاء في المعروف الظاهر ولكن العقول متفاوتة تفاوتاً كثيراً، حتى إن التلميذين من مدرسة واحدة وأب وأم يختلفان أخلاقاً اختلافاً كثيراً، وقد يكون أحدهما أغزر علماً والآخر بليد الطبع وهذا مؤمن وهذا كافر، ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ أي: تشق الماء بجريها، ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي من فضل الله بالنقلة فيها والتجارة، والمجرور متعلق بـ «مواخر»، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ما آتاكم من فضله.

ولما كان بين الفلك والبحر والشمس والقمر في مدارهما مناسبة باعتبار أن كلاً منهما ومن جميع الكواكب سابحات في تلك المدارات، سائحات في تلك العوالم الشاسعات، أردفه بذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر، إذ قال: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ أي: يدخل الليل في النهار فيكون النهار أطول من الليل ساعة فأكثر إلى عشر إلى غير ذلك، ويدخل النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار كما تقدم، انظر هناك في سورة «البقرة»، ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لمنتهى دوره أو منتهاه أو يوم القيامة ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ أي: الفاعل لذلك الله الخ، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ وهي لفافة النواة، وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة، ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ ﴾ أي: الأصنام ﴿ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ ﴾ لأنهم جماد ﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ فرضاً ﴿ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ أي: ما أجابوكم أو ما نفعوكم ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ بإشراككم ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير به أخبرك وهو الله تعالى. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وإنما عبر بالفقراء ليبين كثرة حاجات الناس، فإنه كلما كان المخلوق أعلى مرتبة وأدق تركيباً وأحسن صنعاً كان أكثر حاجة، فالحاجة على مقدار الرفعة في هذا العالم، ولذلك ترى الحيوان أقل حاجة من الإنسان، والنبات أقل منهما، فالفقر في الإنسان أبين، لأن الإنسان مدني بالطبع، وإذا كان الإنسان أكثر المخلوقات حاجة فهو في أشق حياة، ويقابله الله عز وجل الذي هو الغني على الإطلاق ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فهو المستغني على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات فله عليهم استحقاق الحمد، ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بقوم آخرين أطوع منكم أو بعالم آخر غيره ما تعرفونه، ذلك أن الله حميد والحمد على النعم ولا معنى للحمد إلا على معرفتها وعلمها، والأمم التي لا علم عندها لا تعرف نعم الله فلا حمد لها، والناس خلقوا ليتلقوا النعمة من مبدعها، فإذا جهلوا النعمة أذهبهم وأتى بخلق جديد، إما لاحتلال البلاد واستعمارها كما نراه في أمريكا وأستراليا إذا استؤصل السكان الذين هم أهل البلاد إلا قليلاً، حتى إن رجال الحكومة الإنجليزية في الحرب العامة أرادوا أن يجندوا من بقي من أهل البلاد في أستراليا فقيل في مجلس الأعيان: كلا لا تجندوا منهم بل يجب أن يبقى هذا العنصر للأجيال المقبلة في التاريخ، هكذا لما بطر المسلمون في القرن السادس وجهلوا نعم الله ولم يعطوا النعمة حقها أزال ملكهم وسلط

عليهم التتار والمغول فقتلوهم وأزالوا ملكهم، اقرأه في سورة «الكهف» عند ذكر يأجوج ومأجوج. وهكذا الدول قديماً وحديثاً، وهكذا أرضنا هذه متى جاء أجلها مزقت كل ممزق وخلق غيرها في أجيال لا ندريها، فأما سكانها فهم في جنة أو في نار ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمعتذر أو متعسر ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ما لم تكن أضلتها، فإنها تحمل وزرها ووزراً مثل وزر من ضلوا بها، ولكن هذا وزرها هي بالإضلال، فأما وزر النفس الضالة فلا يحمل عنها ﴿ وَإِن تَدْعُ ﴾ نفس ﴿ مُثْقَلَةٌ ﴾ أثقلتها الأوزار نفساً أخرى ﴿ إِلَىٰ حِمْلِهَا ﴾ ثقلها، أي: ذنوبها التي أثقلتها لتحمل عنها بعض ذلك كما قد يفعل في الدنيا ﴿ لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ لأن كل امرئ مشغول بأمر نفسه ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ المدعو ﴿ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ ذا قرابة قريبة كأب أو ولد أو أخ ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أي: ينفع إنذارك يا محمد ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: حال كونهم غائبين عن عذابه أو عن الناس في خلواتهم ﴿ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون بذلك الإنذار، ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ ﴾ ومن تطهر من دنس المعاصي ﴿ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾ إذ نفعه لها ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فيجازيهم. ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ أي: وما يستوي الصنم والله، ولا الباطل والحق، ولا الثواب والعقاب، ولا المؤمن والكافر، أو العلماء والجهلاء وهو أعم، والحرور الحر وقد غلب على السموم، وزيادة «لا» في نفي الاستواء لمزيد التأكيد في المواضع الثلاثة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته فيوفقه للهداية ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ فما عليك إلا الإنذار، أما الإسماع بالهداية فلا حيلة لك فيه عند من طبع على قلوبهم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: إرسالاً مصحوباً بالحق ﴿ بَشِيرًا ﴾ بالوعد الحق ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ بالوعيد الحق ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ ﴾ أهل عصر ﴿ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ من نبي أو عالم ينذر عنه، أي: إلا خلا فيها نذير وبشير، فلكل جيل أناس يبشرون ويخوفون لتنتظم شؤون الناس ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزات الشاهدة على نبوتهم ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ أي: الصحف، كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ كالتوراة والإنجيل ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي: إنكاري عليهم بالعقوبة، أي: انظر يا محمد كيف كان تغييري عليهم بالعذاب حيث لم يؤمنوا ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: المطر ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾ أجناسها من الرمان والتفاح وما أشبهها، ومعلوم أن أصنافها كثيرة أو ألوانها كالحمرة والصفرة والخضرة الخ، ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ ﴾ أي: طرق مختلفة اللون، جمع جدة كمدة ومدد ﴿ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا ﴾ بالشدة والضعف ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ أي شديد السواد، كما يقال: أسود غربيب تشبيهاً بلون الغراب، وكأنه قيل: ومن الجبال ذو طرق مختلفة اللون ومنها غرابيب متحدة اللون، و«غرابيب» تأكيد لـ «سود»، ومن حقه أن يتبع المؤكد ولكن أضمر المؤكد بالفتح قبله، والذي بعده تفسير للمضمر، كأنه قيل: وسود غرابيب سود، وذلك لزيادة التأكيد بالإضمار تارة والإظهار أخرى، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ كاختلاف الثمار والجبال، يشير ذلك

إلى دراسة الجبال والثمار والناس والدواب والأنعام من حيث ألوانها وهيئاتها وأشكالها واختلافها صغراً وكبراً وطعوماً وروائح وخواص وتراكيب ونظماً، ومشكلاً من مدور وأسطواني وهرمي ومخروطي، وطباً وغذاء ودواء وفاكهة حلوة وزيتية وعطرية ومرة ومائية وحمضية، وغير ذلك مما قرأته في هذا التفسير ومما لا حصر له في العلوم التي دونها الأولون والآخرون، ولو أنك نظرت إلى لون واحد من الألوان كالخضرة وتصفحت أنواع النبات نباتاً نباتاً لم تجد نباتين يتفقان في لون الخضرة، قف بالحقول وفتش على ما فيها من زرع وشجر زرعه الإنسان أو أنبته الله رغماً منه، وانظر هل تجد خضرة مماثلة لخضرة؟ كلا. وإذا أحصى العلماء أنواع النبات بنحو ٣٢٠ ألفاً فلست تجد اثنين اتفقا خضرة، وقس على ذلك الأشكال والروائح والطعوم، قف بالحقول واقرأ كتاب الله الذي سطره في أرضه، هناك تقرأ آيات الثناء والحمد مجسمة ظاهرة لعينك وقلبك، على ذلك يحضك القرآن؛ انظر كيف يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ كأنه ينكر علينا ألا نرى ذلك، إن ذلك باب يفتح باب الفكر ومتى فتح هذا الباب دخلت منه العلوم، فمن هذا الباب تكون العلوم ويتفرع فرعان: فرع لرقي الأمم وفرع لرقي العقول وهما متحاذيان، فالعمارة يتسع نطاقها، والأرواح تزيد أجنحتها إلى المقام الأعلى وتلحق بعالم الملائكة، وإلا فلماذا خلقنا الله في الأرض، ولماذا نوع هذه الأنواع وشكل هذه الأشكال؟.

يا عجباً إنك يا الله خلقت النبات وأرحته من العناء وأنزلت عليه الماء وفتحت له الأنابيب الشعرية يتمتع كما يشاء من خصب الأرض وعناصرها فيصطفي ما يشاء ويختار. وخلقت الحيوان وأغدقت عليه النعم، وكسوته بالريش والجلد الغليظ والوبر والشعر والصوف، ومددت له موائد الرزق وبسطت له بساط الأمن ورغد العيش، وفيأته في ظلال أشجارك وأسكنته في كهوف جبالك وهيأت له في أشجارك مساكن، وعلمته بلا معلمين وربيته بلا مربين، فلا يحتاج لنبي يرسل له ولا مدارس تفتح إليه ولا كليات لتخرج المعلمين ولا وزارة لسير التعليم. فهو في رغد من العيش في جناتك الفسيحات في أرضك. هذا يا الله فعلك مع هذه المخلوقات.

أما الإنسان فإنه حرم من تلك النعمة، نعمة الاكتفاء بما نظمت من الطبيعة، فأرسلت له المرسلين، وكونت له المعلمين، وخلقت له المدرسين، وأنزلت المرض والهموم بساحاته، وفتحت له باب البحث ليخرج من ظلماته ويستعد لسعادته، ونوعت له الأنواع وحسنت له الأشكال ووازنت بين حاجته النفسية والمخلوقات الأرضية، بحيث جعلت لكل داء دواء، ولكل حاسة مطلوباً، ولكل شهوة ما يناسبها، وأنصبته وأتعبته. هل كل هذا لهوانه عليك؟ كلا. ثم كلا إنك يا الله فعلت ذلك به لأنه أكرم عليك من أخويه الحيوان والنبات، تريد أن يعرف نظمك الأرضية ليطير بأجنحة معارفها إلى ساحاتك العلوية، ويقتنص من مخابئ علومها وخزائن حكمها وجواهر بحورها ما ينفعه في سفرته المترامية الأكناف البعيدة المطاف.

لهذا وحده أنزلت الديانات؟ ولهذا وحده خلق الناس، ولهذا وحده جاء القرآن، ولهذا كانت فلسفة الأولين وحكمة الآخرين، ولهذا سيعلو من بعدنا من المسلمين إذا قرؤوا هذا وأمثاله من تصنيف علماء المسلمين، ذلك هو باب المحبة والعشق، إذ لا محبة إلا بعلم صفات المحبوب، ولا علم عند الناس

إلا ما وصل إليهم من مصنفاته البهية وحكمه العلية وبدائعه البهجة، وكلما ازداد قلبه ولهاً وحباً والمحب يخشى المحبوب ويهابه، والخشية على مقدار الكمال، فالحب والخشية متلازمان. وكيف يحب الإنسان ما هان في نظره، وارتقاء المحبة يتبعها ارتقاء الخشية، ألا ترى أنك كلما ازددت من علم عالم أحسست بروحانية تجذبك إليه وخشية تغشاك منه، وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾، قال علماؤنا رحمهم الله: إن شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «إني لأخشاكم الله وأتقاكم له».

المسلمون بغفلتهم عن هذه العلوم أضاعوا أعظم قسط من الدين، ألم يسلب الله عنهم الملك ويعطيه لغيرهم؟ ذلك لأنهم لم يدرسوا نظامه الموجب للخشية كما يوجب الحب، إن الآية دالة على أنه لا يخشى الله إلا العلماء، فهم وحدهم المختصون بالخشية. فهل لك أيها الذكي القارئ لهذا التفسير أن تحث المسلمين وتحض الموحدين على التفكير والنظر. قل للعلماء: اقرؤوا سائر علوم الطبيعة والفلك. وقل للجهلاء: فكروا في كل جبل وشجر وزرع، وتأملوا واذكروا الله على مقدار طاقتكم، وقل لعلماء الدين فليغرسوا في عقول التلاميذ في إبان صغرهم تلك المحاسن والبدائع، وليبينوا لهم بعض العجائب الغريبة التي تحدث في نفوس الجهلة وصغار الطلبة تعجباً، فإن ذلك يفتح لهم باب الفكر. إن ذلك هو علم التوحيد. إن ذلك هو علم الدين.

إن ذلك هو حب الله. إن ذلك هو الموصل لله. إن ذلك هو المرقي للأمم، فحب الله وخشيته وارتقاء الأمم في الدنيا وعلو درجاتهم في الجنة ووصولهم إلى رؤية الله تعالى وتمتعهم بالنظر لوجه الله الكريم، كل ذلك بهذه العلوم، فليقلب التعليم في الإسلام شرقاً وغرباً، وليغير منهج الدراسة، وليعلم المسلمون أنهم لا سعادة لهم في الدنيا ولا في الآخرة إلا بما ذكرناه، فقد أنذرت وحذرت، فليستمع المفكرون ولينصح الناصحون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولما كان في الناس من لا يأبه بهذه العوالم ولا يفكر فيها فقلت خشيته لله ودام على ذلك، ومنهم من أناب ورجع ففكر بعد الغفلة أعقبه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ في ملكه وسلطانه يقهر من لا يخشى الله لغفلته عن صنعه ﴿ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب وخشي الله بعد الغفلة، وذلك فتح لباب الرجاء، فنحن معاشر المسلمين إذا كنا فرطنا في معرفة هذه العوالم فيما مضى فالله وعدنا بالغفران وهو يقبل التائبين.

ولما كان المقصود من نزول القرآن وإظهار هذه العجائب إنّما هو الأمة الإسلامية أردفه سبحانه بالكلام على درجة العاملين فيها فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾ يداومون على قراءته مع التفكر المقصود منه، ويدرسون هذه العوالم المذكورة قبل هذه الآية دراسة تشمل العالم كله من سماوات وأرضين وجبال وزروع ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا ﴾ في المسنونة ﴿ وَعَلَانِيَةً ﴾ في المفروضة ﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً ﴾ رأس مالها وأثمانها النفوس والأموال، فالنفوس للعلوم والتفكر والصلاة والأموال للإنفاق، والثمن المبيع هو الثواب والجنة والسفر بها إلى الله تعالى، فهي تجارة ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران، وهي تنفق وتروج عند الله ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي: أجور

أعمالهم ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ على ما يقابل أعمالهم ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾ لفرطاتهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ لطاعاتهم، أي مجازيهم عليها. وللآية وجه آخر كما سيأتي وهو الأظهر. ذلك أن يكون التالون لكتاب الله المصلون المنفقون هم الصالحون ودرجتهم أقل من العلماء المذكورين قبلهم. ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: القرآن ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا ﴾ حال مؤكدة ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب السماوية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ عالم بالبواطن والظواهر، فلو كانت أحوالك الروحية يا محمد لا تتفق مع هذا الكتاب لم ينزل عليك ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يقول الله: أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه، أي: حكمنا بتوريثه ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ يعني علماء هذه الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرها فهم خير الأمم، ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ بالتقصير في العمل به أو بالكفر، أو من رجحت سيئاته على حسناته، أو التالي للقرآن الذي لم يعمل به، أو أصحاب الكبائر أو الجهال ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ يعمل في أغلب الأوقات أو يكون مرائياً بالعمل، أو من استوت حسناته وسيئاته، أو التالي للقرآن العالم به أو أصحاب الصغائر ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ بضم التعليم والإرشاد إلى العمل، أو المؤمن المخلص، أو من رجحت حسناته على سيئاته، أو من باطنه خير من ظاهره، أو التالي للقرآن العالم به العامل بما فيه، أو الذي لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة، أو العالم. واعلم أن هذه المباني لا تنافي بينها، فكل خصلة من الخصال فيها سابقون ومقتصدون ومقصرون. فالسابقون يدخلون الجنة بغير حساب، والمقتصدون يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا فهم يحبسون في المحشر ثم يرحمون.

ثم أشار إلى إيراثهم الكتاب واصطفائهم فقال: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ مبتدأ ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ خبر، والضمير لـ«الذين» ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ خبر ثان ﴿ مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ جمع أسورة جمع أسوار، أي: بعض أساور مصنوعة ﴿ مِن ذَهَبٍ ﴾، وقوله: ﴿ وَلُؤْلُؤًا ﴾ عطف على محل «من أساور»، أي: يحلون أساور ولؤلؤاً ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ من خوف العاقبة ومن أجل المعاش والآفات والوساوس الشيطانية ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ ﴾ للمذنبين ﴿ شَكُورٌ ﴾ للمطيعين ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ ﴾ دار الإقامة ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ من إنعامه وتفضله ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ كلال إذ لا تكليف فيها، وقد نفى ما يتبع النصب من الكلال بعد نفيه للمبالغة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿ فَيَمُوتُوا۟ ﴾ فيستريحوا ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغ في الكفر أو كفران النعم، ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ يستغيثون قائلين: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فهم متحسرون على ما أضاعوا أيام حياتهم، فأجابهم الله قائلاً: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ يوبخهم الله سبحانه على أعمار تنقضي بلا تفكر ولا اعتبار، كأنه يقول: أأهملناكم ولم نعمركم تعميراً يتذكر فيه من تذكر؟ وهو يتناول كل عمر وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم. فإذا قيل: هو ثمان عشرة سنة أو أربعون سنة أو ستون سنة، فذلك ليس

حصراً ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام أو الشيب، يقول الله: عمرناكم وجاءكم النذير ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ العذاب ﴿ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ يدفع العذاب عنهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لا يخفى عليه خافية فيهما، ثم علله بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ وإذا علم دقائقها فعلمه بغيرها أولى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يلقي إليكم مقاليد التصرف فيها ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ أي: جزاء كفره ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ المقت أشد البغض والخسار يكون في الآخرة، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ﴾ أي: آلهتكم التي أشركتموهم في العبادة ﴿ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة، أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ﴾ أي: أمعهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. ولما نفى أنواع الحجج في ذلك أضرب عنه بذكر الأسباب الداعية إلى ذلك وهو تغرير الأسلاف والرؤساء للأخلاف والتابعين، فقال: ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ بأن يقولوا لهم: إن هؤلاء شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ كراهة ﴿ أَن تَزُولَا ﴾ لأن الإمساك منع لهما عن الزوال من الوجود ومن مداراتهما. فجميع العوالم من الأرض ومن الشموس والأقمار والسيارات تجري في مدارات خاصة، ولولا الميزان الذي وضعه الله في السماوات والأرض الذي يعبر عنه علماء العصر الحاضر بالجاذبية لاختل النظام ولتحطمت هذه الكرات المشاهدة وزالت نظمها وساءت حالها، فبالميزان اتزنت وبالنظام ثبتت في أماكنها واستقرت في مداراتها ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ ﴾ على سبيل الفرض ﴿ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ أي: ما أمسكهما أحد من بعد الله أو من بعد الزوال ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لا يعجل بالعقوبة، حيث أبقى من يستحقون العذاب إلى أجل مسمى، ولم يهد الأرض والسماوات عليهم هداً.

هذا، ولقد كانت قريش قبل مبعث النبي صلى اله عليه وسلم تقول: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ أي: جاهدين في أيمانهم ﴿ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾ أي: من واحدة من أمم اليهود والنصارى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مَّا زَادَهُمْ ﴾ النذير ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ تباعداً عن الحق، وقوله: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾ مفعول لأجله ﴿ وَلَا يَحِيقُ ﴾ ولا يحيط ﴿ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ وهو الماكر كما حصل لقريش في الغزوات ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ ﴾ ينتظرون ﴿ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ فلا تغير سنة الله في انتقامه من المكذبين، فلا يجعل غير التعذيب بدله، ولا ينقلها من المكذبين إلى غيرهم، وهكذا سائر السنن ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ استشهد عليهم بما كانوا يشهدونه في مسيرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين ﴿ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ ﴾ أي: ليسبقه ويفوته ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا ﴾

بكل شيء ﴿قَدِيرًا﴾ على كل ممكن ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ ظهر الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نسمة تدب عليها ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم على أعمالهم. انتهى التفسير اللفظي.

لطيفة في هذه الآية

يقول الله: لو أني آخذت الناس بظلمهم وكنت طالباً منهم ما فوق طاقتهم بحيث يكونون أبراراً فضلاء في جميع أعمالهم لم أخلق ما على الأرض من حيوان، وبالتالي لم أخلق نباتاً ولا معدناً لأن النبات مقدم على الحيوان، والحيوان مقدم على الإنسان، والمقصود الأعظم هو الإنسان، ولذلك كان عدده قليلاً على سطح الأرض، فهو كالسمع والبصر والحواس في جسم الإنسان، فلو أني أؤاخذه بظلمه لمنعت وجود الدواب وما تقدم عليها وهكذا الإنسان، ولكن هذا الإنسان في عالم ليس مرتقياً كثيراً فكان أهله غير كاملين، ومتى نقلوا من الأرض نظرت في أمرهم ووضعتهم في أماكنهم المعينة لهم قبل صعودهم من الأرض. وإذا كنتم أعددتم للأجنة في الأرحام قوابل ومراضع وأعددت أنا لهم اللبن في الأمهات وحننت الأمهات عليهم؛ فهكذا في العالم الذي سترحلون إليه جعلت الملائكة يستقبلون الراحلين من عالمكم ويعاملونهم معاملة الآباء للأبناء، أو معاملة السجانين للمسجونين على حسب المراتب والدرجات، فهذا العالم ليس آخر مراتب الإنسانية، بل هناك درجات ودرجات. فلذلك تركنا على الأرض دوابها وإنسانها ونباتها ومعادنها، لأنها مرحلة من مراحل الوجود، فليس يطلب منها غاية الكمال، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥]. انتهى المقام الثاني.

المقام الثالث

في تفسير السورة، مراعى فيه تقسيمها

أذكر في هذا المقام ما كنت كتبته منذ سنين في تفسيرها العام، إذ جعلت ملخص السورة مائلاً أمام الفطن اللبيب، فأقول وبالله التوفيق:

اعلم أن هذه السورة تشتمل على سبع مقاصد، وفيما يلي بيانها:

المقصد الأول: وصف قدرة الله بإبداع العالم الحسي والعقلي، و بأنه منعم متفضل، وهو توطئة لما بعده.

المقصد الثاني: تذكير الناس بالنعم كي يشكروها وإفهامهم لها عسى أن لا يكفروها.

المقصد الثالث: تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم بقصص المكذبين الأولين للنبيين والمرسلين.

المقصد الرابع: نداء عام للناس أن يتخلوا عن الرذائل فلا يقربوها ويتحلوا بالفضائل فيلبسوها فلا يمتطون غوارب الهواجس، ولا يتبعون آثار الشياطين، ولينظروا فيما أبدع الله من الآيات، وما أحكم في الأرض والسماوات.

المقصد الخامس: ضرب الأمثال لما سلف من القسمين وإيضاح الطائفتين: الكافرة والمؤمنة.

المقصد السادس: تقسيم المؤمنين من حيث النظر إلى قسمين: علماء محققون، وصالحون متقون. ثم تقسيمهم من حيث العمل إلى ثلاثة أقسام.

المقصد السابع: وصف الكأس التي يتجرعها الكافرون والتي يشربها المؤمنون، والثمرة التي جنياها من جنة عالية أو نار حامية.

المقصد الأول

قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[فاطر: ١]

إلى قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[فاطر: ٢]

فطر الله السماوات والأرض وأبدعهما بلا مثال احتذاه ولا مرشد هذه، وفصل العالم نوعين: حسياً يراه المبصرون. وعقلياً لا يدركه إلا المستبصرون من ملائكة ذوي أجنحة تقويها على أن تصعد إلى العلا وتنزل إلى الثرى لتنظيم العوالم ووحي الأنبياء وإلهام العلماء وإنذار الألباء وتذكير الصلحاء وتبشير الأتقياء، وكم له من نعمة يزيدها ورحمة يرسلها، حتى رأينا المحسوسات من الماديات يمتاز بعضها بجمال وآخر بقوة وسلطان وآخر بعبالة الجثمان، كما ترى من الفرق بين الكوكب والدر والحصى والصخر والفيل والذر والبر والبحر والنخلة والقطمير والتمرة والنقير. ذلك لأنه يزيد في الخلق ما يشاء، وإذا منح من لدنه رحمة جرت إلى مداها وإن أمسك فمن ذا ينالها أو يراها؟.

المقصد الثاني

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[فاطر: ٣]

ما أظهر مراد هذه الآية وما أسهل فهمها على المبتدئين!.

المقصد الثالث

قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾[فاطر: ٤]

يقول لئن كذبك الجاهلون فكم من نبي كذب ورسول أوذي فصبر، فرجع الأمر لله، فكانت عاقبته النجاة وعاقبتهم الهلاك والعذاب.

المقصد الرابع

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾[فاطر: ٥]

إلى قوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[فاطر: ١١]

أبان في مبدأ القول نظام العالم إجمالاً وأن منه محسوساً ومعقولاً وغائباً ومشهوداً. وطلب شكر النعمة، والحمد لله على إفضاله وطيب قلب الداعي عن بصيرة ليشرح فؤاده ويوضح مراده. أخذ يذكر الناس بآيات الأنفس والآفاق، ويقول: لا يغرنكم القريب العاجل، ولا يحجبنكم بهرج زينة الحياة عما وعدناكم بعد الممات، وإياكم أن تغركم العاجلة فتذروا الآخرة، وإياكم أن تقربوا الشهوات فما أشد سعيرها وما أكثر ضرها! وهل يستوي من استحسن قبيح الذنوب ومن أدرك ما فيها من العيوب؟ كلا. ألا إن القدر عم كليهما والقضاء سجل كتابيهما، فلا تهلك نفسك من الحسرة ولا تكن

جزءاً بالمرة. فإذا خلصت السرائر وتزكّت القلوب ونارت الضمائر فما أحراها أن تنظر السحب وعجائبها وكيف تسيرها الرياح وتزجرها وتسقي الأرض فتنبت أشجارها وينمو زرعها.

ذلك عجب نقش على طرسه ونطق لسان حاله بوصف الله بالحكمة البالغة والقدرة الشاملة وأن لا تعجزه الرمم البالية أن يردها حية صالحة وكيف لا يقدر على إحياء الأموات من أحيا الأرض الموات، إن في ذلك لآيات، فمن اشرأب إلى العز فكيف يطلبه من سواه. أو رام الشرف فمن ذا يهبه إلا الله. وهل لغيره عزة فيعطيها أو ممالك من نفسه فيهب منها ويسديها؟ فاطلب العزة بالعلوم وفهمها والأعمال وإتقانها، والعلم بلا أعمال أشجار بلا أثمار. الإيمان صاعد لله والعمل الصالح يقوي دعائمه ويثبت فضائله، إلا أن العمل الصالح يرفع الإيمان وبهما يسعد الإنسان.

وإذا كان الطين والتراب ترقيا بالأسباب وصعدا بالاصطناع إلى أن صارا ذكرناً وإناثاً وبنين وبنات ونساء والدات وعقولاً فاضلات، فهكذا ترقى النفوس إلى الملك القدوس وتصعد الأرواح إلى معارج الفلاح.

المقصد الخامس

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[فاطر: ١٢] إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[فاطر: ٢٦].

لما أبان سبحانه المؤمن والكافر وحكم ببطلان مكر أحدهما وفساده ورفع أعمال الأول ورشاده أتبعه بضرب الأمثال كما هي سنة القرآن، فضرب المثل تابعاً لبيان الحقيقة ولإنارة الحجة فشبههما بالبحرين: هذا عذب فرات يكسر العطش بعذوبته، وهذا ملح أجاج يحرق بملوحته، ومن كليهما نصيد السمك وفيهما تسير السفن ونغوص على الدر وهكذا. هما يشبهان في ذاتهما الأعمى في الضلالة عن طريق الرشاد والبصير في الهداية، وصفاتهما أشبه شيء بالظلمات والنور وداراهما في المآل كالظل الظليل وحر السموم.

ثم ارتقى إلى نهاية التمثيل وغاية التحقير والتبجيل فسماهما أحياء وأمواتاً ورتب عليه أن قال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[فاطر: ٢٢]. ومن عجب أن يتخلل هذه الأمثال أمور ذات بال كالاستطراد بذكر الحلية ولبسها ولحوم السمك وأكلها وسير السفن وحملها والتجارة وعلمها وشكر الله على نيلها، ثم الانتقال من المسبب إلى السبب ومن السفلي للعلوي، فكم للسفن المواخر في البحار من علاقة بالكوكب السيار والفلك الدوار. هل تهب الرياح في البطاح إلا بإرسال الحرارة الشمسية فتمددها وهي تسوق السفائن وقد انتفخت القلوع وجرى السفين في البحر الملح أو النهر العذب وهما يجريان في مطارح شعاع الشمس والنجوم، ولولا الحرارة لكان النهر ثلجياً والرياح راكدات والسفن راسيات غير مسافرات.

فلذلك ذكر الإبداع بإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل باقتراب الشمس وابتعادها، فلقد يكون النهار ستة أشهر والليل مثله، وقد يتبادلان الزيادة والنقصان من ساعة إلى يوم إلى أيام إلى

شهور. ومن عجب أن لا يزيد أحدهما إلا ما نقص من الآخر، ولا يتساويان إلا في يومي الاعتدال، كما أنهما متساويان على مدى الزمان في خط الاستواء، فالليل والنهار مستويان إذا حسبناهما على مدار السنة ومختلفان في فصول الصيف والشتاء والخريف والربيع، وهل لأحد غير الله فيهما من قطمير؟ ما أشد فقر الإنسان بل هو أفقر الحيوان وسائر المخلوقات.

إن الفقر للإنسان مقصور عليه، فهذه البحار وحليتها والأنهار وسمكها والسفن وحملها والرياح وقوتها والعواصف وثورتها والكواكب ودورتها والشمس وحرارتها. كل ذلك يحتاجه الإنسان، وعلى المسلمين أن يعلموا ويعملوا ما يصلحون به حياتهم ويجلبون قوتهم ويرفعون رؤوسهم بين العالمين، وهل بعد قول الله تعالى: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[فاطر: ١٢] بتاء الخطاب بيان؟ لقد جهل المسلمون في هذه الأيام معادن الشرف وأماكن الغنى والنعمة فناموا على وساد الراحة ولم يفكروا في المرجان النابت في قيعان البحار وغفلوا عن الدر المخزون في أصدافه. وقليل من المسلمين اليوم من استيقظ لهذه الأفعال. فهذه المعاني هي التي تخللت خمسة الأمثال للفريقين المؤمنين والكافرين، وهذه من أعاجيب القرآن ومن هنا فلتفهموا عجائبه ولتدركوا غرائبه فلم يبق إلا تصوير حال المؤمنين لشدة العناية بهم.

المقصد السادس

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾[فاطر: ٢٧]
إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر: ٣٢]

هنا قسم المؤمنين إلى طائفتين وأرجعهم إلى قسمين: فمنهم المفكرون والحكماء والمحققون الذين تغلغلوا في هذه العوالم فعرفوها وذاقوا لذة العلم واستحلوها وتبينوا اختلاف الأشكال والألوان وتفاوت الثمار وتخطيط الصخور في الجبال وتباين أشكال الحيوان وعجائب النبات ودرسوا العلم وعقلوه فعرفوا الله ونصروه. فهل يخشى الله سواهم أو يعرف مقداره إلا هم؟ ومنهم الذين تلوا الكتاب وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فأولئك هم الصالحون. والأولون هم العلماء الوارثون، فأولئك أقرب إلى الله في عليين وهؤلاء في رياض الجنة فرحين. ثم إن المؤمنين أجمعين إما سابقون عالمون متقون معلمون، وإما مقتصدون عاملون في أكثر الأوقات. وإما ظالمون مقصرون في الأعمال. فهذا تمام الوصف الذي وصف به المؤمنون فلم يبق إلا ذكر الجزاء للفريقين من مؤمنين وكافرين وهو:

المقصد السابع

قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[فاطر: ٣٣]
إلى قوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[فاطر: ٣٨]

وصف الجنة وحليها من أساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ وحلل الحرير وما يعلنون من المسرة ويظهرون من الفرح واللذة، ووصف أهل النار بالاستغاثة والاصطراخ وتيئيسهم من الرجوع للحياة الدنيا وتبكيتهم بتقصيرهم أيام الإمكان.

ثم ختم السورة بجوهرتين زهراوين وياقوتتين حمراوين من إتقان النظام واصطلاحه العام، ومن تدمير الناس وإفسادهم في الأرض فهو مصلح وهم مفسدون. ولقد كانوا خلفاء في الأرض وما أجدرهم أن يتخلقوا بأخلاقه ويسيروا على الصراط المستقيم فإنه عز وجل نظم جواهر النجوم الزاهرات والكواكب السيارات وربطها بأسباب، وأرسل لها من لدنه رحمة فأمسكتها، ومحبة فحفظتها، فدارت في مداراتها وجرت في أماكنها واجتذبها جذباً لطيفاً بمواسك من التعاشق سماه علماء المحسوسات «جاذبية»، وتلك المواسك تمسكها لئلا تزول عن مداراتها وتختل في نظامها، ولولا ذلك لتفرقت أيدي سبأ، وطاحت شذر مذر، فباد الوجود وهلك الموجود، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إلى قوله: ﴿حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وإيضاح الجوهرة الثانية إن الناس أفسدوا وما أصلحوا وعجزوا أن يعقلوا عجائب النظام وبدائع الإتقان، فاتخذوا لله أنداداً وعبدوا أوثاناً فباؤوا بالغضب صاغرين ورجعوا بالمقت محرومين، وإذا عاهدوا عهداً نبذوه وإن حلفوا أن يتبعوا رسولاً إن جاءهم لم يتبعوه، وطباعهم الكبرياء وشأنهم الإباء، فهلا ساروا في الأرض فدرسوا أحوال الأمم الظالمة والأجيال البائدة، وهم كانوا أكثر منهم عدداً وأعز منهم نفراً، طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بطوله، ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ [النمل: ٥٢]، وجماعاتهم للأقدار جاثية، ألا إن عاقبة البغي لهم ودائرة السوء تدور عليهم، ولولا رحمة الله الواسعة أحاطت بهم لأبدنا كل نسمة، ولكننا نؤخرهم إلى أجل معدود لأن رحمتنا أوسع وفضلنا أعم، فليتمتعوا أياماً في ساحات رحمتنا، ولنوردهم موارد الهلاك بعدلنا جرياً على ناموسنا العام وعدلاً في النظام، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٣٩] إلى قوله: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠]، وقوله: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] إلى آخر السورة.

آيات العلوم أربع عشرة وهي:

قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ١] إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩] إلى قوله: ﴿مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [فاطر: ٢٧] إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٤] إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

العلوم: علم الحساب والجو والرياح والزراعة وعلم الحياة وعلوم البحار والسفن وهي لا تسير إلا بعلم الفلك والهيئة والتقويم والتلغراف البري والبحري والهوائي ومعرفة الجاذبية العامة وجغرافية البلاد وتاريخ الأمم للاعتبار. فهذه العلوم مما يجب وجوباً كفائياً أشارت لها هذه السورة، ولقد تركها المسلمين وقام غيرهم بها، فالعذاب عليهم جميعاً واقع في الدنيا والآخرة ما له من دافع ما لم يسمعوا قول الناصحين، وكل ملوم حتى يتم النظام العام في ديار الإسلام.

آيات الأخلاق سبع وهي:

قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾[فاطر: ٥] إلى قوله: ﴿ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[فاطر: ٦].
وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[فاطر: ١٥] إلى قوله: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[فاطر: ١٨].
وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾[فاطر: ٢٩] إلى قوله: ﴿ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[فاطر: ٣٠].

الأخلاق تزكية النفس من الرجس وتخليصها من الإثم واعتبار أن الحياة الدنيا طريق والآخرة مقر وأن على كل امرئ إثمه، وأن يقوي المرء إرادته ولا يتكل على أحد إلا الله بالعمل الصالح، فليذر المرء الكسل وليدأب في العمل وليخش الله وليقم الصلاة. اهـ.

مقال عام: في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾[فاطر: ٢] الخ وفيه مقامان:

المقام الأول: فيما يفتح الله على الناس، وهو إما فتوح باستخراج ما في العناصر الأرضية من منافع وعجائب، وإما بكشف خيرات كانت خافية على الناس في الطبيعة فظهرت لهم.

المقام الثاني: ما يمسكه الله فلا يفتحه للناس رحمة بهم وهو أعلم بما ينفعهم.

ففي المقام الأول فصلان: الفصل الأول: فيما فتح الله به على الناس باستخراج ما في العناصر الأرضية وذلك.

جوهرة في قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[فاطر: ٢]

العناصر

اللهم إنك أبدعت نفوساً من النور وكونتها من الجمال فأشرقت وابتهجت وبها أضاءت حواسنا واستنارت مدننا وأشرقت الأرض بنور ربها كما أشرقت أرواحنا، فالأرض مشرقة وأرواحنا مشرقة ولكن إشراق العوالم التي تحيط بنا على قسمين: إشراق ظاهر تدركه الحواس وإشراق باطن لا تدركه إلا العقول، فأما الإشراق الظاهر الذي تدركه الحواس فقد اشترك فيه الحيوان والإنسان. فأما الإشراق الباطن الذي اختص بالإنسان فهو ما خزنته في عناصر المادة من النور المتراكم المتلألئ المستور عن أعيننا المخبوء الذي منعته عن الإبصار ولم تعطه للناس إلا بعد طلبه والجد في تحصيله وشوقت نفوساً ونفوساً إلى استخراجه والاستضاءة به.

ماذا نقول يا الله في عوالمك التي أحاطت بنا، ماذا نقول في جمال رائع وحسن باهر، ماذا نقول وقد أودعت في هذه الدنيا عجائب؟ عجائب تحس بها حواسنا ولا تفقهها عقولنا إلا بعد النصب والتعب ونسمعك تقول: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، ونسمعك تقول أيضاً: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ٩].

أنت وعدتنا أن نعرف وقرنت الوعد بأن أمرتنا بالحمد، والحمد يستوجب معرفة النعمة، ومعرفة النعمة لا تتم إلا بمعرفة سابقة، فالمعرفة شرط للحمد فلا بد من المعرفة حتى يتم الحمد. نحن نحمد على ما نعرف وهذه المعرفة تستدعي معرفة أخرى، وهذه الأخرى يتبعها الحمد، وهكذا معرفة معها حمد يتبعها أخرى. إذن شرط المعرفة اللاحقة أن تتقدمها معرفة سابقة تحث عليها، فإذا لم تكن

معرفة سابقة عدمنا اللاحقة وهذه حال المسلمين في القرون المتأخرة، نظروا الهواء والماء والملح فلم يظنوا فيها خيراً إلا ما تعرفه العامة، ولم يبحثوا عن سر هذه المخلوقات مع أنك ذكرت في قصة سليمان المذكور في مقام آخر أنك سخرت له الريح.

فالريح سخرت لسليمان ثم قلت: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[ص: ٤٠]، إذن الذي سخرت له الريح أعطاه الله زلفى وأعطاه حسن مآب. فلننظر في الهواء الذي به يكون الريح. نظرنا فوجدنا أن هذا الهواء مركب من نيتروجين وأوكسوجين ومعهما بخار الماء وكربون « فحم »، فلفظ نيتروجين كلمة إنكليزية يرادفها بالفرنسية آزوت، فهذان العنصران منهما يتركب الهواء والنيتروجين نحو أربعة أخماس الهواء، فكل أربعة أجزاء من النيتروجين معها جزء واحد من الأكسوجين. ومعلوم أن الأكسوجين أحد جزئي الماء أيضاً.

هذا النيتروجين الذي هو أهم أجزاء الهواء. ذلك الهواء الذي يحمل السحاب وبه تسير السفن في البحار ويهب على بيوتنا فيطرد المواد والحيوانات الذرية الضارة بنا، وهكذا ينشر ضوء الشمس على الأرض ولولاه لكان ضوؤها خاصاً بما يحاذي قرص الشمس، وبه يكون لون الجو أزرق، فلولاه لكان سواداً حالكاً.

أقول: هذا النيتروجين الذي في هذا الهواء الذي هذه صفاته هو أهم جزء في حياة النبات، وفي حياة الحيوان هو المكون لعضلات الحيوان ولأهم أجزاء النبات. فالهواء الذي أهمه هذا العنصر يحيط بالناس من يوم أن خلقوا على الأرض ولم نعرف عنه شيئاً إلا ما ذكره الله في القرآن من أن الريح وهو الهواء المتحرك سخر لسليمان، وقد مدحه الله ولم يذمه، حتى إذا ارتقى الإنسان وكثر علمه وازدهرت الأرض رأينا السماد الذي به يسمد الزرع أهم أجزائه هذا النيتروجين. وقد وفق العلماء في الدنيا لقتل الذرات المهلكة للإنسان في الطاعون والأمراض، والله رحيم فليس من المعقول أن يوفق الناس لتقليل الطاعون ثم هو لا يعطيهم غذاء.

كلا. فإن هذه الأرض كلها مشرقة بنوره. فعقولنا من نوره والأرض مشرقة بنوره، هنالك بحث العلماء في الدنيا عن الأسمدة غير المعروفة لنا وهي فضلات الحيوان المشتملات على مقدار كبير من النيتروجين، فماذا فعلوا؟ وجدوا مناجم في جزيرة شيلي وفيها مادة تسمى « نترات الصوديوم » فهي مركبة من النتروجين والصوديوم، وقد استخرجوا منها ٧٠ مليون طن ولكن علموا أن هذا المورد قليل لا بد من فنائه، فمن أين يأتون بالسماد الذي يكفي الأرض؟ لأن نوع الإنسان كثر والدواب كانت فضلاتها تكفيه قديماً أما الآن فلا. فإذا نفذت مقادير النيتروجين المركب مع غيره من جزيرة شيلي هنالك يكون قحط عظيم في العالم لا يقله الماء والمطر بل يقله السماد. هنالك وفق الله عالماً ألمانيا اسمه « فرتزهابر » فقال في نفسه: نحن نحتاج إلى النيتروجين ولولاه لهلك كثير من الناس في المستقبل فهل من طريق بها نثبت هذا العنصر ونستخرجه من الهواء حتى تنمى مزروعاتنا به. فكما نرى أن جزيرة شيلي فيها النترات أي مركبات النيتروجين وزبل البقر مثلاً فيه ذلك. هكذا نراه في نفس الهواء وهذا مخزن لا ينفد.

هنالك رجع إلى الكهرباء فقال في نفسه : لا بد من استخدام الكهرباء . تلك الكهرباء التي لم تكن إلى عهد قريب إلا مجرد لعبة وتسلية ، وهي التي لما خطب فيها « فاراداي » خطبة قالت له سيدة : هب أن أبحاثك هذه وتجاربك صحيحة كما تقول ، فما الفائدة المرجوة منها عملاً ؟ فقال : إن قيمة هذه الاكتشافات هي كقيمة طفل ولد حديثاً لا حول له ولا طول ، ولكنه سيصير يوماً من الأيام رجلاً ذا بأس شديد ، ولما زاره « غلادستون » الشهير ومعه كبار رجال الدولة واطلع على أبحاثه سأله : ما الفائدة العملية من هذه التجاريب ؟ فأجابه قائلاً : لا يمضي زمن طويل حتى تجني منه الدولة التي تترأسونها المبالغ الكثيرة من الضرائب . ولقد تحقق قوله ، فممن استخدمها في ارتقاء الصناعة والزراعة « فارتزهابر » الذي نحن بصدد الكلام عليه بعد ذلك بنحو قرن وهو في زماننا حي يرزق فماذا فعل ؟ رجع إلى الكهرباء التي جعلوا لها فرناً اسمه الفرن الكهربائي ، وهذا الفرن الكهربائي آلة غريبة بديعة مدهشة كأنها السحر الحلال ؛ فهو مبرد ومسخن ، أما التبريد فإنه يبرد الغازات تبريداً تصير به تحت الصفر إلى درجة ٤٥٩ ، ومعنى التبريد إلى هذه الدرجة أن « فهرنسهيت » الألماني لما وضع آلة مقياس الحرارة « الترمومتر » في مخلوط الملح والجليد هبط زئبقه ٣٢ درجة عن درجة الجليد ، فتوهم أنه بلغ أدنى درجات الحرارة فدعا تلك الدرجة درجة الصفر . ولكنه بعد ذلك ثبت أن الصفر المطلق تحت صفر « فهرنهيت » بنحو ٤٥٩ درجة ، هذا معنى ما قلته لك : إن الفرن الكهربائي يبرد إلى هذه الدرجة التي هي غاية البرودة ، وبهذه الطريقة أمكن العلماء تحويل الغازات أجساماً صلبة ، وفي أمريكا يبردون الغازات التي تشبه الهواء فتجمد كما يجمد الماء بالتبريد ويبيعونها بمصر مثلاً .

هذا هو التبريد أما التسخين فإن الحرارة بلغت ١٤٠٠٠ فوق الصفر وهذه أعلى من حرارة الشمس ٣٠٠٠ درجة ، إذن الحرارة التي يتحكم فيها الصانع بالفرن الكهربائي نحو ١٤٤٥٠ درجة . فبهذه الدرجات يتحكم الصانع في الأجسام لأن الحرارة تمنع تماسك الأجسام وتباعد دقائقها فتتحول إلى بخار ، ثم ترجع الذرات إلى عناصرها الأولية ، ثم تطير من تلك العناصر بعض كهارب لأن الأجسام كلها ترجع إلى الكهرباء ، والجزء من تلك الكهارب المحللة يعادل جزءاً من ١٨٠٠ من ذرة الهيدروجين ، وهذه أصغر وحدة في هذه الدنيا ، فبهذا الفرن الذي هو أشبه بالسحر حولوا الكربون إلى الماس وحولوا الفحم إلى الجرانيت المستعمل في أقلام الرصاص ، وهذا الفرن نفسه هو الذي استعمله « فرتزهابر » في استخراج النيتروجين من الهواء واستعماله بدل السماد الطبيعي من الدواب ومن جزيرة شيلي ، وبه أصبح العالم الإنساني الآن لا يخشى من نفاذ السماد من الأرض .

ومن أعجب العجب أن ألمانيا في أيام الحرب انفصلت عن العالم فمنع عنها « نيترات شيلي » أي المركبات النيتروجية الآتية من شيلي التي كانت تعتمد عليها في تسميد أرضها ، فلولا استعانة هذا العالم بعلم الكيمياء بطريق الفرن الكهربائي وجعل هذا الغاز الهوائي جسماً جامداً تسمد به الأرض ما بقيت ألمانيا تدافع عن نفسها خمس سنين ، وهذا النيتروجين المركب كما ينفع سماداً ينفع في مركبات الكيمائية كالنشادر ومادة تسمى « النتريك » وما اشتق منهما في صنع المفرقعات في الحرب ، فهذا النتروجين نفع ألمانيا زمن الحرب في تسميد زرعها وفي قتال عدوها ، وبهذا العالم أمكنها أن تعيش

خمس سنين منعزلة كما تقدم. هذا هو الهواء وفوائده التي تنفع في غذائنا وفي قتال عدونا، فالأمر رجع إلى التبريد والتسخين، فهذا غاز وبهذا الفرن يرجع جامداً بعمليات لا يصح ذكرها لصعوبتها، ومثالها سهل: إننا نرى البخار أخف من الماء نحو ١٧٢٨ مرة والهواء أخف من الماء ٨٠٠ مرة، ومع ذلك نرى البخار صار ماء والماء صار ثلجاً والثلج نخلطه بالملح فتنزل درجته فيكون أبرد، إذن البخار الذي هو ألطف وأخف من الهواء صار صلباً، هكذا هنا النتروجين الذي هو جزء من الهواء الذي هو أغلظ وأثخن من البخار صار جسماً صلباً. فهذا أمر أمكن فهمه لنا في هذا التفسير بدون أن ننظر الفرن الكهربائي. ومع صعوبته أذكر الطريقة إجمالياً فوق ما ضربته من المثل ليقرب على الأذكياء فيفرحون بنعمة العلم فأقول:

طريقة ذلك أنهم يطلقون الشرارة الكهربائية في مزيج الأكسوجين والنيتروجين. وبعبارة أخرى: في نفس الهواء، لأن الهواء أهم أجزائه هذان العنصران، فبهذه الشرارة يتحدان أي تكون بينهما ألفة تامة كالألفة بين الأكسوجين والأودروجين إذ يتكون منهما الماء، ويقال لهذا المتحد هنا «فوق أكسيد النيتروجين»، كما قيل فيما تركب من الأكسوجين والأودروجين ماءاً، فإذا عولج فهو أكسيد النيتروجين بالماء صار حامض النيتريك. إذن النيتروجين عومل مرتين: مرة مع الأكسوجين، ومرة مع الماء حتى صار حامض النيتريك. هنا تستخدم الأفران الكهربائية ويمر في أنابيب يحيط بها الماء البارد ويعامل بالجير ويباع الناتج في الأسواق باسم «ملح النرويج» أو ملح الهواء، وباللسان الكيميائي «نترات الكالسيوم»، وهذه الطريقة تستعمل في البلاد ذات المنابع الكهربائية الرخيصة كبلاد «نروج» التي تكثر فيها مهابط الماء التي تستخدم في توليد الكهرباء من غير نفقات طائلة، والشركات في بلاد نروج تستخدم في توليد الكهرباء قوة نصف مليون حصان من القوة بالاستمرار في تثبيت النتروجين الجوي، وأن الحكومة المصرية الآن تدرس المشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان فإذا نجحت أمكن تثبيت نيتروجين الهواء بهذه الطريقة وتوفير مبالغ طائلة تستخدم بها الأيدي العاطلة.

اللهم إنك أنت متقن الصنع مبدع، أحسنت كل شيء. من ذا كان يظن أن الهواء فيه أسمدة ومفرقعات وآلات قاتلات، من ذا الذي كان يظن أن القوة الكهربائية في السلك الكهربائي الذي يحدث في الناس رعدة قد كانت مخبوءة في أكثر المخلوقات وباستخراجها أمكن تسخير الهواء لتسميد الأرض فيغذي بها الزرع كما تغذي دماءنا؟ من ذا الذي كان يظن أن الماء المنصب من أعلى كماء الجنادل والشلالات في أعلى النيل يؤثر في حياة الشعب فيرفعها؟ من ذا الذي كان يتفطن إلى أن أجزاء الهواء يؤثر فيها الكهرباء فتتحد وبمعاملتها الماء وجريها في الأنابيب ومعاملتها أيضاً بالجير تصبح ملحاً يباع في الأسواق يسمونه «ملح الهواء» إذن في الهواء ملح، الهواء الذي يضرب به المثل في أنه خال من كل شيء يستخرج الناس منه مادة يبيعونها جامدة نافعة. هذا هو الجمال الإلهي والحكمة العالية. اهـ.

هنالك لما اطلع صاحبي العالم الذي اعتاد أن يخاطبني في هذا التفسير قال: إن هذا الموضوع قد وضح وضوحاً تاماً وقد كنت أقرأ مثل هذا فلا أفهمه، وكنت أسمع أن الألمانيين عندهم سبع معامل في

بلادهم بها حولوا النيتروجين إلى آلات مهلكات، وأن تلك المعامل قد حولوها بعد الحرب إلى مصانع للسماد فكنت أعجب من هذا وأقول كيف يحول النيتروجين إلى آلات مهلكة وإلى سماد تسمد به أرضنا حتى عرفت الآن فلله الحمد.

هذا ولكن الآن أريد مسألة أخرى، أنت ذكرت الملح أيضاً مع الهواء فأي شيء في الملح فوق ما قرأنا في هذا التفسير سابقاً؟ فقلت له: فيه عجائب كثيرة بطريق الكهرباء، فقال: وما هذه العجائب فإنني والله لفي شوق شديد لما تقول؟ وإنّما كان ذلك الشوق لأني أدهش إذ أرى الهواء الذي يملأ هذا المكان يخاطبني الآن ويقول لي: أيها الإنسان. أنا كما أحمل لك الروائح الذكية لسرورك والخبيثة لتحترس منها، وكما أحمل طلع الأزهار من ذكورها إلى إناثها، وأحمل إليك كلام من يكلمك فتعقله وتفهمه هكذا أنا أدخل جسمك وجسم الحيوان أغذيكم جميعاً وأغذي نباتكم.

هذا هو الهواء يحدثني عن نفسه ويقول: أنا أحمل العلم في الكلمات اللاتي هن حركات تسمونها أنتم أصواتاً فيّ. فهذه الكلمات أنا أحملها وأوصلها من العالم إلى المتعلم. فأنا نعمة من حيث لقاح الأشجار وجري السحاب وسماع العلوم والأخبار. وفوق ذلك أنا أدخل في تركيب أجسام الأحياء فأكون لهم عضلات.

قال صديقي: فلما سمعت هذا من الهواء زاد تعجبي ودهشي. فرجع الهواء يقول لي أيضاً: فإذا لم تعقلوا هذه النعمة فوالله ليحولن الله النيتروجين الذي فيّ ويجعله آلات مهلكة لأجسامكم مخربة لمساكنكم كما خربت مساكن عاد وثمود.

هذا خطاب الهواء لي الآن سمعته، فهل تحدثني حديثاً آخر عن الملح عسى أن أسمع عنه خبراً يسرني فأسمع خطابه لأن لذة الحياة أن نسمع خطاب هذه المخلوقات حولنا، ومن لم يسمع مات أصم جاهلاً، وأكثر الناس صم بكم عمي فهم لا يعقلون. فقلت:

الملح وفوائده

إن الملح تقدم عليه الكلام في آخر سورة «آل عمران» وإنه مركب من الكلور والصوديوم، والكلور جسم رائحته مفطسة مميتة مهلكة والصوديوم تقدم وصفه قريباً في هذه السورة وهو جسم يحترق متى لامس الهواء فيتركونه في الماء ومنهما تكون هذا الملح، فهذا الملح يكثر في ماء البحر وفي بعض طبقات الأرض ومتى مر التيار الكهربائي في محلوله المائي كما مر في النتروجين مع الأكسوجين كما تقدم يخرج منه ثلاث مواد مهمة: أولاً: الكلور، ثانياً: الهيدروجين، ثالثاً: الصودا الكاوية.

فهذه المواد الثلاث يستخرج الناس منها اليوم قناطير مقنطرة كلها من نفس ملح الطعام المحلول في الماء، ويظهر ذلك عند شلالات «نياغرا» بأمريكا. فقال: كلمة كلور غير معروفة عند قراء التفسير. فقلت له: ولكن فوائدها عظيمة فمنها:

(١) إنها تضاف إلى ماء الشرب فتطهره من الجراثيم القاتلة لا سيما جراثيم الحمى التيفوذية، فقد كان هو السبب في منع انتشار ذلك الداء الفتاك وقطرة منه واحدة تكفي لقتل الجراثيم في ثمانين لتراً من الماء.

(٢) ومنها أنه أي الكلور يضاف إلى الجير فيكون منه مادة تزيل ما في المادة التي يصنع منها الورق من الألوان فتفسخها ويصير أبيض.

(٣) ومنها أنه يضاف إلى مواد أخرى فينفع في الطب وهو الكلوروفورم فيحدث التخدير، فهو إذن قاتل الحشرات مبيض الورق مخدر الإنسان في حال الأعمال الجراحية.

(٤) ومنها أنه هو نفسه غاز سام استعمل في الحرب.

(٥) ومنها أنه يوضع مع مواد أخرى تكون منها غازات وأبخرة سامة.

(٦) ومنها أنه يدخل في المفرقعات.

(٧) ومنها أنه يدخل في تركيب المواد المهلكة للحشرات في فن الزراعة.

سبحانك اللهم. تباركت يا الله. ملح الطعام الذي أمامنا نأكله ونراه كل يوم يصبح مطهراً لشرابنا قاتلاً للحيوانات التي تقتل الآلاف الآلاف منها، الملح إذن قاتل للحيوانات القاتلات لنا، مبيض لورقنا منظف له مزيل الآلام عن جرحانا.

مهلك للأعداء في الحرب، إذ يكون غازاً ساماً أو بخاراً متحداً مع مواد أخرى مخرب للمباني. فهل يقتل الأعداء من نوع الإنسان ومن الحيوان محافظة على سلامة الأبدان، فقال صاحبي: زدنا من هذا.

فيا سعد حدثنا بأخبار من مضى — فأنت خبير بالأحاديث يا سعد

نحن عرفنا فوائد الكلور الذي هو أحد جزءي الملح. فما فوائد الهيدروجين. وما فوائد الصودا الكاوية التي حللناها من الملح مع ما ذاب فيه من الماء. فقلت:

الهيدروجين

أما الهيدروجين فإنا إذا أحرقناه في الهواء فإنه يتحد بالأكسوجين ويتكون منهما الماء ويبقى الآزوت أي النتروجين، ويتحد هذا الغاز الأخير بالهيدروجين في أحوال خاصة فيتولد من اتحادهما غاز النشادر المستعمل في صنع الجليد.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: ما معنى هذا؟ قلت: معناه أننا لما أمررنا التيار الكهربائي بالملح المذاب في الماء وانفصل الكلور والهيدروجين والصودا الكاوية أخذنا ندرس الكلور فعرفنا صفاته وفهمناها. قال: نعم. قلت: فأما الأدروجين فهو أحد العنصرين اللذين يتكون منهما الماء فلما أحرقناه في الهواء والهواء فيه الأكسوجين أيضاً وجد في الهواء حبيبه. قال: ما معنى هذا؟ قلت: إنه وجد في الهواء حبيبه وهو أكسوجين الهواء كما قال الشاعر:

جمع الهواء مع الهوى في مهجتي — فتكاملت في أضلعي ناران

فقصرت بالممدود عن نيل المنى — ومددت بالمقصور في أكفاني

فقال: ما معنى هذا؟ قلت: سافر الشاعر إلى محبوبه في سفينة فقاومه الهواء الجوي ولم يسعفه فمات بسبب الهوى المقصور بعد ما عاقه عن الوصول الهواء الممدود لأنه لم يصل لمحبوبه. ثم قلت: فهكذا هنا الهيدروجين قبل أن نحرقه في الهواء. نظر فوجد محبوبه الذي يتحد به عادة وهو الأكسوجين

مقيداً في الهواء مع النتروجين فظن أنه سيعيش في حسرة ولوعة وقد عاقه الهواء عن حبيبه، فلما أحرق في الهواء وجد الفرصة سانحة فاتحد مع حبيبه وكونا الماء مرة أخرى. فالهيدروجين قبل الاتحاد أصبح كأنه مد بالكفن بسبب الحب، وأن غاية العاشق أن تتحد روحه بالمحبوب، فأما الشاعر فإنه مات بسبب الفراق. فاتحاد الروحين مطلوب الحب كما قيل:

أعانقها والنفس بعد مشوقة	إليها وهل بعد العناق تداني
وألثم فاها كي تزول حرارتي	فيزداد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله	سوى أن يرى الروحان يتحدان

فالهيدروجين هنا كان كأنه في كفن قبل الاتحاد الذي هو المطلوب للمحبة وهذا المعنى آخر ما قرره العلامة الشيرازي في الأسفار.

فقال: هذه المعاني أدبية فلنرجع إلى ما نحن فيه. فقلت: نعم، لما اتحد الهيدروجين بحبيبه وهو الأكسوجين اعتزلهما العذول وهو النيتروجين. والنيتروجين نفسه يتحد بالهيدروجين بشروط خاصة فيكون منهما النشادر المستعمل في صنع الجليد.

فقال صاحبي: الله أكبر. إذن الهيدروجين الذي هو أحد عنصري الماء إن اتحد مع الأكسوجين صار ماء وإن اتحد مع النيتروجين صار نشادراً.

فقلت له: نعم. وأهم فوائد النشادر أن يستعمل السماد للزرع. فمن مركباته كبريتات النشادر ومنها فوسفات النشادر. وهذه المركبات ترسل إلى البلاد الزراعية كمصر تغذي شجر القطن. قال: حسن إذن الملح الذي حللناه بالكهرباء أفادنا السبع الفوائد المتقدمة ثم أفادنا النوشادر الذي فيه النيتروجين سماداً للزراعة وهذا ثامن الفوائد.

وهاك تاسعها وهو: إن القطن إذا أصيب بأمراض يطهر بمواد كيماوية مثل مادة زرنيخ مركب مع الكلسيوم، وهذه المادة لا تحضر إلا بواسطة الكلور المتقدم. وعاشرها أن القطن بعد غزله يحتاج إلى ما يقصره أي يبيضه. ولا سبيل لذلك إلا بغاز الكلور أو بمسحوق آخر يدخله الكلور. وحادي عشرها أن الناس في حاجة إلى جعل خيوط القطن لامعة كالحرير. ولا سبيل إلى ذلك إلا أن تعالج بمحلول الصودا، وهو المادة الثالثة التي حصلنا عليها لما سلطنا الكهرباء على الملح كما تقدم، فيصير القطن بهذه الطريقة أبيض ناصعاً براقاً. وثاني عشرها إذا أردنا صبغ القطن بالسواد أو بغيره من الألوان استعملنا أصباغ القطران، وهذه الأصباغ لا تحضر إلا إذا كان من عوامل ذلك العمل «غاز الكلور». فهذه اثنتا عشرة فائدة انتفع بها الناس وكلها ناجمة من الملح وحده، ذلك الملح الذي يأكله الناس وأكثرهم لا يعقلون إلا ما تحس به حاسة الذوق للطعام لا غير.

تباركت يا الله، جمال بديع وحسن وبهجة في هذا الوجود، ملح منبوذ، قليل القيمة، كثير الوجود لا يأبه له الناس نستخرج منه هذه الفوائد، فهو يقتل الحيوانات الذرية القاتلة لنا، ومنه غاز لإهلاك العدو ومفرقعات، وهو منظف مبيض للقطن الخ. وهكذا الصودا التي جعلت القطن أشبه بالحرير، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤].

فقال صاحبي: هذا جميل وجميل، فهل من معدن آخر تصفه لنا؟ فقلت: لم يبق في ذاكرتي إلاّ

الألومنيوم

هذا المعدن كان يستخرج قديماً من ركازه بواسطة فحم كوك فكان يعسر تخليصه من مركباته، فكان الرطل منه يباع بنحو ٢٨ جنيهاً، ولكنه لما ظهر شاب أمريكي فقير يسمى «هول» ولم يصل سنه إلى ٢٣ سنة من العمر حتى كشف طريقة لاستخلاصه من ركازه بأن سلط عليه التيار الكهربائي فانحلت الكتل إلى أكسوجين وألومنيوم كما ينحل الماء إلى أكسوجين وأدروجين. وهذا الشاب الفقير قبل كشف هذه الطريقة لما مات سنة ١٩٢٤ ترك ثروة تقدر بآلاف الآلاف من الجنيهات. وسبب ذلك أن الألومنيوم له هذه الصفات:

(١) هو معدن متين.

(٢) لذلك تصنع منه أواني الطبخ والمائدة.

(٣) ويقوم مقام النحاس في أعمال الكهرباء.

(٤) يجعل في الطيارات والسيارات.

(٥) تجعل منه صفائح للتفضيض لأنها تحفظ بريقها ولا تسود كما تسود الفضة في الهواء.

(٦) مسحوقه يستعمل في بعض الزيوت كدهان للحديد لمنع صدئه.

(٧) يركب مع النحاس فيكون معدنا ذهبياً إذ يكون سبيكة من النحاس والألومنيوم لها مظهر الذهب ولا تصدأ بالهواء.

(٨) والألومنيوم إذا خلط مع القصدير استعمل بدل النحاس وهو أفضل منه لأنه أخف وزناً وأقل تلفاً.

(٩) الألومنيوم يستعمل في لحم المعادن، وكان ثمن الرطل الواحد ٢٨ جنيهاً قبل الكشف المتقدم كما قدمنا فأصبح اليوم ٥ قروش.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذا جميل، إنه جميل جداً أن يصبح الهواء ويصبح الملح عجائب سحرية تدهش العقل وهكذا الألومنيوم، فماذا نقول الآن في أمة الإسلام التي قلت فيها العلوم؟ قلت: أما أمة الإسلام التي قلت فيها هذه العلوم فإن أمرها لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، قال: إذن أنت تريد أن تقول إن الأمة آثمة بترك هذه العلوم بعد ظهورها لهم. قلت: أوَتشك في ذلك؟ ألست تتذكر أن هذه فروض كفاية، ولقد ذكرتها في مواضع كثيرة من هذا الكتاب. ألم تقرأ ما نقلته عن «جمع الجوامع» وعن «الإحياء» للغزالي وهذا إجماع علماء الإسلام. فهذه علوم واجبة وتركها حرام يورث عذاب الخزي والذل في الحياة الدنيا، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].

قال: هذا أعرفه، ولكن أريد ضرب مثل توضح به هذا التحريم، فقلت: ماذا تقول في عناية الله عز وجل بحياة الناس وأموالهم؟ ألم يأمر بقتل القاتل، وتغريب الزاني وجلده أو رجمه، وقطع يد السارق؟ أليس ذلك كله محافظة على الأنفس والنسل والمال؟ قال: بلى، قلت: فإذا قطع اليد على

ربع دينار أفليس هذا معناه أنه يريد المحافظة على أموالنا كما حافظ على أنسابنا ونفوسنا؟ قال: بلى، قلت: فلو أن لك أبناء عدة وسلمت إليهم أرضك ليزرعوها، ثم قلت لهم: من أخذ من أرض أخيه زرعاً يساوي ٢٥ قرشاً آذيته أذى كثيراً، فحافظ أبناؤك كلهم على ما أعطيتهم من الأرض وغرسوا فيها الحدائق والجنات والزرع، وبقي لك ابن واحد فترك أرضه بلا زرع ولا عمل حتى صارت وحوشاً يباباً، فماذا تفعل بابنك؟ ألست تسأله وتقول له: لم أهملت أرضك؟ أفلست إذا قال لك: يا أبت إني امتثلت أمرك فلم أسرق زرع إخوتي فكيف تغضب علي؟ ألست إذن تقول له: يا بني أنت ولد شؤم، أنا قلت لكم: فليعاقب من أخذ دريهمات من مال أخيه، حرصاً على أموالكم جميعاً. فهم لما رأوني حريصاً على ثروتهم زادوها لأنهم علموا أني محب لثروتهم وغناهم لسببين: السبب الأول: أني حرمت عليهم أن يأخذ أحدهم مال الآخر. السبب الثاني: أنهم رأوني سلمت لهم الأرض، فتسليمي الأرض لهم معناه الرغبة والمحبة لهم أن تنمو مزروعاتهم. فأما أنت يا بني فلم تفهم واقتصرت على عدم الأذى ولم تراع نعمتي ولم تستثمر أموالي، ومثلك جدير بالطرد والحرمان فلآمرن إخوتك أن يملكوا أرضك ويستعملوك فيها فتكون عاملاً تأكل بعرق جبينك وهم للأرض مالكون.

أفلست تفعل ذلك مع ابنك الذي ترك نصيبه من الأرض التي وهبتها له فعطل الأرض وعطل مواهب جسمه. فلا هبتك من الأرض قام بحقها ولا ما وهبه الله من الحواس والأعضاء قام باستعمالها، فهو مطرود مبعد منك ومن الله. أليس كذلك؟ قال: بلى، قلت: فهذه حال بعض المسلمين اليوم مع الله. فالله أعطاهم أرضه فتركوها وناموا فتركوا نعمها فلم يستعملوها فألهم أمماً أن يستخدموهم في أرضهم التي ملكوها.

الحق والحق أقول: إن الأمم الإسلامية اليوم إن لم تقم بما قلته في هذا التفسير ليكونن هذا القرن آخر قرونهم ويهلكون، ولا يترك الله أرضه في أيديهم بل يحرمهم من الهواء ومن الملح ومن الماء تلك التي استخرج الناس منها هذه العجائب التي يقول الله فيها: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣].

يا الله، إنا نحمدك. عرفنا نعمك وفهمنا قولك وشاهدنا صنعك، وهاأنا ذا يا الله أكتب هذا للمسلمين، وهاأنا ذا تارك الأرض وذاهب إليك.

فقال صاحبي: أنت ذكرت مواهب الأرض. فما للهواء والماء والملح مثلاً كيف يحرمهم منها؟ قلت: الأرض ضربتها مثلاً، ولكن الهواء والملح والماء وأمثالها جهلها بعض المسلمين كما جهلوا نعم الأرض. فإذا كان الله أمر أن من قتل يقتل. أفليس هذا محافظة على أرواحنا كما قدمت؟ قال: بلى. قلت: وأنت إذا رأيت ابنك جالساً وأمامه نار تحرق بيوت وقصور أبنائك ثم هو أمامه صنبور يمكنه أن يفتحه وعنده مضخة عظيمة وهي الآلة الماصة الكابسة التي يمكنه أن يطفئ بها النار فلم يفعل ذلك، حتى احترقت تلك القصور والدور فلم يفعل ابنك شيئاً من ذلك أفليست تكرهه؟ قال: بلى، قلت: حسن. هكذا فعل الله مع المسلمين، هذا الكلور وهو في ملح الطعام أشبه بالآلة التي تطفئ النار فهو قاتل للمكروبات في حمى التيفوذ كما تقدم، والمسلم قد سمع هذا أقربه في هذا التفسير.

أفليس إذا ترك هذه العلوم يغضب الله عليه بل الغضب هنا أشد لأن غضبك لأجل نفوس أبنائك وهم يعدون على الأصابع. أما هنا فهي لمنافع أمم وأمم جيلاً بعد جيل، وأنا موقن كل الإيقان أن هذا التفسير متى انتشر هو وأمثاله يهب المسلمون مرة واحدة لحوز هذه العلوم، وإذن تصبح الكرة الأرضية لها شأن غير شأنها بالأمس، فقال: وماذا يصنع المسلمون اليوم وكثير منهم عندهم محتلون لبلادهم، فقلت: إن أكثر بلاد الإسلام اليوم مستقلة، اليمن والحجاز مع نجد وبلاد الفرس والأفغان وأمثالها، فهؤلاء من قرأ من هذه الأمم هذا الكتاب وفهمه هو وأمثاله وجب عليه أن يعلن الفكرة في بلاده بأي وسيلة كانت، بل يجعل حياته وقفاً عليها ويحمل حكومته على الإسراع بإرسال تلاميذ حالاً لدرس جميع العلوم كما فعلت اليابان، ويرسلهم للأمم المختلفة لا لأمة واحدة. وهكذا يجب على الأغنياء أن يرسلوا أبناءهم هم على حسابهم ويدرسوا تلك العلوم ثم يفتحون المدارس في بلادهم كما فعلت اليابان كما قدمنا.

فأما الأمم التي احتلها الأجانب فإن كانوا مستعبدين جداً فكلامي هذا لا يصل إليهم وإن وصل إليهم فهم لا وقت عندهم لفهمه، فأما الأمم التي احتلها الأجانب ولأبنائها ذكاء فليكونوا جمعيات وليرسلوا أبناءهم في بلاد مختلفة لتعلم العلوم، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور: ٤٦].

فلما سمع صاحبي ذلك قال: عرفنا جمال العلم والحكمة الناتجين من الهواء ومن الملح إذا سلطنا الكهرباء عليها، وعرفنا المسلمين متى قرؤوا هذا أسرعوا إليه وإن قصروا أذنبوا، ولكن هذا المقام مقام غزير الفائدة جليل العائدة، فهل لك أن تأتي لي بمثال غير ما تقدم لأنني أحس في نفسي بنور وإشراق وبهجة حين أسمع هذا القول منك، وأنا موقن أن الناس إذا قرؤوا هذا بهذا الأسلوب الذي يفهمونه زاد تعجبهم وفهمهم وارتقت بلادهم.

فقلت: إن المقال قد طال. فقال: كلا إن هذه الآية تجمع العلوم كلها فليس ببدع أن ترينا منه زهرات نشم رائحتها ونبتهج بمرآها وتنشرح بها صدورنا، فإن العلم على هذا الأسلوب نعمة ورحمة وبشرى وابتهاج لنا وروح وريحان وجنة نعيم، إني أحس بنعيم في نفسي حينما أسمع هذا الشرح والبيان. نعم أنت لست من الأخصائيين في هذه العلوم ولكن هذا التعبير أحس فيه بنور وانشراح صدور، فزدنا منه زهرة أخرى واجن لنا من بساتين العلم ثمرة أخرى لتكون لنا نوراً وسروراً وبهجة وجمالاً. فقلت: ألم تسمع بنبأ أدهش العقول وهو:

زجاج بلاس

فقال: زجاج بلاس؟ وما هو ذا زجاج بلاس؟ فقلت: زجاج بلاس زجاج له صفات غريبة وسيملأ الأرض قريباً. فقال: صفه لي. فقلت:

(١) هو زجاج قريب في منظره من زجاجنا.

(٢) زجاجنا سريع العطب، أما هذا الزجاج الحديث فإنك إذا ألقيته على الأرض وأردت كسره فإنه لا ينكسر، ولو أتيت بفأس أو قادوم ثم أخذت تضربه فإنه لا ينكسر مهما أوتيت من قوة. وإنّما يتشقق ويتحطم أما الكسر فلا، فقال: هذا عجب.

(٣) وهو تدخل منه الأشعة التي هي فوق البنفسجية من الشمس. ومعلوم أن تلك الأشعة لها مزية كبرى في الطب وزجاجنا العادي لا يسمح بدخولها، ولقد علم الناس أن عند بعض الناس نوعاً من الزجاج يدخل الأشعة فوق البنفسجية وهو غال جداً، ومعلوم أن الزجاج المعتاد مصنوع من المواد الرملية مع نحو البوتاس والرصاص، فأما الزجاج «بلاس» الجديد فإنه من مواد أخرى ولكنها قليلة الثمن.

(٤) يصنع من هذا الزجاج ألواح على صورة قشر السلحفاة وعلى شكل الرخام. ويصنعون منه أقداح الشاي وأقداح الماء فلا تحطم ولا تكسر، وقد صنعوا منه القلم الأمريكي وجهاز اللاسلكي والأسطوانات، ولا جرم أن القلم الواحد منها يكفي الإنسان طول حياته.

(٥) وسيصنعون منه تطريزاً للثياب، فإن هذا الزجاج يسهل تلوينه، فإذا غمست إبرة في هذا المحلول ونقشت بها الثياب صار لها منظر جميل بهيج بلا مشقة في العمل. وهناك شركات تقوم بتجارب في الملابس وتطريزها بهذه المادة الزجاجية الجديدة. وهنا شركة لها مصنع كبير في ضواحي مدينة «نونتجهام»، ولها مصنع آخر تام المعدات في مدينة فينا بالنمسا، وهذا المصنع عجز عن الطلبات المقدمات له لأجل ألواح النوافذ نحوها والأدوات الداخلة في أعمال الكهرباء.

(٦) إن المخترع لهذا الزجاج المستر «بالي» أستاذ الكيمياء بجامعة ليفربول هو ونجله.

هذا هو الذي أردت أن أخاطبك فيه الآن، أفلا ترى بعد هذا أن نوع الإنسان لا يزال طفلاً، فإذا كان هذا العالم وابنه سيقلب عالم الصناعة بعمل جميل أجمل من الزجاج الذي نعرفه، أفليس معنى هذا أن هذه الإنسانية طفلة الآن ولن تكون كاملة إلا إذا استخرجت القوى من جميع العقول والقوى من جميع المواد حولنا؟ أيها الناس، أنتم جميعاً في حاجة إلى علماء يحولون عقولكم عما أنتم عليه من استعباد بعضكم بعضاً إلى استخدام جميع العقول الأرضية في استخراج جميع المنافع المادية والمعنوية.

هذه الأرض مملوءة بالجمال ولكن أهلها لا يزالون أطفالاً، فإذا داموا على قولهم: شرقي وغربي وقوي وضعيف، فهم جميعاً على خطر، يجب على جميع الناس في الشرق والغرب أن يتعاونوا على استخراج عقول كعقل المستر «بالي» وليس المستر «بالي» لا نظير له، بل في بلاد إفريقيا وآسيا وجميع الأمم عقول فيجب استخراجها لتستخرج ثمرات الأرض. إن أهل الأرض جميعاً مقصرون ولا سعادة لهم إلا إذا ارتقت جميع العقول والمواهب فاستخرجت جميع المنافع في الأرض، لأن ربنا واسع وعليم وخلق لنا عقولاً، وقال: اعملوا، ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣].

مسامرة

ثم قلت: هل لك أن أحدثك حديثاً غرامياً هو أليق بهذا التفسير ليكون ترويحاً للنفس وتنويعاً للفكر وانشراحاً للصدر؟ فقال: إن ما تقدم لا تسأم منه النفس، إنه بهجة ونور وانشراح صدر لا تسأم منه النفوس ولا تأنف من الإطالة فيه الطباع. فقلت: ولكن إذا اتفقنا في الحديث ـ والحديث شجون ـ كان ذلك أعون على الدرس وأسرع للفهم وأصفى للذهن وأقرب لانشراح الصدر. فقال: أحب ذلك

فقلت: إن هذه المحادثات الصناعية العلمية التي ذكرتها بمناسبة قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ [فاطر: ٢] الخ قد كنت أحدثك بها وأنا أشبه بأهل الحب الجسمي والغرام، لأن الحب يتبع الجمال والجمال جسمي وروحي. فالجمال الجسمي في الأنف والفم والخد والعين وحسن اتساقها وجمال تركيبها. قال: نعم، قلت: وهذا الجمال الإنساني في الوجه إذا ساعده حسن الصوت وجمال الرائحة ونور العلم وبهجة الجمال والإخلاص والذكاء والحلم كان هذا المحبوب مما لا يطاق فراقه، قال: نعم. قلت: ومعلوم أن كل جميل في الأرض لم ينل كل هذه الصفات، والجمال الظاهر ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٣٩]، قال: نعم. قلت: ولذلك تجد الشاب بعد الوصال بزمن معلوم يرى أن بهجة الجمال تغيرت، وأخذت الزوجة ترضع ولدها وهو مجد في طلب الرزق، وينقلب الحب اللفظي الظاهري إلى حب قلبي هو حب المنفعة والاتحاد في أمر الحياة. قال: نعم. قلت: ومعلوم أن العالم محبوب، والشجاع محبوب والمحسن محبوب، وحب العلماء لا يزلزل، لكن حب المعشوق لظواهر الجمال يتغير سريعاً على مقتضى تغير الجمال، قال: نعم. قلت: إذن في الأرض عقول تعشق العلم وتعشق العلماء ومنهم من يعشقون خالق العلم والعلماء، لأنهم إذا رأوا جمالاً في الوجه أو في العقل أو في الخلق، قالوا: إن مبدع هذا الجمال أجمل من هذا جمالاً لم نره.

فالليث وإن لم ألقه فقد تصورت خلقه والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره

** والأذن تعشق قبل العين أحيانا **

قال: نعم. قلت: بعد هذا أقص عليك قصصاً جرى في أيامنا وهو خبر «فون شونبرج» ومحبوبته «ستوستود». قال: فما خبرهما؟ قلت: يحكى في أيامنا هذه أن «شونبرج» منذ ثلاث سنين من تأليف هذه المقالة أثناء طبع هذه السورة ذهب إلى نيويورك بالممالك المتحدة، فبينما هو سائر في المدينة إذ رأى صورة فتاة من الصور التي توضع على الحائط عادة في جميع العالم، وكانت هذه الصورة في معرض الصور، فما وقعت عينه على هذه الصورة المعينة حتى ذهل لمرآها وتعجب من جمالها، وهو رجل عنده لقب «كونت»، ومثل هذا لا شيء يشغله عن المناظر لكثرة المال عنده، ولم يجد دليلاً يدل على اسمها ولا صفتها ولا أحوالها، فأخذ يضرب في الأرض شرقاً وغرباً وهذه الصورة لا تفارقه في جميع أحواله، وبينما هو مرة في «برلين» بألمانيا إذ رأى نفس الصورة التي كان رآها في مدينة نيويورك، فالتهبت المحبة في قلبه وزاد الغرام والهيام، وأنشد قول ابن الفارض:

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

ودعت قبل الهوى روحي لما شهدت عيناي من حسن ذاك المنظر المبهج

وقد زاد به الغرام واشتد به الهيام حتى صار يغدو ويروح كل صباح على هذا المعرض ببرلين ويقف أمام الصورة كالعابد أمام محرابه، فيقف جامد الحركة لا يسمع له صوت ولا ينبس ببنت شفة مبهوتاً مسحوراً متغير اللون مشغول اللب، مكلوم الفؤاد. فبينما هو على تلك الحال إذ سمع رجلاً يقول: ما أشبه هذه الصورة بصاحبتها، فتقدم إلى المتكلم وسأله عن اسمها فقال: اسمها «ستوستود» من مدينة نيويورك، فأسرع إلى نيويورك وخطبها من أبيها فرده أهلها بلطف، أما هي فلما رأت إلحاحه

رحلت من البلاد وفرت إلى أوروبا ، فسافر هو معها ولم يفارق كل قطار يستقل بها أو بلدة تدخلها أو فندق تأوي إليه أو سفينة تقلع بها ، وكانت بلادنا المصرية خاتمة المطاف فقد جمعهما في النيل زورق ، وهما قد ذهبا معاً من أسوان إلى الشلال ، فأما هي فهذا رأيها ، وأما هو فإنّما هو تابع لها . هنالك أذن الله للعاشق أن ينال ما طلب فاتفقا معاً على الزواج ونال العاشق مراده . اهـ .

فقال : هذه نادرة عجيبة ؛ وماذا تريد من هذه القصة ؟ . قلت : إن هذا منطبق على هذا النوع الإنساني مع هذا العالم الجميل وصانعه الحكيم . إن الله فعل مع الناس ما فعله المصورون مع الناس . ألم تر أن الله قد ملأ أرضنا وسماواتنا بالصور الجميلات في الشموس والأقمار والكواكب وكل معدن ونبات وحيوان . ألم تكن الأرض أشبه بما ورد في الآثار من أن هناك يوم القيامة سوقاً تباع فيه الصور . قال : نعم . قلت : فهاهي ذه أرضنا سوق تباع فيه الصور . ومن أراد صورة نالها . إن « فون شونبرج » لما رأى الصورة أغرم بها . لماذا؟ لأنها موافقة لمزاجه ، وقد رأى آلاف من الناس هذه الصورة كل يوم فلم يغرموا بها ولم يبحثوا عنها لأنها لا تناسبهم ، إذ ليس كل جميل يناسبني ، ولولا أن هذه الصورة جميلة لم تعلق في ذلك المكان . إذن كل صورة هناك جميلة ولكن الطلب راجع إلى الذوق والمناسبة بين العاشق ومعشوقه .

هكذا الله سبحانه أبرز صور هذه الدنيا الجميلة فجعلها منشورة أمامنا لم يحجبها ولم يمنعها وقال : ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة : ١٩] وانظروا ، فقرأنا . فكل من أدركت نفسه جمالاً في عالم من عوالم المادة بحث فيها واستخرج للناس فوائدها ، فهذا العالم الذي صنع « زجاج بلاس » وهو الزجاج الحديث القوي المتين ، رأى مواده وهو في مصنعه فخطر بباله أن يستخرجه ، لأن هذا الجمال ملائم لعقله ، ولكن الصور الجميلة الإلهية متمنعة أكثر من تمنع الفتاة الأمريكية ، فإذا رأينا هذه الفتاة الأمريكية فرت من وجه عاشقها شرقاً وغرباً لما أحس قلبها بأنه مخلص وبأن المخلص يستحق تسليم مطلوبه . هكذا الصور التي زوق الله بها المادة والصفات الجميلة المخبوءة فيها ، التي تشبه صفات العلم والحلم والإحسان في النفوس الإنسانية ، فهذه الصور متى طلبها الإنسان بجد وشوق وإخلاص فإن صاحب المعرض وهو الله يعطي هذا الطلب العاشق مطلوبه ، كما فعلت الفتاة الأمريكية إذ سلمت نفسها لمن أخلص في حبها ، لأن هذه الفتاة من صنع الله والله هو الذي وهبها الجمال ثم علمها مقابلة الحب بمثله ، هكذا أقول وأنا واثق بما أقول : إن هؤلاء العلماء الذين نبغوا في الأرض وأحدثوا فيها انقلاباً عظيماً كانوا في طلبهم أشبه بهذا الكونت ، وفعل الله معهم ما فعلته الفتاة الأمريكية مع الكونت العاشق لها ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل : ٦٠] .

وعليه أقول : إن أحبائي قراء هذا التفسير ستحدث لكثير منهم شؤون وشؤون وسيصبح كثير منهم مغرمين عاشقين لهذا الوجود ولهذه العلوم ولرب العلوم ، وسيعاملهم الله هذه المعاملة عينها وهو لا يعطي إلا العاشق ، أما المتكلف الذي لم ينقلب تكلفه عشقاً فهو من الصالحين لا من الحكماء المحققين . وأقول أيضاً : وإذا كانت الفتاة الأمريكية وإذا كانت العلوم والمعارف المخبوءة في هذا العالم يحجبها الله عن الناس ولا يحظى بها إلا العاشقون لها الباذلون فيها مهجهم الفرحون بها

الملونون، فما بالك بمنزل العلوم وخالق الصور الجميلة، فهو الكبير المتعال، وإذا كان مخلوق الكبير المتعال هذا شأنه فما بالك به. وهو الذي إليه يرجع جميع العالمين.

الاتحاد المادي والمعنوي
وهذا الأخير قسمان: صناعي وطبيعي
ومعنى السلام على الصالحين في الصلاة

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أود أن تزيدني في معاني الحب، لأن الحب حياة العلوم، وكلما زدنا به علماً زدنا سعادة. فقلت: إن علوم الكيمياء اليوم قد أوضحت أبواب الحب وشرحته وفسرت لنا معنى قول المصلي: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». فقال: وأي مناسبة بين الصلاة وبين علم الكيمياء؟ فقلت: رعاك الله، ألم تسمع كلام الهيدروجين المتقدم ذكره وإلام يشير؟ ألم تسمعه وهو يتحد تارة بالأكسوجين الذي في الهواء وتارة بالنيتروجين الذي منه؟ ففي الأول كان منهما الماء وفي الثاني كان منهما النشادر، وبالماء حياة كل حي، والنشادر مع مواد أخرى سماد مزارعنا. فقال: ما سمعت من الهيدروجين شيئاً. فقلت: إن الأدروجين لما أحرق في الهواء ورأى حبيبه وهو الأكسوجين انطلق إليه حالاً وعانقه وقال:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ... مـا الحب إلا للحبيب الأول

وقال: أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنا أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

فهو عاشق للأكسوجين وليس عاشقاً تمام العشق للنيتروجين، فاحتاج في الاتحاد مع الثاني إلى أحوال خاصة، أما مع الأول فكان مسرعاً إليه.

ثم إني فهمت من هذا الاتحاد وأمثاله أن الاتحاد على ضربين: اتحاد جسمي واتحاد روحي.

والاتحاد الروحي أو المعنوي على ضربين أيضاً: اتحاد طبيعي واتحاد صناعي.

أما الاتحاد الجسمي فهو ما تراه في المادة من اتحاد الهيدروجين والأكسوجين ثم اتحاده بالنيتروجين أي الآزوت وكاتحاد ذرات الغذاء والماء الداخلات في أجسام النبات والحيوان، فإنها بالاتحاد كان منها هذه العوالم كلها.

ومن عجب أن يكون هذا العالم يسعى لهذا الاتحاد. أما الاتحاد المعنوي أو الروحي الطبيعي فهو اتحاد الصور العلمية بالأنفس الإنسانية، فإن هذه النفوس لما نزلت إلى الأرض لم يكن عندها علم ولا حكمة بل كانت غفلاً ساذجة فأتى إليها العلم من الحواس ومن العقل، وما العلم إلا صور معنوية. فهذه الصور اتحدت بهذه النفس كما اتحد الأكسوجين بالأيدروجين فتكون الماء.

هكذا هذه الصور المرئية والمسموعة والمشمومة والمذوقة كلها قد اتحدت بهذه الأرواح ففعلت بها ما فعلته الأغذية بالأجسام العضوية، فالجسم لم يكن جسماً إلا باتحاد العناصر الداخل فيها اتحاد الأكسوجين مع النيتروجين. هكذا الروح لم تنم ولم تكمل إلا باتحادها مع الصور التي وردت لها من الحواس فبها نمت وبها عقلت.

فكما رأينا أن الطفل في أول أمره وهو جنين في الرحم ـ انظره في سورة «طه» عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[الآية: ٥٠] ـ لم يكن إلا بيضة لا تراها العين في الرحم ثم تغذى بماء الحيض وأخذ ينمو شيئاً فشيئاً ومر على أدوار مختلفة، هكذا كان إدراكه أشبه بهذه البيضة الصغيرة، ثم أخذ ينمو بما يرد إليه من الصور الواردة من الحواس، فإذا كنا نرى أن البيضة الأولى في الرحم أصبحت لا تنفصل عن المواد التي وردت لها واتحدت بها هكذا هذه الروح الإنسانية أصبحت لا تنفصل عن معارفها. فقال لي: هذا القول لا دليل عليه فإننا ننسى ما عرفنا، وإذا كبرنا أصبحنا نهرف بما لا نعرف. فقلت له: الاتحاد باق كما هو في حال النسيان وفي حال الهرم، وغاية الأمر إنه أصبح مريضاً في عقله كما أنه مريض في جسمه، فإذا كان اتحاد الجسم لم يبطل بمرضه هكذا اتحاد النفس بالصور لم يبطل بمرضها، وأيضاً يقال: إن كل ما عرفناه مخزون في نفوسنا مهما طال الأمد فهو أثبت من الأحوال المادية، ألا ترى أننا إذا رأينا ذاتاً جميلة ثم مرت عليها سنون فمرضت أو ماتت فإنها في عقولنا محفوظة لم تتغير، فالفلاسفة استدلوا بهذا على أن نفوسنا أصون للصور وأوعى لها من المادة وأحفظ لبقائها، ومعلوم أن الناس في أحوال المرض يتذكرون أموراً قد نسوها في حال الصحة، فهذا دليل على أن النسيان ليس معناه أن الصورة قد زالت. كلا. بل معناه أنها مغطاة عن الذاكرة لعارض عرض لها، إذن عندنا اتحاد جسمي مادي وهو المشاهد، واتحاد روحي أو معنوي وهو ما تحس به نفوسنا، وهذا هو الاتحاد الطبيعي.

أما الاتحاد الروحي أو المعنوي الصناعي فهو اتحاد رجال الحكومات والشركات ووضع النظم في الأرض واتحاد الجمهوريات والمجالس النيابية، فهذه كلها اتحاد صناعي، فهم يعملون للدولة وللحكومة ولكن الشهوات غالبة على كل واحد منهم، فليس اتحادهم كاتحاد الأكسوجين بالأيدروجين ولا كاتحاد الصور بالأنفس الإنسانية.

والعالم الذي نحن فيه لا ننال فيه نعمة إلا بالاتحاد؛ فلولا اتحاد عناصر أجسامنا ببعضها ولولا اتحاد الصور بأرواحنا ما كانت أجسام ولا كانت مدنية وحياة، إذن الاتحاد بجميع أنواعه هو الذي عليه نظام هذا الوجود، الذي عرفنا قيمته جهرة هو علم الكيمياء وهو العلم الشريف البهيج الجميل.

فقال صاحبي: هذا موضوع يرجع إلى الفلسفة والحقائق وما نتيجته عملاً؟ قلت: الآن وصلنا إلى ما نقصد، إن نتيجة هذا الموضوع أن هذه العقول الإنسانية إلى الآن لم تتحد اتحاداً طبيعياً ولا صناعياً، فهم أشبه بعناصر متفرقة قليلة الفائدة والعائدة. إن أهل الأرض اليوم لا يزالون في حال الطفولة أو المراهقة ولم يزالوا في مبدأ أمر الحياة.

إن الله حكم على هذا النوع الإنساني أن لا يرتقي مرتبة إلا إذا ارتقى إليها بنفسه، ولم يأذن لهم أن يخرجوا من جهلهم إلا بأعمالهم الخاصة. والدليل على ذلك أن أهل الأرض لم يعطوا الكهرباء إلا بعد ما جدوا لها، ولا أعطوا الحديد ولا النحاس إلا بعد ما بحثوا عنهما. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾[النجم: ٣٩-٤٠]، فمن ظن أن سعي الإنسان خاص بالأعمال الصالحة الفردية فقد ضل وغوى.

أيها الذكي . إن كتابي هذا ليس خاصاً بالمسلمين . إن كتاب الله عز وجل لم ينزل للمسلمين وحدهم . إن كتاب الله للعالم قاطبة لأن قوله عام لم يختص بأمة دون أمة ، فالمفسر يجب عليه أن يوجه اهتمامه للعالم كله ، وهاأنا ذا أجدني مسوقاً لهذا المعنى . أجد قلمي ولساني وقلبي يتسابقون إلى فهم النظام العام ومخاطبة الأمم كلها .

إن كتاب الله لسائر الأمم ، فلأجعل كلامي للمصالح العامة الإنسانية . وإذا كنت منذ ١٨ سنة ألفت كتاب « أين الإنسان » وخاطبت الأمم كلها وأنا عبد من عباد الله فما بالك بما أكتبه في تفسير كلام الله ، ففي هذا التفسير أخاطب الأمم كلها من باب أولى ، والله هو الملهم والله هو المتولي أمور الناس عامة وخاصة ، وهو الذي يعلم نتيجة هذا وليس علي إلا أن أسطر ما امتلأت به نفسي وبرز على قلمي وعلى لساني ، فلذلك أخاطب الأمم الإنسانية في هذا التفسير فأقول :

أيتها الأمم الإنسانية ، أنتم قد خلت من قبلكم أمم فسرتم في الأرض فنظرتم كيف كان عاقبتهم كان الأولون من نوع الإنسان لا يعرفون من العلم إلا أن يستعملوا الحجارة في أدواتهم ، فالله لم يكلفهم بأكثر من هذا ، ثم جاء العصر البرنزي والحديدي ثم البخاري والكهرباء ، ولم يرد أن يعطيهم شيئاً من ذلك إلا بجدهم واجتهادهم .

إذن ثبت بالفعل هنا أمران : الأول : أن الخزائن مقفلة أمام الإنسان . الثاني : إن هذه الخزائن لا تفتح إلا بجدنا . ثم يظهر لي أن للأرض مستقبلاً يكون الناس فيه سعداء . ذلك هو اليوم الذي ورد في القرآن : ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد : ٤] ، فهنالك يوم يصبح الناس فيه إخواناً في الحياة متحدين اتحاداً كاتحاد الأوكسجين والأدروجين وكاتحاد الصور الممتزجة بأرواحنا ، ذلك يوم تكون فيه الإنسانية في الدنيا كأنها في جنة ، فالجنة للصالحين بعد الموت ويوم القيامة لامتزاج أرواحهم واتحادهم في أخلاق وعادات . والأرض تكون فيها سعادة نسبية لأهل الأرض .

أيتها الأمم ، إن هذه الأرض لم تحظ قبل اليوم بانكشاف الحقائق واطلاع الغربي على ما عند الشرقي وبالعكس حاصل ، ولم تكن هناك مواصلات ولا محادثات على بعد مثل ما هو اليوم .

أيتها الأمم ، إن النبي صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء وهو ينادي جهرة بالسلام العام . نعم هو استعمل الحرب مؤقتاً في الزمان الذي كان الإنسان مضطراً إليها فيه . ولكن الإسلام يسعى من جهة أخرى إلى السلام العام ، ويود الإسلام أن الأمم كلها تكون على وتيرة واحدة في الارتقاء والأعمال العامة ، كما قال علماؤنا : لا يبقى في الأرض إلا مسلم أو مسالم .

إن أهل هذه الأرض قد آن لهم أن يعملوا بما كتبته في كتابي « أين الإنسان » بحيث يتعلم كل امرئ ما قدر عليه ، ولا تذرون فرداً ولا أمة بلا تعليم ، ولا تذرون أرضاً ولا هواء ولا ماء ولا ضوءاً بلا بحث لاستخراج منافعه ، ولن تنالوا هذه النعم إلا بتعليم جميع الأمم وجميع الأفراد تعليماً على مقدار الاستعداد .

إن الاستعداد في الأرض موضوع فيها بقدر وعلى مقتضى سعادة أهلها ، فالنقص عنه نقص في السعادة .

أيتها الأمم، إنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني. أنتم أمامكم العلم والعمل وأمامكم أرض الله الواسعة. لننظر في الإنسانية الحاضرة. إن الأمم القديمة لم يفتح لها ما فتح لنا. إن العلوم قد فتحت أبوابها والمادة أخذت تناديكم أن هلموا إلي، والسعادة أصبحت على الأبواب، تقولون: نحن كشفنا. نعم كشفتم ولكن كشفتم جزءاً من آلاف الآلاف. إنكم اتبعتم خطوات الحيوان في كشفكم، كما تقدم في سورة «طه» عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[الآية: ٥٠]، ولكن لم تلحقوا شأوه.

ألم تدرسوا المرجان وجزائره ألم تنظروا بأعينكم؟ انظروها مصورة في سورة «الفرقان» عند آية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ ﴾[الآية: ٥٣]. هل اتحدتم كما اتحد المرجان. لا. لا أنتم قلدتم النمل في حربه والعنكبوت في صيده، والفأرة في جر الأنهار للمنازل، ولم تتجاوزوا أعمال النمل في استخدام الأسرى وفاتكم حيوان المرجان. ذلكم الحيوان الذي أخذ المادة الكلسية التي في ماء البحار وحولها إلى هيئة أشجار ثم هيئة جزائر، وتلك الجزائر تعد بالآلاف قد تنبت فيها النباتات وتعيش فيها الحيوانات آمنة مطمئنة، فما لكم عن عمله مقصرين؟ تعمد الأمة منكم إلى أمة أخرى فتهجم عليها فتأكل خيراتها، وقد علمكم التاريخ أن من اتكل على غيره في إصلاح نفسه أو جلب طعامه كان ذلك سبباً في ضعف نفسه جسماً وعقلاً ثم يكون الانقراض.

اتحد حيوان المرجان فتفنن في صنعه حتى كون جزائر، وتلك الجزائر كانت سبباً في الحياة لأمم وأمم من الحيوان تعيش في أمن وسلام.

أنا لست أقول: إن هذه الأجيال تستطيع ذلك. إن علومها ومعارفها وقلة عددها لن تسمح لها بإحداث قارات جديدة في البحر. ولكن لتنظر أمم الأرض الآن في الأرض التي نسكنها الآن. اللهم إني أقول ما ألهمتنيه وأنت شهيد وأنت المهيمن على الأمم وعلى الأفراد.

إني أضرب لكم مثلاً مما في هذه الأرض. إن مساحة الجزائر الهندية الشرقية التي تحكمها هولاندة وحدها بقطع النظر عن الباقي مليون وتسعمائة ألف كيلو متر مربع أو٧٣٣ ألف ميل مربع، وهو يعادل مساحة بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرة والدانيمارك والسويد. وبعبارة أخرى: يساوي نصف مساحة أوربا تقريباً من غير روسيا.

فلننظر إلى السكان فإننا نجد جزيرة جاوة وجزيرة مدورا وهما من تلك الجزائر نحو ٣٦ مليون نفس و٤٠٠ ألف نفس تقريباً، ومساحتهما معاً نحو ١٣١ ألف كيلو متراً، أي: ٥٠ ألف ميل تقريباً، وتعادل مساحة إنكلترا بدون اسكتلندا وويلز وإرلندا. وسكان سومطرة ٦مليون وربع مليون تقريباً، مع أن مساحتها ٤٢٠ ألف كيلو متراً، أي: ١٦٢ ألف ميل مربع، فهي أكبر من مساحة بريطانيا العظمى.

فأنا لا أطيل في سرد الأمثلة، فإذا كانت سومطرة بمقدار جاوة في المساحة نحو ثلاث مرات ولكن سكانها أقل منها ست مرات فمعناه أنها تسع نحو مائة مليون نفس. وإذا كانت جزائر الهند الشرقية التابعة لهولندة وحدها مساحتها بمقدار مساحة نصف أوروبا تقريباً وسكانها ما هم إلا ٥١ مليوناً من النفوس والأرض خصبة والمناخ أرقى من مناخ أوروبا لأنه عند خط الاستواء مهد الجنس البشري كما

قيل ـ وهو مهبط البركات ومعدن النعم الإلهية التي يلقيها الله بأشعة شمسه على الأرض ـ فهذا معناه أن هذا النوع الإنساني الآن لم يزل طفلاً قد عطل أرضه وتقاتل في أرض ضيقة متبعاً خطوات الجهالة كما قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧] ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢]، فالإنسان لم يؤتمن على الأمانة التي سلمت له وهي هذه النعم. إن جزائر الهند الشرقية التي اتخذتها مثلاً تمتد من آسيا إلى أستراليا بين درجة ٩٥ ودرجة ١٤١ من خط الطول شرقاً، وبين الدرجة ٦ شمالاً من خط الاستواء و١١ جنوباً منه، وأطول خط من الغرب إلى الشرق خمسة آلاف كيلو متراً، فتمخر فيها السفينة البخارية في ١٤ يوماً في وقتنا هذا، وهذه المسافة الخمسة آلاف كيلو متراً تعادل تقريباً المسافة بين الشاطئ الغربي لأرلندا في الإطلانطيقي وبين الشاطئ للبحر الأسود في آسيا. وأبعد مسافة من الشمال إلى الجنوب ٢٠٠٠ كيلو متراً، وتعادل المسافة بين البحر الأبيض الشمالي وروسيا. ومجموع طول شواطئ هذه الجزائر يعادل طول دائرة الأرض. فجزائر الهند الشرقية ضربتها مثلاً لما في الأرض من متسع عظيم. وكم في أمريكا الشمالية والجنوبية من أرض خالية من سكانها، وكم في العقول الإنسانية من مواهب لم يستخدمها ولم يستخرجها الإنسان.

إن المسلم يقول في صلاته: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾، ويقول المسلم في صلاته: «السلام عليك أيها النبي السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

المسلم يسلم على الناس وعلى أهل منزله ويسلم على نفسه وعلى الصالحين إذا دخل المسجد. إن الصراط المستقيم بـ«الـ» هو صراط الله، وصراط الله هو الصراط الذي قامت به السماوات والأرض، والصراط الذي قامت به السماوات والأرض هو صراط يوجب الاتحاد، لأنا لم نجد نباتاً ولا حيواناً ولا إنساناً قام على الأرض إلا بعناصر متحدة، فقام ذلك المخلوق وهو الاتحاد المادي الجسمي كما تقدم اتحاد الهيدروجين بالأكسوجين تارة فكان الماء وبالنيتروجين تارة أخرى فكان النشادر. إذن صراط الله يرجع إلى النظام، والنظام أوجب الاتحاد، وهكذا اتحدت الصور العلمية في نفس هذا الإنسان فكان العلم وكان العمل وهو الاتحاد المعنوي الذي قدمناه.

يقول المسلم: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، والصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض. فملكه في السماوات والأرض لم يقم إلا بالنظام والنظام أوجب الاتحاد والاتحاد قامت به الحياة. فاتحاد ذرات الأجسام واتحاد الصور العلمية في العقول قام بهما هذا الوجود، فالمسلم يقول: اهدنا نفس هذا الصراط، ونفس هذا الصراط هو صراط المنعم عليهم الذين هم غير المغضوب عليهم، وبهذا الصراط يكون السلام العام الذي يقوله المسلم في التشهد، ويقوله لمن يقابله ويزوره، والمسلمون قد فرقهم الله في الأرض وانتشروا فيها في كل صقع وبلدة وهم يقولون هذا القول في صلواتهم، ويريد الله بهذا أن يرقي الإنسانية كلها لأن الأرض مملوءة بالخيرات، وقد كان الإنسان قديماً تحصده المجاعات والحروب والأمراض والطاعون، وهاهو ذا الآن يسعى ليقلل الحرب والمرض

كما سعى وخفف وطأة الطاعون. فهاهم أولاء يكثرون وينتشرون في الأرض والطرق سهلت للتقارب.

فليعمر الناس كل أرض لا ساكن بها. ولقد كتبت في كتابي «أين الإنسان» أن كل أمة عندها أرض واسعة وقل رجالها عليها أن تقبل في أرضها أقواماً من أمم أخرى كما تفعل الممالك المتحدة، هذا واجب محتم. فلتعمر الأرض الموجودة الآن، ثم لتوجه الهمم من الآن إلى تعليم جميع الأمم جملة وأفراداً، حتى إذا امتلأت هذه الأرض بنوع الإنسان وكانوا أضعاف أضعاف الإنسان الحالي كانت عقولهم قد أخذت كلها حظها من العلوم والصناعات مع رياضات الأبدان وقوتها، فهنالك هذه الأمم تتضافر وتصنع قارة جديدة في المحيط الهادي مثلاً أو تحدث جزائر للسكنى فيها. فإذا كنتم أيها الناس اليوم قلدتم النمل في حربه وأسراه، وقلدتم العنكبوت في نسجها وصيدها، وقلدتم الآساد في افتراسها، فأنتم والله أعجز مخلوق على الأرض إذا أنتم تركتم مواهبكم واحتجتم إلى أرض جديدة بعد دهور ودهور، ثم عجزتم أن تصنعوا ما صنع حيوان المرجان من إحداث أرض جديدة.

أنتم الآن لستم في حاجة إلى أرض جديدة. أنتم في حاجة إلى عقول كبيرة مرشدة ترشدكم إلى طرق نظام أرضكم هذه والاتحاد في تعميرها، فإذا ظهر فيكم هؤلاء الرجال عرفتم جميعاً أن الإنسان محتاج إلى الإنسان، وأنهم جميعاً يكونون أشبه بأعضاء جسم واحد فيما تقدم أو بصور علمية في نفس واحدة.

فإذا قال المسلم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فليعلم المسلم وغير المسلم أن من كانوا متعاونين مخلصين من أهل الأرض وهم خلاصتها فإن هؤلاء يكونون في العالم الأخروي أو في عالم الأرواح أشبه بنفس واحدة، فكر الواحد فكر الجميع ولهم هناك نتائج لا نعلمها، وهكذا أهل هذه الدنيا في مستقبل الزمان حين يكثرون وتعمر أرضهم ويكونون كأنهم رجل واحد أو نفس واحدة، فهؤلاء حتماً منعم عليهم كأهل الآخرة الصالحين، ولذلك يقول الله في أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فالأرواح العالية آراؤها كلها رأي واحد، فما يراه أحدها يراه الآخر، فإذا ارتقى أهل الأرض وكانوا هكذا فيها بعد أجيال وأجيال، فهم أيضاً غير مغضوب عليهم، لأن هذا مطلوب الإسلام، لأنهم على صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

ألا هل أذكرك بحياة الخلية الواحدة في العالم الحي؟ فقال: ما معنى هذا؟ قلت: قد كشف للناس بسبب اختراع المنظار المكبر أن أنسجة الجسم مركبة من خلايا. قال: نعم هذا معروف. قلت: وكاشف هذا أمثال «شون» و«شليدن» و«فيرشو»، وذلك أن كل حي يبدأ حياته بهيئة خلية، وهذه الخلية تنقسم ويستمر الانقسام، وهذه الخلايا تقسم أنفسها أقساماً كبيرة، وتجعل لكل قسم عمله الخاص به، فمن هنا كانت الأعضاء والأجهزة المختلفة، فانتظم المجموع مع أن لكل خلية حياتها المستقلة، وهذا هو تفسير نظرية الحب. فكل من الحبيبين يود الاتحاد بالآخر ليحس بالسعادة بذلك الاتصال. فهاهنا ظهر الأمر. كل خلية في كبد أو أمعاء أو معدة مستقلة في حياتها منضمة إلى غيرها

فرحة بذلك، وكل عضو كالكبد وكالقلب عنده هذا المبدأ مستقل في عمله فرح بالاشتراك مع غيره لتكمل حياة المجموع، وهذا بعينه هو سياسة الأمم في المستقبل، يسعد كل فرد باستقلاله وحياته وهو فرح باندماجه في جماعة فرحة لانضمامها للأمم الأخرى.

هذه هي الإنسانية المستقبلة، أما الإنسان الحالي فهو طفل لم يعرف شيئاً من ذلك، وسيصل لهذه المرتبة في مستقبل الزمان، والأرواح التي تخرج من الدنيا الآن وهي غير مستعدة لهذا الاتحاد مع غيرها تكون أقرب إلى جهنم، والعكس بالعكس.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: وهل قول المسلم: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه ذلك؟ قلت: ألست تعلم أن المنعم عليهم هم الصديقون والشهداء والصالحون الخ؟ قال: بلى. قلت: أليس هؤلاء يسعون لسعادة الأمم؟ قال: بلى. قلت: أوَليس العالم أو الملك تكون منزلته على مقدار ما أسدى من المعروف للإنسانية؟ قال: للمسلمين؟ قلت: كلا. إن الأمم الإسلامية واجب عليها أن تحافظ على من تحكم من الأمم وعلى من تسالم أو تعاهد وهكذا. إذن نحن جئنا لمنفعة الإنسانية كلها. قال: نعم. قلت: ثم الإنسانية كلما كانت أكثر تضامناً كان أفرادها أوفر سعادة، فإذا سلمنا فرضاً أن منفعة المسلم والصالح إنما تكون للمسلم أو لمن يدخل في سلطانه؛ فإن هؤلاء تكون سعادتهم أوفر إذا اتحد نوع الإنسان كله، وعليه يكون قول المسلم: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ له حال أرقى أحواله، وهو وفرة المنافع بكثرة العقول المتحدة للنفع العام، وذلك بأهل هذه الكرة، كيف لا وقد رأينا أن مخترعي الآلات البخارية بجميع أنواعها والكهربائية، وصانع الآلة الحاكية «الفونوغراف» و«التلغراف» الذي له سلك والذي لا سلك له، والطيارات والبالونات، لم يقتصر نفعهم على أممهم بل عموا بنفعهم الأمم كلها ونحن منهم.

فإذا كان العمل من قوم لم يقولوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ولم يقولوا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ الخ، أي إنهم لم يوجهوا وجوههم قبل العالم كله في دينهم وقد نفعونا، ونحن نقول: إن الله محمود لأنه يربي العالمين لا المسلمين وحدهم، ونطلب من الله أن يهدينا صراطه المستقيم الذي به نظم السماوات والأرض المعبر عنه بالعالمين، فلا معنى لهدايتنا لذلك إلا بأن نوجه قلوبنا للمنافع العامة، لأن هذه صفته هو التي نحمده عليها والتي طلبنا الوصول إليها. وكلما كان النفع للناس في الدنيا أشمل كان الارتقاء في الآخرة أكثر، فإذا طلبنا في صلاتنا أن نكون مثل الأنبياء والصالحين في عمل الخير لنرقى به في الآخرة فكماله أن يعم نفعنا الأمم كلها، وإذا مرن جميع الناس على فعل الخير في الدنيا كان هذا المران عدة لهم يوم الدين. إذن أفضل أحوال المسلم أن يكون في الأرض مع إنسانية سعيدة في الأرض كلها حتى يكون ذلك أسعد له في الآخرة، وهذا أفضل من السعادة القاصرة على أمة أو على أمم. فلا كمال في الآخرة إلا بعد الكمال في الدنيا ولا ثمرة هناك إلا مما غرس هنا، ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣].

فيا أيها المسلمون، إذا نحن طلبنا من الأمم كلها أن يتحدوا للمنافع العامة وأنتم ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

فقولوا وخبروني أيها المسلمون، هذه أمم الأرض الآن لا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر، وأضرب لكم مثلاً:

هذه الأيام أيام انقلاب، وقد كنت أمم الشرق كلها غافلة نائمة، وكان للفرنجة سفراء في بلاد الإسلام، وهؤلاء السفراء كانوا يتبارون في التقرب من ملوك الشرق ومعهم نساؤهم، وملوك الشرق يكرمون الضيوف، فأعطوهم امتيازاً في بلادهم كما هو شأنهم في إكرام الضيوف. فماذا جرى؟ أخذ الشرق يضعف وأخذ الغرب يقوى. أصبح الامتياز مهلكة للبلاد وإذلالاً لهم. فنهض الشرق اليوم نهضة الآساد ومنعوا تلك الامتيازات كأهل إيران والترك والصين واليابان.

إنّما الأمر المحزن المؤلم أن هذه الأمم لم تتنازل عن الامتيازات إلا بحد السيف، وليس هناك للإنسانية نصيب، وقد بقيت مصر وفيها امتيازات للأجانب وقد كانت تابعة لدولة الترك، ولكن الترك منعوا ذلك الامتياز، ولم يبق بلد فيها امتياز مثل مصر، ومصر جيشها ضعيف لأن الإنجليز منعوها أن تنظم جيشها، فبقيت الامتيازات ظلماً في البلاد، فلم نجد هذه الدول نهى بعضها بعضاً عن هذا الظلم. إذن المدنية الحاضرة داخلة في قوله تعالى: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[المائدة: ٧٩].

ولقد جاء في كلام «اللورد أفبري» الإنجليزي نقلاً عن عالم ياباني ما ملخصه: إن أوروبا لما كنا نابغين في العلوم سمونا نصف متمدنين، ولكن لما قتلنا منهم مئات الألوف وأرسلناهم إلى عالم الآخرة اعتبرونا متمدنين. إذن المدنية الحاضرة ناقصة وأهلها ليسوا شهداء على الناس.

إن الأمم المستعمرة جميعها قد حتمت أن تنشر الجهل بين من تحكمهم من المسلمين، فالجهل هو الذي أهلك المسلمين وأذلهم. إن هذه الأمم وهم بهذه الحال لا يصلحون لإسعاد أهل الأرض، وكيف يصلحون لذلك وهم لا يعرفون المصلحة العامة، ولن يصلح هذا النوع الإنساني مطلقاً لرقي النوع الإنساني إلا إذا كانوا جميعاً مثل الشهم المنصف الإنجليزي وهو «المستر بلانت»، فإنه ألقى خطاباً في بلاده نهى فيه قومه عن احتلال بلادنا المصرية، واعتبر هذا عسفاً وظلماً، وخاطب رئيس الحزب الوطني المصري بما معناه:

إنكم يا أهل مصر تريدون أن نعطيكم استقلالاً، فاعلموا أن الأمم الأوروبية لا تعطي إلا مكرهة، ولا يمنعها عن ظلم الأمم إلا السلاح، أما إعطاء الاستقلال بلا سلاح فهذا مستحيل، إن من يغركم بأنكم ستنالون استقلالاً بغير هذه الطريقة فلا تصدقوه.

فهذا فحوى خطابه، والمسيو «بلانت» هذا رجل حر مخلص للإنسانية، وهذه شجاعة منه ونزعة شريفة، ولعمري لن يكون نوع الإنسان سعيداً إلا إذا كان كله على أخلاق كأخلاق هذا الإنجليزي.

فعلى المسلمين أن يتعلموا علوم الأمم كلها وأن يساووهم ثم ليكونوا عوناً لأمم الأرض كلها. إنهم وسط بين الأمم، وهم كالملح في الطعام، فليمنعوا الأقوياء عن الضعفاء، هنالك فقط يكونون خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبهذا يسعد نوع الإنسان.

أيتها الأمم الإسلامية وغير الإسلامية، أتسبقكم «الأرضة» التي شرحتها في سورة «النمل» وسورة «سبأ»، تلك الممالك العظيمة من هذه الحشرة العمياء التي تبني مدناً عظيمة تمتد أميالاً وأميالاً وترتفع ٨ أمتار فوق الأرض، وهذه الحشرة العمياء تقوم بنظام عملها بغاية الدقة، والأوامر مطاعة من ملكتها، لو عدت هذه الحشرات في المملكة الواحدة منها لزادت من نوع الإنسان، فهل يحجم نوع الإنسان عن تكوين مملكة كمملكتها؟ وهذا حيوان المرجان الذي قدمت ذكره هنا وقلت: إنه أوجد في البحر جزائر، فهل عجز الناس أن يتحدوا ويأتوا بالعجائب. وكيف يتحد المرجان في البحر والأرضة في البر مع أن عدد الإنسان على الأرض ضئيل بالنسبة لعدد الحشرات في هذه الممالك.

إن الإنسان في المستقبل سيصل لغاية يجهلها الإنسان الحاضر. إن الشمس لا تهدأ في جريها، وكذلك القمر والنجوم نشاط مستمر، والبحر لا يهدأ ولا يسكن، وفي الطبيعة نشاط مستمر عجيب. فسبحانك اللهم نراك حولت الماء في القطبين أراضي واسعة ثلجية، وخلقت من الماء جبالاً ثلجية عظيمة تعوم على وجه البحر، وعلمت الناس طريقة بها حولوا النيتروجين الذي هو أحد عنصري الهواء، فحولوه مع الأدروجين إلى النشادر، وهو قد دخل في سماد الأرض وفي المفرقعات، فتارة يكون مهلكاً للأرض وتارة يكون منمياً للمزارع في أنحاء الكرة الأرضية.

الهواء صار أجساماً جامدة، والماء حوله المرجان، أي: حوّل ما فيه من المواد إلى آلاف من الجزائر العامرة، فهل عجز الإنسان عن الأمرين: الاتحاد العام كاتحاد المرجان والأرضة، وإيجاد جزائر في البحر عند الاضطرار؟ نعم الإنسان اليوم طفل، والطفل إنّما يفرح بالمفرقعات، فهم قد ألهموا اليوم صنع المفرقعات لأنهم أطفال. فأما غداً فسيكثر نوع الإنسان ويكونون أعلم من هذه الأجيال وحينئذ يفهمون روح هذا الوجود ويعقلون قيمة الشمس والقمر والكواكب، وكيف ركبت فيهم عقول قادرة على الإبداع إسعاد أهل الأرض، ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الحديد: ٢١] ومتى جاء ذلك اليوم أي يوم الاتحاد العام يظهر معنى حديث البخاري الذي يفيدنا أن الرجل يأخذ الصدقة فلا يجد من يأخذها.

إذن ذلك يوم يستخرج فيه من الأرض منافعها ومن العقول مواهبها. ذلك هو اليوم الذي يكون المسلمون فيه شهداء على الناس، لأن أهل الأرض اليوم عن هذه المرتبة قاصرون. انتهى ليلة الأحد بعد نصف الليل في ١٣ يناير سنة ١٩٢٩م.

ضوء الجوهرة

وعدنا الله أن يرينا الآيات ﴿ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾[الحج: ٤٧]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[آل عمران: ٩]. أنت وعدتنا يا الله أن ترينا آياتك، وآياتك هي التي ذكرتها فقلت: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، وقلت: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾[طه: ٥٦]، وقلت: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾[يس: ٣٣]. وأنت ترينا الآيات في خلقك من شمس وقمر وكوكب وأرض وما عليها من نبات وحيوان ومعدن، أنت ترينا والأنبياء يرونا ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[النازعات: ٢٠]، والطيور

ترينا، فقد جاء في الغراب: ﴿ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾[المائدة: ٣١]. اللهم إن كل شيء في مخلوقاتك يرينا هذا.

وبينما أنا أكتب هذا إذ حضر صديقي العالم وقال: ماذا تريد أن تكتب بعد ما جاء في هذا التفسير من هذه المعاني؟ إن هذا المعنى قد تكرر في كل مناسبة. فقلت: لا مكرر في هذا. ألا ترى رعاك الله أن هذه ألوان الكلام وفنون العلم وأصناف المعرفة، ومن عادة النفس أن تحب التفنن في الأساليب كما تحب شهوة الطعام التفنن في المآكل وتحب العين أفانين الصور والأذن أنواع النغمات. إن النفس أشوق إلى هذه الأفانين، ولكل وقت فن وفيض خاص وإبداع ومناسبة. فقال: فماذا الآن؟، قلت: إن الله يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، ويقول أيضاً: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣].

اعلم أيها الذكي أن أصل كل تلك المعارف إنّما يقصد بها نفوسنا، فلنبحث في أمر هذه النفوس وقواها، فهي عندي أصل الحكمة، وأصل الفلسفة، وأصل الإبداع في الدنيا. انظر قواها، إن لها أفانين من الغرائز وأنواعاً من العواطف. وعادة الناس أن يعجبوا من الطير ومن الأنعام ومن الكواكب. أما أنا في هذه الساعة فكأني منفصل عن نفسي وكأنها أمامي أشرحها شرحاً جميلاً. أرى نفسي يعوزها الطعام والشراب والكساء والتزوج والعلم. لم هذا؟ إنّما حدث هذا لأن الله يرينا أنه لا معنى لشهوة الطعام والشراب ولا شهوة النساء ولا لمدافعة العدو إلا للعلم. فكل ما في وجودنا لا يراد منه إلا العلم، حتى العبادة هي مران النفس لتستقر على حال وتحصل لها ملكة تثبت عليها من الأخلاق أو العلم. قال: أوضح هذا المقام إذا شئت. فقلت: إن الله أحوجنا للطعام والشراب ودفع نفوسنا إلى طلبهما وركب فينا شهوة لتقبل الطعام، وهذا مبدأ أول من مبادئ العلم، لأن الحواس أخذت تهتم وتميز الحلو من الملح والحامض. فهذه مبادئ للعلم، وهكذا يمتاز الماء العذب من الملح. كل ذلك مبادئ للعلم، فإن إحساس الحواس مبدأ العلوم. فقال: لا شك في ذلك. فقلت: وقد علمت فيما تقدم في هذا التفسير كيف كانت جميع مآكلنا ومآكل حيواناتنا عبارة عن مواد محرقة، فانظر لطعام جيء به لغذائنا لنبقى كيف آل الأمر فيه إلى أن تنبهت فينا قوة العقل فأصبحت ـ بعد أن كانت خامدة ـ ناراً متأججة تنقب وتبحث.

سبحانك اللهم أتكون شهوة الطعام والشراب ولذة الوقاع وحب الانتقام من الأعداء هذه كلها للعلم في الحقيقة. أليس من العجب أن دراسة طعامنا تنتهي بأن نرى ـ كما تقدم ـ أن الملح ما هو إلا الصوديوم والكلور وكلاهما مادة مهلكة. فالصوديوم يحترق إذا تعرض للهواء والكلور يدخل في الغازات الخانقة والمواد المهلكة كما أنه قاتل للحيوانات الذرية المهلكة لنوع الإنسان.

هذا الملح وحده مثال من بقية الأغذية في أنه أرى العقول الإنسانية أنه من مواد مهلكة تزجي سحاباً من الغاز على الجيوش فتهلكهم. إن النفس الإنسانية تدهش وتعجب من هذه العجائب في نفوسنا، إذ ذاك ترى عظمة لا حد لها وتعشق الحكمة والعلم ويزول عنها الخمول، فتكون دراسة هذه العجائب موقظات للنفوس، وكأن هذه الدراسة تيار كهربائي سلط على النفس فميز قواها، كما أن

الكهرباء تحلل بطريق خاص العناصر، وكما أن الملح بانفصال كل من الكلور والصوديوم وحده تظهر قواهما وعند الاجتماع تكون لهما قوة غير قوتهما الأصلية. هكذا هذا الإنسان ما دام لم يعرف العلم تبقى نفسه جامدة خاملة لاشتراكها مع القوة الغضبية والقوة الشهوية، فإذا اطلعت على العجائب أخذت تتعالى وتترفع عن القوتين الأخريين وتشمخ بأنفها وترتقي وترجع إلى عالمها العالي وهو عالم الفكر، كما يرجع الصوديوم إلى حاله النارية إذا وضع في الهواء، فنار الصوديوم كانت مخبوءة في الملح فأثارها انفصال الصوديوم من الكلور. هكذا غريزة حب الاستطلاع وتأجج نيران النفس تظهر أتم ظهور متى اغترفت النفس من ينابيع الحكمة لأنها ذاقت ومن ذاق عرف، وقبل أن تذوق كانت خامدة، فجميع العامة من سائر الأمم يأكلون الملح وأمثاله ولا تحترق أفئدتهم بحكمته وعلمه.

فأما الذين أدركوا نظام الملح وأمثاله فأولئك تتأجج في قلوبهم نار الغرام بالحكمة والعلم، ويقولون: إذن نحن نأكل ناراً منطفئة. فالقمح والشعير والذرة وأمثالها فيها الجير والمغنيسيا وحمض الكبريتيك وحمض الفوسفور والكلور والصوديوم والبوتاسا، وهذه كلها مواد نارية. إذن الجبار القهار قهر هذه العناصر وأخمد نارها حتى خضعت لنا وأطاعت وأتت صاغرة. وهنالك يفهم معنى اسم الله القهار الجبار والمتكبر والقابض والمذل والحكم والعدل واللطيف والمقيت والواسع والحكيم والقوي المتين والقادر المقتدر والمقسط والضار والنافع، هنالك يفهمون معنى هذه الأسماء، فهو جبار على الكبريت والصوديوم والبوتاسيوم وقوي عليها، ومقتدر ومذل فأذلها وأخضعها وأنزلها من حرارتها وجعلها منقادة حتى أكلها الإنسان، وجعل الضار بالإحراق كالصوديوم نافعاً في الأغذية بحسن اللطف في صنعه، وهو مقسط عدل يجمع العنصرين بأوزان لا نقص فيها ولا زيادة، ولولا ذلك لم تأتلف، وهذه ظاهرة في علم الكيمياء أتم ظهور في جميع مركباتها.

كل هذه المعاني مخبوءة في أغذيتنا فهذه الأغذية ظاهرة لإقامة حياتنا مع أن الحياة كان يمكنها أن تقوم بغير هذه المواد ولكنها توقفت عليها لندرسها، فلما درسناها أيقظت قوانا العاقلة، وهكذا كل ما نحس به من ذل أو عز أو قوة. كل ذلك يستدعي عملاً في مادة، والعمل فيها يستدعي دراستها، ودراستها تفتح للعقل باب النبوغ والحكمة. وهاك إيضاحاً لبعض أسماء الله الحسنى في عناصر الطبيعة أوسع مما تقدم.

قد تقدم في سورة «البقرة» وغيرها أن النبات مركب من العناصر وما يقرب منها. انظر إلى العناصر الداخلة في القمح وفي القطن وفي البرسيم مما شرحناه في سورة «البقرة» وفي غيرها، فإنك تجد مقادير محدودة لا نعيد شرحها، وهذه المقادير قد حكم عليها أن لا تزيد ولا تنقص. فهنا يلبس المسلم القطن ويأكل القمح وهو لا يعلم أن الذي ازدرده من الطعام إنّما هي كلمات الله مجسمة أو معاني الأسماء مشاهدة. وأنا أقول هذا الآن حقاً لا مبالغة لم خلق القطن؟ خلق من مواد منها الصوديوم والبوتاسيوم والجير والمغنيسيا الخ.

يلبس الرجل القطن وهو يجهل ما يلبس، إنه يلبس مواد محرقة، ولكن عناية الله قد حلت بهذه المواد فاتحدت فصارت ملبساً. الصوديوم محرق وكذلك البوتاسا والجير، فتجلى عليها اسم:

(١) السلام (٢) والمؤمن (٣) والجبار (٤) والمتكبر. فسلم المرء من نارها. فأمن من عودتها فخضعت القوة المحرقة. ولا يبرز هذه المعاني لمن ليس أهلاً لها، (٥) الخالق لأنه قدرها، (٦) البارئ لأنه أوجدها (٧) المصور لأنه صور ما خلقه، (٨) الغفار لأنه ستر هذه العجائب عن الناس وغفر لهم جهلهم كما نغفر نحن للأطفال، (٩) القهار قهر حمض الكبريتيك وحمض الفوسفوريك فانطفأت الحرارة وتكاملت القوى، (١٠) الوهاب لأنه لما أخضع هذه المواد واكتملت وهبها لنا، (١١) الرزاق فانتفعنا بها، (١٢) الفتاح يفتح أبواب العلم فنعرفها وأبواب الرزق لنعيش به، (١٣) القابض قبض نارها فلم يسلطها، (١٤) الباسط بسط لنا الرزق بهذا التدبير، (١٥) الجامع لهذه العناصر بهيئة نظامية بعدل، لأنه (١٦) المقسط و(١٧) العدل. وبهذه المخلوقات تكثر خزائنه الناجمة من قدرته، فهو (١٨) غني و(١٩) مغني لنا بها، وهو (٢٠) مانع ضرها، و(٢١) ضار، و(٢٢) نافع. فالضر بوضعها في غير موضعها كملح الطعام إذا كثر، والنفع إذا اعتدل المتعاطي لها، (٢٣) الهادي هدى الناس لعلمها واستعمالها، (٢٤) النور وهذا الاسم هو سر هذه الدنيا، لأن القوم علموا أن لكل عنصر من العناصر التي تبلغ نحو ٩٠ نوراً خاصاً عند احتراقه، وقد قابلوا أضواءها كضوء الحديد والنحاس والذهب والفضة والصوديوم والبوتاسيوم فوجدوها تختلف اختلافاً بيناً في أضوائها، ثم نظروا في أضواء الكواكب وبحثوا فيها فوجدوا مشابهة بين الأنوار الواصلة من السماء وبين الأضواء الناجمة من هذه العناصر، كضوء الحديد والنحاس الخ، لا سيما الخطوط المظلمة التي تتخلل تلك الأضواء. فهذه الأحوال تختلف في العناصر عندنا، وتختلف في أضواء الكواكب الواصلة إلينا، وقد وجدوا أن الأنوار الكوكبية تحتوي على أنواع من الأضواء مشابهات لأضواء العناصر عندنا، فحكموا بتركيب تلك الكواكب من عناصر مثل عناصر أرضنا، وعليه يكون اسم الله تعالى (النور) هو سر الكون، ولذلك سميت سورة باسم «النور»، وقال الله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥]، بل ثبت فيما تقدم في تفسير الآية أن أصل العالم نور، إذن اسم الله النور هو سر هذه الدنيا، لأن عالمنا نفسه نور وثوب القطن الذي كلامنا فيه نور مجمد تجلى عليه الله بأسماء أخرى آتية من صفاته فتراكم النور فلبسناه. فالثوب القشيب والثوب الخلق سيان في أنهما نور عند العالم، ولكن الجاهل لا يرى إلا الظواهر، فقد تجلى عليه باسمه (المميت)، وعلى العالم باسمه (المحيي)، وهو قادر ومقتدر بما صنع في الثوب من صناعات مختلفة، إذ خلق نساجاً وخياطاً وهكذا، وعلمهم صنائع حتى لبسنا ثوب القطن، وهو وال يلي أمر الملك، ومنه هذا الثوب، فقد تولاه بهذه الأعمال، مع أنه متعال فليست ولايته بالمشابكة بل هو متعال. هذا وبقية الأسماء ظاهرة منطبقة على هذه الدنيا بأسرها، فلا شجر ولا حجر ولا جبل ولا طير إلا وقد دخلها صناعات وأعاجيب حولها من حال إلى حال، وقد تجلى الله عليها بتجليات ظهرت لنا من مبدئها إلى منتهاها.

فلابس الثوب وآكل الخبز قد اشتمل عملهما على آثار أسماء الله الحسنى التي دخلت في معاني صفاته. إذن صفات الله تعالى كأن لها أمثلة محسوسة بالبصر. فهذه أمثال مضروبة للناس، فمتى أشرقت القلوب تجلت لها الأسماء فيما تشاهده في أنفسها وفي الآفاق. وخير معوان لها العلوم الحديثة

لا سيما الكيمياء، وإلا فما هذا الجمال وما هذا الإبداع؟ كيف يكون النور هو مبدأ كل شيء؟ كيف يكون ثوبي وخبزي نوراً أو ناراً قد جمدا وخمدا. كيف يأكل الناس في الدنيا ناراً قد أخمدت؟.

بمثل هذا يفهم الناس قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]. وقوله تعالى هنا: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾[فاطر: ٢] الخ، وبهذا يقرب لنا فهم قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[الحديد: ٣].

اختلاف نتائج الطعام في أحوال الناس

أثبت الأستاذ «مكلم» بتجاربه على الفيران التي ظهر للعلماء أنها تأكل اللحم والخضر كالإنسان، فلها شبه به من حيث التغذية، فجعلها العلماء محل تجاريب الطعام. فهذا الأستاذ وهو مدرس لعلم الصحة بجامعة «جونز هبكر» قد جعل أربع فيران في ناحية وأربعة في ناحية أخرى، فغذى الفريق الأول بالماء والحنطة، وغذى الفريق الثاني بنفس الطعام مضافاً إليه أوراق لفت أو بنجر فكبر الفريقان، وزادت أفراد الفريق الثاني في أحجامها ضعف أقسام الفريق الأول، ولم يحصل بينهما فرق إلا في ذلك.

وهكذا صنع علماء اليابان فقد أخذوا يغذون فريقاً من التلاميذ بغذاء أهل اليابان، وفريقاً آخر بغذاء الأمم البيضاء، فزاد الفريق الثاني في الطول بضع بوصات وهكذا في الوزن. وهكذا علماء أمريكا جربوا هذه التجارب في التلاميذ بمدينة «بلطيمور» الأمريكية فوصلوا إلى ما وصل إليه علماء اليابان من النتائج، فكانت النتيجة أن الصينيين واليابانيين والكوريين وأهالي جاوة وغيرهم من الشعوب إنّما قصرت قاماتهم للأغذية التي يتعاطوها، بخلاف الشعوب الطويلة القامة، فإن الأغذية أثرت في أجسامها فطالت وضخمت.

وفعلت هذه التجارب نفسها بواسطة «الكولونل ماكربسن» من أطباء مصلحة الصحة الهندية، إذ وجد قبائل «السيخ» و«الباتان» أكبر من قبائل «المدراسي» ونحوهم من الهند، فوجد الأولين يتناولون الألبان والخضر ونحوهما واللحم، والآخرون ليسوا كذلك، فجرب هذه الحال في الفيران كالأستاذ «مكلم»، فكانت النتيجة كما تقدم تماماً. وهكذا فعل هذا الفعل في الجرذان، فأطعم طائفة منها طعام فقراء العمال الإنكليز، وطائفة أخرى طعام اليابانيين، فكانت الفيران التي تناولت طعام الإنكليز الفقراء خشنة الجلد ميالة إلى النزاع والحرب، والفيران التي تناولت طعام اليابانيين وسكان فيليبين وجاوة صغيرة الأحجام والقامات وظهرت فيها بعض صفات هذه الشعوب.

هكذا رأى العلماء أن مرض «البري بري» يصيب ملايين من سكان الهند والشرق الأقصى على الأخص، فيموت منهم نحو مائة ألف كل سنة، وذلك بسبب أكل الأرز الأبيض المقشور، لأن مادة الفيتامين لا تكون إلا في الأرز الأسمر، فالمادة المغذية إنّما تكون في قشر حبة الأرز، ومرض «البلاغرا» يصيب سكان الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة الأمريكية وهو يفشو بين القبائل التي يقل الغذاء فيها، وغالب طعامهم الذرة وهي لا تعطي جميع المواد المغذية فهي قاصرة، والعين قد تصاب بغشاوة بسبب فقد الفيتامين من الطعام، وهكذا يحدث مرض الجلد بسبب حذف بعض

عناصر الغذاء من الطعام، وبعض أطباء اليابانيين أحدث قرحاً في المعدة على هذه الطريقة ثم شفاها، ومرض الكساح سببه قلة التغذية ويشفيه تناول زيت كبد الحوت وهو المعروف بزيت السمك. انتهى ملخصاً من المقتطف.

كل هذه العلوم عرفها الإنسان بسبب أن شهوة الطعام أوجبت على الإنسان تعاطي الغذاء، وتعاطي الغذاء دعاه للبحث، ولما بحث وجد أن اختلاف الغذاء يوجب اختلاف القامة والخلق وهكذا. إذن هذه الأغذية من أعظم المؤثرات في هذا الإنسان.

الثواب والعقاب

إذن ثواب الناس وعقابهم سيكون كنتائج الأغذية، فكما أن العقول البشرية لا تعترض على قصر قامة الياباني لاقتصاره على طعام الأرز ونحوه ولا ترى أن هناك ظلم في قصور قامة الياباني من نظيره من أهل الشرق الأدنى والأوروبيين طوال القامات. فالنتائج لها مقدمات ولا غبار على تلك النتائج بعد المقدمات.

إذن شهوة الطعام وغيره إنّما خلقت في الإنسان لتفتح عين بصيرته. فالجاهل يرى في الطعام لذة في حاسة الذوق، ولكن العالم يرتقي للذة العقل فيقول للجهال: أنتم تأكلون كما تأكل الأنعام لا تعلمون إلا ما تحس به حواسكم.

أما أنا فإن عقلي يستلذ بإدراك المعاني المخبوءة في الأغذية والفواكه، وينسى الشهوة الصغرى التي اشترك فيها الحيوان والإنسان.

هنالك فتحت للإنسان بصيرته فماذا فعل؟ تمادى في الكشف والعلم فحفر الأرض واستخرج كنوزاً، وسافر في البر والبحر وفي الطيارات وبحث عن العوالم المخلوقة في القطبين.

فقال صاحبي: هذه شهوة البطن لا غير. فقلت: كلا، هي شهوة علمية، والدليل على ذلك أن الذين توجهوا للقطبين مات كثير منهم، فهذه شهوة معرفة الحقائق أو الذكر والصيت ونحوها.

نشط الإنسان في زماننا هذا نشاطاً لم يعهده، واختلط الغرب بالشرق، وظهرت الكنوز والعلوم المدفونة، فالنقود والحلي والخزائن الذهبية والجواهر المخزونة ظهرت في أقطار كثيرة، وأبدع الناس وانتشروا في الأرض وطاروا في الأقطار بطياراتهم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وسار الإنسان سيراً حثيثاً سريعاً لا سيما لما ارتقى الطيران، فامتطى الإنسان غارب الهواء بالطيارات والبالونات، كما امتطى غارب الماء بالمراكب، وامتطى صهوات الجياد في الفلوات، فسافر الناس إلى القطبين في هذه الأيام. كل ذلك سر: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] الخ.

وصف مناطق القطبين من حيث علم الفلك

تلك البلاد التي جعلها الله من أعجب العالم، سنتها يوم واحد، فالقطب الشمالي يبتدئ يومه من أول فصل الربيع وينتهي بآخر فصل الصيف وهناك يبتدئ ليله، وهكذا القطب الجنوبي يبتدئ يومه في أول فصل الخريف وينتهي في آخر فصل الشتاء ثم يبتدئ نهاره وهكذا. وصفة الشمس هناك أنها تجري جرياً رحوياً أي كما تدور الرحا، فهي تدور حول سكان تلك الأقطار مدة ستة الأشهر كما

يدور الثور في الساقية والبقرة في الطاحون، ولكنها في أثناء الدوران ترتفع شيئاً فشيئاً إلى نحو ٢٣ درجة من السماء، ثم تهبط راجعة ثم تغيب.

سعى الناس في أيامنا لكشف تلك الأقطار كأنهم قرؤوا هذه الآية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، وكأنهم قرؤوا قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، فقوله: «جميعاً» يراد به أن لا نذر شيئاً إلا بحثناه وعرفناه، فماذا عرف الناس هناك؟ عرفوا البترول والفحم والحديد والنحاس وغيرهما.

إن احتياج الناس للطعام وما يعين عليه أداهم إلى كشف الأقطار البعيدة بشغف علمي، وقد فهموا من صنع ربهم أنه خلقهم للعلم والعمل وقال لهم ما قاله طارق بن زياد: العدو من ورائكم والبحر أمامكم، قالها للجيش الإسلامي وهو يغزو بلاد الأندلس، هكذا الله يقول للناس: ذل الحياة من ورائكم والموت أمامكم فلا بد من العمل، فشمروا عن ساعد الجد، وكشفوا القطب، وكثرت الطيارات، وارتقى نوع الإنسان ارتقاء نسبياً، لكنهم إلى الآن لم يصلوا إلى عشر معشار ما يقدرون عليه، لأن أكثر الإنسان معطل في هذه الأرض، أكثر الناس معطلون. فكم من عقول ضاعت لعدم استعمالها فيما خلقت له، وهذه الأرض قد ملئت خيرات وأهلها لا يزالون أطفالاً، فهذا غزال الرنة التي رأيت رسم صورتها في سورة «النور» مع غيرها يعيش في القطب البارد، وهكذا تلك النباتات التي تعد بالمئات قد حرم من الانتفاع بها الإنسان، وكذا الحديد والنحاس وغيرهما هناك، ولم يعرفها الناس إلا في زماننا. إذن ابتدأ الإنسان الآن يتعلم.

هذه بعض الآيات التي أراها الله للناس في هذا الزمان، وهي الآيات التي عرفها الناس بسبب احتياجهم للغذاء ونحوه، وهي مما فتح الله للناس من الرحمات.

الآيات التي عرفها الناس في زماننا بسبب قوتهم الغضبية

اعلم أن الإنسان كما عرف عجائب النبات وتركيبه وخواصه ومهلكاته وامتلاء الأقطار النائية به كالقطبين، هكذا نراه عرف بسبب قوته الغضبية علوماً أخرى عظيمة. ذلك أنك قرأت فيما تقدم تاريخ المسلمين بالأندلس وبالشرق، وهكذا تقدم أيضاً تاريخ قدماء المصريين، فكانت النتيجة أن الترف والنعيم يهلك الأمم، ومعنى هذا أن دولة العباسيين سقطت وذهبت ريحها ومزقت كل ممزق بسبب نظامهم السياسي المبني على أن الملوك هم المتصرفون، فاتبعوا الشهوات وأضعفوا الأمم الإسلامية، وهكذا تبعهم في ذلك سكان الأندلس إذ تفرقوا عشرين دولة وهم بين فكي الأسد في أوروبا، فقضموهم قضماً والتهموهم التهاماً وأكلوهم أكلاً لماً. ولقد تقدم واضحاً وعرفنا سر تشتت الأمم العربية شرقاً وغرباً، ورجع الأمر إلى الشر والجهل والترف والبطر واتخاذ النساء من أمم أخرى حتى فسدت الدولة وساء المصير.

نعم نحن رأينا هذا وعرفناه، إذن فلنتب من هذا ولنستغفر الله، ولنسر بسيرة غير سيرة آبائنا الأولين، فقد أيقنا الآن أمرين: الأمر الأول: أن نتائج الأغذية لا تخطئ قوة وطولاً وضعفاً وقصراً، هكذا نتائج الإمارة المستعبدة التابعة لأهواء الأمراء، فإنها مضمحلة ذاهبة، إذن فقد صدق الله وعده،

فإنه نظم التاريخ وخلق المؤرخين، فألقوا العلم إلينا وأصبح العلم أمامنا، والتاريخ يحدثنا حديثاً صحيحاً عن آبائنا أنهم وقعوا فيما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم، إذ قال في الحديث الصحيح: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا الخ». فهذا الحديث قد تم وظهر أن النبوة قد أخبرت بالمستقبل، وأخبر صلى الله عليه وسلم بما وقعنا فيه الآن من الذلة بسبب فتوح البلدان لآبائنا، فاتكلوا على ما بأيديهم، ولم يتعلم الشعب كيف تستفيد الأمم من أرضها وأعمالها وذلك بعض القرون الأولى، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٦-٤٧].

إن هذا القول منطبق علينا الآن، وإن هذا التفسير قد جمع زبدة هذه المباحث، وسيكون والحمد لله لها آثار قريبة المنال هو وأمثاله إن شاء الله تعالى.

فنحن معاشر المسلمين جميعاً سكنا في مساكن أمم خلت وأكثرها ظلمت أنفسها، وعرفنا بالتاريخ ـ كالذي قرأته فيما تقدم عن ابن خلدون وغيره ـ أنهم كانوا مترفين ظالمين كما علمت، وبعضهم من آبائنا العرب.

إذن هذا قول الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣].

فالآيات قسمان: آيات في الأنفس ومنها تاريخ العرب الإسلاميين ومنها عاشوا معهم من المسلمين، وآيات في الآفاق وهي التي عرفناها في تحليل الغذاء إلى عناصره وفي عجائب القطبين ونحوهما، وفهمنا فهماً لا شك فيه أنه لا فرق بين كون طعام أهل اليابان يوجب القصر وغيره يوجب الطول، وبين كون الترف والتنعم في الأمم يورث زوالها، والفضائل والعدل فيها يورث بقاءها. إذن العلوم والتاريخ الآن مضبوطات ونتائجها لا شك فيها، إذن الله أرانا فعلاً آياته فعرفناها، وأن حياة الأفراد بالأغذية نتائج تابعة لها، كما أن حياة الأمم تبع لأخلاقها الفاضلة، وموتها تبع لخستها وترفها والله حكيم عليم. لقد علمت يا الله أمم ممن حولنا تاريخ الأمم فعملت به فاحترست فطالت أيامها أكثر من طول أيام دول أخرى قديمة. وهذه المباحث مما فتح الله للناس من الرحمات تفسيراً للآية.

نتائج تعليم الله لنوع الإنسان في هذا الزمان

اعلم أن نتائج التعليم في العصر الحاضر أن النوع الإنساني قد اعترته حال جديدة زحزحته عن أكثر ما لديه من أحوال التعليم، ثارت ثائرة هذا الإنسان، أخذ يسير في الأرض وقد زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها، ففتحت خزائنها وظهرت كنوزها وأخرجت موتاها من القبور بأجسامها لا بأرواحها وعرفوا المعادن وأنواع السوائل المخزونة في الأرض فاستخرجوها، وسارعوا إلى القطبين فرأوا ما لم يره السابقون، وأخذوا يستنطقون الأحجار فنطقت وأخبرتهم مما حل بالقرون السابقة والأمم الخالية، وأخذ الناس يسأل بعضهم بعضاً ماذا يحل بآلنا بعد الآن، وأخذ الناس يركبون الطيارات، ولا يمضي إلا زمن قليل حتى يركب الناس الطيارات ويكونون في غدوهم ورواحهم كالطيور الصافات. هنالك فقط ينتفعون بنعم هذه الأرض كما انتفعت الطيور برحلة الشتاء والصيف المذكورة في سورة «النور» عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾[النور: ٤١].

ستكثر الطيارات وتستعمل للأفراد ويشارك الناس الطير في جو السماء، فيصير هذا الجسم الثقيل الإنساني كالطيور ويجوب الأقطار ويقتحم الأسفار، وهنالك تحصل للناس حال جديدة إذ تصير جميع الناس في عمل ويقل الكسل والجهل ويعم التعليم. ولا يعيش في هذه المدنية المقبلة إلا المتعلمون تعليماً حقيقياً. ولا يكون في الناس من يكون عالة على غيره إلا المرضى والأطفال. والتعليم يكون عاماً بواسطة نفس الأمة. هنالك ترقى الإنسانية ويكون ذلك حالاً نسميها التوكل، لأن التوكل حق التوكل هو أن يعمل الإنسان كل ما في طاقته ويترك الأمر في نتيجة عمله لله عز وجل. هنالك يظهر لنا معجزتان:

الأولى: الحديث الوارد في الصحاح أن الرجل يأتي بصدقة فلا يجد من يأخذها، وقد ذكر في هذا التفسير سابقاً.

الثانية: هو قوله صلى الله عليه وسلم: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً». فهذا تلويح إلى زماننا هذا إذ يطير الناس كما تطير الطيور في الجو ويجوبون الأقطار. فلا يحضرون في الأمصار كالطيور، والطيور تجوب وتقطع مهامه لا يعرفها الإنسان، أذكرك بما تقدم في هذا التفسير من أن القوم يبحثون بالطيارات عن قارة مجهولة جهة الأقطار الشمالية، لأنهم رأوا الطيور ترحل إليها، فتوكل الطيور هو أجلّ توكل، لأن الطير لا يتكل بعضه على بعض، ولكن هذا الإنسان لنقص نظامه تستبد طائفة منه بالثروة وتترك الباقين فيقل العلم والصناعة، فلذلك نرى هذا الإنسان ناقصاً نقصاً فاحشاً محزناً مؤلماً، فاجتهاد جميع الأفراد كاجتهاد الطيور يرفع الإنسانية رفعة لا حد لها، هنالك تزول الزكاة كما ورد في الحديث إذ لا محتاج، فإن الرزق موجود في كل مكان، بل ربما كانت هناك منابع للرزق غير ما نعرفه تحقق معنى الحديث. إن هذا الزمان زمان انتقال وهو بعض ما يفتح الله للناس من رحماته.

(١) لقد زاد الطيران بسرعة فصار ٣٠٠ ميل في الساعة للطيارة في الجو.

(٢) وهذا سيجعل القفر عامراً، فسكان أستراليا انتقلوا فجأة بالطيارة من أوائل القرن التاسع عشر إلى العشرين، أي: من السير على المركبات والجياد إلى ركوب الطيارات، إذ تمكنوا بالطيارات من قطع مسافة ٥٠٠ ميل فوق القارات التي بين مدينتي برن ودربي في أستراليا، و٤٨٠ ميلاً من اديليد إلى ملبورن، و٥٠٠ ميل من ملبورن إلى سدني، و٥٠٠ ميل من سدني إلى بريسبن.

(٣) بعض المستأجرين الأراضي هناك وهو شيخ بلغ السبعين قطع مسافة ١٢٠٠ ميل في يوم واحد، وكان يقطعها قبلاً في ستة أسابيع على جواده.

مصادر القوة

يقول الأستاذ «صدى» البحاثة في أشعة الراديوم وغيره من مصادر القوة والضوء: إن مصادر القوة التي يعتمد عليها أبناء هذا العصر قريبة الزوال.

(١) لقد استخدم أهل الترويج الضباب الصناعي لوقاية الحاصلات من الصقيع. وذلك بتغطيتها بالبخار الساخن.

(٢) الأستاذ « لوسيان دانيال » ولد نباتاً ينتج طماطم فوق سطح الأرض وبطاطس تحت سطحها في مدينة « رين » بفرنسا .

وقد تنبأ بعض علماء الفسيولوجيا والكيمياء بأنه يأتي يوم يتخذ الإنسان غذاءه من نفس القوة الحيوية المخبوءة في الجوهر الفرد ، لأن قوته مستمدة من قوة الشمس ، وذلك بأن يوصل بدنه بآلة كهربائية خاصة تتصل بتلك الجواهر الفردة بحال خاصة فيمتلئ جسمه بما يحييه ويغنيه ، وهذا رأى « المستر ولز » ، والعلماء اليوم كلهم يقولون : إن كل قوة في الأرض إنّما هي من الشمس ، فكل القوى في أرضنا مستمدة منها ، لذلك يحولون وجوههم وهممهم نحوها .

هذه أماني العلماء في المستقبل ، وهذه منتهى أبحاثهم . كل ذلك تفسير للحديث : « ترزقون كما يرزق الطير الخ » ، وحديث الصدقات إذ لا تجد من يأخذها . وهذا يدل على أن أرضنا ستكون فيها أيام سعادة لأجيال قادمة . هذا هو المقصود من أنه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وأنه آخر الأنبياء والمرسلين .

وإياك أن يصدك عن هذا أن المسلمين جهال . فهؤلاء الجهال سيثبون وثبة واحدة تهتز لها الأرض ، وهذه الوثبة ليست للحرب وإنّما هي للحكمة والعلم ، وسيعرفون آراء الأمم ويقرؤون ، لأن هذا مما فتح الله من الرحمات .

(١) رأي المسيو « ألبرت أودن » في كتابه « أصل الرجال العظام » : إذ ذكر الذين اشتهروا بالأدب الفرنسي شعراً ونثراً في خمسة القرون الماضية ، فأثبت أن تسعة أدباء من كل مائة أديب اشتهروا من أولئك الفقراء ، والفقراء في فرنسا ٩٧ في المائة ، فالطبقة الغنية القليلة هي التي أنجبت النابغين فيها في خمسة القرون الماضية ، وطبقة الأشراف في فرنسا وهي جزء من مائة منها أنجبت ٢٥ في المائة من النابغين في الأدب الفرنسي في القرون الخمسة المذكورة ، والوضيعة لم تنجب سوى ٣ في المائة ، وروايات الأشراف هي التي أحدثت الانقلاب في فرنسا .

(٢) ويعرف المسلمون رأي السر « فرنسيس غلتن » العالم الإنجليزي الذي بحث في مدة ٢٥ سنة ، فوجد في كل ٤٠٠٠ شخص من العامة ينبغ واحد في القضاء ، أما القضاة الذين هم أبناء قضاة فيكون واحد من ثمانية يشتهر الشهرة عينها .

(٣) ويعرفون أيضاً رأي الأستاذ « أميرتوسافيوتي » الذي بحث في تلاميذه بميلان فرتبهم هكذا :

(أ) أبناء أصحاب المهن الحرة	٥١,٩
(ب) أبناء الطبقة التجارية العليا	٥٠,٨
(جـ) الطبقة التجارية العادية	٤٧,٢
(د) الخدم	٤٤,٤
(هـ) الصناع	٤١,٧

فقد امتحن قوة ذكائهم فوجد هذه النتيجة .

(٤) ويعرفون رأي عالمين من علماء السيكولوجيا في تلاميذ مدرسة في بروكسل ببلاد البلجيك ولا يؤمها إلا أبناء الأغنياء، فوجدا ذكاءهم يفوق المتوسط لمن في سنهم، وقد ظهر لهما في امتحان أولاد الأغنياء الذين لا يزيد سنهم على ٩ سنوات في إحدى المدارس فوجدا أنهم مثل أولاد الفقراء في العاشرة ذكاء.

(٥) ويعرفون رأي العالم السيكولوجي «سيريل»، إذ وضع أسئلة فوجد الأولاد الذين يعيشون في أزقة «لفربول» القذرة يستغرقون ١٢٣ ثانية في الإجابة، وأبناء التجار يستغرقون ٩١ ثانية، وأبناء الأساتذة والمطارنة ٧٤ ثانية.

(٦) ويعرفون رأي الأستاذ «لوس ترمن» الأمريكي، إذ يقول: إن التفوق في الذكاء يزيد ٥ أضعاف في أبناء الطبقة العالية والاجتماعية عن أبناء الطبقة الواطئة.

(٧) ويعرفون رأي الدكتور «هفلك ألس» الفيلسوف الإنكليزي إذ بحث ١٠٣٠ نابغة من الإنجليز رجالاً ونساء سنة ١٩٠٤ فكانوا على هذه الصفة.

الطبقة العالية	١٨,٥	الجيش والأسطول	٦,١
رجال الكنيسة	١٦,٧	صغار الموظفين	٣,٢
رجال القانون	٧,١	التجار	١٨,٨
رجال الطب	٣,٦	الصناع	٩,٢
المهن المختلفة	٧,٦	الفلاحون	٠,٦

(٨) ويعرفون رأي الدكتور «كاتل» رئيس مجمع تقدم العلوم الأمريكي، إذ جمع سير ٩٥٠٠ رجل من رجال أمريكا المتفوقين في العلم فوجد أن أصحاب المهن يبلغون ٣٨ في المائة من المجموع وقد أنجبوا ٤٣,١ في المائة من النابغين، و٤١,١ في المائة من المجموع يشتغلون بالزراعة أنجبوا ٢١,٢ من النابغين، و٣٤,١ من المائة من المجموع هم أهل الصناعة والتجارة أنجبوا ٣٥,٧ في المائة من النابغين. إذن ثلاثة في المائة من سكان أمريكا وهم أصحاب المهن الحرة أنجبوا نصف علمائها.

(٩) ويعرفون رأي الدكتور «أدون لفت كلارك»، إذ بحث في أصل ٦٦٦ رجلاً من رجال الكتابة والتأليف، فوجد أن أصحاب المهن الحرة أنجبوا ٤٩,٢ في المائة من الرجال الذين تناولهم البحث، والمشتغلون بالتجارة أنجبوا ٢٢,٧، والمشتغلون بالزراعة أنجبوا ٢٠,٩، وغيرهم ٨,٢.

(١٠) وسيعرفون رأي الدكتور «كلارك» إذ يقول: الفقر لا يخلق النبوغ ولا الغنى، ولكن الغنى يساعد وهو أكبر معوان على إظهاره. والمستقبل يقول: إن النبوغ لا يكون لغير المتعلم. والله أعلم.

هذه آراء عشرة من رجال العلم في الأمم المختلفة المحيطة بنا، أثبتوا أن القضية المشهورة عندنا معاشر المسلمين أن الفقر يدفع إلى النبوغ قضية خاطئة، نعم إن ذلك دافع للعمل ولكن يحتاج لمساعدة المال.

وبعد هذا سيعلم المسلمون علماً ليس بالظن أن ما هم عليه من سوء الحال ناجم من جهلهم بنظام ربهم، إذ حرم على هذا الإنسان أن يرقى إلا متحداً، والمسلمون منع عنهم الرقي أن كل امرئ

منهم لا يريد إلا نفسه أو أقاربه وهذا جهل محض، فالله يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾، ويقول ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فلست أستعين بالله وحدي ولا أعبد وحدي، والمسلم يقول في الصلاة أيضاً: السلام عليك أيها النبي. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فهو يسلم على الأمة مرتين في ضمن الصلاة على نبينا صلى الله عليه وسلم لأنه رمز لها كلها، فالمسلم عليه مسلم على الأمة ضمناً لاتحاده معها، والمصلي عليه مصل عليها معه، فهو يطلب من الله رحمته وهي ظل له فكأنه طلب لها الرحمة معه. إذن الصلاة في معناها رمز للوحدة العامة الإسلامية. فعلى قادة الأمم الإسلامية أن يجعلوا التعليم عاماً، وأن يبذلوا للصبيان كل ما يحتاجون إليه بحيث يكون أبناء الفقراء في ذلك كأبناء الأغنياء تقريباً، وهناك يظهر النبوغ وترتقي بلاد الإسلام.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: إن هذا الموضوع جميل ولكن أراك أدخلت معنى قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[الزلزلة: ١] في ضمن هذا المقال، هل تريد بهذا القول أن قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ يرجع إلى هذه الحركة العامة، هل هذه زلزلة؟ وهل إخراج الأرض أثقالها هو ما نراه من علوم الآثار الخ، وهل قراءة أخبار الأمم على أحجارها مثلاً مثل القوانين التي كتبها حمورابي؟.

كل ذلك تفسير للآية، وهل أعمال الناس في الكشف الحديث والجد في العمل يرجع لقوله: ﴿ أَشْتَاتًا ﴾[الزلزلة: ٦]، وهل قوله: ﴿ لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[الزلزلة: ٦] معناه أن كل امرئ يعمل ويعطى الرزق غالباً من عمله ولا يتكل إلا على ربه وأن عمله له سواء أكان قليلاً أو كثيراً. قلت: هل أخذت هذا من كلامي؟ قال: نعم. قلت: اعلم أن السورة واردة في القيامة، ولكنها منطبقة انطباقاً تاماً على أحوال عصرنا فلنا أن نقول هذا كناية، ولا جرم أن الكناية تشمل المعنيين معاً: المعنى الأخروي، والمعنى الدنيوي، وما الآخرة إلا صدى الدنيا والأمر سهل في هذا. وإذا كان العذاب في الآخرة فهو في الدنيا، وقد قررنا هذا في مواضع كثيرة من هذا التفسير.

يقول الله في أول سورة «سبأ»: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[الآية: ٢]، ثم ظهر أن هذا العصر هو عصر الخروج. فاستبان للناس أن الفرنجة قد استخرجوا من بلاد اليمن أخباراً كثيرة من أحجارها التي رسموها، وهكذا أتى بنفس هذه الجملة في أول سورة «الحديد» للإشارة إلى أن معدن الحديد مما يخرج من الأرض. فإذا قال: إن الأرض زلزلت، وكان المعنى أن ذلك يوم القيامة فليس هناك مانع أن يكون رمزاً لحال العالم الآن من الحركة العلمية والحربية التي زلزلت لها الأرض زلزلة بالحرب والأعمال العظيمة.

وهاهي ذه الكنوز العلمية والعملية قد أخرجت. وهاهم أولاء الناس شرقاً وغرباً يتساءلون قائلين: إلى أين نحن سائرون؟ ولا مجيب، ولكن الجواب ظاهر في الآية. ذلك أن كل امرئ سيقوم بعمله الخاص ويكون الناس كالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً. فهاهي ذه الطيارات أخذت ترتقي، وفي هذا اليوم وهو ٢٤ يناير سنة ١٩٢٩م بقيت الطيارات الأمريكية ستة أيام في الجو ولم تنزل من خلالها على الأرض؛ ومعنى هذا أن الطيران سيرتقي ويعم قريباً، ويكون للناس شأن آخر، فتعمر

الأرض التي لا زرع فيها، وتقوم حكومات توزع الأرض التي لا مالك لها على العاطلين من الأمم، وهناك يتكل الناس على ربهم فلا تحارب بينهم، وأيضاً لا يأكل القوي مال الضعيف ولا يدخر الناس مالاً، بل تكون الأرض كلها أشبه بدار واحدة لأسرة واحدة. وهذه الطيارات مقدمة لذلك العمل وبها يصبح الناس كالطير، وذلك من عجائب النبوة ومدهشاتها. وهذا المقام واضح في كتابي «أين الإنسان»، والحمد لله رب العالمين. انتهى ليلة ٢٣ يناير سنة ١٩٢٩.

آيتان في الكشف الحديث

الآية الأولى

كشف الحيوانات الذرية

من آيات الله التي ظهرت بعد ذلك كشف الحيوانات الذرية «المكروبات». وقد تقدم في سورة «إبراهيم» ذكر كشف علوم كثيرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾[إبراهيم: ٥]، ذكرتها في بيان تذكيري للمسلمين بأيام الله.

أنا أكتب هذا اليوم أعني يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٨ فأقول: إن الناس قبل ٢٥٠ سنة لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الحيوان، فاتفق أن رجلاً اسمه «ليونهوك» من دلفت بهولندة لا يعرف علماً من العلوم ولا لغة من اللغات الأجنبية، قد جعل أوقات فراغه في صنع العدسات، إذ سمع أن الإنسان إذا صنع عدسة كبيرة من الزجاج يقدر أن يرى بها الأشياء. فأخذ يطحن الزجاج ويصبه ليخرج العدسة المطلوبة، وبقي في هذه التسلية عشرين سنة فصنع مئات ومئات منها لتحسينها، حتى استطاع أن يصنع عدسة نقية مضبوطة، ولكنها لدقتها أمكنه أن يرى منها الأشياء الصغيرة في أحجام كبيرة على غاية الوضوح، فأخذ ينظر كل شيء بها مثل الشعر والنسيج وقطع من الجلد وزبان النحل ورؤوس الذباب فكان ذلك تفكهة له وسروراً لما في ذلك من الغرابة والسرور والبهجة. واستمر يفعل ذلك إلى أن اتفق له ذات يوم أن يكون أول كاشف لأعجب وأعظم العلوم الطبيعية وهو ذلك العالم الكبير الذي لا يحصى عدده ولا يعرف أمده.

الآية الثانية

حيوانات شتى في الماء الصافي

ذلك أنه وضع نقطة من الماء النقي تحت العدسة، فلما نظرها أخذته الدهشة، فسمعته ابنته وهو يناديها: تعالي أسرعي، تعالي انظري الحيوانات الصغيرة في الماء الذي نشربه، إنها تعوم، هاهي ذه تجري وتلعب ويجري بعضها وراء بعض، ما أعجبها. إنها أصغر بآلاف المرات من أي حيوان نراه بالعين المجردة، انظري انظري هذه الحيوانات التي أكتشفها. فبهذا الكشف انتقل من حال إلى حال وعرفه الناس وعظم قدره وظل يجاهد طول حياته. وأحدث بهذه المعلومات ضجة كبيرة، ولقد قيض الله بعد وفاته لهذا العلم قسيساً إيطالياً اسمه «سبالانزاني» فزاد هذا العلم درجته وتقدم به خطوة، إذ برهن أن هذه المخلوقات ليست توجد هكذا بغتة بل هي تتناسل كما يتناسل الحيوان المعروف. انتهى الكلام على الفصل الأول فيما فتح الله به على الناس باستخراج ما في العناصر الأرضية والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

فيما فتح الله به على الناس بكشف خيرات كانت خافية عليهم فظهرت لهم

نذكر في هذا الفصل أحد عشر موضوعاً وفيما يلي بيانها :

أولاً : ثروة القطب الشمالي .

ثانياً : أرض كشفت في دائرة القطب الجنوبي .

ثالثاً : ما نأكله من نور الشمس ونتداوى به . والكلام على المنسوجات الكيميائية .

رابعاً : أعجوبة مدهشة في البناء .

خامساً : ما نستخرجه من الألماس .

سادساً : من أحدث الاختراعات وعجائب العلم الجليد السخن وصنع الورق من حطب الذرة .

سابعاً : الغاز الطبيعي .

ثامناً : ساعة تبين الزمن وأوضاع القمر والشمس . وساعة تشتغل بنفسها أمداً طويلاً .

تاسعاً : عجائب العلم الحديث التسع .

عاشراً : أغرب غرائب أمريكا .

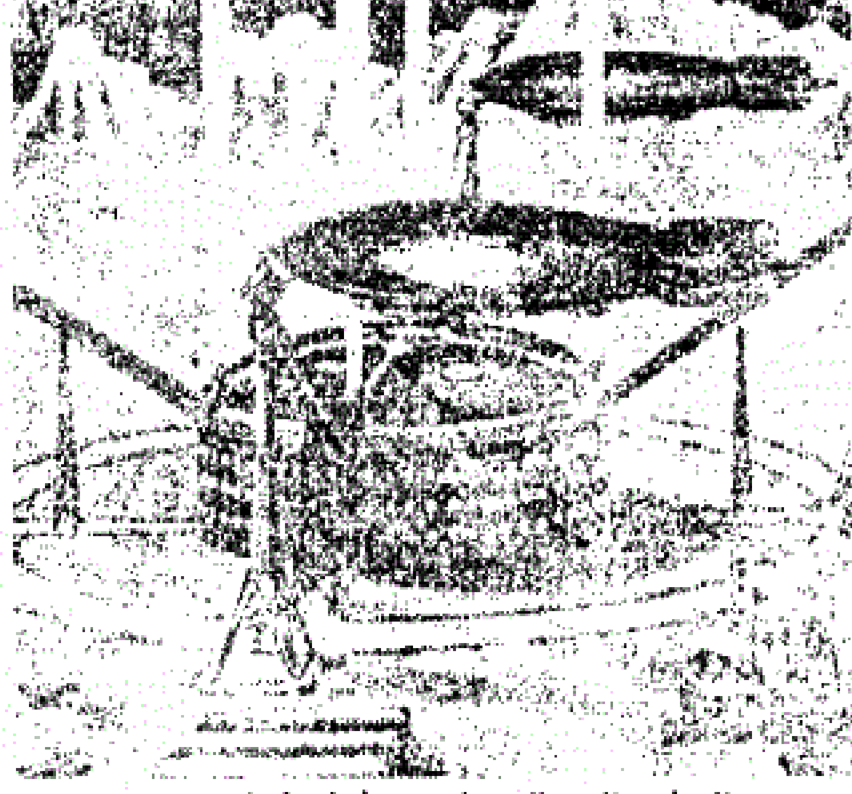
حادي عشر : الأطفال ذوو العقول الجبابرة .

أولاً: ثروة القطب الشمالي

جاء في جريدة كوكب الشرق بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٢٩م ما نصه : يقول المكتشف « ستفانسون » :

إن في القطب الشمالي مناجم من الفحم والبترول والحديد والنحاس ، وإذا كانت هذه المناجم لم تكتشف وتستغل للآن فإن علاماتها كلها واضحة ، أما النباتات فكثيرة وخصوصاً تلك الغابات المؤلفة من الأشجار المخروطة .

وفي القطب الشمالي من النباتات المزهرة ٧٦٢ نباتاً ، وأقدر أنواع الحيوان التي تستطيع المعيشة في برودة القطب هو الرنة الغزال المعروف ، وتقدر مصلحة الزراعة في الولايات المتحدة أن في ألاسكا وحدها من الأعشاب ما يكفي أربعة ملايين رنة . ويعيش في القطب غزال المسك ويمكن تدجينه بسهولة ، وستجعل الطيارات للقطب الشمالي مركزاً عظيماً تحط فيه وتقلع منه في أسفارها بين أوروبا وأمريكا وآسيا . انتهى . وسترى في الرسم التالي ما يحقق ذلك . انظر شكل ١ .



القطب الشمالي ملتقى الخطوط الهوائية

(شكل ١ ـ رسم محطة الطيارات والبالونات في القطب الشمالي كما تخيلها أحد المهندسين)

ثانياً: الأرض في دائرة القطب الجنوبي

جاء في جريدة المقطم بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٩م:

مات أشهر رواد القطب الجنوبي، فقضى «أمندصن» النروجي وسكوت «الإنجليزي» وغيرهما من أولئك الأبطال الذين ازدروا المخاطر وتجشموا أعظم المشاق الحجاب الذي كان يحجب دائرة القطب الجنوبي عن عيون البشر فكان لهم ما أرادوا. ولو عاشوا إلى اليوم لأبصروا دول العالم تتسابق لامتلاك تلك القارة التي كانوا يعتقدون بوجودها، ولو أنها لم تكن الغرض الأكبر والأول من رحلاتهم فقد وصفت التلغرافات الخصوصية والتلغرافات العمومية أمس ما هو واقع من المنافسة بين الأمريكيين والبريطانيين والأستراليين على رفع الرايات على بلدان هذه القارة الذي تقول بعثة «بيرد» الأمريكية إنها اكتشفت منها بالطيارات ما مساحته أربعون ألف ميل مربع، وقد سبق أن عينت حكومة أستراليا بعثات برياسة المستر «موسون». هذا الذي ورد ذكره في التلغرافات أمس للإيغال في دائرة القطب الجنوبي ودرس طبيعة أرضها وبحارها وجوها، لما لذلك كله من العلاقة الجوية بالبلدان التي تتلوها شمالاً، ولما يرجى أن يجنى منها من الفوائد المادية كصيد الحيتان واستخراج بعض المواد. فهل تصير تلك الجهات مسكناً للبشر متى غصت الأرض بسكانها ولم يعد في القارات المجهولة مجال لخلق جديد؟ هذا ما يحتمل أن يكون إلا إذا مكن العلم البشر قبل ذلك من التماس مقام لهم في العوالم الأخرى المجاورة لعالمهم كالمريخ من السيارات. اهـ.

ثالثاً: كيف نأكل نور الشمس ونتداوى به؟
والكلام على المنسوجات الكيمائية

ظهر في حوانيت البدالين الأمريكيين منذ بضعة أسابيع غذاء جديد للفطور من القطاني، مشبع بضوء الشمس الصناعي الذي ينبعث من مصابيح كهربائية قوية، فكان هذا الغذاء أول مادة صحية مشمسة تشميساً صناعياً عرضت في الأسواق. وسوف تعقبها أنواع شتى على ممر الزمن. ويعتبر الغذاء المتقدم ذكره باكورة ثمار الاستنباط العلمي الذي استنبطه الأستاذ «هاري ستينبوك» من أساتذة مدرسة «ويسكونزين» الجامعة بأمريكا، متوخياً به وقاية الإنسان من فتك الأمراض. وقد كان في وسع المخترع استثماره بطريقته العلمية هذه فتدر عليه الملايين من الجنيهات، بيد أنه استصوب ألا يضن بها على الخلق، فنزل عنها مدفوعاً بعوامل الشفقة على الإنسانية المعذبة بالأوصاب. وما عتم ذلك العالم أن أماط اللثام عن استنباطه هذا المدهش.

وفحواه أن الغذاء المشبع بضياء الشمس خير واق من الكساح «داء العظام الرهيب»، وأنه يرجو نجعه أيضاً في منع التدرن وفقر الدم، حتى خشي عاقبة وقوف التجار ـ ولا سيما من لا خلاق لهم ـ على كنه اختراعه فيتخذونه ذريعة لابتزاز المال من خلق الله، فهرع إلى معمله الخاص بالتحليل الكيماوي فحطم ما كان يحويه من المصابيح الشمسية القوية، وأعاد الفئران البيضاء التي أتاحت له اختراعه الجليل إلى أقفاصها، ثم عمد إلى ديوان تسجيل المخترعات طالباً إعطاءه رخصة باختراعه ليحتكره.

ولما أن ظفر بأربه ذاك، نزل عن اختراعه العظيم المشار إليه ورخصته أيضاً وكل ما يتعلق به لجامعة « ويسكونزين ». وعلم كبار صناع الأغذية بالاختراع المتقدم ذكره، فقصدوا إلى العلامة « ستينبوك » مستوضحين. فلم يسعه الإيعاز إليهم بالتوجه إلى أمناء الجامعة السابقة الذكر ليتلقوا منهم الإجابة عما يبغون.

وهناك علم وفد التجار بأنه لا يحظر عليهم الانتفاع باختراع التشميس الصناعي السالف الذكر، بشرط ألا يزيدوا أثمان المأكولات عما هي عليه من أجله، فقبلت هذه الشروط طائفة من الشركات المشهورة ومنها شركة كبيرة تدفع الآن سنوياً عشرة آلاف جنيه لأمين صندوق الجامعة في مقابلة الإباحة لها بالمتاجرة بالمواد الغذائية المشمسة بالطرق الصناعية. وكل ما استغلته الجامعة حتى الآن من الاختراع الذي نحن بصدده هي القطاني المشمسة التي يعرضها التجار المشار إليهم للبيع، وسيعقبها باقي الغلات في القريب العاجل. هذا، ولا بد من إدراك العلماء ذات يوم كنه تأثير ضياء الشمس ولا سيما الأشعة التي فوق البنفسجي التي يولدها الدكتور « ستينبوك » وغيره من العلماء بالطرق الصناعية أي بالمصابيح الشمسية، في حياة الجنس البشري.

وكان أهالي بلاد بيرو القدماء وطوائف الزورواستبرن القديمة وخلفاؤهم عبدة النار في الهند وغيرها من القبائل القديمة والشيع الدينية تعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الشمس مصدر الحياة، فأيدت المباحث الحديثة تلك الاعتقادات الدينية العتيقة. وطالما أطلقنا اسم « اللفح الصحي » على تلويح البشرة من التعرض للشمس، وما علمنا إلا من عهد حديث أن ذلك نتيجة تأثير الأشعة الخلفية التي فوق البنفسجي في الجلد، ثم تحققنا كون هذه الأشعة تمد الجسم بخاصيات منعشة أطلق عليها اسم فيتامين، وأننا إذا لم ندخل هذا الفيتامين في أجسامنا مع طعامنا ونحصل عليه في أبداننا من طريق الجلد ما استطعنا التمتع بسلامة الصحة ولا هناءة المعيشة زمناً طويلاً. والنساء أسبق من الرجال إلى تطبيق هذا الرأي العلمي على حياتهن، كما أثبت ذلك الدكتور « افرايم ملفورد » رئيس الجامعة الطبية في نيوجرسي أمام مجمع الأطباء من عهد حديث. ولا يخفى أنهن أطول أعماراً من الرجال وأشد مقاومة للأمراض وألين عطفة تجاه الاجتهاد.

ويعزو الدكتور « ملفورد » السبب إلى الأزياء الحديثة « المودة » التي تحتم على النساء لبس ملابس أقصر من اللازم وأقل من الواجب، وهن بذلك يعرضن أنفسهن للأشعة التي فوق البنفسجي بينما الرجال ما زالوا مصرين على تغطية أبدانهم من قمة الرأس إلى أخمص القدم بالثياب الصفيقة القائمة. يقول المؤلف: هذا رأي وللدين موقف آخر.

إذن يخلص مما تقدم أنه كلما اشتد بياض اللباس وتضاعفت مسام نسيجه، سهل اختراق الأشعة التي فوق البنفسجي إياه، كما أثبتت ذلك مباحث مصلحة المقاييس في الولايات المتحدة بأمريكا. أما المنسوجات المصبوغة والتي اصفر لونها قليلاً لقدمها فإنها تكاد تمنع اختراق الأشعة للجلد منعاً باتاً. ومما جاء في هذا الموضوع في تقرير قدمه الدكتور « سيل هاريس » من أطباء مدينة برمنجهام في ولاية مدينة ألاباما بأمريكا إلى المجمع الطبي الأمريكي قوله: إننا نحفر قبورنا بأسناننا بنبذنا الأطعمة

المحتوية على الفيتامين، وبإقبالنا على الأغذية المكونة من السكر والنشاء. إذ كل ما يعتري الإنسان من ضعف مقاومة الأمراض المعدية التي تصيب الأنف والزور والمعدة والأمعاء إنّما ينجم عن التغذي بخبز مصنوع من الدقيق الناصع البياض، والبطاطس البيضاء والأرز المبيض واللحوم الهزيلة والقهوة المشبعة بالسكر والنقل المحلى بالسكر، والمشروبات الحلوة، والمربيات ونحوها. وقد عزا زيادة أمراض المعدة إلى كثرة استهلاك السكر والأطعمة الحلوة، فقال: كان الفرد في الولايات المتحدة مثلاً منذ خمسين سنة يستهلك في السنة ٣٦ رطلاً من السكر، فأصبح معدل مقطوعيته الآن مائة رطل وستة أرطال في السنة. وما الإصابة بالنوازل والتهاب الرئة والتدرن والتهاب الزائدة الدودية وقرح المعدة وداء الصفراء إلا نتيجة انعدام الفيتامين في غذاء الأشخاص الملازمين للحياة الجلوسية في أمريكا وغيرها، فإذا استطاع المرء أكل طعامه نيئاً هان عليه الحصول على ما يعوزه من الفيتامين، لأن الآلة البشرية يتسنى لها أداء وظائفها على خير ما يرام إذا اقتصر الشخص على أكل ما يصيده أو يحصل عليه بعرق الجبين، لأن ذلك يقتضي إجهاد العضلات وتعرضها لضياء الشمس كي تحصل على الغذاء المشبع بالفيتامين لتعرضه هو أيضاً لضوء الشمس.

وإذا كان أسلوب الحياة هذا لا يتفق ومدنيتنا الصناعية الحاضرة، فجدير بنا الإكثار من أكل المواد الدهنية والجوز والأثمار والخضراوات ولبس أخف ما نطيقه من الثياب والمشي في ضياء الشمس بقدر ما تسمح به حالنا ثم الوثوق بحسن المصير.

وبينما كان الأستاذ « ستينبوك » يغذي الفئران البيضاء بالحبوب في معمله الكيماوي المظلم كان زملاؤه من العلمّاء في أمريكا وأوروبا يجربون حصر ضوء الشمس في قناني لانتفاع الملأ به، فقد جاءت الأنباء من معامل التحليل الكيماوي في إنجلترا وألمانيا بأنه قد استنبطت مادة إذا عرضت لضوء الشمس أو للضوء الذي فوق البنفسجي أصبحت دواء ناجعاً يفوق زيت كبد الحوت « الباكلاه » المعروف باسم زيت السمك ألوفاً من المرات، ويقال: إن كل ست أواق منها تعادل طناً من زيت السمك من جهة الفائدة العلاجية. وقد سماها العلماء « أرجوستيرول »، وهي تتركب من الخميرة وتشبع بضوء الشمس. وتوجد منها مقادير ضئيلة في بدن كلّ جسم صحيح. فإذا انعدمت من أي جسم أمكن تجديدها بحقنة دقيقة من « الأرجوستيرول » لا يمكن قياسها لصغرها. ويبلغ من شدة مفعول هاتيك المادة أن الحقنة الواحدة منها إذا زادت على المتوسط بضع حبات أعقبت الموت الزؤام أشد من الزرنيخ. أما طريقة الاهتداء إلى المادة السحرية المتقدم وصفها، فأمر طريف بدأ بتجارب باشرها العلماء قصد تحسين طعم زيت السمك لكيلا يعقبه من يوصف له ليستطب به. وقد أسفرت التجارب الأولى التي تحرى بها العلماء تحسين طعم ذلك الزيت بتنقيته مما يشوبه من الشوائب من ضياع فائدته الطبية. فكانت هذه النتيجة أول دليل على أن رواسب زيت السمك هي العنصر الشافي الفعال فيه. وقد واصل الأستاذ « جورج بارجر » المدرس بجامعة « إدنبره » البحث في هذا الموضوع، فاستدل على أن الفائدة الطبية لزيت السمك كلها محصورة في مادة « الأرجوستيرول ». وهذه توجد كثفل في المواد الدهنية.

ثم حذا حذوه الدكتور « أدولف وندوس » الخبير الألماني بجامعة « جوتينجن »، فأثبت أنه بتعريض مادة « الأرجوستيرول » لضياء الشمس أو للنور الذي ينبعث من مصابيح الأشعة التي فوق البنفسجي يمكن استغلال مادة ذات قوة شافية مثل قوة زيت كبد السمك « القد »، سهلة الهضم جداً حتى على أضعف معدة. وقد نال الدكتور « أدولف » من أجل هذا الاستنباط جائزة نوبل في الكيمياء لسنة ١٩٢٨ وقيمتها أكثر من ٨٠٠٠ جنيه.

ويستفاد مما تقدم أن فائدة زيت السمك في العلاج متوقفة على رواسبه المشار إليها، ومصدر قوتها « الرواسب » ضوء الشمس الذي يرشح من الماء إلى السمك العائم في البحار، فإذا ما مس ضوء الشمس مادة « الأرجوستيرول » حوّلها إلى فيتامين من الطبقة الرابعة وهو الفيتامين الدالي « نسبة إلى حرف الدال في الأبجدية »، ونعني بها عنصراً من العناصر الخفية الضرورية في الغذاء التي يعتقد العلماء الآن أن فوائدها الصحية إنّما هي امتصاصها ضوء الشمس وادخارها إياه. والفيتامين الدالي هذا هو النوع الشافي للكساح، ويتولد الجسم البشري بطريقة عجيبة لم يوفق العلماء للوقوف على حقيقتها إلا من زمن قريب. وتبيان ذلك: أن مادة « الأرجوستيرول » المدخرة في الجسم البشري تتطرق منه إلى البشرة حيث تتشمس بضوء الشمس ويمتصها الجسم ثانية مشفوعة بالفيتامين المنعش. وبما أنها تساعد في هذه العَملية يشير الأطباء بالاحتراس عند التشمس بضوء الشمس الصناعي المتولد من المصابيح. هذا ما جاء في مجلة مصر الحديثة والله أعلم. انظر شكل ٢ وشكل ٣.



(شكل ٢ ـ الأستاذ هاري ستينبوك من أساتذة جامعة ويسكونزين الذي كشف حقيقة كون الغذاء المشمس بضياء الشمس يساعد على منع الأدواء، والذي أسدى إلى الجنس البشري حبوباً غذائية صحيحة).



(شكل ٣ ـ صبي كسيح في حمام الشمس بمستشفى من مستشفيات مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة بأمريكا حيث يعالج من داء تدرن العظام بنور صناعي كضوء الشمس ينبعث من مصابيح الأشعة التي فوق البنفسجي).

الكلام على المنسوجات الكيمائية

من الغايات التي يسعى إليها العلم اليوم أن يستعيض عن المزروعات بالمواد الكيماوية، والعلماء مجدون في استنباط وسيلة يغذى بها الجسم دون أن يحتاج إلى الطعام كما نعرفه اليوم، إذ يريدون أن يحقنوا المرء إذا جاع بحقن تحتوي على خلاصة تغني عن الأكل، ولهم من ذلك غرضان: أما الأول: فأن يواجهوا بالعلم زيادة السكان المطردة مع عدم كفاية الأراضي المزرعة، وأما الثاني: فالسعي إلى زيادة التوقي من الأمراض وجعل الهيئة الاجتماعية صحيحة الجسم، لأن الحقن المغذية الكيمائية تكون معقمة خالية من الجراثيم، على حين أن الطعام الذي يقدم إلينا اليوم مجرد عن هذه الحيطة الصحية، والآن وقد حل عام جديد يمكن أن نتنبأ ونحن على ثقة من تحقيق هذه النبوءة أن هذا العام لا ينصرم إلا وقد توصل الكيماوي إلى عرض الثياب على اختلاف أنواعها مصنوعة من مواد كيماوية فلا يعود تفشي الموت بين دود القز أو إصابة نبات القطن بالآفات سبباً يدعو إلى ارتفاع أثمان الثياب. فإذا كانت هذه الآفات اليوم تروعنا وتثير مخاوفنا فإن هذا لن يدوم طويلاً، وسوف لا تعود هذه الأنباء تلقى منا أي اهتمام، مات دود القز، فليكن، مات نبات القطن، فليكن، ولكن الكيماوي ما زال على قيد الحياة أيها السادة، فهو يستطيع أن يخرج لنا منسوجات خير من نسيج القطن أو الحرير، ومثل هذه الثياب الكيمائية تكون أفضل من الثياب الطبيعية لأنها أرخص ثمناً، إذ لا تتأثر المواد الكيمائية بالآفات أو الكوارث كما هو شأن المزروعات. كذلك يصبح من السهل صبغها بأي لون مطلوب بحيث يلائم بشرة لابس الثوب. ومعنى ذلك أن أناقة النساء سوف تزداد إلى درجة ملموسة.

رابعاً: أعجوبة مدهشة في فن البناء

كنيسة تنقل بذاتها من مكان إلى آخر

جاء في مجلة «الجديد» ما نصه: كثيراً ما يقال إن أمريكا بلاد العجائب وأنها في هذه الحادثة بالذات تعمل أعجب ما عرفناه عنها، فقد نقلت الأخبار الأخيرة أن بعض كبار المهندسين في الولايات المتحدة نجحوا نجاحاً مدهشاً في نقل كنيسة السيدة العذراء بشيكاغو من مكانها إلى مكان آخر وهي التي ترى في هذه الصورة (شكل ٤). فقد نقلت بذاتها من أحد جانبي الطريق إلى الجانب الآخر، وهذه هي أول مرة يستطيع الأمريكان فيها أن ينقلوا بناء كبيراً بهذه الضخامة، لأن ما حصل قبل ذلك لم يكن إلا في أبنية صغيرة، وقد استخدم في نقلها أربع ونشات كبيرة ومائتا رجل وخمسمائة ألف قدم من أسلاك الصلب السميكة وثلاثة آلاف عجلة وأربعة آلاف آلة رافعة وخمسمائة ألف قدم من الخشب، وبديهي أن هذه الأعجوبة الهندسية العظيمة قوبلت بمزيد الدهش في جميع أنحاء العالم. انظر صورتها شكل ٤.

(شكل ٤ ـ رسم كنيسة تنقل بذاتها من مكانها إلى مكان آخر)

خامساً:الكلام على استخراج الألماس

جاء في مجلة «اللطائف المصورة» ما نصه: اشتهرت مدينة «امستردام» في هولندا بتخصص أهلها في فن تنظيف الألماس وتنقيته، فإن معظم ما يستخرج من هذا المعدن الثمين في ولايات أفريقيا الجنوبية يرسل بالحالة التي استخرج فيها إلى مدينة امستردام هذه، حيث يقوم الأخصائيون هناك بعملية تنظيفه وتنقيته واختيار الصالح منه ووزنه ثم يعيدونه إلى أصحابه نظيفاً نقياً، وفي امستردام معامل عديدة يشتغل فيها ألوف من الكيماويين والصياغ وتعد منبع ثروة البلاد.

والألماس عند وصوله إلى المعامل ينظف من التراب والمعادن الأخرى التي تكون قد لصقت به وذلك بواسطة آلات أعدت لهذا الغرض. ثم يشتغل أناس من الأخصائيين بفرز ما تنظفه الآلات فتوضع القطع النقية إلى جهة والتي فيها عطب أو تشوب نقاوتها شائبة إلى جهة أخرى، وبعد ذلك يعمد فوج آخر من الأخصائيين إلى وزن هذه القطع جميعها بدقة فائقة نظراً إلى قيمة الألماس وعلو ثمنه. والأشكال الثلاثة الآتية (شكل ٥) و(شكل ٦) و (شكل ٧) تمثل الأدوار الثلاثة المهمة التي يمر بها الألماس قبل وصوله إلى التجار والمشترين، وهذه صورتهن.



تنظيف الألماس

(شكل ٥ ـ منظر عام للآلات التي يجلس إليها العمال المنوط بهم تنظيف الألماس من الأتربة والمعادن الغريبة. والآلات لا تقوم بالعمل كله بل إن العامل يستعمل يديه وحدة نظره. ويرى في الصورة أحد المفتشين الذين يسهرون على العمل ويراقبون العمال).



فرز الألماس

(شكل ٦ ـ عملية قطع الألماس واختيار الصالح منها من الطالح. ويقوم بهذه العملية رجل لا يستخدم إلاَّ يديه وملقطاً صغيراً يتناول به القطع الواحدة بعد الأخرى).



(شكل ٧ ـ منظر الاختصاصي الذي عهد إليه بوزن قطع الألماس بعد تنظيفها وفرزها. وعمله هذا أدق من الأعمال الأخرى إذ على نتيجته يتوقف تحديد ثمن الألماس وعرضه للمبيع).

سادساً: من أحدث الاختراعات والفوائد العلمية وعجائب العلم

الجليد السخن وصنع الورق من ورق الذرة

استنبط الأستاذ « برسي » و« بردجمان » أحد معلمي مدرسة هارفرد الجامعة بأمريكا جهازاً يستطيع به إحداث ضغط صناعي يقدر بـ٦٠٠٠٠٠ رطل على ما مساحته بوصة مربعة واحدة، وتسهيلاً لإدراك كنه هذا الضغط الذي يعتبر أشد ضغط أدركه المخترعون حتى الآن نقول إنه يعادل في الوقت نفسه ضغط الماء في قعر المحيط على عمق ٢٥٠ ميلاً، ثم إن ضغط صرح من الصروح الفولاذية في نيويورك التي أطلق عليها اسم ناطحات السحاب لعظم ارتفاعها وثقلها لا يعادل بعض ثقل الضغط الذي يتولد من الجهاز المشار إليه، وبه يتحول الفولاذ إلى مادة لينة يمكن تمديدها ويتحول شمع البرافين إلى مادة أصلب من فولاذ الآلات، ويصبح الشمع المرن قاسياً جداً بحيث تصنع منه مقاطع للفولاذ، وبهذا الجهاز يجمد الزئبق تحت ضغط مقداره ٢٠٠٠٠٠ رطل مع أنه يتجمد عادة عند درجة ٤٠ تحت الصفر أو أسفل منها، ومع كل هذا يقول العارفون: إن الجهاز في حد ذاته غير معقد التركيب إذا قيس بغيره من الأجهزة العلمية، فهو بمثابة طلمبة هواء عادية تولد الضغط المطلوب. ولذلك يؤتى بالمواد المراد ضغطها وتوضع في تجويف صغير يجوف في قطعة صلبة من الفولاذ ثخنها خمس بوصات، ثم يغطى التجويف بسداد صغير من الفولاذ أيضاً يتمدد بتأثير الضغط فيقي محتويات لتجويف والهواء من الإفلات.

وقد حدث في أثناء التجربة أن انفجر التجويف فانغرزت شظاياه في لوح خشب صنوبري صلب عمق ست بوصات في ظهر الجهاز، وفي تجربة أخرى استخرج البيض من ماء جليد سخن بتعريضه لضغط مائة ألف رطل فظهر أنه مسلوق سلقاً جامداً.

حطب الذرة وصنع ورق الصحف

من أحدث الوسائل التي استنبطها العلماء للانتفاع بالمواد الزراعية المهملة والفضلات الحلقية العاطلة تحويل حطب الذرة بالطرق الكيمائية إلى عجينة لصنع الورق اللازم لطبع الكتب والمجلات والجرائد. وقد جرب ذلك أول مرة رؤساء تحرير الصحف في مدينة دنفيل بولاية إيلينو إحدى الولايات المتحدة بأمريكا كي يستوثقوا من صلاحيته للطباعة. فاستبانوا أن هذا الورق سيفاخر الأصناف التي تصنع من عجينة الخشب، ويمارس الباحثون الآن تجارب أخرى يبغون بها الوقوف على مبلغ ما تتكلفه عمليات إنتاج المقادير الكبيرة منه وهل ستفضي إلى قصد بعض نفقات الطبع أو لا.

هذا، وقد اتضح أن ورق الطباعة المصنوع من عجينة حطب الذرة أشبه بورق عجينة الخشب، بل إن ذلك أمتن قواماً من هذا وأنصع لوناً وأسهل تشرباً للمداد. وكان أول كتاب تم طبعه من هذا النوع الجديد مؤلفاً موضوعه مطابق للبحث نفسه، وهو المجلد الأول في المنافع الصناعية للحاصلات الزراعية المهملة لمؤلفه الأستاذ « جورج م. روميل » الذي انتدبته حديثاً وزارة الزراعة في الولايات المتحدة لبحث مسألة الانتفاع بالمواد الزراعية التي لا يعبأ بها الزراع أو لا يجنون منها أرباحاً تذكر. اهـ.

سابعاً: الغاز الطبيعي

الفحم الذي نشعله في بيوتنا ونطبخ عليه طعامنا يصنعه الإنسان بحرق الأخشاب مطمورة بالتراب، فتحترق احتراقاً بطيئاً يزيل منها الأبخرة والغازات ويبقي فيها المادة الخشبية على ما هو معهود ولكن الفحم الحجري الذي نوقده في المعامل والبواخر صنعته الطبيعة في العصور الجيولوجية وخزنته في جوف الأرض، فوجدناه غنيمة باردة وكان يمكن أن يكون من المنافع العمومية التي لا ثمن لها كالهواء ونور الشمس لولا ما ينفق على استخراجه ونقله من مكان إلى آخر.

والغاز الذي تنار به هذه المدينة «مصر» وغيرها من المدن الكبيرة يستخرج من الفحم الحجري باستقطاره منه استقطاراً. ثم ينقى ما يخالطه من الشوائب ويوزع على الشوارع والبيوت بالأنابيب المعدنية كما توزع المياه، واستقطاره وتنقيته وتوزيعه يقتضي نفقة كبيرة فتضاف إلى ثمن الفحم الحجري، وربما رأس المال وتفرض على المستصبحين به، ولكن الفحم الذي يستقطر الغاز منه لا يضيع سدى بل يبقى نافعاً للوقود وهو المعروف بالكوك، والشوائب التي تستخرج عند تنقية الغاز يستخرج منها أكثر أنواع الصباغ المعروفة الآن من ذاك ثلاثون لوناً من الألوان الحمراء وستة عشر من الألوان الزرقاء وستة عشر من الصفراء واثنا عشر من البرتقالية وتسعة من البنفسجية وسبعة من الخضراء، عدا ألوان أخرى من السمراء والسوداء.

وقد يزيد ثمن الشوائب على نفقات استخراج الغاز وتنقيته، فيستخرج لأجل استخراجها منه فقط ولو لم ينتفع به للإنارة. وفي جوف الأرض غاز طبيعي كما فيها فحم طبيعي، وهذا الغاز الطبيعي كان معروفاً في بلاد الصين منذ سنين كثيرة. وكان الصينيون يثقبون الأرض ثقوباً ضيقة ويستخرجون الغاز منها ويوقدونه لتبخير المياه المالحة واستخراج الملح منها. وعندهم آبار له عمقها ألف متر. وقد عرف في أمريكا منذ أكثر من مائة عام، ولكن لم يسع أهلها في استخراجه واستخدامه للوقود والاستصباح إلا منذ خمسين سنة في أواخر القرن الماضي في ربيع سنة ١٨٨٤، ألف بعضهم شركة تجارية في مدينة فندلي بولاية أوهايو من ولايات أمريكا لتثقب الأرض وتستخرج الغاز الطبيعي منها، وكان عدد أهالي تلك المدينة حينئذ (٤٥٠٠) نفس، ولم تشرع الشركة في عملها حتى شهر أكتوبر من تلك السنة، فثقبت بئراً عمقها (١٠٩٣) قدماً ووضعت فيها أنبوباً وأشعلت الغاز المنبعث من الأنبوب فامتد لهبه في الهواء ثلاثين قدماً، وكان هذا اللهب يرى على مسافة ثلاثين ميلاً من كل ناحية، وقدروا الغاز المنبعث من هذه البئر يومياً بمائتين وخمسين ألف قدماً مكعبة، فتقاطر الناس لرؤيتها من كل فج. وسنة ١٨٨٥ ثقبت بئراً عمقها ١١٤٤ قدماً فانبعث الغاز منها انبعاثاً لم يعهد له مثيل، فيسمع صوت خروجه منها على ثلاثة أميال، ويرى لهبه على مسافة أربعين ميلاً من كل ناحية، ويقدرون مقدار الغاز المنبعث يومياً من هذه البئر باثني عشر مليوناً من الأقدام المكعبة. ومن ثم أخذ سكان المدينة يزدادون بكثرة النازحين إليها فبلغوا ستة آلاف نفس في غرة سنة ١٨٨٦، وعشرة آلاف نفس في ربيع سنة ١٨٨٧ ونحو ١٨ ألف في أواخر تلك السنة، واتسعت مساحة المدينة وغلا ثمن أراضيها وأنشئت فيها معامل للزجاج والحديد والآجر والكلس ونحو ذلك مما يقتضي وقوداً كثيرة،

لأن أصحاب الغاز الطبيعي أجروه في أنابيب إلى المعامل وأوقدوه فيها بدل الفحم، وأجروه أيضاً إلى بيوت السكان فاستعملوه للطبخ والاستدفاء، واقتدت مدن كثيرة بمدينة فندلي في كل ولاية أوهايو وأنديانا، ويقدرون الآن أنه ينبعث من مدينة فندلي كل يوم ستين مليوناً من الأقدام المكعبة من الغاز، ومن غيرها من المدن المجاورة أربعون مليوناً.

وأكثر هذا الغاز يستخدم في الأعمال النافعة بدل الوقود على ما تقدم. وكانوا في أول الأمر يحرقونه عند أفواه الآبار فيذهب ضياعاً. أما الآن فقد اقتصدوا فيه مخافة أن ينفذ. وحالما شاع أمر الغاز الطبيعي أخذ الناس يتفلسفون في أصله وما يؤول إليه استخراجه من الأرض فقال بعضهم: «إن الأرض مجوفة وجوفها مملوء بهذا الغاز وهو علة تعلقها في الجو، فاستخراجه منها شديد الخطر لأنها إذا فرغت منه تصدعت وتحطمت ووقعت من مكانها في السماء». وهو من أسخف الأقوال التي طرقت المسامع وقال غيره: «إن الغاز ليس مالئاً جوف الأرض كلها بل بعض الأجزاء وإنه يخشى أن تمتد النار الخارجية إلى مصدره الذي تحت ولاية أوهايو وأنديانا فيشتعل دفعة واحدة وينسف الأرض نسفاً، فتصير تلك البلاد وادياً عميقاً فتجري إليه مياه «بحيرة آري» فيصير بحيرة كبيرة. وطلب من الحكومة الأمريكية أن تنظر في هذا الأمر وتمنع استخراج الغاز من الأرض» وهو أيضاً من السخافة بمكان.

وقال آخر: إنه تفحص أحوال الغاز الطبيعي بالتليفون والترمومتر فوجد أن درجة حرارة الأرض ٣٥٠٠ على عمق ميل تحت مدينة فندلي، وأن تحت المدينة مباشرة تجويفاً كبيراً مملوءاً بالغاز الطبيعي، وتحت الغاز طبقة من الصخور سمكها نحو ميل وتحت هذه نار متقدة تذيب الصخور بشدة حرارتها ولا بد من أن تذوب تلك الطبقة الصخرية فتصل النار إلى الغاز فيلتهب دفعة واحدة فينسف الأرض التي فوقه بما عليها. وكل هذه الآراء من الخرافات التي لا يؤيدها العلم لأن الغاز لا يشتعل ما لم يتحد جانب منه بجانب من أكسوجين الهواء، فإن لم يمتزج بالهواء فلا خوف من اشتعاله. اهـ.

ثامناً: ساعة تبين أوضاع الزمن وأوضاع القمر والشمس وساعة تشتغل من نفسها أمداً طويلاً

جاء في إحدى المجلات العلمية ما نصه: اخترع «المستر جورج فوتشر» من «لوس أنجليس» بالولايات المتحدة ساعة تبين الزمن وأوضاع القمر والشمس والأرض في أي وقت مدة ست سنوات، وهي تسير حسب النتيجة العبرية القديمة، أي باعتبار السنة القمرية وإضافة ما تنقصه عن السنة الشمسية وهو سبعة أيام وكسر في نهاية كل أربع سنوات لتكوين سنة كبيسة ذات ثلاثة عشر شهراً. اهـ.

واخترع أحد المهندسين في «بيرن» بسويسرا ساعة عجيبة تشتغل بنفسها، أي بدون أن يملأ زنبرقها كالساعات العادية وتمكث كذلك ١٠,٠٠٠ سنة وهي مبنية على استثمار تغيرات درجة الحرارة والضغط الجوي. انظر شكل ٨.



(شكل ٨)
رسم ساعة تشتغل من نفسها ١٠,٠٠٠ سنة

ويلحق بهذا عجيبتان

العجيبة الأولى:اكتشاف الطيارات في الجو

تمكن المستر «بيرد» المشتغل في أبحاث الرؤية من بعد من إيجاد أشعة يمكنها أن تعين مكان أي طيارة على أية مسافة ، وسيعرض هذا الاختراع قريباً فيحضر جهازه ويضعه فوق عمارة ويرسل منه أشعة مرئية ويصوبها نحو الطيارات المحلقة فوقه ، فإنها مهما بعدت فالأشعة تكون متصلة بها ولو لم تكن مرئية للناس وتصورها على الشريط مع بيان مقدار بعدها . ثم بعد ذلك يخرج من نفس الجهاز أشعة غير مرئية ويقوم بما فعله في الأول فتنطبع على الشريط صور مماثلة للأولى بالضبط ، وعلى ذلك يمكن الجزم بأنه أصبح في الإمكان اكتشاف الطيارات مهما اختلفت وبعدت في الجو ، فلا يمكن استخدامها على غرة في غارة حربية كما كانت تفعل الطيارات الألمانية في الحرب الكبرى .

العجيبة الثانية

قد اخترعت فونغرافات لتعليم اللغات بالألفاظ والصور ، فليس على من يريد تعلم أي لغة إلا شراء أحد هذه الفونغرافات الخاصة والأسطوانات الخاصة بهذه اللغة ، فإذا دارت الأسطوانة دار معها أيضاً شريط مصور فكل كلمة تنطق بها الأسطوانة يبنها الدليل على الشريط ، وبذلك يستطيع أن يتعلم أي لغة بدون حاجة إلى مدرس ويمكنه أن يعيد الأسطوانة كما يشاء حسب استعداده . وهذه ميزة لا يمكن أن توجد في تدريس الأساتذة . اهـ .

تاسعاً :عجائب العالم الحديث

أول ما يلفت النظر في عجائب العالم الحديث أنها من نوع آخر يختلف كل الاختلاف عن العجائب القديمة ، وإن تكن أعلى منها قدراً وأعظم نفعاً لجميع الجنس البشري ، فهي انتصارات للعلوم لم توجد بالرق والاستعباد وسلمت الإنسان زمام القوى الطبيعية يسخرها لنفعه كيفما أراد . وقد يكون ذيوعها وانتشارها في جميع الأنحاء العملية في أصقاع الأرض وجعلها طوع كل يد ، مما سبب عدم حدوث الروعة والدهشة من أجلها في النفوس ، ولكن لا ريب في أنها غيرت حياة الإنسان على هذا الكوكب في وقتنا الحاضر تغيراً كلياً لم تشهده الأمم الماضية حتى عهد قريب .

وقد استشارت مجلة العلوم الأمريكية أكبر العلماء عن آرائهم في أعظم عجائب العالم الحديث ، وقد وصلت عدة مئات من الرسائل من مشاهير العلماء في كل أمة . فأسفر تلخيصها وحصر ما فيها عن نحو خمسين عجيبة تعد من أقصر انتصارات العلوم في جميع مناحي الحياة العلمية والهيئة الاجتماعية . وقد استوجب هذا أن يستشير رئيس تحرير مجلة العلوم الأمريكية الدكتور «ستراتون» رئيس معهد الفنون في «ماساشوسيت» بالولايات المتحدة كي يختار له من بينها سبع عجائب فقط مجاراة للصيغة اللفظية التي يعبر بها عن عجائب العالم القديم . فلما قابله في مكتبه حيث يشرف على مئات من الشبان العاكفين على الأبحاث والتجارب العلمية كي ينقلوا إلى يد الإنسان مدهشات القوى الطبيعية ، أحاطه بمهمته فلم يك من الدكتور «ستراتون» إلا أن قابله بالدهشة وأجابه متعجباً : « سبع لا غير » كيف يكون ذلك؟ أيخيل إليك أنه يمكن أن نجعل عجائب الوقت الحاضر سبعاً فقط ،

هذا مستحيل بل المعقول أن تقول إنه يوجد في الوقت الحاضر ٧٧٧ عجيبة . وأخذ يسرد له قوائم مطولة على ترتيب حروف الأبجدية عن عجائب هذا العصر ، فذكر الآلات الزراعية والطيارات والسيارات والكباري الخ . ولما كانت أعمال الدكتور «ستراتون» لا تسمح له إلا بالقليل من الوقت . أمهله رئيس التحرير حتى يفكر في خلوته في انتقاء أعجب العجائب . وقصارى القول أنه عاد إليه في الموعد المحدد ، فوجد الإجابة مطبوعة بالآلة الكاتبة على قرطاس من الورق كما يلي :

(١) استكشاف البكتيريا واستثمارها فيما ينفع الناس .

(٢) تقدم العلوم في معرفة تركيب المادة ومعرفة التشعع .

(٣) تقدم علم الكهرباء واستثماره القوة الكهربائية في إيجاد الضوء والحركة .

(٤) الاحتراق الداخلي في الآلات .

(٥) طريقة البناء الحديث المعروف بالأسمنت المسلح .

(٦) التعدين الحديث .

(٧) طرق حفظ المواد الغذائية بدون تعفن أو فساد .

(٨) الطيارات والرحلات الجوية .

(٩) تقدم صناعة الآلات الميكانيكية .

وإنه من المفيد أن نبين بكل إيجاز ما أجمله في هذه الفقرات التسع .

فإن الأعجوبة الأولى وهي : استكشاف البكتيريا لا ريب في أنها من أكبر انتصارات علم الكيمياء في العصر الحاضر ، فقد لبث الناس طوال الأجيال الخالية لا يدركون شيئاً عن فعل الكائنات الذرية التي منها ما يقدم للإنسان أكبر الخدمات ، ومنها ما يلحق به أشد الأمراض ويهدد حياته بالأخطار المريعة ، كما كان يحصل في الطواعين وغيرها من الأمراض الوبيلة الفاتكة . حتى إذا جاء العالم العظيم «باستير» باستكشافه في هذه العوالم الذرية التي لا تحصى والتي بالرغم من تدخلها كل التدخل في حياتنا نفعاً وضراً ، فليست تراها العين المجردة ولكنها الآن أصبحت معروفة في كل مكان . فالمعروف من أنواع البكتيريا المفيدة يزيد على ٢٠٠٠ نوع ، وتوجد في العالم مئات من المعامل الكبيرة لدراسة حياتها وميزاتها ، وقد درست كذلك أنواع كثيرة من المكروبات أو الجراثيم التي تسبب الأمراض ، وعرفت طرق مقاومتها والقضاء عليها . ولذلك لم تصبح الإنسانية كما كانت في القرن السابق عرضة لأن تحصد أبناءها الأوبئة والطواعين ، بل صار لكل مرض ينشأ عن هذه الجراثيم الدواء الفعال الذي يقفه عند حد إن لم يستأصله بالكلية . ونشأ من ذلك استعمال المطهرات في كل شيء ، وعلى الأخص المياه في المدن المزدحمة بالسكان ، ولذلك يلاحظ ازدياد السكان في كل الأقطار الآخذة بأصول الحضارة .

وقد ذكر الدكتور ستراتون في الأعجوبة الثانية : تقدم العلوم في معرفة تركيب المادة ومعرفة التشعع ، فإن دراسة التركيب الذري للمادة قد أدى إلى انتصارات كيماوية وطبيعية ترتكز عليها كل الأعمال الصناعية وغيرها في الوقت الحاضر .

وإن أكبر هذه الانتصارات من غير شك هو اكتشاف الراديوم في سنة ١٨٩٨ بواسطة الطبيب الفرنسي « بيير كوري » و « مدام كوري » زوجته ، وليس من أحد يجهل ما يقوم به الراديوم الآن من المعجزات التي لم يكن يتصور العقل حدوثها .

على أن الراديوم لم يزل حديث العهد وينتظر له من الانتصارات العظيمة في المستقبل ما لا يمكن أن يذكر في جانبها ما عرف الآن من مزاياه ومبلغ قوته .

وأما الأعجوبة الثالثة وهي : تقدم علوم الكهرباء بحيث أصبحت من القوى النافعة الآن في المصانع والدور والبيئات الاجتماعية فظاهرة لكل ذي عينين . فإنه يرى الكهرباء في الطرقات في شكل أضواء زاهية لامعة حسبما يراد من القوة ، ويراها في المصانع قوة محركة لتقوم بما لا يمكن أن يقوم به الآلاف من الناس ، ويراها كذلك مستخدمة في وسائل المواصلات والنقل مثل التلغراف والتليفون والسكك الحديدية والتلغراف اللاسلكي والتليفون اللاسلكي والرؤية من بعد الخ .

وإن كل واحد من هذه الاختراعات العظيمة يعد أعجوبة لا تقدر ، ولا ريب أن اختراع طريقة الاحتراق الداخلي في الآلات أحدث فوق أديم الأرض كثيراً من التغيير في أحوال المجتمع الإنساني ، حيث سهلت المواصلات بعد أن كانت في العصور المرضية عقدة العقد . فهذه هي السيارات وإن تكن حديثة العهد ، ولكنها أصبحت الآن في كل مكان ، ويعرف كل إنسان ما تقوم من الخدمات النافعة ، ويوجد في الولايات المتحدة وحدها ٢٣,٠٠٠,٠٠٠ سيارة ، أي بنسبة سيارة واحدة لكل ستة أشخاص ويمكن أيضاً تقدير ما يستفيده الإنسان في هذه الأعجوبة إذا فكر في الآلات المختلفة التي تسير بالاحتراق الداخلي لري الأراضي أو الإضاءة أو لإدارة المصانع المختلفة ، فهذا مشاهدة في كل مكان .

وأما الأعجوبة الرابعة فهي : الطرق الحديثة في البناء المعروفة بالأسمنت المسلح ، حيث يستخدم فيها المعدن والأسفلت في وقت واحد .

وقد لا يعد البعض الأسمنت المسلح بين العجائب ، ولكنه إذا رأى كيف تبنى ناطحات السحاب في أمريكا وغيرها من البلاد لا يسعه إلا أن يقر بفضل هذه الأعجوبة التي يمكن أن يتم بواسطتها من البناء في بضعة أشهر ما كان يستغرق فيه بناة الأهرام عدة سنوات ، وأن حدائق بابل المعلقة التي لا ترتفع أكثر من ٤٠٠ قدم لا يمكن أن تعد أعجوبة إذا قورنت بأي برج من الأبراج الحديثة المبنية بالأسمنت والحديد ، ولاسيما إذا عرفنا أن القدماء كانوا يبنون بالطين ، وأكثر ما استعمله قدماء المصريين الجبس ، والرومان المواد البركانية مع الجير . وكان اختراع الأسمنت في سنة ١٨٢٥ ، ومن ذلك العهد تطور فن البناء وظهرت العمائر الضخمة ذات العشرات من الطبقات .

الأعجوبة الخامسة : وقد كانت انتصارات التعدين من أول الأمور المحققة لكثير من مناحي التقدم العمراني والصناعي ، حيث يجد كل صاحب صنعة أو عمل نوع المعدن الأكمل الذي يمكن أن يكون أعظم من سواه في العمل الذي يتعهده ، أو الآلة التي يصنعها .

الأعجوبة السادسة : وأن طرق حفظ الأغذية من التعفن والفساد لها قيمتها الكبرى ، لأن الأغذية من أول العوامل الحيوية اللازمة لوجود الإنسان . وقد كانت تحصل المجاعات في الأزمنة

القديمة ويهلك بسببها ما لا يحصى من الأمم. بينما توجد بلاد تزيد حاصلاتها على ما تستهلكه، فتطرح للتعفن والفساد بدون أن تستثمر في إنقاذ الهالكين في المجاعات. وصارت الحركة التجارية الآن في جميع أنحاء العالم تستثمر كل حاصلات كل قطر من الأقطار، ولولا طرق حفظ الأغذية لما أمكن أن يتم ذلك.

الأعجوبة السابعة: وبديهي أن من يعد عجائب العالم لا بد أن يذكر الطيارات وتقدمها العظيم كما هو مشاهد للعيان، فقد أصبحت تتم بها الرحلات بين جميع أقطار الكرة الأرضية، وهي تستخدم الآن في نقل البريد والمسافرين، ولها في إبان الحرب أروع الأعمال التي تكسب الجيوش الفوز والنصر. وذلك لأنها أول طرق المواصلات المحررة من القيود المكانية، فهي تسبح في الهواء أين تشاء.

وأما الأعجوبة الثامنة وهي: تقدم الآلات؛ فإنه يدخل تحتها ما لا يعد من الآلات التي تقوم بأعظم الخدمات للمجتمع الإنساني في أقل مدة من الزمن، مع أنها كانت تتم في العهود الماضية بمواصلة الجهود الشاقة في مئات الأمثال لهذه المدة، ومنها الآلات الزراعية المستخدمة في الحرث والحصاد ودرس القمح، ومنها آلات الخياطة والكتابة والحساب والطباعة، ويكاد لا يقوم الإنسان الآن بأي عمل من الأعمال بدون أن يستثمر فيه الآلات، وقد تكون قوته باستخدام آلة واحدة تعادل قوة عشرات المئات من أمثاله.

فهل بعد كل ما استعرضناه من المدهشات يمكن أن يقال: إن عجائب العالم الحديث لها عدد أو نهاية. انتهى.

أليس هذا وغيره سراً من أسرار الفتح الرباني الذي فتحه الله للناس من رحمته، وكلما فتح فتحاً جديداً للإنسانية على يد كاشف كشفه قامت في وجهه العقبات من حسد الحاسدين ومكر الماكرين. ولكن الله يقول: كلا، لا ممسك لرحمتي. فليكشف المسلم غوامض مخلوقاتي، وإذا قام في وجهه الحاسدون فليعلم أنه لا ممسك لرحمتي التي أظهرها لعبادي على يد واحد منهم، فأنا أنصر كل مجد لنفع الناس طراً، فليعلم شبان المسلمين قراء هذا التفسير وليشمروا عن ساعد الجد وليدلوا دلوهم في الدلاء مع العاملين لنفع الإنسانية كلها، وأنا أساعده وأنجحه، فإذا سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين فهذه كلمتنا لعبادنا الذين ألهمتهم أن يكشفوا عجائب رحمتي في العناصر والمادة.

ولا ريب أن من مقدمات النهضة الإسلامية في الأرض هذا التفسير، والله هو الذي فتح هذه الرحمة للمسلمين فلا ممسك لها. ويلحق بهذا أربع فوائد:

أولها: قياس سرعة البرق الصاعق

توصل العلم إلى قياس سرعة البرق بعد جهاد كثير من العلماء، ولا سيما الأستاذ «بويز» الطبيب الإنجليزي الشهير الذي مكث ستاً وعشرين سنة يقوم بتجارب واختبارات عديدة في هذا الشأن، حتى توصل إلى اختراع جهاز دقيق يحقق هذه الغاية بكل سهولة. وهذا الجهاز عبارة عن آلة فوتوغرافية شديدة التأثر ذات عدستين تتحركان بسرعة كبيرة. وقد وجد أن البرق الصاعق يتم تكوينه في ٠,٠٠٧ من الثانية، وأن أي جزء منه لا يمكث أكثر من جزء من (٣٥٠٠) جزء من الثانية.

ثانيها: أيحصل البرق الصاعق من الأرض أم من السماء؟

كان العلماء يذهبون إلى رأيين متناقضين في ذلك، فمنهم من يقول بأن البرق الصاعق يسقط من السرب إلى الأرض، ومنهم من يقول بوثوبه من الأرض. وقد أثبت الأستاذ «بويز» أن البرق الصاعق ينشأ من الطرفين، أي من الأرض والسحاب في وقت واحد تقريباً، ويتم ما بين طرفيه في الجو في نحو جزء من (٧٠٠٠) جزء من الثانية، وذلك لأن الفوتوغرافية التي صنعها كانت رسم بعدستيها طرفي هذا البرق في صورتين، وبقياس الوقت اللازم لرسمها بواسطة أجهزة دقيقة تمكن من أن يعرف الوقت اللازم لتكوين البرق الصاعق وسرعته.

ثالثها: من أين تأتي القوة؟

تأتي كل القوة التي في العالم إلا جزء قليل منها من الشمس، فإن الرياح والأمواج والشلالات والأنهار والزيت والبترول والفحم توجد فيها قوة الشمس أو هي قائمة عليها، وأن قوة المد والجزر التي تنسب للقمر هي في الحقيقة مستمدة بواسطته من الشمس.

رابعها: مصدر قوة الإنسان

ويستمد قلب الإنسان وأعضاؤه وعضلاته القوة من الشمس في الحقيقة، لأنها ليست ناشئة إلا من هضم السكر والنشا وهما مستخرجان من النبات، ومن الثابت أن النباتات لا تبني أنسجتها إلا بتأثير أشعة الشمس.

انتهى ما أردته من المجلة المذكورة، والله أعلم.

عاشراً: أغرب غرائب أمريكا

جاء في مجلة «كل شيء» ما نصه:

المستر وليمسون رجل أمريكي يعيش بنقل الصور الملونة للأسماك وسائر أنواع الحيوان، وكان أبوه قبطاناً قد اخترع زورقاً يغوص تحت الماء، وله أنبوبة تتصل إلى أعلى لتجديد الهواء، وكان غرضه من هذا الزورق استنقاذ السفن الراسبة، ولهذا الزورق عين كبيرة من البلور الصافي يبلغ قطرها ثلاثة أقدام، فيمكن الإنسان أن يرى الأشياء والحيوان تحت الماء بها، وقد مات القبطان ولم يستعمل الزورق للغرض الذي بني من أجله، وإنما استعمله ابنه المستر وليمسون في تصوير الحيوان، وقد مضى عليه (١٦) سنة وهو في هذا العمل. ولما تزوج أخذ زوجته إلى الزورق وقضى معها شهر العسل عند جزر باهاما، حيث اشتغل بنقل الصور، وباهاما من جزر الهند الغربية، والماء عند عمق (٢٥) قدماً يشبه النهار عندما تغيم السماء، ولكن لعين الزورق مصابيح كهربائية تشع ضوءاً باهراً في الماء، فيمكن نقل الصور كما تنقل على سطح اليابسة في النور العادي، وهذا إذا كان الماء هادئاً، أما إذا حدثت زوبعة وهاجت الأمواج بلغ الهياج قعر البحر فعندئذ يرتفع الطين الراسب ويعكر صفاء الماء كما يرتفع الغبار عندما تهيج الريح على اليابسة.

ويعيش الآن المستر وليمسون مع زوجته في هذا الزورق فيغوصان به في النهار ويصعدان إلى السطح في المساء، وقد يظن القارئ أن هذه المعيشة تسئم الإنسان وخصوصاً الزوجة، ولكن المستر

وليمسون تصف هذه المعيشة بأنها ليست خالية من الملاهي، بل تقول بأنها أحياناً كثيرة تجذبها المناظر فتبقى ساعات لا تدري بانقضاء الوقت لفرط ما ترى من غرائب الطبيعة وجمالها تحت الماء.

أما هذه المناظر فهي أعشاب البحر المختلفة التي تشبه المسروج والمراعي وهي في الواقع كذلك، فإن السمك وسائر الحيوان يسير بينها ويتخللها، يأكل منها أو يختفي في ثناياها كما يفعل الحيوان فوق اليابسة.

ومن المناظر الجميلة حقول المرجان بألوانها الزاهية المختلفة، وفي ملاحظة حركات الأسماك وأخلاقها ما يجعل الإنسان يقضي الساعات وهو لا يسأم.

والأسماك تختلف في المزاج والقوة والأخلاق، فقد ترى السمكة الصغيرة الخفيفة تعمد إلى سمكة كبيرة فتهاجمها وتضربها ثم تفر منها، وأحياناً تأتي سمكة فترى عين الزورق البلورية فتأخذ في التحكك بها ومسحها بأطراف فمها، وأحياناً تجرح البلور فيحتاج المستر وليمسون إلى صقله بضع ساعات لكي يعيده إليه صفاءه.

ويقول المستر وليمسون: إن اختباراته تدل على سوء الظن بالقرش خير من حسن الظن به، فهذه السمكة شريرة، وقد رأى قروشاً تتشاجر فيمزق أحدها الآخر تمزيقاً مروعاً. والقرش في البحر كالنمر على اليابسة يحب الافتراس والقتل، ولا ينفك عن ذلك وهو يأكل الرمة ولكنه يحب الأحياء من الناس ويأكلهم، والمستر وليمسون يزود السينماتوغراف بأفلام عن الحياة تحت البحر كما يزود المدارس والمتاحف بصور فريدة للتاريخ الطبيعي. اهـ.

حادي عشر: الكلام على عالم الطفولة

مدهشات عالم الطفولة

أولاً:

الأطفال ذوو العقول الجبارة

يوجد الآن في «سلوفاكيا» طفل في الخامسة من عمره حير العقول في مقدرته في الحساب، حيث يجيب على العمليات التي تستوجب من الحاسب أن يجريها بالقلم على القرطاس في بعض ثوان، ولقد أحضر في محفل كبير وسأله الأطباء لفحص قواه المدهشة: كم يوماً مضى منذ ميلاد المسيح؟ فأجاب هذا الطفل الجواب الصحيح بغير توقف. وما كان يعطى تاريخ ميلاد أي شخص من الحاضرين حتى يجيب بدون تردد عن مقدار ما مر عليه من الأيام والدقائق منذ ولادته، غير ناس لحساب السنوات الكبيسة التي تتخلل عمره، ورأس هذا الطفل كبيرة للغاية حتى أنه لا يمكنه أن يلبس أكبر قبعة عادية.

وظهرت أخيراً في الولايات المتحدة طفلة في الثامنة من عمرها تجيد التكلم بثماني لغات، وألفت ثلاث كتب وعدة مقالات وقصائد، ولما كان سنها ثلاث سنوات كانت تكتب على الآلة الكاتبة وتتكلم بالاسبرانتو والفرنسية، وإن تكن اللغة الإنجليزية لغتها الأصلية. ولما بلغت الخامسة من عمرها أخذت تقول الشعر.

الأعجوبة الحقة

ظهر في صحيفة من صحف لندن منذ قرن من الزمان ما يأتي:

جوتنجن في ٢٠ مايو: انتظم في سلك الدراسة في جامعتنا منذ ثمانية شهور طالب في منتصف السنة العاشرة وهو من عجائب المخلوقات، واسم هذا العالم الصغير «شارلس ويت»، ويعرف عنه أنه لما بلغ الثامنة من عمره كان يجيد إلى جانب لغته الأصلية وهي الألمانية اللغات الآتية: اليونانية القديمة واللاتينية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية، وهو قوي فيها إلى درجة الكمال كتابة وحديثاً، ويستطع أن يترجم بكل سهولة من «فيرجيل» و«هومر».

طفل دائرة معارف

وأغرب من هذا الغلام طفل اسمه «هنري كرستيان هينكن لوبك»، فإنه لما بلغ الشهر العاشر من عمره كان يستطيع أن ينطق كل كلمة في قاموس اللغة الألمانية مع ما هو معروف عن صعوبتها في النطق عن أية لغة من اللغات الحية، وما أتم السنة حتى كان ملماً بأشهر الحوادث في تاريخ العالم، ولما بلغ من العمر سنتين كان على علم تام بكل تواريخ التوراة وقصصها وأنبيائها ورجالها. ولما كان في الثالثة كان يجيب بمنتهى الدقة على كل سؤال في جغرافية الكرة الأرضية جميعها وتاريخ العالم القديم، وعندما بلغ الرابعة كان يشتبك في مجادلات حادة مع شيوخ الأساتذة في أربع لغات، ولكن العمر لم يمهله حتى يتم السادسة.

ثانياً:
أغرب طفل في العالم

وهو الطفل البلجيكي النابغة الذي تتحدث عنه الصحف الأوروبية والأمريكية، وتعده أعظم أعجوبة في عالم الطفولة، فهو لم يتجاوز السنة الثانية من عمره؛ ولكنه على الرغم من ذلك يعد أكبر الرياضيين وأصحاب المواهب الخارقة للعادة في علم الحساب، وهو يستطيع أن يضرب عدداً مكوناً من خمسة أرقام في عدد آخر من خمسة أرقام في ذهنه، أي: بدون كتابة، وينطق بحاصل الضرب بسرعة وبدون تردد، ولم يحصل أنه أخطأ في ذلك مرة. اهـ.

ثالثاً:
صبي في الثانية عشرة ينال بطولة مصارعة الثيران

لك أن تسميه شجاعاً، أو أن تصفه بما شئت غير ذلك من صفات البطولة، وإنما المهم هو أن في جمهورية «بيرو» صبياً لا يتجاوز عمره الثانية عشرة قد اشتهر على الرغم من نحول جسمه بمصارعة الثيران والتغلب عليها، وكان الكثيرون يظنون في هذه الشهرة شيئاً من المبالغة، ولكن حفلة كبرى لمصارعة الثيران أقيمت في «ليما بيرو» وحضرها ألوف من الجماهير وكثير من مندوبي الصحف، فبرهنت على أن شجاعة المصارع الصبي واسمه «رافاليتو ميحاس» ليست كاذبة ولا مبالغ فيها، فإن هذا البطل الصغير لم يصارع ثوراً واحداً؛ بل صارع ثورين فنجا من ضرباتهما وكان له عليهما الفوز والغلبة.

رابعاً

وهو ما جاء في جريدة الأهرام في يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٩م وهذا نصه :

عبقرية الأمي الفتى « ترك »

أشرنا منذ أسابيع في الأهرام إلى عبقرية الفتى الأمي المسمى « ترك » وإلى مقدرته الحسابية ومواهبه الخارقة للعادة . وعلى أثر صدى هذه السمعة استدعاه حضرة صاحب العزة مدير مصلحة المساحة وامتحن مقدرته ، وكتب إلى وزارة المالية يطلب إليها تعليم الفتى « ترك » على حساب خزينة الدولة ، حتى إذا أتم الدراسة عمل في خدمة الحكومة على مقتضى ما تؤهله إليه كفايته وظروفه إذ ذاك . وقد وافقت وزارة المالية على هذا الطلب طبقاً لما أشرنا إليه من قبل .

ومما هو جدير بالذكر أن نشير إلى بعض المسائل التي امتحن فيها الفتى المذكور ، فقد طلب إليه أن يذكر حاصل الضرب بين الرقمين ٦٤٥٣٢١٥٤ و ٣٤٧٨ فأجاب الإجابة الصحيحة بعد أربع دقائق . وطلب إليه معرفة خارج القسمة للعددين ١٧٦ , ٥١٦ , ٢٨,٨٦٣ على ٥٨٦٤ فأجاب إجابة صحيحة بعد عشر دقائق .

وذكر لهذا الفتى أيضاً أن المملكة المصرية تشتمل على ٩٩٦٣٢٧ كيلو متراً ، وأن الكيلو متر الواحد يساوي ٢٣٨ فداناً ، وأن المطلوب معرفة المساحة بالأسهم ، فأجاب بعد خمس دقائق بأن الرقم المطلوب البحث عنه هو ٧٧٦ , ٤٧٥ , ٤٨٥ , ١٣٦ ، وشرح له الجذر التربيعي والجذر التكعيبي ففهمه للحال واستخرج الجذور التربيعية والتكعيبية .

وهذا الفتى المذكور من « ششت الأنعام » بمديرية البحيرة . وبهذه المناسبة أشارت مصلحة المساحة إلى من حفظ التاريخ أسماءهم من أمثال الفتى المصري ، حيث ذكر اسم « جورج بيرور » وكان من عظماء المهندسين في العالم والمرجع الهام في أعمال السكة الحديدية . وقد ولد في إنجلترا سنة ١٨٠٦ وكان ذكاؤه بادياً في جميع أدوار حياته ، وقد حذق في فن الهندسة ، وعين رئيساً لمعهد المهندسين المدنيين وهناك أشخاص آخرون مثل « جوهان واز » الألماني ، فنرجو أن يكون للفتى المصري حظ هؤلاء العظماء . انتهى المقام الأول .

المقام الثاني

ما يمسك من الرحمات فلا يفتحه للناس رحمة بهم مثل ما ورد في الأخبار

أولاً : يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٢٩م ، وثانياً : يوم ٢٢ منه أيضاً من البرد في أوروبا ، وثالثاً : مثل ما جاء في يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٢٩م من ثورة الطبيعة في سوريا ، ورابعاً : مثل ما جاء في مجلة الجديد بعنوان ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٢٠٠ دولارا خسائر الجليد في العالم في كل شتاء ، وفيما يلي بيانها :

أولاً : البرد في أوروبا

لندن في ١٣ فبراير : بلغ البرد اليوم في بريطانيا العظمى كلها درجة تذكر ببرد القطب الشمالي ، ومن المنتظر أن يشتد ، وقد عرقلت المواصلات بالسكك الحديدية ، وعلى جميع الطرق في بريطانيا العظمى ، واليبس الأوروبي إلى حد عظيم ، ووردت الأنباء بوفاة الكثيرين على أثر البرد ـ روتر ،

باريس في ١٢ فبراير: يشتد البرد في جميع أنحاء أوروبا ولا سيما في فرنسا، وقد صار السفر بطيئاً في سكك الحديد وفي الطرق الأخرى، وأصبح العمل في المناجم صعباً ولا سيما في تشيكوسلوفاكيا، وألقت الذئاب الجائعة الرعب في بعض جهات البلقان، وتجمد نهر الدانوب في القسم الذي يجتاز تشيكوسلوفاكيا. وهبطت الحرارة إلى ١٤ درجة تحت الصفر في باريس وإلى ٢٣ درجة في رنس و٢٠ درجة في ستراسبورغ ـ هافاس.

لندن في ١٢ فبراير: إن البرد القارس الذي اشتد في أوروبا أفضى إلى فواجع كثيرة، فقد جاء في تلغراف من وارسو خبر وفيات كثيرة بالبرد، وإن حراس الغابات عثروا على زمرة من «الغجر» تتألف من ٣٤ شخصاً رجالاً ونساء وأولاداً نزلوا في غاب على مقربة من لوبلن وماتوا برداً.

وجاء في تلغرافات برلين أن ثلاثين سفينة محصورة بالجمد في جهة بحر البلطيك الغربية، وليس في بعض هذه السفن طعام، وقد أصيب بعضها بعطب شديد بحيث لا تستطيع السفر، وأن الطرادات الألمانية المهتمة بالإنقاذ يعوقها الجمد وتمد طيارات الحكومة السفن المحصورة بالطعام ـ روتر.

صوفيا في ١٢ فبراير: من أنباء فارما وبورغاس البرقية إن الموانىء البلغارية على البحر الأسود محصورة بالجمد ومقفلة في وجه السفن، ويمتد الجمد على مسافة بعيدة من الشاطئ، وهو سميك جداً بحيث يسهل التزحلق عليه على طول الشاطئ، ولم يسبق لهذا البرد من نظير من سنة ١٨٤٩، وقد ازدادت صعوبة النقل بسكك الحديد، ويخشون من وقوع أزمة طعام في بلغاريا ـ روتر.

ثانياً: ما جاء بتاريخ ٢٢ فبراير سنة ١٩٢٩ بالعنوان المتقدم

أثينا في ٢٢ فبراير: لا تزال رداءة الجو الشديدة مستمرة وقد اكتسحت عاصفة ثلج إقليم أثينا ـ هافاس.

لندن في ٢٢ فبراير: بينما الثلج يذوب في بريطانيا العظمى يشتد البرد في غيرها من البلدان الأوروبية، فقد جاء في برقية من أثينا أن عاصفة ثلج شديدة اكتسحت بلاد اليونان، وأن أنحاء كثيرة في الأرياف تهددها المجاعة من جراء انقطاع المواصلات، وقد اكتتب حتى الآن بمبلغ ٣٥٠٠٠٠٠ دراخمة إعانة لمنكوبي الفيضان في جنوب بلاد اليونان، ومن جملتها مليون من بنك اليونان الوطني، ونصف مليون من المسيو فنزيلوس. ويؤخذ من برقيات صوفيا أن البرد عاد، وأن حرارة الجو هبطت إلى ٢٥ درجة تحت الصفر في بعض الأماكن، وسقط ثلج أسود في روستجق ويظن أنه ممزوج بغبار البراكين.

رومية في ٢٢ فبراير: يعوق البرد المشتد في إيطاليا حركة سكك الحديد، فقد وصل اكسبرس الشرق إلى ميلانو متأخراً ٤١ ساعة من ميعاده ـ هافاس.

بودابست في ٢٢ فبراير: عاد البرد القارس بشدة عظيمة وبلغ الدرجة الخامسة والأربعين تحت الصفر هنا اليوم، والجمد سميك جداً في نهر الدانوب بحيث تمر فرقة مركبات تجرها الثيران. وقد تلف القسم الأكبر من أزهار الثمار، وخمسون في المائة من قفران النحل ـ روتر.

ثالثاً: ثورة الطبيعة بسوريا ولبنان

من عادة سكان الجبال العالية في لبنان أن يدخروا لأيام الشتاء المأكل والملبس حتى يستغنوا عن المدن والسواحل مدة شهرين على الأكثر، ولكن الطرقات تظل مفتوحة ويظل الأهالي قادرين على

المجيء إلى الساحل وشراء حاجاتهم، على أنه حدث في هذه الأيام أن الثلوج تراكمت حتى قطعت الطرق وعزلت كثيراً من القرى في أعالي الجبال، فنفدت حاجات السكان وعز خروجهم من قراهم، وصعب الوصول، فأخذ الكثيرون من سكان السواحل يستصرخون الحكومة لتمديد المساعدة إلى القرى المعزولة، وتوصل إليها حاجاتها من المآكل والغذاء إلى أن يمن الله بالفرج، وتذوب الثلوج وتنفتح الطرق.

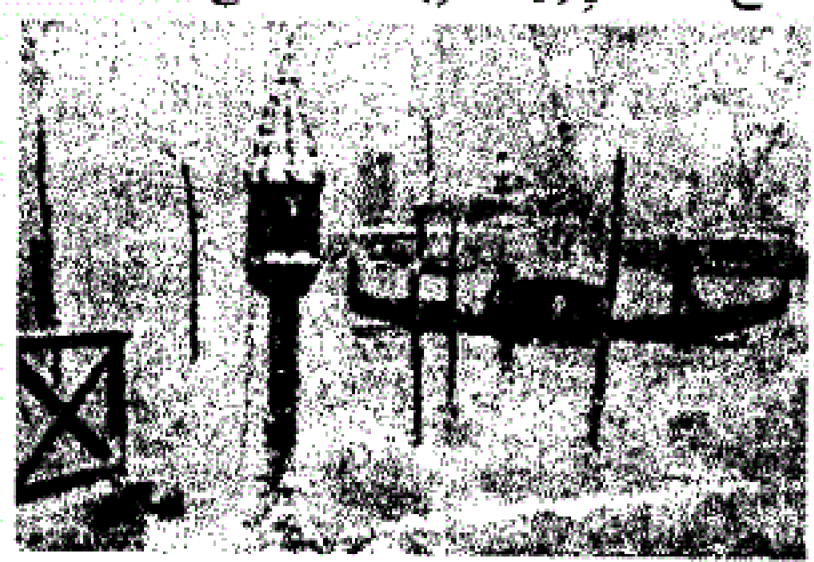
قالت البلاغ البيروتية: طمرها الثلج ولم يبق من بناياتها شيء ظاهر، ويرجحون أن منازلها سقطت على ساكنيها، إذ قيل إن ارتفاع الثلج فوقها بلغ ٢٥ ذراعاً، ويقول الشيوخ إنه لم يسبق لذلك مثيل منذ نصف قرن.

قال: وقد أصيبت قرية بان أيضاً بأضرار جسيمة سنوافيكم بتفصيلها وتفصيل غيرها من النوائب الجوية في صرود البترون وبلاد جبيل.

وسقطت صاعقة في البترون فقطعت أسلاك التلغراف، ولم يصب أحد بأذى والحمد لله.

رابعاً: ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولاراً خسائر الجليد في العالم في كل شتاء

هذا هو المبلغ الذي يذهب سدى من جراء سقوط الجليد. وهو كما يرى في الصورة قطع من الثلج متفاوتة الحجم، فمنها ما هو كالحمصة ومنها ما هو في حجم البيضة، وترسله السماء بانهمار شديد بين زئير الصواعق والرعد، وقد كان شتاء هذا العام شديد البرد لكثرة ما نزل من الجليد في بعض الأقطار، فقد كان ملاحظاً في الأستانة كما هو في جنوب أفريقيا وجنوب أوروبا وبعض أقطار أمريكا، وكانت تغشى طبقات منه أبنية وشوارع الريفييرا ومونت كارلو وغيرهما من البلاد، وكان البرد على أشده عدة أيام جنوب إيطاليا، فكانت درجات الحرارة ١١ درجة تحت الصفر في البندقية وسينا، و١٣ في بيروجيا، و٢٠ في أودين وبالرمو، ولكن أروع حالة كانت في القسطنطينية في أوائل فبراير الحالي، وكانت الرياح الشمالية تسير بسرعة ٦٠ ميلاً في الساعة، وكانت تكتسح الجليد أمامها، فكان من الصعب أن يرى الإنسان ما أمامه في شوارع الأستانة، وقد وصل سمك الجليد في بعض النقط ١٥ قدماً، وتعذر مرور السفن في البسفور لما كان فوق سطح الماء من طبقات الجليد. انظر شكل ٩. انتهى المقال العام في آية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢] الخ.



(شكل ٩ ـ إحدى كنائس مدينة البندقية في إيطاليا تحت الجليد)

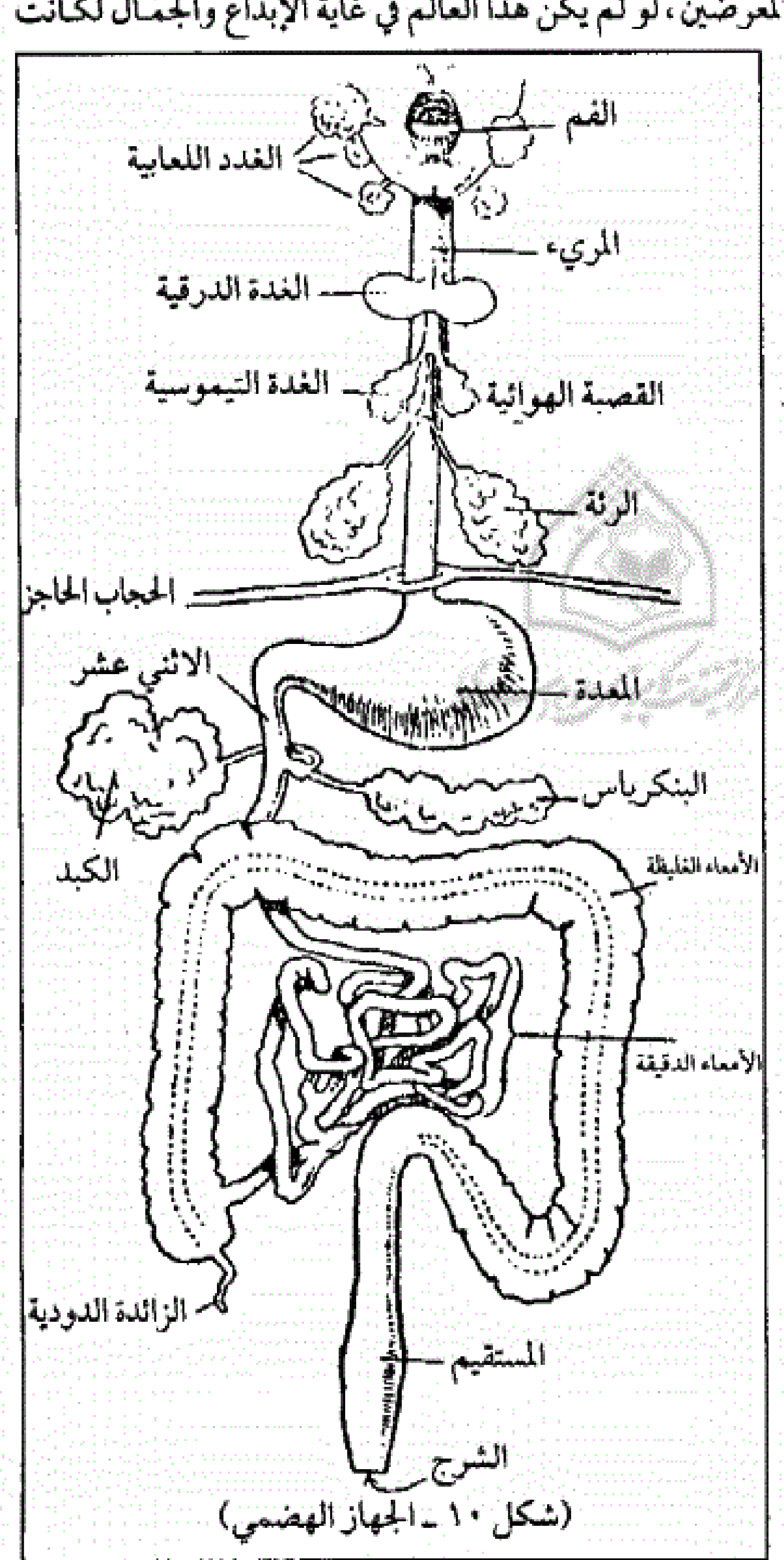
لطيفة في قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر: ١١]

كتب قبل الفجر ليلة ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٨هـ

اللهم إنا نحمدك على نعمة العلم وبهجة الحكمة والهداية للفهم والإنعام، إن أعظم نعمك علينا هو العلم، العالم الذي نعيش فيه مادة، والمادة لا ثبات لها، بل هي شبكة نسجتها لنا يد الحواس الخمس لنصيد بها جواهر العلوم في ظلمات بحر الحياة اللجى، فويل ثم ويل لمن مرت عليه السنون تتلوها السنون وهو في غفلة وهو من المعرضين، لو لم يكن هذا العالم في غاية الإبداع والجمال لكانت هموم هذه الحياة وأسقامها عبثاً.

إذا لم تكن الآلام والأسقام موقظات للعقلاء أن يفكروا فيما خلقوا فيه من الجمال؛ لظل جميع الخلق محجوبين مبعدين عن بهجة ذلك الجمال البارع والحسن والنور والعرفان. أكتب هذا الآن وبين يدي كتاب «الطبيعة وعجائبها البديعة»، فهاهو ذا الجهاز الهضمي (شكل ١٠) انظر إليه وفكر فيه، أليس هذا هو المخلوق من النطفة المخلوقة من تراب، هاهو ذا التراب فانظر كيف خلق منه نبات فحيوان فإنسان، فأكل هذا نباتاً وحيواناً، فاجتمعت العناصر فكان منها أمثال هذه القناة الهضمية.

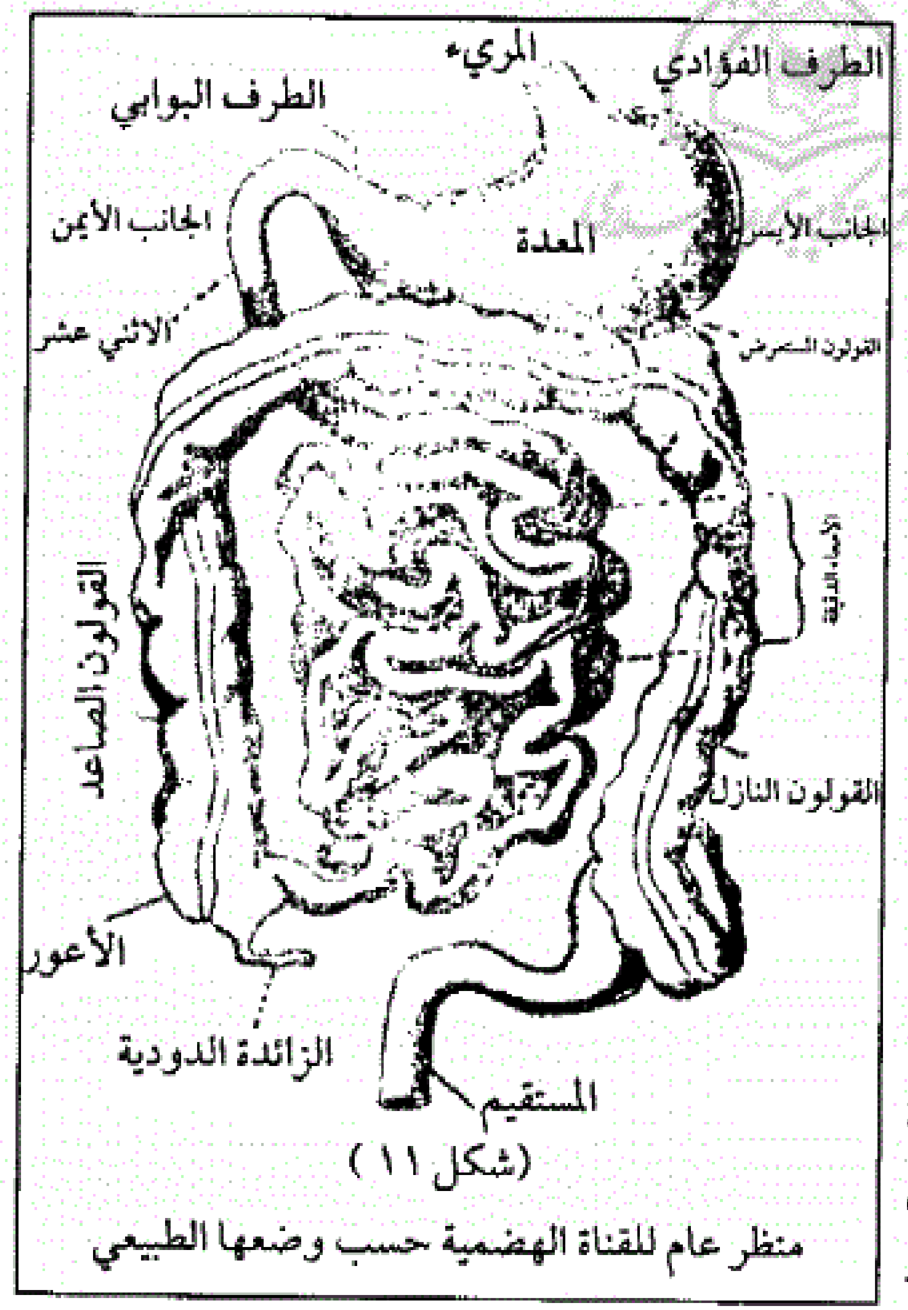


(شكل ١٠ ـ الجهاز الهضمي)

هذه يراها العالم والجاهل، فتظهر تارة بهيئة حقيرة لقذارتها أو هيئة مشتهاة إذا طبخت، وكان الناظر جائعاً، وهي في نظر الجزار سلعة تقصد لثمنها، أما الحكيم المفكر فإنها في نظره لوح يقرأه وكتاب يفهمه وتبصرة وذكرى، فأول ما يصادفه بعد الفم وما فيه من الاثنتين والثلاثين

سناً « الغدد اللعابية » فينظر فيرى هناك ثلاثة أزواج من الغدد كلها تفرز اللعاب الجاري في قنوات، وذلك اللعاب سائل شفاف غير حمضي، بل هو قلوي، وهذه الثلاث موزعات في الفم. فالزوج الأول منها يسمى « النكفي » وهو أعلى. والثاني تحت الفك الأسفل، والثالث تحت اللسان، وهذا اللعاب فيه مواد مخاطية وخميرة اسمها « تيالين » لها تأثير على أمثال القمح والبطاطس والأرز وكل مادة نشوية فتحولها إلى مادة سكرية ذائبة، وهذا اللعاب مرطب للأطعمة مسهل لابتلاعها مانع من تأثير المواد الحمضية على الأسنان لأنه قلوي.

ثم ينظر فيرى البلعوم وهو القسم الأعلى من القناة الهضمية الذي يلي الفم. ثم يرى المريء وهو أنبوبة عضلية ضيقة تلي البلعوم طولها (٢٥) سنتيمتراً أو (١٢) قيراطاً، وهذا يمتد في العنق والصدر ويخترق الحاجز ويتصل بالمعدة وله غشاء يفرز سائلاً مخاطياً يسهل مرور الأطعمة. ثم المعدة الموضوعة على هيئة « قربة الموسيقى » طولها أيضاً (٢٥) سنتيمتراً كطول الاثني عشري الآتي ذكره لأنه اثني عشر قيراطاً، ولها غشاء مخاطي أيضاً مجعد يفرز العصير المعدي، وفيه خمسة أنواع من المواد الهاضمة وهي: المنفحة والمواد المخاطية والأملاح المختلفة وحمض الكلوريدريك والبيسين، والطرف الأعلى في اليسار يسمى الطرف الفؤادي، والطرف الأيمن وهو الأسفل ويسمى « البوابي »، والأول متصل بالمريء، والثاني متصل بالأمعاء الدقاق.



(شكل ١١)
منظر عام للقناة الهضمية حسب وضعها الطبيعي

وبعد ذلك يرى الاثني عشري ثم تكون الكبد على اليمين وغدة البنكرياس على اليسار، والاثني عشري هو أول الأمعاء الدقاق، وبعده الصائم واللفائفي من تلك الأمعاء، وهما اللذان في هذا الرسم (شكل ١١) في داخل الأمعاء الغلاظ، والطعام يمر في هذه كلها بالترتيب حتى يصل إلى الأمعاء الغلاظ، فيبتدئ بالأعور جهة اليمين فالقولون الصاعد فالقولون المستعرض فالقولون النازل فالمستقيم فالإست. (انظر شكل ١١).

وهنا يتفكر العاقل في هذه الغدد وما معها، فيرى أن الطحال والبنكرياس يفرزان مواد هاضمة لتلك المواد كما تفرز غيرها الغدد التي في الفم وفي المعدة والأمعاء. إن التي في الفم ذوات المجاري أليست تفرز مواد قلوية تؤثر في المواد

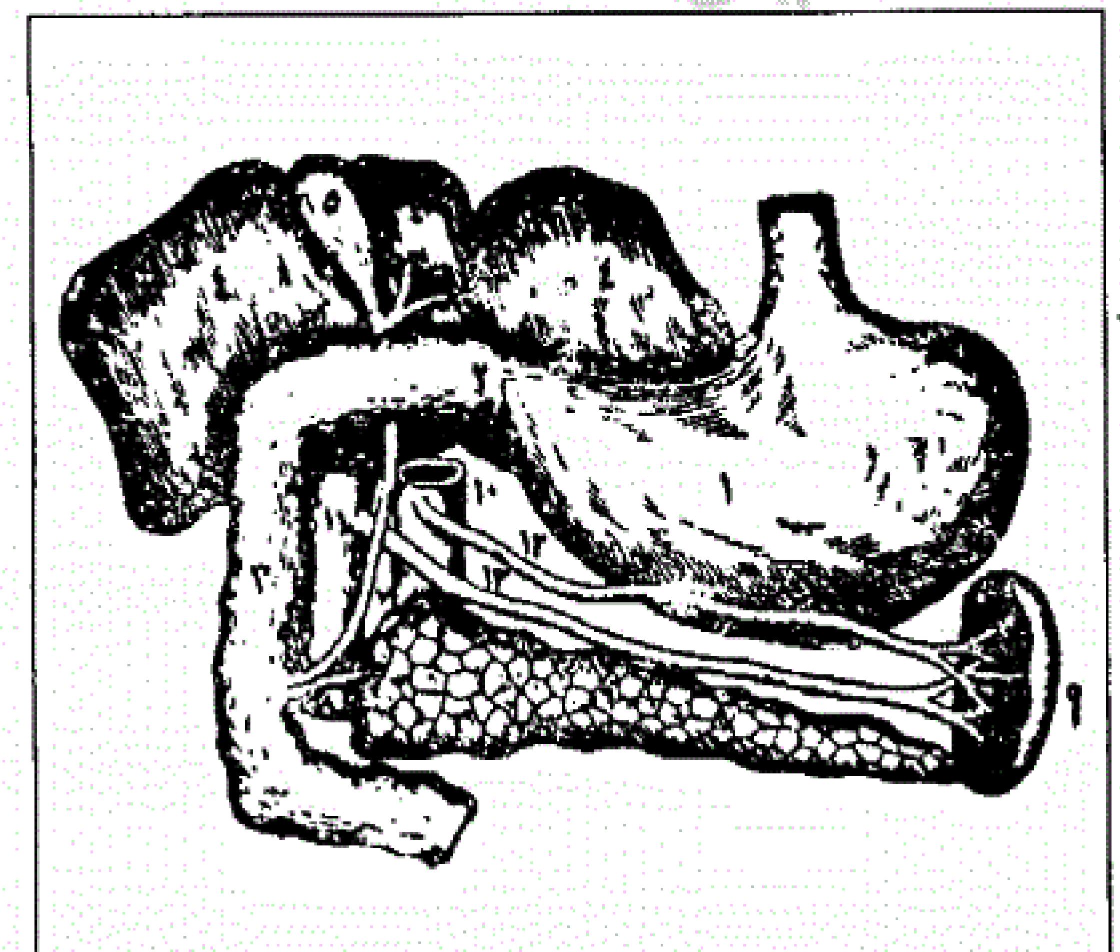
النشوية كما تقدم فتجعلها سكرية، وعلى الآكل أن يمضغ الطعام ببطء ليمكن الخميرة المسماة بالتيالين التي في لعاب الفم أن تؤثر فيه فتذيب تلك المواد، فإذا وصل الطعام إلى المعدة تلقاه العصير المعدي فأذاب بعض المواد التي لم تذهب بخميرة، وبعضها الآخر بخميرة أخرى، فترى المواد الزلالية في اللبن تصير كالجبن بواسطة خميرة تسمى «المنفحين»، ولا جرم أن وسط المعدة حمضي بخلاف وسط الفم فهو قلوي، ولكل منهما خمائر تناسبه ولا عمل لخميرة إلا في مكانها الخاص.

ثم إنه لا بد في فهم حقائق بقية هذا الموضوع من معرفة ما هي الأغذية اللازمة للإنسان إنها:

(١) مواد عضوية غير آزوتية، أي ليس فيها الآزوت الذي هو جزء من الهواء الجوي، وهذه إما مواد كربوايدراتية مثل النشاء والسكر. وإما مواد دهنية كأنواع الزيت والسمن والشحم.

(٢) ومواد عضوية آزوتية وهي تستهلك في أنسجة الجسم. وهذه مثل «البروتين» كزلال البيض والجلاتين المستخرج من العظام المغلية والمادة الجبنية في اللبن ومادة «الميوسين» التي في اللحم، وهكذا يكون «البروتين» في المواد النباتية لا سيما في بذور البقول مثل الفول والبسلة والعدس. وفي الحبوب كالقمح والذرة.

(٣) ومواد غير عضوية وهي الماء والمواد المعدنية والماء ثلثا الجسم، والمواد المعدنية منها: (أ) كربونات الجير وهي في العظام والأسنان. (ب) وفوسفات الجير وهي في العظام أيضاً وتكون نصف وزنها تقريباً، وإن فوسفات الجير وكربوناته داخلات بمقادير كافية في الأغذية النباتية والحيوانية. (جـ) وملح الطعام. (د) وأملاح أخرى بمقادير مختلفة تدخل في الجسم من الغذاء. إذا عرفت هذا فإن الحكيم المفكر الذي تكلمنا عنه ينظر في سير الطعام أثناء سيره. (انظر شكل ١٢).



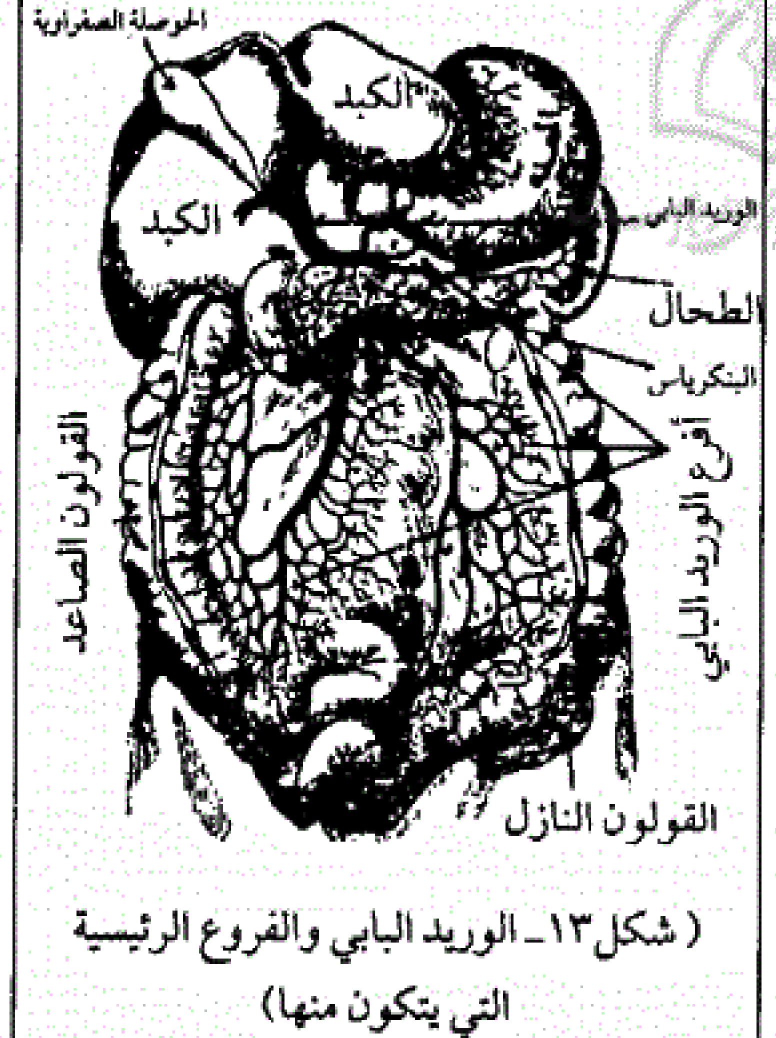
(شكل ١٢ـ المعدة والاثنا عشري والكبد والطحال والبنكرياس)



(١) المعدة.
(٢) البواب.
(٣) الاثنا عشري.
(٤) السطح السفلي للكبد.
(٥) الحوصلة الصفراوية.
(٦) غدة البنكرياس.
(٧) القناة الصفراوية.
(٨) القناة البنكرياسية.
(٩) الطحال.
(١٠) الأورطة.
(١١) الوريد البابي.
(١٢) الشريان الطحالي.
(١٣) الوريد الطحالي.

فيرى أن هناك القناة الصفراوية « نمرة ٧ » في هذا الشكل توصل الصفراء المطبوخة في الكبد إلى الاثنا عشري، ومثلها القناة البنكرياسية الآتية من البنكرياس « نمرة ٨ » في الشكل، فإذن يرى هاتين العصارتين تصبان في مكان واحد وتمتزجان بمادة الكيموس الآتي من المعدة ذي القوام الغليظ. وهذا الكيموس يمر بالأمعاء فتقابله عصارة أخرى تفرزها الأمعاء نفسها. فهذه العصارات الثلاث تذيب من المواد ما لم يذب من قبل، وينقلب بسببها الكيموس إلى كيلوس ذي قوام سائل لبني، وهنا استعد الطعام لأن يرتقي درجة أخرى فتمتصه الخملات التي في الأمعاء الدقيقة، ويمر الباقي إلى الأمعاء الغليظة، ولا يزال الامتصاص مستمراً هناك أيضاً، وما فضل مما لم يمتص أو لم يصلح للامتصاص يخرج بالتبرز. وهنا يرى هذا الحكيم أن القناة الهضمية فيها مصانع لتجهيز أنواع الهواضم. فأما في الفم فاللعاب وفيه خمائر تذيب المواد النشوية كالسكر والنشاء، وما بقي ففي المعدة وفي الأمعاء بالعصارة البنكرياسية والمعوية والصفراوية.

هنالك يرى الحكيم درجة جديدة للطعام، فإنه أولاً كان نباتاً وحيواناً وماء ومعادن، ثم أصبح في الفم ذائباً باللعاب، أو كيموساً في المعدة بأنواع من الهواضم، ثم انتقل إلى الأمعاء فسلطت عليه العصارات الثلاث المتقدمة من البنكرياس والصفراء والأمعاء فصار كيلوساً، ثم ارتقى فتقبلته شبكة دقيقة من الأوعية الدموية تحت الغشاء المخاطي بعد أن تمر بذلك الغشاء المبطن للأمعاء. وهذه الشبكة تسلمها إلى الدورة الدموية والدورة التنفسية.



(شكل ١٣ ـ الوريد البابي والفروع الرئيسية التي يتكون منها)

هاهنا ينظر في الدورة الدموية فماذا يرى؟ يرى هذا الرسم (انظر شكل ١٣). وهذه الدورة تقدم شرحها مراراً وتكراراً في هذا التفسير، ولكن هذه الصورة البديعة لم يتقدم لها نظير من حيث وضوحها (شكل ١٣).

وهنالك يرى الدم الشرياني في يسار الصورة والوريدي في يمينها، والأول يتدفق في الأورطى الخارج من البطين الأيسر وقد تفرع إلى فرعين: أعلى وأسفل، لتغذية الجسم كله أعلاه وأسفله، فهو أشبه بنوع الإنسان حينما يكون جاهلاً. فإذا تعلم صار كالمواد المهضومة، ثم يرقى فيصير نافعاً لمجموع الأمة كما صار الدم غذاء للجسم. فأما بقية المواد التي لم تهضم أو هضمت ولم تمتص فقد خرجت بالتبرز، فهي أشبه بأولئك الذين رسبوا في المدارس لأنهم لم يجيبوا في الامتحان، أو كأهل النار الذين لم يصلحوا لسكنى الجنة لأنهم في الدنيا لم تتوافر فيهم صفات الكمال حتى يصلحوا لمعاشرة أهل الجنة الذين هم علماء وحكماء. ويرى الدورة اللمفاوية

العليا والسفلى. والوريد البابي. والوريد الكبدي الأعلى المتصلين بالكبد، وهما مملوآن بالدم الوريدي ثم يبحث فيرى الدم الشرياني متى اتصل بأجزاء الجسم تحول إلى دم وريدي، فيعرف بأنه قد اسود بسبب المواد الفحمية التي خالطته بسبب التفاعل الكيميائي، ثم يرى ذلك الدم الوريدي أخذ يرجع ثانياً فأخذ يصب في الأذين الأيمن ثم ينزل منه إلى البطين الأيمن، ومن البطين الأيمن يخرج هذا الدم في طريقه جارياً في فروع الشريان الرئوي متصلاً بفروع الشعب الهوائية، وهنالك يبحث عن هذه العجائب كيف تكونت فيرى القصبة الهوائية (انظر شكل ١٤)

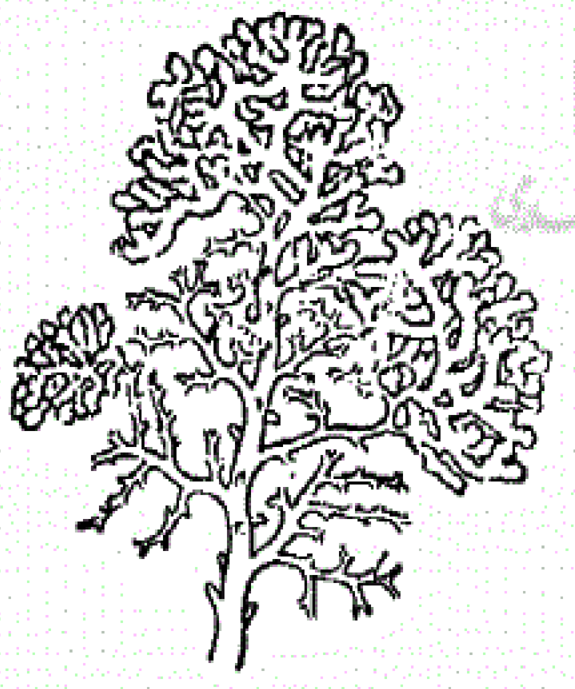
وهذه القصبة الهوائية تكون منها شعبتان هوائيتان، وهاتان الشعبتان يخرج منهما ما يشابه الأشجار، ويسمونه بالحويصلات الهوائية. (انظر شكل ١٥).

وعند تأمله في القصبة الهوائية يجد فيها عجباً! يرى نسيجاً هدبياً مبطناً للقصبة. (انظر شكل ١٦).

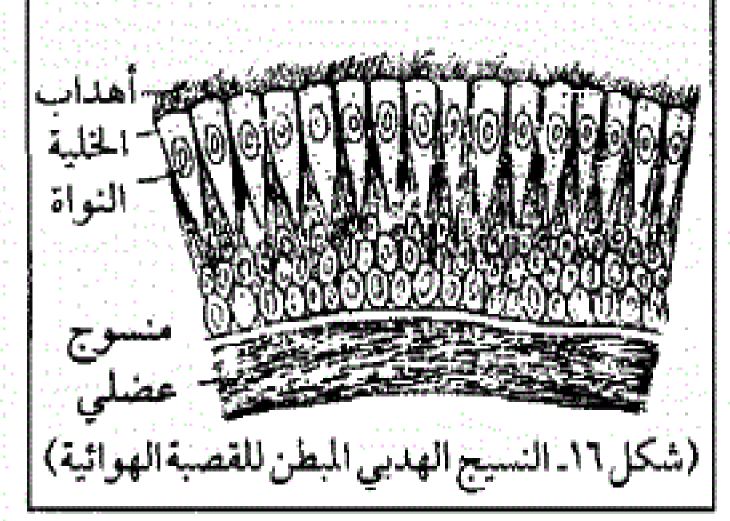
فيقول: ما عمل هذا النسيج؟ إن فيه لأهداباً وخلايا ومنسوجاً عضلياً. ثم يهتدي أخيراً إلى أن هذه الأهداب أشبه بالكناسين والزبالين، لأنها دائماً ليلاً ونهاراً وتتحرك من الداخل إلى الخارج، لماذا هذا؟ لتطرد الغبار الداخل مع النفس في القصبة الهوائية، فهذه الأهداب حوافظ وخفراء تطرد الأجانب لئلا تفسد المملكة الرئوية الخادمة للملكة الدموية، فالقلب يرسل جنوده الدموية المنهكة القوى المتعبة فتأتي إلى الرئة فيقابلها الخدام والحفظة فينظفونهم ويحملون ما خالطهم من الأردان ويرمون به في الخارج، فضلاً عن إمداد هؤلاء الجنود بالغذاء، وهنالك يسافرون إلى الجسم كرة أخرى ويفعلون ما فعلوه سابقاً، وفي أثناء سيرهم يتقابلون مع جنود أخرى يأتون إليهم من الغذاء المهضوم النقي الذي



(شكل ١٤ ـ القصبة الهوائية وفروعها)

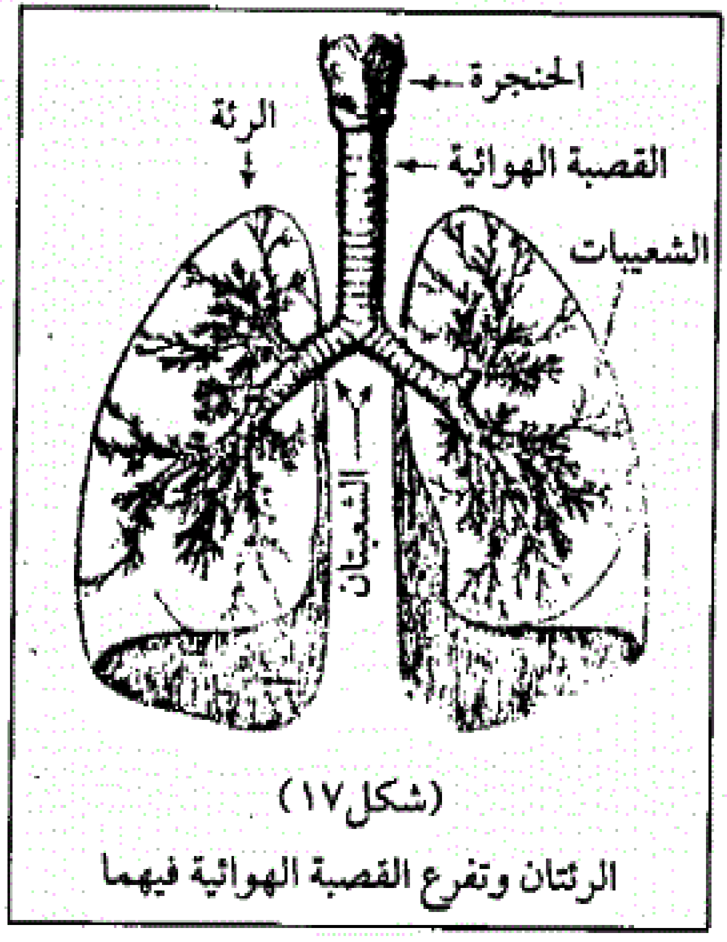


(شكل ١٥ ـ الحويصلات الهوائية)



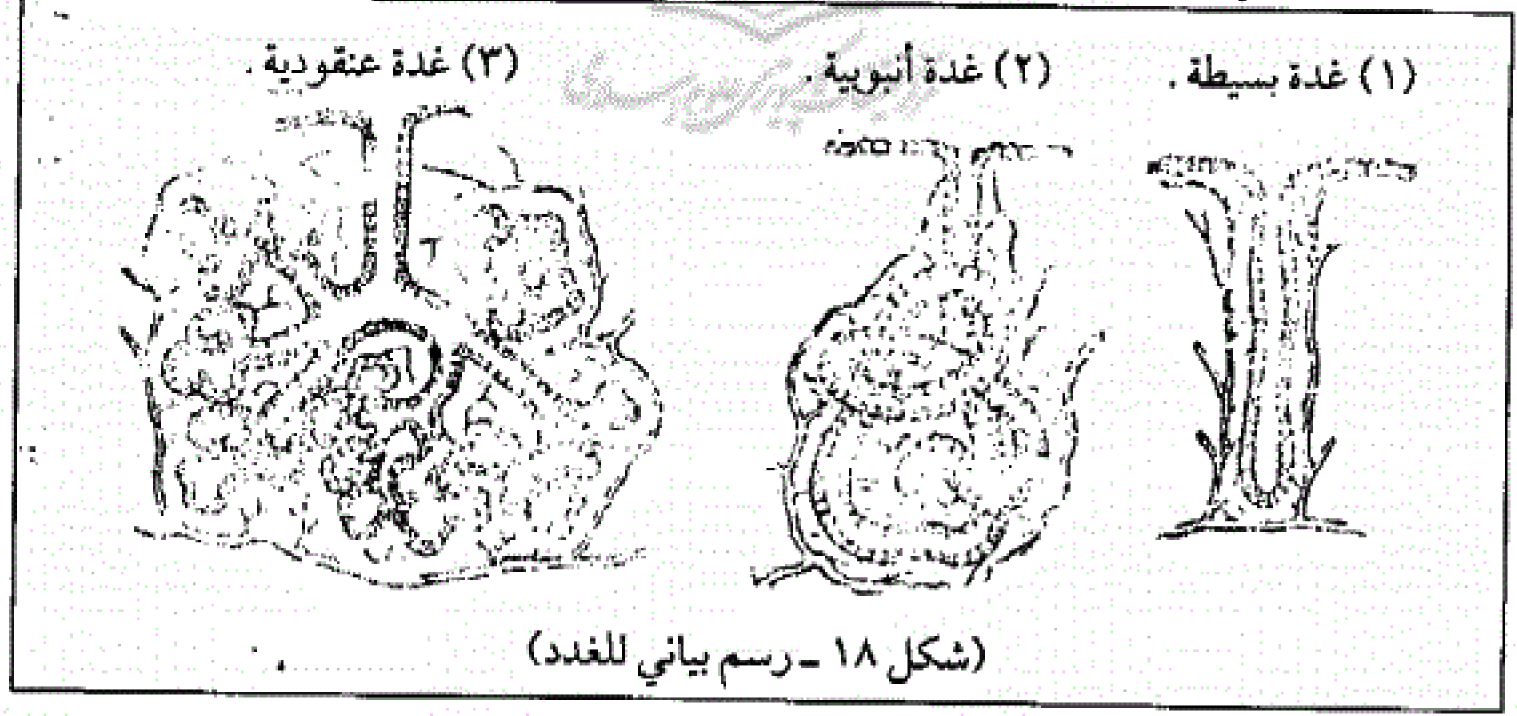
(شكل ١٦ ـ النسيج الهدبي المبطن للقصبة الهوائية)

تمتصه الشبكة الدموية في الأمعاء، ليكون عوضاً عن الدم الذي تمثل في الجسم، فيقول ذلك الحكيم إذ ذاك: كيف يفهم المسلمون آية: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[الإسراء: ١٢] إلا بهذا وأمثاله، أو آية: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، أو آية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [آل عمران: ١٩١]، الخ. (انظر شكل ١٧).



(شكل١٧)
الرئتان وتفرع القصبة الهوائية فيهما

ثم يقول: هاتان شعبتان هوائيتان قد تشعبتا في الرئة وهناك قابلا الأوردة والشرايين. هنالك يهوله الأمر ويزيد عجبه، إذ يرى ما يشبه الأشجار التي في الحدائق قد نبتت من القصبة الهوائية، وأخرى امتدت من القلب وتقابل الأعلى والأدنى من فروع وفريعات يماثل أدناها أعلاها، حتى يمكن الاقتباس والاتناس والأعمال الكيميائية، وهنالك ينظر ذلك الحكيم نظرة أعلى فيقول: ما هذه الغدد التي أراها على أنواع مختلفة؟ فمنها البسيطة والأنبوبية والعنقودية. (شكل ١٨).



(شكل ١٨ ـ رسم بياني للغدد)

فماذا يرى بعد البحث؟ يرى أن هذا الدم الذي لم ينله الجسم إلا بعد مشاق ومشاق وتعب ونصب ومصانع تحضر مواد في الفم وفي المعدة والأمعاء والكبد والبنكرياس ولا يزال هو بحاجة إلى إصلاح. إن هذا الدم عبيط لا حيلة له ولا قدرة على إصلاح هذا الجسم بمفرده، وكما أن الأغذية لم تصر دماً إلا بعد مواد صنعت في مصانع خاصة، هكذا هذا الدم لا يصلح لعمارة هذا الجسم إلا بعد أن يقوى ويؤيد بمواد نافعة تؤهله لهذه الأعمال العظيمة وإيجاد هذا الخلق الجديد. إن الدم تصنع منه جميع العظام والأعضاء والحواس.

(١) فيرى أولاً أن أعضاء التناسل ونمو الشعر والعظام لا بد لها كلها من عمل آخر حتى يتم، لأن الدم بمفرده لا يصنع ذلك. هنالك يجد أولاً الغدد الصنوبرية وهي قدر حجم الحمصة موضوعة بين المخيخ والتصفين الكرويين للمخ، وهذه الغدة إذا صارت ضخمة فإن الإنسان يبلغ السن المعتادة، وينمو شعره قبل أوانه، وعظامه الطويلة تنمو بطريقة غير منظمة، إذن هذه الغدة أشبه بالمهندسين من نوع الإنسان أو الصناع الماهرين، فإذا اختلت صارت أشبه بالصانع الجاهل الذي يعمل بلا نظام.

(٢) ويرى ثانياً الغدة النخامية وهي جسم بمقدار حجم الترمسة، وهو متصل بأسفل المخ، وله فصان أمامي كبير وخلفي صغير في تجويف بالفص الأمامي. فالفص الأمامي الكبير من الغدة النخامية يفرز مادة نافعة في تكوين العظام كالغدد السابقة، فإذا زاد نشاط هذا الفص زمن الشباب فإن الجسم يزيد طوله طولاً فاحشاً حتى يصل بصاحبه إلى طول العمالقة، إذن هذا أيضاً مهندس آخر كالسابق أو صانع ماهر، فإذا أسرع في عمله قبل أوانه فهو صانع غير ماهر وتعليمه قليل، فأما إذا زاد نشاط هذه الغدة بعد تقدم السن فإنه ينشأ مرض يسمى «أكروميجال» وهو كبر الأطراف، إذ تصير بعض عظام الجسم أكثر ضخامة، لاسيما الفك السفلي والأيدي والأقدام. هذه أعمال الفص الأمامي. أما الفص الخلفي فإن له تأثيراً على أعضاء التناسل، وله صلة بضغط الدم ودقات القلب وبعض العضلات التي ليست إرادية وبإفراز اللبن، إذن العدة الترمسية والغدة النخامية بفصيها أعمالها يتمم بعضها بعضاً تقريباً.

(٣) ثم يجد الحكيم ثالثاً أن في العين مادة ملحية سائلة فيعجب ويقول: من أين أتى هذا الماء وملحه؟ فيبحث فيرى هناك غدة في حجم اللوزة موضوعة في جهة العين الخارجة، فهي تفرز سائلاً ملحياً يحفظ سطح العين نظيفاً، ثم يقول: إن هذا عجب، هاأنا ذا اطلعت في سورة الفرقان عند آية: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان: ٢]، وفي سورة العنكبوت على صورة الجهاز الذي فيه السم الذي تقذفه النحلة والعنكبوت على ما شاءت، والجهاز الذي فيه غزل العنكبوت، فهذان الجهازان جعلا مناسبين للحاجة، فأحدهما فيه السم للدفاع، والثاني فيه الغزل للاقتناص وغيره، وهاهنا الغدة قد جعلت لمصلحة العين فجعل فيها سائل ملحي.

(٤) ثم ينظر أيضاً فيرى الغدة الدرقية (شكل ١٠) في الشكل المتقدم، وهذه الغدة واضحة في الرسم أمامك، وهي جسم لين في الجهة الأمامية من العنق تحت الحنجرة، فائدتها تكوين العظام وعمل الاحتراق في الجسم، ولها علاقة بالغدد التناسلية، وإذا زاد إفرازها جف الجلد ونحل الجسم وبطؤ الكلام وضاق النفس واضطربت التغذية، وإذا انعدمت الغدة في سن الطفولة ظهر نقص عظيم في النمو في الجسم والعقل أو وقوف تام لهما.

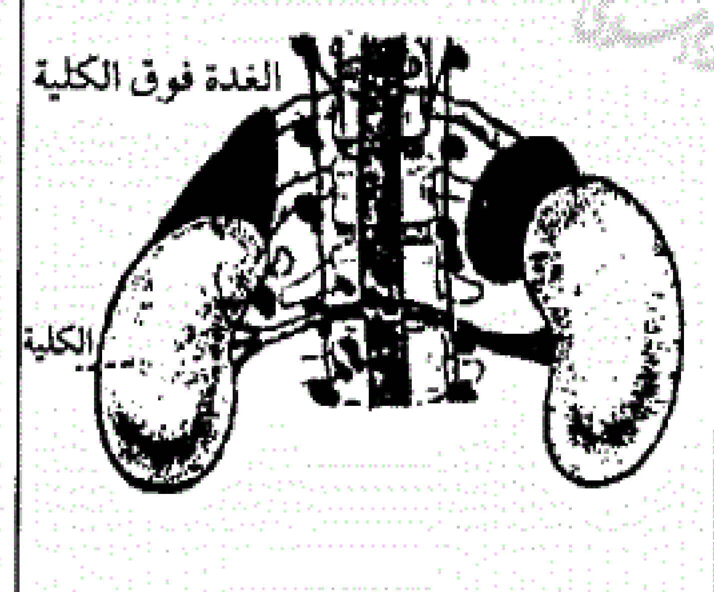
(٥) ثم ينظر خامساً فيرى غدة مجاورة لهذه تسمى «الغدة جارة الدرقية»، وهذه إذا عطلت حصل التشنج عند الأطفال والشلل مع الرعشة، وأن تصير العظام هشة سهلة الكسر، وإذا أزيلت هذه الغدة كثرت في الجسم التشنجات العضلية وقلت تغذية الشعور والأظافر، وقد يصير في العين ماء أزرق.

(٦) ثم ينظر سادساً فيرى غدة التيموس الموضحة فيما تقدم في (شكل ١٠) بعد الغدة الدرقية فيقول: فيا ليت شعري ما عمل هذه أيضاً، هاهي ذه واضحة بأعلى المنطقة الصدرية تحت الفص، وبعد

البحث يراها لا تبلغ أشدها إلا في السنة الثانية من عمر الطفل، ويبتدئ خمودها واضمحلالها عقب سن البلوغ، ثم تختفي تقريباً، فهذه تؤثر في نمو الأطفال وتكوين أعضائهم التناسلية، وإذا اختفت قبل أوان اختفائها يحصل اضطراب في الجسم لا سيما في تكوين الأعضاء التناسلية.

(٧) ثم ينظر سابعاً فيرى غدة البنكرياس المرسومة في (شكل ١٠) أيضاً المقابلة للكبد، فماذا يرى؟ يرى أن فيها غدداً أخرى غير الغدد المتقدم ذكرها، لأنها فيما مضى أفرزت مادة ذهبت إلى الأمعاء، ولكن الغدد الأخرى هنا في البنكرياس تذهب إلى الدم مباشرة، فماذا تصنع يا ترى؟ إنها تعرف بالأنسيولين. إن «الأنسيولين» يساعد الكبد في تحويل المادة المسماة «جلوكوز» إلى مادة ألطف يسمونها «جليكوجين» فالمادة الأولى سكر، وهذا السكر لا تقدر خلايا الجسم على احتماله وإدخاله في تكوينها، فإذا لم يساعد الأنسولين الكبد على ذلك التحويل بقيت تلك المادة السكرية عالية في الجسم، فلا محيص للجسم من التخلص منها بواسطة الكليتين في البول بدون أن ينتفع الجسم بها، فيحصل ضعف تدريجي وأعراض أخرى، وهذا هو مرض البول السكري. إذن هذه الغدة جعلت في الجسم لمنع البول السكري المعروف، والكبد هو مقابل للبنكرياس في الجسم أكبر غدة فيه هو في أعلى الفراغ البطني وهو إلى الجهة اليمنى أقرب، وهو نحو ثلاث أرطال وربع في الإنسان البالغ تقريباً، وسطحه العلوي محدب والسفلي مقعر، وهو يفرز الصفراء المتقدم ذكرها، وتخزن في الحوصلة الصفراوية، وهذه الصفراء: (آ) تساعد عصارة البنكرياس في تجزئة الكرات الدهنية ويكون هناك مستحلب. (ب) وتلين الأمعاء فتساعدها على الحركة الدورية في القولون والمستقيم، وتمنع التعفن في الأغذية التي تزيد في الأمعاء.

(٨) ثم ينظر ثامناً فيرى غدتين فوق الكليتين (شكل ١٩)، وهاتان الغدتان إذا اعتدلتا في إفرازهما اعتدل النشاط الطبيعي في الشرايين والعضلات الإرادية وغير الإرادية، وإذا قل نشاطهما حصل مرض في الجسم يسمى مرض «أديسون»، ذلك أن الجلد يلون بلون آخر هو اللون «البرونزي»، ويكون هناك ضعف وقيء وإنهاك عصبي، ينتهي هذا كله بالموت، وإذا نزعت هاتان الغدتان يحدث الموت في مدة قصيرة، وهذه صورتهما.



(شكل ١٩ ـ الغدتان فوق الكلى)

(٩) ثم ينظر تاسعاً فيرى الغدد التناسلية وهما الخصيتان في الذكر والمبيضان في الأنثى، فالحيوانات المنوية تخلق في الخصيتين والبويضات في المبيضين، وهذا ما هو إلا إفراز كالإفراز الخارجي في الغدد الأخرى، ولهذه الغدد إفرازات أخرى بها يمتاز الذكر من الأنثى في مظهرهما، فإذا رأينا شعر الشارب واللحية والشعر المنتشر على الجسم وخشونة الصوت وظهور بروزات عظام الجسم واضحة في الرجل؛ ورأينا ذلك كله في الأنثى على خلاف ذلك، وهي تزيد بنمو الغدتين الثديتين واستطالة

شعر الرأس وازدياد المواد الدهنية المدخرة تحت الجلد، فتخفي زوايا العظام البارزة، أقول: إذا رأينا ذلك كله عرفنا أنه وجد بسبب ما تفرزه الخصيتان والمبيضان من المواد لتكوين ذلك كله، فضلاً عن تكوين الحيوانات المنوية والبويضات لظهور النسل، وللخصيتين والمبيضين آثار فوق ما تقدم، إذ هما بما يفرز منهما يوقظان الوظائف الحيوية في الجسم لا سيما ما كان له علاقة بالتناسل.

(١٠) ثم ينظر فيرى في الجلد غدداً عرقية منتشرة تحت الطبقة الجلدية وهي أنابيب طويلة تفرز السائل العرقي.

(١١) ثم ينظر فيرى غدداً دهنية، وهي في العادة بجانب الشعر، وهي تفرز مواد دهنية لها ثلاث وظائف: حفظ الشعر ليناً، وتغطية الجلد بطبقة دهنية تحميه من المؤثرات الخارجية، ومنع تشعع الحرارة من الجلد بكثرة.

(١٢) ثم يرى غدتين في الإنسان بأعلى الجزء الأمامي من الصدر، وظيفتهما في المرأة إفراز اللبن لإرضاع الأطفال. اهـ.

إن الحكيم حينما يطلع على هذا يقول: هذا من العجب، غذاء مختلف الأشكال حلٌّ في الأجسام، هضمه الحيوان، وصبت عليه مواد مختلفات في الفم والمعدة والأمعاء، وخف ولطف وارتقى فصار دماً، فدار الدم في الجسم، وأخذت تهذبه عصارات وعصارات وتقابله في سيره، وهناك مصانع تصنع فيها تلك العصارات، فمنها ما يمنع التشنج، ومنها ما يحفظ اللون المعتاد، ومنها ما يحفظ أعضاء النسل، ومنها ما يحفظ الهيكل العظمي منظماً جميلاً معتدلاً، وهكذا، ومنها ما فعل لمنفعة الجيل المقبل. إذن الحيوان والإنسان مخلوقان عجيبان دراستهما عند الحكيم روح وريحان، وهما عند الجاهل مخلوقان للعذاب، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾[الأنبياء: ١٦].

فهذا الحكيم حين يرى هذه العجائب يشتاق لصانعها ويحن إلى لقائه وتكاد روحه تفارق جسمه من شدة الولوع بذلك الصانع لولا لطفه به، إذ يلتقي عليه الغفلة والشهوات فتلهيه عن هذا الجمال، فيعيش محبوساً في هذا الهيكل إلى أن يرجع إلى موجد هذا النظام البديع.

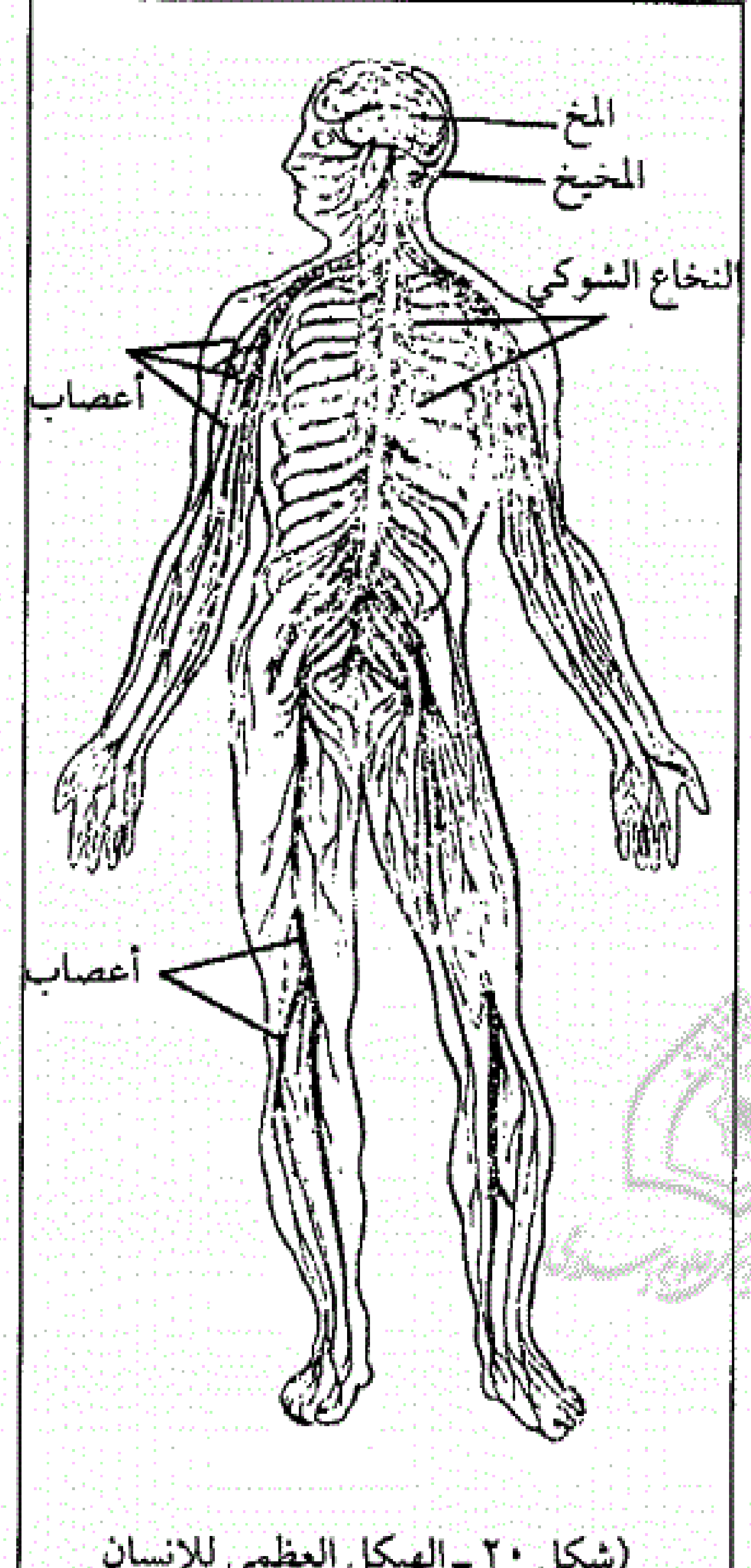
نظرة عامة في أعصاب الحس وأعصاب الحركة لذلك الحكيم

ثم ينظر ذلك الحكيم نظرة أخرى ويتتبع سير الدم، فيقول: إن الدم الآن قد تحول إلى هذه العظام وهذه العضلات وهذه العروق وهذه الأعصاب وهذا الشعر فلأنظر.

إن الناس يشتاقون إلى صعود الجو بالطيارات، وإلى قراءة علم الشموس والأقمار، بل يودون الصعود إلى تلك العوالم، ولكن لماذا حبسني الله الذي وضعني في هذا الجسم وألقاني فيه إلى أمد معلوم؟ فيظهر لي أني حبست فيه لأدرسه، وإذا عجزت عن دراسة جسمي فأنا عن دراسة العوالم العلوية التي أشتاق إليها أعجز، وعن فهم ما فوق ذلك أشد عجزاً، إذن أنظر في هذا الهيكل الذي كان أصله هذا الدم الذي كان غذاء، والغذاء كان نباتاً وحيواناً ومعادن.

ولقد درست هذه العوالم من قبل لأنها مقدمات لحياتي، فلم يبق إلا أن أدرس نفس جسمي لأنه نتيجة ذلك كله، ولقد وجدت الأمم تبدأ بما حولها أولاً ثم تنظر في أجسامها ثانياً، لأن ما حولنا

أسهل فهماً من أجسامنا فضلاً عن أنه مقدمة لها والله يقول: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢٠-٢١] فقدم ما في الأرض لأنه أسهل، وأيضاً أنا محتاج إليه في حياتي، وحياتي أمتي، إذن ينظر فيرى عوالم أخرى وهي عوالم الحس والحركة. (انظر شكل ٢٠).



(شكل ٢٠ ـ الهيكل العظمي للإنسان مصغراً اثنتي عشرة مرة)

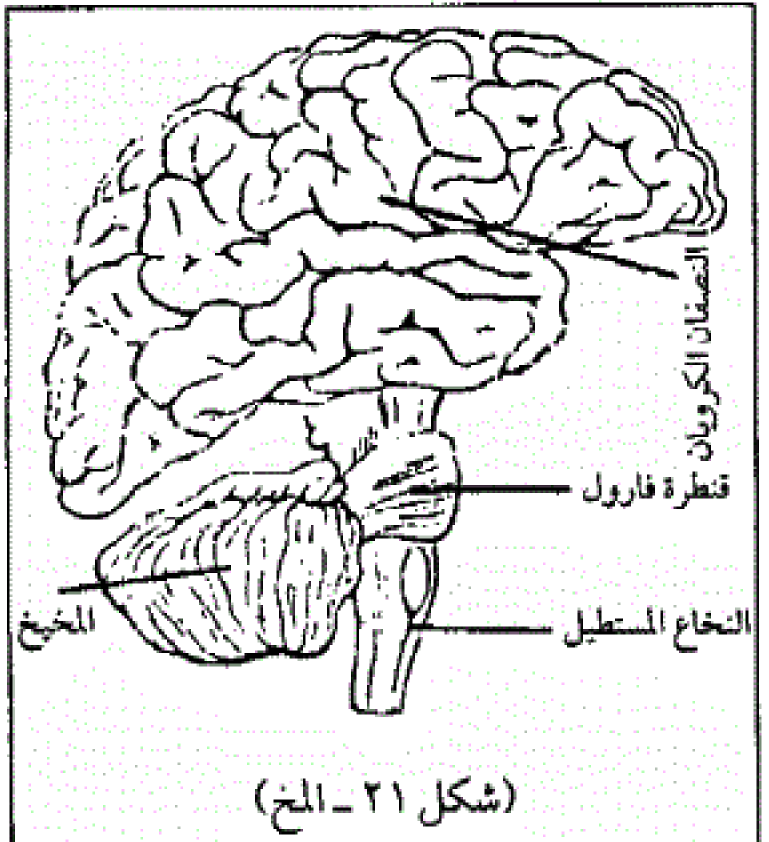
وهذه الصورة لا تكرار فيها مع صورة الإنسان المتقدمة في سورة «المؤمنون» وغيرها، لأن هذه للأعصاب وتلك للأعضاء والعضلات ونحوها.

وهاهنا ينظر الحكيم فيعجب من عالم جديد، ما هو هذا العالم؟ هو عالم لا هو نبات ولا هو حيوان، ولا هو كيموس أو كيلوس ذو قوام لبني، ولا هو دم ولا هو لحم وعظم، بل هو عالم يقرب من العالم الروحي وعالم الأثير وعالم الملائكة، لأن هذه الأعصاب خارجات من المخ والنخاع الشوكي.

أما المخ ففيه أولاً: نصفان كرويان أكبرهما تسعة أعشاره تقريباً، وهما قسمان: أيمن وأيسر، وهذان النصفان هما مركز الحس والشعور والذكاء والفكر والذاكرة والإرادة.

ثانياً: فيه المخيخ، وهو الجزء الصغير الحجم الظاهر في الرسم، وهو منظم للحركات العضلية وربطها وحفظ توازن الجسم، لأنه متى اختل هو اختل نظام توازن حركات الجسم، فليس له إلا التنظيم. ولكن مصدر الحركات هما النصفان المتقدمان.

وثالثاً: النخاع المستطيل وهو ٢ سنتيمتراً ونصف، ويوصل قنطرة فارول بالحبل الشوكي. وهذا النخاع المستطيل يحكم وينظم حركات التنفس والقلب والبلع، وينظم إفراز العرق وحجم الأوعية الدموية، وهكذا، وفيه تمر جميع التيارات العصبية الصادرة من المخ إلى الحبل الشوكي الآتي ذكره والتيارات الواردة من الحبل الشوكي إلى المخ. وإذا أصيب النخاع المستطيل بضرر ما ظهرت أعراض خطرة.



(شكل ٢١ ـ المخ)

ورابعاً « قنطرة فارول » التي هي ألياف متصلة من أعلى بالمخ والمخيخ، ومن أسفل بالنخاع المستطيل، وهي موصلة التيارات العصبية المتبادلة بين الحبل الشوكي والمخ والمخيخ هذه الأربعة هي المخ. (انظر شكل ٢١).

أما الحبل الشوكي فهو يمتد من النخاع المستطيل إلى أسفل. ويمتد داخل القناة الشوكية في العمود الفقري، ويبلغ طوله (٤٥) سنتيمتراً تقريباً وقطره ثمانية ملليمترات. وهو ينقل الإشارات بين المخ وأطراف الجسم وبالعكس، وهو مركز منظم للحركات القلبية الآتية.

هاهنا يعرف ذلك الحكيم أن المخ والنخاع الشوكي هما الجهاز العصبي المركزي. ثم ينظر في المخ نظرة أخرى فماذا يرى؟ يرى هناك اثنا عشر زوجاً من الأعصاب تخرج منه موزعات في المنطقة الراسية وما حولها، لأن المخ أشبه بقصر الملك، والملك معه الآلة التليفونية والتلغرافية، فيصدر أوامره بتلك الأزواج العصبية إلى أعضاء الحس كالعين والأذن والفم واللسان. فيقول للعين: يا عين أبصري والموصل عصبها، وللأذن: اسمعي، والموصل عصبها، وعنده هو جهاز الآلة التليفونية والتلغرافية « البرقية »، وبعض الأعصاب أيضاً محرك فهو يأمر العين مثلاً بالنظر فتخبره فيصدر أمراً أسرع من البرق إلى أعضاء الحركة بواسطة أعصاب الحركة وهكذا.

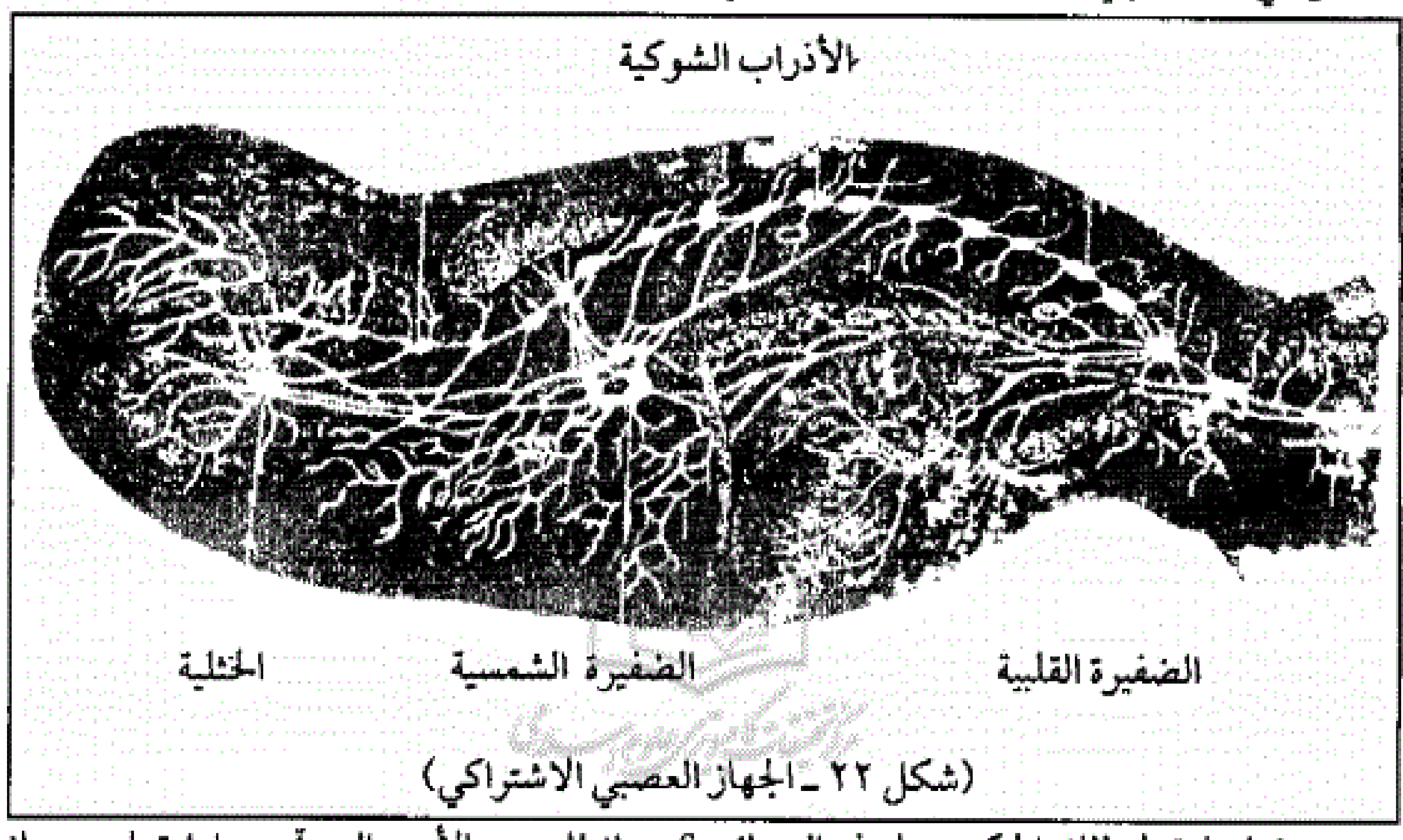
ثم بعد ذلك ينظر نظرة أخرى في الحبل الشوكي فيجد أمراً عجيباً مدهشاً. يجد هناك ثقوباً موضوعة بين الفقرات يمر بها أعصاب متقابلة من الجانب الأيمن والأيسر وتمر من تلك الثقوب، وعدد تلك الأعصاب ٣١ زوجاً موزعات في جانبي الجسم بالتساوي، وكل عصب من تلك الأعصاب الشوكية عند خروجه من الحبل الشوكي له جذران: أحدهما أمامي مركب من ألياف محركة، والآخر خلفي مركب من ألياف حساسة وبه انتفاخ صغير هو عقدة عصبية، ويتحد الجذران بعد مسافة قليلة ويكونان عصباً واحداً يتفرع إلى فروع منتشرة في الجلد والعضلات الإرادية.

ثم ينظر ذلك الحكيم فيرى أن الاثني عشر زوجاً الخارجة من المخ والإحدى والثلاثين زوجاً الخارجة من الحبل الشوكي لا سلطان لها إلا على الأعضاء الإرادية كاليدين والرجلين.

أما الغدد اللعابية مثلاً في الفم وهكذا القلب والأوعية الدموية وأجزاء القناة الهضمية المشروحة سابقاً والمثانة وأعضاء التناسل والغدد العرقية وهكذا، فهذه كلها لا سلطان للجهاز العصبي المركزي عليها الذي يتفرع منه الأعصاب المتقدمة البالغة (٤٣) زوجاً يسمونها الجهاز العصبي الطرفي، فما الذي يؤثر إذن في الأعضاء التي ليست تحت إرادتنا، وبعد البحث يجد هناك جهازاً آخر غير الجهاز العصبي المركزي وما هو ذا؟ هو عقد على جانبي السلسلة الفقرية ممتدة من أول العنق إلى الحوض

يسمونها الأذراب، ومن هذه العقد تخرج أعصاب تتوزع في الغدد اللعابية والرئتين، وهكذا إلى آخر ما تقوم أي في الأعضاء التي لا سلطان لنا عليها. وهنا يدهش الحكيم ويقول: يا سبحان الله. نظام محكم وآداب جمة. إن الذي لنا سلطان عليه كانت له عناية خاصة، فكان نفس المخ ونفس الحبل الشوكي قائمين بتدبيره، وتدبير الحبل الشوكي متجه إلى الأطراف، وتدبير المخ متجه إلى الحواس التي بالقرب منه. فالأعلى يدبر الأعلى والأسفل يدبر الأسفل.

أما هذه العقد الشوكية فلها تدبير منزلي، وتسمى هذه العقد وما تفرع منها بالجهاز العصبي الاشتراكي السمبائوي، وهذه صورته (انظر شكل ٢٢).



(شكل ٢٢ ـ الجهاز العصبي الاشتراكي)

فهاهنا يقول ذلك الحكيم: ما هذه العجائب؟ جهاز للحس بالأمور التي تحت إرادتنا، وجهاز للحس بالأمور التي ليست تحت إرادتنا. ثم إن الزوج الواحد من الثلاثة والأربعين زوجاً عصبياً الخارجات من المخ والحبل الشوكي فيه عصب للحس وعصب للحركة، فمتى أحس الإنسان بشيء من الخارج مثلاً انتقل الخبر حالاً في عصب الحس فوصل الخبر إما إلى المخ إن كان من أعصاب المخ؛ أو إلى الحبل الشوكي إن كان من أعصاب الحبل الشوكي، ومنه ينتقل إلى المخ، وهناك يأمر المخ حالاً عصب الحركة فيوصلها حالاً إلى ظاهر الجسم، فيبعد العضو عن الخطر أسرع من البرق.

ثم يقول حينئذ ذلك الحكيم: إن الجهاز العصبي عبارة عن عالم مباشر لعوالم حية. فهذا العالم أرقى من عالم الغذاء وعالم التنفس، هو عالم يشبه عالم الملائكة. فنقول إذاً: هذا هو درس الوجود بأكمله لأن هذا الجسم هو الوحي الذي أقرؤه، ولقد قرأته في هذا التفسير بصور مختلفة وكلها أمور عظيمة مدهشة. ثم يقول: بهذا عرفت «من عرف نفسه عرف ربه». وهنا ينظر نظرة أخرى فيقول: إن الإنسان قد يكون نائماً فيؤذيه برغوث فلا يحس به، ولكن العضو نفسه يتحرك، فما الذي حركه؟القوة الحاكمة في الدماغ نائمة، وبعد البحث والدرس الطويل يفهم أن هناك حركة تسمى الحركة العكسية، إذ يجد أن النخاع الشوكي إذا قطع من موضع معين فإن جميع الحركات الإرادية

والحسية في الأعضاء التي تتفرع فيها الأعصاب الخارجة من النخاع الشوكي أسفل هذا تقف، أي أنه يحصل هناك تخدير وشلل. إذن النخاع الشوكي هو الواسطة في نقل التيارات العصبية الحركية والحسية كما تقدم. ولكن إذا قرصنا هذا العضو الفاقد الإحساس أو المشلول الذي لا صلة بينه وبين المخ أو هيجناه فإنا نجد عضلاته تنقبض فجأة، وليس للإرادة عليه أدنى تأثير، فهذه هي المسماة بالحركة المنعكسة، فالتيار الإحساسي ينقلب في النخاع الشوكي إلى تيار حركي يرجع في بعض الأعصاب المحركة وهي تنبه العضلات المتفرعة فتدعوها إلى الانقباض.

وإذن ينظر ذلك الحكيم نظرة أخرى فيقول: هنا أدب جم في دراسة هذا الجسم، فهاهنا ملك سكن في قصره وهو المخ، فدبر أشرف ما فيه، وهي الحواس كالسمع والبصر بإثني عشر زوجاً، وأرسل من قبله حكاماً آخرين قد ظهروا في الحبل الشوكي، وهؤلاء الحكام نواب عنه يتلقون الأخبار بواسطة الأحد والثلاثين زوجاً من الأعصاب ويوصلونها إلى المخ، وهو الآمر الناهي، ومن دون ذلك طائفة لها نظام آخر، وهي طائفة الجهاز «السمباثوي» وهي العقد العصبية المصفوفة على جانبي العمود الفقري كما تقدم، فهذه أشبه بعمال الزراعة والتجارة والصناعة أي أعمال الدولة الداخلة، فأما الملك وأعوانه فلهم نظام أعلى وأعمال أهم وأعظم.

ثم يقول الحكيم: إن هذا الملك الذي استوى على عرشه له أعوان ثلاثة هي:

(١) الحس المشترك الذي يجمع كل ما أدركته الحواس، ومعه القوة المخيلة التي تحلل وتركب وتصور صوراً لا نهاية لها مما اقتبسته من الحواس.

(٢) القوة المفكرة التي لها سلطان على المعاني المعقولة والأفكار السامية والقضايا المنطقية ومعرفة الأسرار.

(٣) والقوة الذاكرة التي تتذكر ما عرفناه عندنا من الصور والقضايا العقلية.

فالمخيلة بها جميع العلوم الجميلة من الرسم والتصوير والشعر الخ، والمفكرة تعرف نظام الطبيعة ونظام الجسم، وتبحث عن وجود الله والعوالم العلوية، والذاكرة بها علوم المواليد الثلاثة والفلك والرياضيات وتاريخ الناس، فهذه كلها تحضرها الذاكرة إذ تتذكر ما مضى بحسب درجاته.

فهؤلاء الثلاثة أعوان للنفس. ولها أيضاً ترجمان يترجم جميع ما ذكر وهو اللسان، ولها وزير هي اليد فهي تفعل كل ما تطلبه النفس وتبرزه للخارج كما أبرزه اللسان بصورة كلمات وهي صور في الهواء يسمعها السامعون فيفهمون.

ثم ينظر ذلك الحكيم نظرة أخرى فيقول: إن الحركة العكسية التي لا تصل إلى المخ أشبه بتدبير الشخص نفسه في عالم الإنسان. فكما أن العضو المشلول أو العضو السليم في حال نومنا يفعل أفعالاً عكسية لا علاقة لها بالمخ هكذا الفرد في الأمة مسؤول عن تدبير نفسه هو، وهذا هو علم تهذيب النفس الذي ألف له ابن مسكويه كتابه، ويرى أن الجهاز السمباثوي الذي يحكم في الأعضاء التي ليست تحت إرادتنا أشبه بنظام سياسة المنزل، والجهاز المركزي وفرعه أشبه بنظام المدينة. انتهى والحمد لله رب العالمين.

هذا ما فتح الله به في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾[فاطر: ١١]، ولولا علمه ما نظمت هذه الأعضاء ولا الأعصاب ولا المخ ولا العقل ولا العلوم ولا نظامها، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢]. كتب بعد ظهر يوم الاثنين اليوم الثاني من شهر شوال سنة ١٣٨٤هـ.

تذييل للمقام المتقدم

بعد ما كتبت ما تقدم قمت للصلاة ثم للرياضة فخطر لي ما يأتي: ذلك أن الحكيم الذي يتفكر في هذا الموضوع ويرى هذه المناظر والمعاني يتعجب فوق ما تقدم ويقول: يا سبحان الله، علم التشريح الآن وعلوم المواليد الثلاثة اليوم أصبحت بسبب التصوير الشمسي واضحة ظاهرة، فنحن الآن في هذا التفسير لم نحتج إلى إنسان لنشرحه ولا حيوان، بل كفانا أن ننظر الصور.

فيا سبحان الله، إن الله ذم أقواماً فقال: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[الكهف: ٥١]، وألزم الناس الحجة غبيهم ومقلدهم وعالمهم، فقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾[الأعراف: ١٧٢]، فهؤلاء الشهداء ليسوا سواسية، فمنهم من شهد بالحق وهو الذي قيل فيه: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف: ٨٦]، ومنهم من شهد وهو غافل لأنه غير مستعد وإن كان أعلم الناس بعلم التشريح، فهذا يكون علم التشريح عنده أشبه بمزرعة الزارع يحتال لتنظيف الأرض من الحشائش ويسقي الزرع ولكنه لا يدري من أسرار النبات شيئاً، كذلك هذا يحتال في حفظ الأعضاء ومداواتها وتغذيتها ولكنه غافل عن أسرارها وعجائبها التي يعرفها الأذكياء من قراء هذا التفسير، وإن كانوا هم أقل منه علماً بالتشريح كما يعرف عالم النبات تركيبه وعجائبه وإن كان لا يعرف طرق الري ولا أحوال الزراعة، ومنهم من هو مستعد للفهم ولكنه مقلد، وإلى هاتين الطائفتين قال تعالى بعد ما تقدم: ﴿ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٧٢]، وهذا لمن في استعدادهم نقص، ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ﴾[الأعراف: ١٧٣]، وهؤلاء المقلدون.

والفريق الأول هم الذين شهدوا بالحق إذ أشهدهم الله، فهؤلاء قالوا: بلى، وهم يشاهدون نظام أنفسهم، والآخرون لا يشهدون بالحق لأنهم مقلدون أو غافلون، والفريق الأول هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨]، فالله يشهد أنه منفرد بالألوهية قائم بالنظام والعدل، والملائكة استمدوا الشهادة منه، وعلماء الأرض استمدوا من الملائكة فهم يشهدون بالحق، ومن الشهداء بالحق قراء هذا التفسير بشرط أن يكونوا أذكياء، فهؤلاء هم الموقنون بما شهدوا، لأنهم يشاهدون عجائب المخلوقات بأنفسهم ويفهمونها، وهذه الطائفة الشاهدة هي المقصودة من هذه الدنيا، فهم بمشاهدة هذه العجائب مرشحون إلى الدخول في عوالم ألطف، ويكونون ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾[القمر: ٥٥]، لأنهم أولاً في هذه الدنيا يؤدون الخدمة الواجبة لهذا النوع الإنساني، وهم في نفوسهم قد درسوا عجائبها، فكملت لهم القوتان العلمية

والعملية، وما الحياة إلا علم وعمل، كما أن الأعصاب للحس وللحركة، فالحس راجع للعلم. والحركة راجعة للعمل، فزوج العصب الواحد نظامه كنظام الوجود كله.

ثم ينظر الحكيم نظرة أخرى فيقول: يا عجباً، إننا نقرأ النحو والصرف والبلاغة ونلاحظها في الإنشاء، فإذا أخذنا نكتب المقالات ونؤلف الكتب نجد أننا غير مفكرين في تلك العلوم اللفظية الثلاثة، بل هي أصبحت عندنا غريزة، وهذه الغريزة جعلناها شبكة نصطاد بها معان أخرى، هكذا نرى هذا الجسم الإنساني قد اشتمل على الدائرة الغذائية والدائرة التنفسية والدورة الدموية، وهذه الدوائر الثلاث عندنا أصبحت كدوائر النحو والصرف وعلوم البلاغة، نستعملها ولا نفكر فيها ونطلب بها غيرها، فهذه الدوائر في أجسامنا تحت إشراف أرواحنا وفي إدارتها، ولكننا غير مفكرين فيها، ولذلك رأينا لها نظاماً خاصاً وهو النظام «السمبائوي»، وهذه طلبنا بها غيرها وهي المعاني العقلية التي نقتنصها بالحواس المستعملة للأعصاب التي تقدم شرحها.

ثم ينظر ذلك الحكيم فيقول: إن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[فاطر: ١١]، يتضمن العناصر، والعناصر تبلغ فوق الثمانين، وهي مادة راجعة في جوهرها إلى الحركات والأضواء المتقدم شرحها في سورة «النور» عند آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥] في بحث قطرة الماء هناك فالمواد ترجع كلها إلى أضواء، والأضواء متحركات، فترسم دوائر وهمية، والدوائر الوهمية باختلاف وتنوع حركاتها تظهر أنها مواد، فيكون الحيوان والنبات، وهكذا لما وصلت هذه المواد إلى جسم الحيوان أخذت ترتقي مرة ثانية من غذاء إلى دم إلى حركة وحس في الأعصاب والمخ والعقل، فأولها حركة مع إحساس بعقل عام منظم لها في الكون، وانتهت هنا إلى حركات وعقل خاص في جسم الإنسان الواحد وهذا أشبه بمثال صغير لآية: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٤٢].

فهاهي ذه المادة أصلها الحركات والأنوار، فرجعت في النهاية إلى الحس والحركة في المخ والحبل الشوكي والعقل والقوى في الدماغ، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٤٢]. ثم ينظر ذلك الحكيم أيضاً فيقول: نظام هذا الجسم بديع كإبداع السماوات، فإنا نجد وضع كل عضو في موضعه، وهذه طبقات الجسم منظمات أعلاها المخ تحكم فيه القوة العاقلة، والقلب في الصدر والمعدة والأمعاء أسفل من الجميع، فهذه مراتب متقنة، وهكذا نرى نظام الشمس مع سياراتها وأقمارها كل منها في مركزه الخاص، وهكذا حركاتها السنوية والشهرية والخسوف والكسوف لها أوقات محددات، كل هذا تقدم في هذا التفسير.

ثم ينظر ذلك الحكيم فيقول: يا عجباً، ما لي أرى هذا الإنسان جاهلاً. كيف يغفل عن نظام جسمه؟ هذا الجسم متقن لم يترك فيه غدة إلا لها عمل. فهذه الغدد الدهنية والغدد العرقية والغدد اللعابية والدرقية والتيموسية والنخامية والبنكرياسية والكبد والصفراء وأمثالها والأنثيان للرجل والمبيض للمرأة، فهذه كلها لها أعمال فلا معطل في الجسم. أما هذا الإنسان الجهول فإنه متى أعطي ملكاً مال إلى الراحة وأكل أموال الناس بالباطل، فيحصل البطر والبطالة فيموت الشعب.

وهذا هو الذي حصل في دولة الرومان ودولة العرب ودولة الترك وأخيراً دولة إنجلترا. هذه الدولة التي عاشت بفضل مستعمراتها في الهند وأستراليا وكندا وإرلندا وغيرها، فألف الشعب الاتكال على الأمم، وكثر العاطلون وعددهم في هذا الشهر وهو فبراير سنة ١٩٣٠ فوق ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان.

فهذه ليست نظام طبيعة الجسم، لأن طبيعته أن لا يترك عضواً بلا عمل، والله يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، ويقول: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[الأنعام: ٣٢]، إذن الناس ما داموا مخالفين لسنة الله فإنهم معذبون، هو لا يلعب ولا يخلق شيئاً باطلاً، وهم يلعبون بتعطيل القوى والمنافع. والدول الأوروبية اليوم تعطل قوى الأمم التي تحتل بلادها، فيقتص منها الله بحلول الخلل في نظامها وكثرة الثورات وظهور الاشتراكيين والفوضويين، وليس من اللعب واللهو الأعمال الرياضية، بل هي لتقوية الجسم. إذن هي من أعمال الجد، فليست باطلة، إنما الباطل هو تضييع المنفعة من قوى الأمم الغالبة بالاتكال على الأمم المغلوبة، وتعطيل قوى هؤلاء المغلوبين التي بها يرتقون عن طبقة العمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الدخان: ٣٩]، فعدم علم الناس وجهلهم غشى على عقولهم فلم يفهموا هذا الوجود، فظنوا أن الراحة هي نهاية السعادة، فخاب فألهم وضل سعيهم في الحياة الدنيا، وجهلوا نظام النحل وأنه يقتل الذكور إذا حملت الملكة من ذكور أخرى من خلية غيرها، فإن لا داعي لبقاء هؤلاء الذكور في الخلية بلا عمل فيقتل النحل هؤلاء الذكور. وهذه هي سنة هذا الكون. إذن لا يسعد الناس فوق هذه الأرض إلا إذا اختص كل امرئ وكل جماعة وكل دولة بما هم أهل له، كأعضاء الجسم وأعصابه وعضلاته وحواسه. هذا ما خطر لي بعد الرياضة البدنية وكتب ليلة الثلاثاء الثالث من شهر شوال سنة ١٣٤٨ هـ. والحمد لله رب العالمين.

مسامرة في نظام الإنسان وجماله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله، أما بعد: فإني أكتب هذا قبيل الفجر يوم الأربعاء (٩) أبريل سنة ١٩٣٠، وهي مسامرة بيني وبين بعض العلماء. ذلك أن بعضهم لما اطلع على هذه الصور الجميلة التي أودعها الله في الإنسان. قال: هذا نظام حسن بديع، ولكن حدثني رعاك الله كيف أكثرت من ذكر هذه المسائل، وكيف لهجت في أكثر كتبك بأن هذا هو الجمال، وإنه يثير في القلوب ثائرة الحب والعشق للمبدع، فلقد تكرر هذا في هذا التفسير؟ نحن لا نريد أن نكون مقلدين في أمثال هذا، بل نود أن يكون القول مطابقاً لما في النفوس، فإن أكثر الصوفية وبعض العلماء نسمعهم يذكرون هذا، وهي شنشنة أعرفها من أخزم. وهذا ضرب مثل معناه أن هذه عادة هؤلاء. فقلت: أنا لم أكثر من هذه العجائب اعتباطاً، بل أنا أكتبها وأعلم أن تكرارها وترادفها يحدث في بلاد الإسلام ارتقاء وإسعاداً للروح وللجسم معاً، بإشراق القلوب بالحكمة وبالإسراع في ارتقاء هذه الأمم الإنسانية لا سيما الإسلامية، فأما إنه باعث على العشق والحب فأنا أبينه الآن فأقول:

إن الله خلق في عالمنا صوراً جميلة وجعل نظام هذا الإنسان وقبله الحيوان على الزوجين الذكر والأنثى وأبدع في خلقهما ما يشاء أن يبدع، وفتح باب النقش والتصوير والإبداع في الوجوه البهجة وجعل الأعلى منها قليلاً، أي: جعل الجمال الأكمل في وجوه الناس قليلاً ليكون قبلة الأنظار ويرتسم في القلوب، لأن القليل يحفظ والكثير لا يوجب اتجاه النظر، ويصبح معتاداً عند الناس فلا يهيج لهم بالاً، فهذه الوجوه الجميلة الممتازة نموذج لأعلى الجمال الإنساني، وهذا يدعو العاقل للتفكر في هذا الأسلوب فيقول: لـمَ خلق التناسب والجمال؟ وهذا السؤال جوابه ظاهر، وهو: التواد والتحاب والائتناس لا سيما بين الذكور والإناث.

ثم ينظر فيرى أن هذا الجمال بعد قليل ينسى ويحل محله جمال النفوس بالتربية والمحافظة على الأطفال في المنازل، ويرى هذا الجمال يأخذ في الضعف. والرحمة والرأفة بالأطفال يأخذان في الزيادة، فنرى وجهي الأبوين يأخذان في التشوه والتجعيد والتقطيب ويرحل ذلك الجمال الظاهر ويحل محله الجمال الباطن، فنرى أن هذين الهرمين أخذا يعانقان أبناءهما وبناتهما بدل معانقة أحدهما الآخر، ونرى هذه الذرية تهوي إلى هذين الشخصين حباً في عطفهما لا غراماً بجمالهما الظاهري. هنالك نعرف أن هنا جمالاً مخبوء في هذه الدنيا، فلنبحث فيه عسى أن ندركه، فماذا نرى؟ نرى مدارس وعلماء وحكماء، وكلما كان الحكيم أغزر علماً كانت القلوب إليه أميل وحبه أسرع، فبعد أن كان الصبي مغرماً بهذين الهرمين في صباه نجد غرامه تحول إلى الأستاذين والمعلمين، لأنه رأى كمالاً وجمالاً أرقى ونفوساً أسعد وأشرف، فرحمة هذين الهرمين تعطيه الطعام والشراب والكساء لجسمه، ولكن روحه بفطرتها تعلم أن مغذيات الروح أشرف من مغذيات الأجسام، فهو يسمع من أفواه المعلمين ما يسعد روحه، وقد تعلم من الأبوين دروس الحب لهما، ووازنت نفسه بين الدرسين، فهنا أخذ يسمع العلوم اللسانية والطبيعية والرياضية، فكما كان يحب أمه لتغذية جسمه هكذا يحب معلمه لتغذية روحه، وبعد أن كان يلهج بذكر الأم والأب، أخذ يلهج بذكر المعلم، وأخذ الحب يرتقي قليلاً قليلاً. ويكون الحب للمعلم على مقدار ما تعلم منه، فإن رآه في النحو عالماً أحبه بمقدار ذلك العلم، وإن رآه في علم الفلك بارعاً ازداد حبه له، وهكذا كلما شارك أستاذه في علم ازدادت نفسه حباً لأستاذه، وهنالك يرتقي في المعرفة ويتبعها الارتقاء في الحب، والحب هو السعادة في هذا العالم، ولا يزال يترقى حتى يفكر في عالم هو معلم العلماء، وهو الله تعالى. قال: فاضرب لي مثلاً لهذا الحب على شريطة أن يكون ذلك في موضوعنا.

فقلت: نعم، تصور أناساً جلسوا وأخذوا يتحدثون في الألغاز والمحاجاة، فقال قائل منهم: أنا أطلب معرفة رقمين عدديين إذا ضما إلى عدد آخر مركب من هذين الرقمين أنفسهما معكوساً ترتيبهما يكون مجموع العددين المذكورين (٥٥)، وإذا طرح أحد الرقمين من الآخر كان الفرق بينهما (٣)، فما هما العددان؟ فهاهنا شغل أفهام السامعين في هذا اللغز، إذ هم ملزمون أن يكون العددان مجموعهما (٥٥) مع أنه يشترط شرطان: أن يعكس ترتيب وضعهما. وأن يكون فرق ما بينهما عدد (٣)، ولا جرم أن هذا يدعو الجالسين أن يجربوا عدة مرات وهيهات أن يتم لهم ذلك بالحدس

والتخمين، فمتى جاء رجل وكان يحسن علم الجبر فإنه يفعل هكذا في حال ما إذا كان العددان (١١٠) والفرق بينهما (٦):

س + ١٠ ص + ١٠ س = ١١٠

أو س + ص = ١٠

س - ص = ٦

٢ س = ١٦

س = ٨

إذن ص = ٢

فيكون أحد الرقمين ٨ والآخر ٢ أي ٢٨و٨٢ ومجموعهما ١١٠ والفرق بين الرقمين ٦، وإذا جعل مجموع العددين (٥٥) والفرق بين الرقمين (٣) مثلاً كما تقدم حدث عندنا:

٢ س = $\frac{٥٥}{١١}$ + ٣ = ٨

أو س = ٤

إذن ص = ١

فيكون العددان ١٤و٤١ والفرق بين الرقمين ٣ ومجموعهما ٥٥.

فمتى قال هذه ذلك العالم للمتناظرين وحل هذه المسألة فرح به الجالسون وأحلوه المحل اللائق به وأحبوه وأقبلوا عليه، فإذا سمعوا منه حل المسائل في الهندسة والفقه والنحو والصرف والبلاغة والسياسة أخذ بمجامع قلوبهم على مقدار علمه، وهذا ينسي المتسامرين حب سواه، وإذا سأل سائل فقال: رجل له فرس حضره ثلاثة أشخاص لشرائها منه فسألوه عن ثمنها فذكره لهم، فقال أكبرهم لأوسطهم: إن أعطيتني ثلاثة أخماس ما معك من الدنانير صار معي ثمن الفرس. وقال الأوسط للأصغر: إن أعطيتني أربعة أسباع ما معك من الدنانير صار معي ثمن الفرس. وقال الأصغر للأكبر: إن أعطيتني خمسة أثمان ما معك من الدنانير صار معي ثمن الفرس. فكم كان ثمن الفرس ديناراً، وكم كان مع كل واحد من الثلاثة من الدنانير.

فكم يكون سرورك حينما تحل المسألة حلاً عجيباً فتقول:

(س) رمز للأكبر و(ص) رمز للأوسط و(ع) رمز للأصغر. ثم تقول: س يساوي ص زائد $\frac{٣}{٥}$ ص، وص يساوي $\frac{٤}{٧}$ع زائد ع، وع يساوي $\frac{٥}{٨}$ س زائد س، والثمن كله يساوي ٣ في ٤ في ٥ زائد ٥ في ٧ في ٨ يساوي ٣٤٠.

وس يساوي (٢ في ٧) زائد (٣ في ٤) وكلاهما يساوي ٢٦، و٢٦ ٥ في ٨ يساوي (٢٠٨) هو ما مع الأكبر، فلنطرح ٢٠٨ من ٣٤٠ يصير $\frac{٣}{٥}$ ما مع الأوسط، وهو ١٣٢، و١٣٢ زائد $\frac{٢}{٣}$ يساوي ٨٨، و٨٨ زائد ١٣٢ يساوي ٢٢٠ وهو ما مع الأوسط، و ذلك أن ٨٨ هي خمسان أضفناهما إلى ١٣٢ وهي ثلاثة أخماس. أما ما مع الأصغر فنعرفه بطرح ٢٢٠ من ٣٤٠ فيكون الباقي ١٢٠ وهذا هو $\frac{٤}{٧}$ ما مع الأصغر، فإذا زدنا عليه $\frac{٣}{٤}$ منه يكون هو ما معه $\frac{٣}{٤}$ في ١٢٠ يساوي ٩٠، و٩٠ زائد

١٢٠ يساوي ٢١٠ ، فالذي مع الأصغر ٢١٠ . إذن الذي مع الأكبر ٢٠٨ ومع الأوسط ٢٢٠ ومع الأصغر ٢١٠ .

أقول : إنك إذا أجبت السائل بهذا الجواب بعد هذا الجهد في هذه المسألة الجبرية فإنك تجد في نفسك سروراً وبهجة ، وهي مسألة مادية جزئية ثمن فرس ، فما بالك إذا رأيت نفسك قد أشرفت على هذه العوالم كلها وأخذت تحل مشكلاتها وتعرف مخبآتها . إنك إذن تكون أوفر سعادة وأكثر لذة .

وهاك حديثي مع المرحوم الشيخ محمد عسكر ، وهو كان مدرساً بالخديوية قبل ولادتي ، ثم اجتمعت به وهو هرم ولم أره من قبل ، فجلست معه يومين بلياليهما وحوله شبان ذوو جمال وثروة وعلم . فقلت له : أيها الأستاذ ، لماذا أرى قلبي يميل لك مع أن حولنا الجمال البديع ؟ فقال : لأنك لا ترى الجمال الحقيقي إلا فيّ أنا . وهذا الجواب حقيقي منطبق على كل عالم أخذ الناس عنه علوماً . إذن فلنرجع إلى إبداع أجسامنا ولننظر هذا الجسم الإنساني ولنقصر الكلام عليه .

فقال صاحبي : ولكنك مثلت بمثال من علم الجبر . وهل كل قراء التفسير يعرفون الجبر ؟ كلا . فقلت : هذه الحروف والإشارات الجبرية لا بد منها لحل المسألة ووضعها لا يضر . ذلك لتحدث عند من لم يقرأ هذا العلم شوقاً إليه وهو قد عرف النتيجة . وإذا أدرك أن هذه النتيجة تشرح صدر المتسامرين وتجعل في قلوبهم حباً لمن حلها وإعظاماً فهنالك يقيس النظام العام على النظام الخاص . فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت : العقلاء يدركون الفرح والحب والإعظام لمن حل هذه المسألة . فقال : حقاً ذلك . فقلت : فإذا عرفوا أن أجسامنا وتغذيتها ما هي إلا لغز يحتاج إلى أضعاف أضعاف هذا الحل ثم أدركوا حل لغزه دهشوا وأغرموا بمن حل ذلك اللغز . إن هذا النوع الإنساني أمره عجب ! هو نفسه لغز ولا يدرك ذلك . ومتى درس علوماً كثيرة رجع فوجد نفس هذا الجسم كله علوماً فيقرؤه ، فيحب من ملأه بالعلم المرموز فيه . ألم تر أن الإنسان يدهش إذا قرأ في سورة « يونس » نظام الهرم بمصر وأن أبعاده ومقاييسه لها نسبة إلى مدار الأرض حول الشمس من حيث مقياس أربع جهاته ، ونسبة أخرى من حيث ارتفاعه إلى بعد الشمس عن الأرض ، ونسب أخرى كثيرة إلى مكاييل المصريين وموازينهم .

إن قلب الإنسان يدهش ويحس بإعظام لذلك الحكيم المصري الذي فكر في أن يجعل نسباً بين مقاييس الهرم وبين الكيلة والإردب والرطل والدرهم والأوقية والفدان والقيراط والسهم والذراع البلدي والمعماري ، وهكذا مدار الشمس وبعدها عن الأرض ، فهو إذن يكون أكثر دهشاً إذا عرف نسبة هذا الجسم الإنساني إلى المخلوقات حوله ، ولكن لغز الإنسان في كل يوم يحتاج إلى حل جديد لأن حله إلى الآن لم يتم . قال : أوضح ما تقول . فقلت : أذكر لك بعض أمثلة يقولها العلماء في الطب حديثاً : إن أكل الهندبا اسمه في مصر « جعضيض » وأكل البصل ينفع الكبد ، وأكل البقدونس وكشك الماز والفجل ينفع لمرض الكلا ، ولمرض يسمى « الرجريج » ينفع الطماطم والليمون . وللجلد الجزر ، وللشجاعة البرتقال والليمون . وهكذا بحث العلماء في الأغذية وقالوا : إنها إذا نظمت لا يحتاج الإنسان إلى دواء . وقد وجدوا الجسم يحتاج إلى المواد الزلالية كاللحم والبيض وإلى المواد الدهنية والشحمية والمواد النشوية وهكذا الماء والملح .

فانظر إلى مواد حيوانية وأخرى نباتية وأخرى معدنية لا بد منها في نظام أجسامنا الإنسانية كأجسام الحيوان، وإذا نقص منها واحد حصل لنا مرض بقدره كما يضعف النبات بنقص عنصر من مغذياته. ولكن هذه المواد من المواليد الثلاثة ومن الماء أكثرها غليظ. فكيف السبيل إلى انتظام هذه الأجزاء وتصويرها عيناً ورجلاً ويداً وأذناً؟ فلنحل هذه المسألة. هنالك قال الله لنا: أنا أخلق سناً للقطع وناباً للتمزيق وضرساً للطحن ومجموعها (٣٢) سناً مقسمة على تلك المواد. وبعد ذلك يحتاج الطعام إلى الإذابة فكيف السبيل لذلك؟ فترى ثلاث أزواج أنهر في الفم: تحت الخدين وتحت اللسان وتحت الشفة السفلى. وهذه الأنهر الست يختص عملها بالمواد النشوية، وما بقي منها يحوله عصير آخر في الأمعاء إلى مادة سكرية، والمواد الشحمية تحولها الصفراء والبنكرياس في القناة الهضمية إلى مادة كالصابون ليمكن امتصاصها، والمواد الزلالية تحول في المعدة بعصيرها. أما الماء والملح فلا يتحولان إلى شيء، فهاهنا (٣٢) و(٦) منابع في الفم والصفراء والبنكرياس والعصارات المعدية والمعوية وهكذا، فهي تبلغ نحو (٤٣)، كل هؤلاء صناع يصنعون في الطعام داخل أجسامنا ليتهيأ للامتصاص ودخول الدم. وهذا كله يضاف إليه فعل نفس المعدة انقباضاً وانبساطاً. فهنالك يتحول الطعام إلى سائل سنجابي اللون يقبل الامتصاص، ألا يعجب الناس أن يكون الفم للنشوي، والمعدة للزلالي كالبيض واللحم بعد البنكرياس، والأمعاء لما بقي من المادة النشوية المهضومة في الفم، ولإتمام تحويل المواد الدسمة بعد البنكرياس والصفراء. ولو أننا تركنا أكل المواد الزيتية ونحوها لاعترانا مرض كما اتفق لي مراراً. فإني منذ عشرين سنة اقتصرت على الخضر، وظننت أن ذلك كاف، ونسيت الدهن فأصبح الدم كثير الماء لأنه فقد المادة اللمفاوية التي يحدثها الدهن فابتليت بالرعاف. ولكن الأطباء ليس لهم عمل إلا المداواة. وقابلني طبيب حاذق وقد نظر في جسمي من الداخل فوجد بقعاً ملونة، فقال: لا تخف هذا من مرض لا يعدي ولكنه يدل على نقص في التغذية. إذن نقص التغذية بالمواد الدهنية التي لم أحفل بها ـ لأني قرأت بالكتب أن الاكتفاء بالخضر نافع ـ كان سبباً لمرضين: خروج الدم من الأنف بكثرة، وتلوين الجلد ببقع غير حسنة. وبقيت كذلك لا علم لي بهذا النظام حتى قرأت حديثاً كتباً في التغذية، فصرت آكل الزيت والفاكهة والخبز مع السن والردة، فزال المرض إذ زالت البقع من جلدي ولم يرجع إلي الرعاف مرة أخرى منذ أكثر من سنتين، بل أنا لم أتعاط دواء بعد ذلك.

الله أكبر. إذن أنت يا الله جعلت أجسامنا لغزاً وأمرتنا بحله وقلت لنا: يا عبادي اسمعوا. أنتم تحلون مسائل الجبر والحساب والفلك. ولكن أجسامكم نظامها معقد وإذا أخطأتم في حل مشكلاتها كان الهلاك كما يحصل الخطأ في حل المسائل الحسابية إذا حصل خطأ في الحساب.

انظروا إلى ما حولكم، إن جسمكم مشتق منه، فهو من الماء ومن الملح ومن النبات ومن الحيوان ومن الهواء، ولا مرض يحل بكم إلا بسبب نقص أو جهل في مقادير الطعام أو الشراب. هنالك يجد الحكماء في نفوسهم سروراً لا حد له وحباً عظيماً للمبدع الذي خلق المرض فينا ليحدث عندنا فكرة في نظام طعامنا ويفتح باب العلم، فهنا يكون أمران: صحة أجسامنا بنظام الطعام، وأهم منه إسعاد النفس بإدراك ذلك الحكيم الذي أتقن ذلك النظام.

إن قراء هذا التفسير المدركين للعجائب المذكورة فيه يرون في نفوسهم حباً وعشقاً مفرطين لصانع العالم، وهنالك تكون سعادة تزداد بازدياد العلم. وهذه مبدأ سعادات أخرى في هذه الدنيا ثم في الآخرة، وتكون هناك أشرف من سعادة الجنة الحسية بما لا حد له.

إن قراء هذا التفسير يكون الأذكياء منهم سعداء في الدنيا وفي الآخرة. اللهم إنك بما صنعت في أجسامنا من الإحكام والإبداع وتقسيم المصانع التي أبدعتها في القناة الهضمية على الطعام الذي وزعته على مناطق الأرض تدهشنا. لماذا تدهشنا؟ تدهشنا لأننا نرى أرزاً ودقيقاً ناعماً مثلاً يتجاذبهما لعاب المعدة والأمعاء ونرى زيتاً وشحماً، وهكذا خوارج من النبات والحيوان قد تجاذبها الأمعاء والصفراء والبنكرياس، ونرى بيضاً ولحماً وأمثالها يتجاذبها البنكرياس والمعدة. هاهنا مناطق أرضية ربيت فيها النبات والحيوان، ومناطق في القناة الهضمية وزعت عليها ما ربيته في تلك المناطق الأرضية. فيا عجباً! مناطق في أرضنا مقسمات على نواتج المناطق الأرضية، كما قسمت المناطق السماوية والأرضية على مناطق المخ. فللحساب مناطق في الدماغ وبقية العلوم الرياضية والطبيعية. وهكذا فمعارف العوالم كلها موزعات على مناطق الدماغ المقسمات تقسيماً منتظماً على مقتضى العلوم. فيا رباه قسمت قناة الهضم وقسمت الدماغ وأعدتهما لاقتسام مناطق المخلوقات صوراً ذهنية وصوراً جسمية، وقلت: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

فيا ويل من مات وهو جاهل بهذا النظام عاجز عن إدراك هذا الجمال. جوع نحس به يدعونا إلى تعاطي الطعام، فنزرع ونحصد ونصطاد ونأكل، فتتلقاه مناطق الهضم بآلاته ومناطق العقل بتصوراته. حكم أبدعت وآيات نظمت.

إذن نحن خلقنا العلم وإلا فما هذا الإحكام والجمال؟ جسم صغير ثمانية أشبار بشبري يمثل ما حولنا تمثيلين: تمثيلاً جسمياً، وتمثيلاً عقلياً، ثم تمثيلاً متوسطاً بواسطة اللسان، إذ هو معبر عن كل ما تقدم، فهاهنا عقل وهاهنا جسم وهاهنا لسان، كل منها يمثل العالم بالتمثيل الجسمي والصور الهوائية بالحروف والصور الذهنية المعقولة، والعالم كله متصل بهذا الجسم وشؤونه.

مشاهدات لطيفة في بلدة المرج

قد قلت سابقاً في هذا التفسير إني أقوم كثيراً إلى جهة المرج لملاحظة أرض هناك زراعية، ففي يوم الأربعاء (٩) أبريل سنة ١٩٣٠ قبيل طبع هذه السورة، توجهت إليها فرأيت جندياً راكباً جواداً يقود فلاحاً ويرمح بحصانه إلى جندي آخر وهكذا رجلاً وراء رجل والناس يهربون من الجند. وهذا منظر غريب يقل نظيره، فسألت فقيل إنهم يجمعونهم لمطاردة الجراد لأنه الآن في الجبل الأصفر، وهو قريب من قرية المرج، وقد قرأت في هذه الأيام في الجرائد في نفس الشهر أن الجراد هجم على مصر من الشرق والجنوب وأنه خطر داهم، وأنهم جمعوا من مركز بلبيس (٦٠) زكيبة من الجراد، وهم يستعملون المواد الملتهبة في إبادته، وجمعوا الجند والفلاحين للتعاون على ذلك، وأهل فلسطين قد طاردوه قبل أهل مصر. وهكذا تقول جريدة الأهرام يوم الخميس ١٠ أبريل سنة ١٩٣٠ ما نصه: من الطرق المتبعة في بلاد الجزائر لمقاتلة الجراد أن تلقح جرادة أو بعض جرادات بمكروب «كوليرا الجراد»

وتطلق مع الأسراب فتلقحها بهذا المكروب الذي ينتشر في الجراد انتشاراً سريعاً ويقضي عليه، وقد أثبتنا أن الجراد في سيناء أصيب بهذا الداء. اهـ.

إذن الجراد له مرض قتال ووباء عام كوباء الإنسان العام. ومعنى هذا أننا نحن يجب علينا أن نتعلم نظام الجراد وحياة الجراد وقاتل الجراد حتى نحترس منه، وعلينا أيضاً أن نوحد صفوف المصريين لمحاربته وصفوف الأمم التي حولنا لمحاربته، أي على الأمم كلها أن تتحد في درء خطر الجراد. وبعبارة أخرى، أن هذا الإنسان لا كمال له إلا باتحاد جميع الأمم المعروفة على درء المفاسد، إذن الإنسان اليوم ناقص نقصاً فاحشاً، لأن أهل السياسة وعظماء الأمم لا يزالون أطفالاً أو كالأطفال، لأن مصر لو كانت في حرب مع فلسطين لأكل الجراد قوت البلدين، فهاهنا أمران: اتحاد الأمم للأعمال العظيمة، ودراسة كل حشرة وكل نبات وكل حيوان.

أما بعد فهذا كله تفسير للآية التي نحن بصددها، فهذا كله راجع لما نحن فيه من خلق الإنسان من نطفة، وهذه النطفة أمشاج، وأنه ابتلي وجعل سميعاً بصيراً. وبعبارة أخرى: إن الجوع مبدأ لهذا كله، الجوع طلب الطعام، والطعام موزع على سطح الأرض، وفي الأرض آفات كالجراد. ولا يتم طعامنا إلا بإزالة المهلكات لزرعنا. إذن نحن لم نخرج عن موضوع الآية، وكأن هذه الدنيا كلها تطبيق على دروس جسمنا، كما أن آيات القرآن حقاً وصدقاً تستتبع جميع العلوم، فكأن أجسامنا علم الفلسفة الذي يجمع العلوم، أو كالقرآن الذي يأمر بها وتحويها بعض جملة كآية: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس: ١٠١]، وأي علم يخرج عنهما. وقبل أن أختم هذه اللطيفة لا محيص لي من الإعجاب بخلق الجراد وخلق آفته. إن الذي خلقنا وخلق الجراد وخلق الشمس قال: لا بد للجراد من آفة تناسبه وهي حيوانات ذرية تهلكه، وعلى الإنسان أن يدرس الصغائر والكبائر من هذه الدنيا ويتحد على المنافع، وتكون النتيجة السعادة العلمية في الدنيا، وما هذه العوالم كلها إلا كدار الصور المتحركة «السينما»، وهي التي حدثت في زماننا، إذ يرسمون الصور على الشريط بالتعاقب صورة وراء صورة ثم يحفظونه، وبعد ذلك يضعونه في مكان مظلم ويضيئون الأنوار الكهربائية فتلقي على ذلك الشريط أشعتها فتبرز الصور على ما أمامها واضحة جلية كأنها أجسام حقيقية، بحر وبر وسماء وأرض وسفن وحرب وضرب وسرقة وإهلاك وتدمير وإصلاح، فبهذا يفرح الناس بما هو خير وما هو شر، لأنها كلها ترجع إلى الحذق والمهارة والدقة والإبداع. وكل ذلك تحبه النفوس، فأنا لما كنت في المرج وشاهدت الجندي يقود الفلاح وسمعت بمطاردة الجراد لم أر هذا في نظري إلا أنه تمثيل لرواية وتشخيص لحكمة عالية تنزلت لنا بهذه الصور. ولكن هذه المناظر أحكم وأبدع ولن يعقل أنها كذلك إلا قليل، فأما الكثير فإنهم لا يفرحون إلا بالصور المنقولة عن هذه الصور الحقيقية أو ما تركب منها، فدور الصور ظل لهذه المناظر الحقيقية والحقيقة أوضح من ظلها.

فيا أيها المسلمون، هل يعجبكم هكذا أن تعيشوا عالة على الأمم وأنتم خير أمة أخرجت للناس، أتضيعون قواكم العقلية بالكسل وتذرون منافع أرضكم بالجهل. لا لا. لا أيها المسلمون، أنا ناصح لكم أمين فلا تناموا بعد الآن. شمروا وجدوا واقرؤوا كل علم، فوالله لا سعادة في الدنيا إلا بما

ذكرته لكم، ولا سعادة في الآخرة إلا به. ومن ادعى من صغار العلماء أو صغار العقول أن ديننا لا يطلب هذا كله وأن الجراد ووباء الجراد والنمل ودراسة كل شيء لا موجب له وأن الإنسان تكفيه ظواهر العبادة؛ فقولوا له: اسمع ما قاله الغزالي في الإحياء بالحرف الواحد تحت عنوان: « بيان السبب في زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا » وهذا نصه:

وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرئاسة على المطعوم والمنكوح، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السماوات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرئاسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعاً؛ فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به إلى آخره.

وقد نقلت هذه العبارة بتمامها في أول سورة « البقرة » عند ذكر الجنة، وملخص ما بقي منها أن الناس يموتون على ما عاشوا عليه، وعلمهم يصحبهم وينقلب إلى مشاهدة، ونعيم الجنة على قدر الحب في الدنيا، والحب بقدر المعرفة، والمعرفة هي أصل السعادات كلها. ولا جرم أن ما ذكرناه من الجراد ووباء الجراد والقناة الهضمية وتوزيع الطعام كلها موجبات للحب ولسعادة الدنيا معاً. فقراء هذا التفسير أي أذكيائهم يعطون جنتين: جنة في الدنيا بحب العلم والبحث ويترتب عليه إسعاد الأمم، وجنة في الآخرة بسعادة مشاهدة ذلك الحكيم الذي أبدع هذه النفوس وصورها.

وإياك أن تظن أن بعض ما ذكرت في هذا المقام يهرج عن معنى آيتنا التي نحن بصدد تفسيرها: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر: ١١]، فهو بعلمه دبر الجوع ليحملنا على طلب العلم ونزرع ونأكل وندرس الدنيا كلها. ومنها الجراد مثلاً، ونخرج من الدنيا وقد شهدنا مناظر جميلة تحبينا في لقائه. إذن أنت أيها الذكي من الآن سعيد في الدنيا سعيد في الآخرة. انتهى صباح يوم الجمعة ١١ أبريل سنة ١٩٣٠م.

لطيفة في قوله تعالى

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢]

وفيها فصلان:

الفصل الأول: في بعض عجائب البحر.

الفصل الثاني: في الفلك المواخر في البحر.

الفصل الأول
في بعض عجائب البحر

إن هذا المقام تقدم منه كثير في أجزاء هذا التفسير. ولكن لا أخلي هذا المقام من شذرات تسر القارئين وتشرح صدور المفكرين، تباركت يا الله في جمال أعمالك وبديع إتقانك وإظهارك لنا من

المحاسن والبدائع ما يأخذ بألبابنا ويهيئ عقولنا للارتقاء إلى عوالم أعلى وأعلى. ما أبهر بحارك، وما أعجبها، تحار عقولنا في جمالها وعظمتها ولا تقف في تلك الحيرة عند حد.

(١) أتقف عند دوامها واتساعها وأمواجها وبطئها وعظمتها المذكرة بعظمة مبدعها؟ أم تقف عند ما ترى من حياة تتخلل سائر تلك الطبقات تحت الأمواج كأنها جعلت طلاسم تستعصي علينا دراستها ما لم نجدّ في تحصيلها؟ لندرك سرها فنعرف أن من الحيتان أنواعاً مثلاً مثل «الكاشالوت» ذلك الذي يطوف في البحار طولاً وعرضاً، وهو يجول كما تجول الآساد في البر، وله أنياب محددات يسطو بها على ضعاف الحيوانات البحرية، وإذا أصيب بأي جرح من الإنسان في السفينة فما أشد اندفاعه ومناصرة عشيرته له واجتماعهم على تلك السفينة، فلا تزال تلك الجموع تحيط بها وتصارعها حتى تصرعها انتقاماً لما أصيب به أحدها من جراح، بل إن حوتاً منها واحداً هاجم مركباً أمريكياً ولم يزل يهجم عليها حتى حطمها وأنزلها في درجات المياه وبئس القرار.

(٢) إن عقولنا لا تقف عند هذا الحد فإن «الروكان» أقوى منه وأضخم، أليس طوله يبلغ ١٢٠ قدماً على ما قيل وإن كان فيه مبالغة.

(٣) وإذا أردنا التفكر في أعماق المحيط ألفينا السمك في عمق (٢٧٥٠) قامة في تلك الأماكن التي لا نور فيها، وكيف يصل لها النور. وهل لنور الشمس سريان أبعد من ٢٠٠ قامة؟ مائتا قامة فقط وبعدها ظلام حالك، ففي تلك الأرجاء السحيقة البالغة ٢٥٥٠ قامة بعد انتهاء نور الشمس تعيش أحياء بغير ضوء شمس. وكيف تعيش بلا شمس؟ أتكون حياة بلا شمس؟ هذا عجب! ولكنا إذا فكرنا في أمرها بعد ما كشف منها رأينا ما هو أبدع وأعجب، رأينا أن النور والظلمة خاضعتان لأمر السمكة، فلها عضو يشع منه النور متى أرادت. فإن احتاجت إلى فريسة أو قوت أضاءت المكان بشمسها الصغيرة، وإذا أحست بمفاجئ لها من أعدائها أطفأت شمسها وغابت في لجج البحر. وقد يجعل ذلك النور إرهاباً للعدو وإضعافاً لبصره فيكون سلاحاً ضوئياً يهزم به العدو الذي به يغشى بصره. وبعض تلك الأسماك في قاع البحر لماع براق «فسفوري» وبعضها فضي اللون، وهناك لطافة وجمال وحسن وبهاء، وأعمق البحار كأعلى الجبال انخفاضاً وارتفاعاً.

(٤) وهناك الجزائر المرجانية ومنها جزيرة سيلان بالقرب من الهند والجزر البركانية والجزر المرجانية، وقد شرحنا كثيراً منها فيما مضى في هذا التفسير. إنما الأمر العجب أن نقول: أليس من العجب أن نجد «الأرضة» المذكورة في سورة «سبأ» وتقدم شرح أعمالها وأنها وهي عمياء قد بنت في الأراضي القفراء مدناً آهلة بسكان لا حصر لعددها، تديرها ملكة عظيمة القدر حجمها بمقدار راحة اليد ومعها زوجها المرسوم معها في سورة «سبأ»، فهذه الحيوانات الضئيلة قد رفعت بنيانها في اليابسة فبلغ في العلو (٦) أمتار بل ثمانية، واتسعت مدنها، فكانت أميالاً، واعتاصت في هدمها على الإنسان فلم يهدمها إلا بالديناميت، فهكذا هنا نجد جزائر في البحر، وما بناها إلا هذه المخلوقات الضعيفة المسميات بالمرجان.

تباركت يا الله . جزائر في البحر عظيمة في المحيط الهندي والمحيط الهادي « الباسفيكي » يبنيها حيوان صغير ، وتكون فيما بعد مزارع ومروجاً واسعات تكسوها أشجار « الشوكولاتة » المرسومة فيما تقدم في هذا التفسير ، أليس من العجب أن تكون بعض الحشرات البرية وبعض الحيوانات البحرية قد اتحدت على إحداث ما يعجز عن فعله الناس في الأرض؟ وهل للناس من قدرة على أن يحدثوا في البحار جزائر؟ كلا . إنهم لو قدروا على ذلك ما حارب بعضهم بعضاً على أرض من اليابسة ، فلو أنهم قدروا على ذلك لصرفوا تلك القوى التي أضاعوها في إعداد آلات الحرب الجهنمية على إيجاد جزائر كجزائر المرجان المعروفة بما يسمونه « بلكاديف وملاديف » أي بحيرة الجزائر أي (١٠٠,٠٠٠) جزيرة و(١٠٠٠) جزيرة ، فلو قدر الإنسان على الجزائر كما يحدثه المرجان لفعل أكثر منه ، ولأحدث أراضي في المحيط وقارات ، فسعد وأسعد ، ولكنه جهول يظن عقله آخر ما وصل إليه الإبداع ، ولم يفطن إلى أن هذه الجزيرة المرجانية والغريزة التي في الحشرة الأرضية المشروحة في سورة « سبأ » كما قدمنا قد أبدعت إبداعاً لم يصل له هذا الإنسان المسكين الذي يفرح بما عنده من العلم وهو لا يزال في أول حروف هجائية ، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم: ٣٤] ، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢] .

أما ظلمه فإنه إلى الآن لا يزال يفخر بأنه يعيش على نهب المال من أخيه الإنسان ، وأما جهله فهاهو ذا ظاهر في أنه لم يصل إلى علم حشرة أرضية في نظام المدن والبناية ، ولا إلى علم حيوان المرجان الباني في المحيط جزائر وجزائر ، أليس هذا هو الإبداع والإتقان والجمال . (انظر صورة المرجان في أول سورة « النحل » في الجزء الثامن وفي آخر سورة « الفرقان » في الجزء الثاني عشر) . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني: في الفلك المواخر في البحر

يقول الله : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[فاطر: ١٢] . فأولاً نرى الفلك مواخر ، وثانياً نبتغي من فضل الله ، وثالثاً نشكر الله على ذلك الفضل . فهاهنا ثلاث جواهر:

الجوهرة الأولى

فيما نراه من الفلك المواخر في البحر

أما الجاهل فلا يدرك من هذا القول في القرآن إلا لفظه وإعرابه وصرفه وبلاغته ، فهذا حد الجاهل وكثير من العلماء المتأخرين في الأمم الإسلامية ، أما الحكيم المفكر فإنه ينظر بعقل أحكم ونظر أتم فيقول : نحن رأينا الفلك في البحر مواخر ، فأي فرق بينها وبين سير الإنسان في الأرض وركوب الدواب وركوب القطارات الحديدية ، نسمع الله يقول لنا بعد ذلك : ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[فاطر: ١٢] ، لم أتى بهذه الجملة بعد رؤيتنا الفلك مواخر مع أنه يقول : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[النحل: ٨] ولم يقل : ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[فاطر: ١٢] ، وإن كان الجميع من نعم الله وتسهيل الأمور علينا .

هاهنا يرجع الحكيم إلى العلوم التي أبرزها الله في الأرض فماذا يرى؟ يرى أن قوة الحصان على الطريق العادي نحو (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف رطل بسرعة ثلاثة أقدام في الثانية ، وتجر على شريط السكة الحديدية نحو (٣٠,٠٠٠) ألف رطل للمسافة نفسها والوقت نفسه ، أي إن شريط السكة الحديدية يكسبنا في النقل عشرة أمثال ما نكسبه من السير في الأرض المعتادة . فإذا جعلت نفس هذه القوة فوق سطح الماء

فإنها تجر في الزمن نفسه والمسافة عينها (٢٠٠,٠٠٠) ألف رطل. إذن الماء أكسبنا تسهيلاً فوق سهولة السكة الحديدية نحو (٧) مرات تقريباً وفوق ما نناله في سيرنا المعتاد على اليابسة (٧٠) مرة، عجب! إن الماء يسهل لنا النقل بنسبة عظيمة جداً لم تصل إليها دوابنا ولا طرقنا الحديدية. إذن البحر نعمة في النقل تعلو على نعمة الطرقات في السكة الحديد وعلى الطرق المعبدة ـ بتشديد الباء ـ في الأرض. هذا معنى قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾[فاطر: ١٢].

فأما العامة وصغار العلماء فلا يرون بأبصارهم من السفن إلا كما يسمعون بآذانهم من القرآن مناظر سطحية وألفاظ مقروءة. فالفريقان في ذلك أشبه بمن يرى أمواج البحر، ويظن أن البحر ماء خامل لا حياة فيه، بل الحياة كلها عند أكثر هذا الإنسان حياة كالأمواج لا جمال فيها ولا بهاء.

فلا جمال في الحياة الدنيا إلا بدراستها، ولا بهجة في ماء البحر إلا بتعلم علومه التي عرفها الناس. ولا فائدة يعقلها الإنسان من منظر السفن الماخرات في البحر إلا بدراسة القوى وموازنتها كالذي ذكرناه هنا، وهنالك فقط يفهم لـمَ ذكر الله ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾[فاطر: ١٢] بعد ذكر السفن الماخرات في البحر.

إن للماء قوة تدفع الأجسام العائمة عليها إلى أعلى، فيخف ثقلها ويحس الإنسان بذلك وهو في البحر، فإنك إذا استحممت في البحر كشواطئ الإسكندرية وهنالك زجاج مكسور تحت الماء وأنواع من الأدوات الحادة فإنك لا تألم بما يصيبك من هذه الأدوات الحادة لأن الماء سيرفعك رفعاً يحفظك من الضغط على أمثال الزجاج فلا يصيبك الجراح. ذلك سر رفع الماء لأجسامنا فتخف، وهذه النظرية معروفة في جميع الدوائر العلمية ولها تدابير لا محل لذكرها، وهي المعروفة بنظرية «أرشميديس»، فهذه النظرية سر من أسرار الله الذي وضعها في الماء، وبه جرت سفننا فكانت أسرع نفعاً من دوابنا ومن قطاراتنا، لذلك أعقبه بقوله:

الجوهرة الثانية: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾[فاطر: ١٢]

هنا نبتغي من فضل الله لأننا وجدنا طرقاً سهلة معبَّدات عبَّدها ـ بتشديد الباء ـ الله لنا قبل أن يخلق أبانا آدم، لذلك نبتغي من فضله. والمسلمون هم المخاطبون بالقرآن أكثر من غيرهم. فيا رب هل الابتغاء من فضلك بالسفن الماخرات قاصر أكثره على غير المسلمين أم المسلمون من عبادك وهم أيضاً يبتغون من فضلك بالطرق البحرية المذللات ولا يقتصرون على الطرق الأرضية التي تقل عن البحار (٧٠) مرة من سهولة النقل. أيها المسلمون: البحار بحار ربكم، وهو الذي سهلها لكم ولغيركم، لمَ لا تبتغون من فضل ربكم في بحاره؟ ولو أنكم جاريتم الأمم في السير في البحر لنشرتم فضائل الدين في الأمم بالعلم والإقناع، فترك الناس أصنامهم وأوثانهم ولخففتم عن الإنسانية جهالتها المتراكمة، وإياكم أن تظنوا أن سير السفن في البحر أمر سهل، أو أن الابتغاء من فضل الله بالتجارة بمعاونة السفن أمر يسير.

إن هنا عالماً آخر وهو عالم الأثير. ذلك العالم البديع الذي هو ألطف من الهواء. عالم يتدخل في الماء وفي الهواء وفي الأرض وفي الأجسام الحيوانية وفي السماء وفي الكواكب، وفي الأرض هو عالم

لطيف ينفذ في كل شيء. هذا العالم أيضاً يسعد الإنسان بإسراع المواصلات، فبه يكون البريد البرقي «التلغراف» بقسميه، أي: الذي له سلك والذي لا سلك له، وهذا لا بد منه لسير السفن في البحار.

الله أكبر. أصبح الإنسان بهذا وبذاك كله كأنه جسم واحد. اللهم إنك أنت جعلت العوالم كلها كأنها جسم واحد، فأرضك مع شمسك وقمرك وسياراتك ومجراتك كلها كأنها جسم واحد، هكذا هذا الإنسان الجهول المسكين يظهر لنا أنك تكاد تجعله جسماً واحداً فهل يتنحى المسلمون عن هذه الموهبة بالجهالة؟ هل يتنحى المسلمون عن استخدام القوة الكهربائية التي يبعثها الناس في الفضاء فتتلقفها السفن في عرض البحار فتنجو من المخاطر وذلك بنعمة الأثير التي جعلها الله محيطة بنا. فهي أعمّ وأرقى من الماء والهواء. وإذا شئت شرحاً لهذا الموضوع فاقرأ ما نقلته من كتاب الجغرافيا التجارية الاقتصادية والجغرافيا البشرية تأليف «محمد بك حمدي» ناظر مدرسة المحاسبة والتجارة، وهذا نصه:

البرق السلكي البري والبحري والبرق غير السلكي

انتشرت الأسلاك البرية في الفضاء، ومدت البحرية في مياه البحار والمحيطات، فاتصلت أطراف المعمورة براً وبحراً، وأصبح العالم كله وكأنه قطر واحد، فهانت المناجاة في قليل من السويعات، وانتظمت عقود التجارة الدولية، وشاعت الأخبار في الآفاق بالسرعة بسبب سهولة إنجاز البيع والشراء والأخذ والعطاء فيما ينفع الناس، واشتبكت المصالح الدولية بشباك أوتادها في كل المدن العظمى وفي الموانئ الكبرى وفي جميع جزر البحار الحسنة الموقع الجغرافي، مما يسهل على الطالب تعيينه من الخريطة.

البرق غير السلكي

نطيل الكلام في هذا وحده لأن له الآن المكان الأول في جميع أرجاء العالم الراقي في قضاء الشؤون التجارية، وفضله على البرق السلكي برياً كان أو بحرياً واضح جلي، لأن الثاني معدود الخطوط محدود الجهات بواسطة الأسلاك. أما الأول فتعم إشارته الأرض قاصيها ودانيها على حسب قوة الدفعة الكهربائية التي تبعث بها من أعلى الفضاء، هذا فضلاً عن إغاثة السفن في عرض البحار إذا ما حلت بها الأخطار، فتتداركها السفن الأخرى المجاورة لها وتنتشلها من ورطتها، وفي ذلك من تأمين الأنفس والتجارة ما يرجع بالفائدة العظمى إلى هذا النوع من البرق، ولهذا نراه قد شاع ذكره واستعماله حتى لم تخل منه طريق تجارية ولا بلد رئيسية ولا السفن البخارية وبعض الشراعية، فقد أصبح لها أثاثاً وعدة من ألزم العدد. وإذ قد عمّ استعماله الآفاق، رأينا عدم الحاجة إلى سرد أشهر الموانئ والمدن التي تستخدمه، فقد لا يخلو منه الآن موقع ذو شأن في التجارة الدولية والسياسة الخارجية، وإذا كان ينقص جهة فهي عاملة حتماً على إنشائه فيها في القريب العاجل.

وبمصر عدد البروق غير السلكية أشهرها في الإسكندرية وأبي زعبل وهي قرية من أعمال القليوبية وأنشأت وزارة المواصلات حديثاً محط «البرق غير السلكي في الإسكندرية» تسهيلاً للمخابرات التجارية بين هذا البلد والخارج، لا سيما بين السفن المسافرة في البحر والثغر الإسكندري، فأقامت ساريتي البرق المذكور على شاطئ البحر في رأس التين، وجعلت ارتفاع السارية ١٣٠ قدماً، فأصبح للمحط من القوة الأثيرية ما يحمل الأنباء منه وإليه مسافة ستمائة ميل، بحيث يستطيع أن يلتقط الأنباء من البواخر السابحة

في البحر الأبيض المتوسط كله، ومن ثغور هذا البحر وما حواليها من الأماكن، ولا شك في أن الدوائر التجارية في الإسكندرية وبقية مدن القطر الكبرى لتغتبط بهذا العمل النافع.

وجهاز «البرق في أبي زعبل» تابع للحكومة الإنجليزية رأساً، وهو من أكبر عدد العالم التي من نوعه، وهو عبارة عن: (١) آلة ميكانيكية ضخمة تولد الكهرباء تسمى المولد «الدينامو» تتولد فيها الحرارة الشديدة بواسطة (٢) آلة بخارية في بناء آخر كبير مجاور للأول وعلى مسافة بعيدة منهما. (٣) أعمدة عدة يبلغ عددها نحو خمسين عاموداً مقامة على أرض مرتفعة جداً، وقد يبلغ طول الواحد منها نحو عشرين ومائة متر، ويربط في أعلى كل عامود بطريقة فنية أسلاك تمد على جوانبه حتى تصل إلى نهايته ثم تسير تحت الأرض حتى تتصل بالمولد، وهناك حجرة للمبرق المنوط به العمل، ولديه آلة ذات مفتاح متصل بالمولد، فإذا ضرب على المفتاح انفتح فم المولد وقذف موجة كهربائية ذات صوت شديد قاصف، فتسيل هذه وما يتلوها من الموجات الأخرى مارة بالأسلاك القائمة على الأعمدة قاصدة أعاليها حتى تخرج من أطرافها إلى الفضاء الواسع، فتنتشر في جو السماء بسرعة عظيمة تحاكي البرق الطبيعي، وأمثال هذه الأسلاك موضوعة في فرنسا على برج إيفل، وفي البواخر على رؤوس السواري.

والموجات الكهربائية التي يقذفها المولد من شاهق تنتشر في الجو كما سبق وصفه، وتدور حول الأرض مارة فوق الجبال والبحار من غير أن يعترضها شيء، وقد يبلغ ما تقطعه الموجة الواحدة في الجو ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية أو أكثر من ذلك.

والمصطلح عليه في إشارات البرق أن حرف الألف مثلاً يساوي نقطة وشرطة، والباء شرطة وثلاث نقط، والتاء شرطة واحدة وهكذا. والفرق بين الشرطة والنقطة أن الأولى يرسلها المبرق على المفتاح بقوة تساوي ضعف القوة التي يرسل بها الثانية، وعلى هذا القياس يرسل موجاته متتابعة في الجو فتتقبلها كافة الأسلاك المهيأة على المرتفعات الشاهقة في الممالك الأخرى سواء في ذلك البر والبحر ثم يتلقاها المبرقون بواسطة «سماعة» أشبه شيء بسماعة المسرة «التليفون»، فيدونون الكلام بواسطة سماعهم الموجات تطن طويلاً أو قصيراً «شرطة أو نقطة» كما هو مألوف في البرق العادي.

والموجات الكهربائية تشبه في انتشارها الموجات الصوتية، فعلى قدرة قوة الباعث تكون قوة الموجة وترددها في الهواء، وإذن تختلف قوى البرق غير السلكي باختلاف حجم المولد وعدد الأعمدة فعدة الإسكندرية مثلاً لها مولد أصغر من مولد أبي زعبل، وليس بها إلا عمودان اثنان، على حين أن للأخرى خمسين عموداً، ومن ذلك يكون نطاق المراسلات بواسطة الأول ضيقاً، بينما يتراسل الثاني مع جميع أطراف الأرض، وتتكلف الأعمدة نفقات عظيمة، فقد بلغ ما أنفق على الواحد منها مليون جنيه.

ويستطيع المبرق عند وضع السماعة على أذنه أن يأخذ أي الإشارات التي تتبادلها الممالك الأخرى بعضها مع بعض، ولديه طريقة فنية لتمييز الموجات ومعرفة ما يخصه منها وما لا يخصه، فالبرق غير السلكي والحالة هذه لا يؤتمن على سر إلا ما كان مرسلاً بالأرقام السرية.

ولقد تصل أحياناً مع الموجات الكهربائية أصوات الزوابع والرياح من كندا أو روسيا أو جبال فرنسا أو أي جهة كانت، فيشعر بها المبرق ويسمعها كما هي، وقد تضعف هذه الرياح أصوات الموجات على أن اختلاطها بها لا يمنع فهم إشارتها على الإطلاق، ولكل محطة برقية علامة خاصة لمناداتها بها، فعندما تتصل الموجات الكهربائية بين بلدين يمكن للمبرقين مبادلة الكلام بواسطة تلك العلامات.

وفي ساعات معينة من الليل يستعد جميع عمال البروق غير السلكية لتلقي إشارات «روتر وهافاس» دون الإشارات الأخرى، ولا يستطيع العامل بأبي زعبل مثلاً أن يراجع لندن في كلمة فاتته، ولهذا السبب يوجد دائماً في مثل هذه الأحوال عاملان لتلقي الإشارة الواحدة، حتى إذا ترك أحدهما كلمة تداركها الثاني. هذا ولا يزال البرق غير السلكي آخذاً في التقدم من الدقة والإتقان بما سيضاعف نفعه وفوائده. انتهى ما أردته من كتاب الجغرافية التجارية الاقتصادية.

أيها المسلمون، هانحن أولاء خلقنا في الأرض يحيط بنا الهواء فاستعملناه في الحروف الهجائية وذلك بالفطرة، ولكن العلم الآن أرانا الأثير فاستعملناه بحروف واصطلاحات، وكلم الشرقي الغربي وأصبح الصيني يكلم المصري والألماني به. أليس بهذا وأمثاله نبتغي من فضل الله؟ وهذا هو سر التعبير بالفضل في هذا المقام. ولما كانت هذه النعم قبولها واستعمالها شكر وتركها كفر بالنعمة أعقبه بذكر:

الجوهرة الثالثة: وهي: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[فاطر: ١٢]

فيا ليت شعري كيف يكون شكر هذه النعم، نعم الماء المسهل للنقل ونعم الهواء المسير للسفن، ونعم البخار كذلك، ونعم الكهرباء، ونعم الأثير الذي يربط الناس بعضهم ببعض ويكون التواصل والتخاطب، لا شكر لهذه النعم إلا بتعلمها أولاً، والعمل بها ثانياً.

فلا شكر للنعمة إلا بعد العلم بها، ومن علم عمل، وهناك يحس في نفسه بحب وغرام بمبدع تلك النعم فيفرح بها وينطلق اللسان بالحمد والأركان للعمل، فينفع المسلم الناس كما يفرح بنعم ربه، فهناك نتيجتان اثنتان: حب الله بفهم هذه النعم، ونفع عباده بإظهارها. وهل الشكر غير هذا؟ إن قراء هذا التفسير هم الشاكرون. والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٣٠م.

تذكرة من عجائب البحر

إن من أجمل ما سطرته الدهور، وأبدع ما أظهرته العلوم. مسألة الحياة في أعماق البحار التي ذكرناها هنا. لقد كان العلماء في النصف الأول من القرن التاسع عشر يحكمون حكماً لا ريب فيه ولا جدال. أنه لا أثر للأحياء تحت عمق أربعمائة متر في البحار الملحة، مستدلين بأن الضوء لا يصل إلى هذا العمق. وإلى أن الضغط على أجسام المخلوقات هناك يكون عشرات أضعاف الضغط الجوي. وأن الحياة هناك مستحيلة قطعاً تحت ذلك الضغط. فصار من البديهي أن لا وجود لأحياء في ذلك العمق. وهذا البرهان ظاهر واضح حق من كل الوجوه. ولكن ظهر خطأ هذا البرهان لما ظهرت الأبحاث البحرية بعد ذلك وتكاثرت وصادوا حيوانات على أبعاد مختلفات بآلات صيد خاصة تدل على العمق الذي أخذ منه ذلك الصيد من سمك وقشريات ولجميات من عمق سبعة آلاف متر أو أكثر

كما تقدم هنا . ووجد العلماء الضغط الواقع على أجسام تلك الحيوانات (٧٠٠) سبعمائة ضغط جوي ، لأن ذلك الضغط يساوي نحو عشرة أمتار من الماء فوق الأرض كما هو معروف في العلوم الطبيعية . وفوق ذلك وجدوا هذه الحيوانات محمية بدرع صلبة تجعل أعضاءها الداخلية في مأمن من العطب ، بل إن أغلب هذه الحيوانات طرية الملمس . شأنها شأن نظائرها في المياه السطحية . وعقول العلماء حائرة أمام هذه الحقائق الظاهرة . وما هذا الذي اختفى في هذه الحيوانات حتى تحملت ذلك الضغط العظيم .

هذا وإذا حولنا النظر عن الحيوان في البحث إلى نفس الماء هو مسكن الحيوان رأينا أمراً عجباً ! رأينا في السنتمتر المكعب من الماء يحتوي على (٣٠) ألف مليون مليون مليون جزء ، وأن متوسط سرعة الجزء الواحد نحو ٣٠ كيلومتراً في الدقيقة الواحدة أو نصف كيلومتر في الثانية الواحدة . وأن وزن ذلك الجزيء لا يتعدى ثلاثة أجزاء من مائة ألف مليون مليون جزء من الجرام ، ولكن هذا الجزيء الواحد مركب من ذرتين : من ذرات الأدروجين وذرة من ذرات الأكسوجين ، والحركة المستمرة المشار إليها الملازمة للذرات هنا أشبه بحركات جماعات النحل تصطدم الواحدة بالأخرى اصطداماً دائماً ، وعلى مقدار ذلك الاضطراب تكون درجة الحرارة زيادة ونقصاً ، وبسبب هذه الحركات المستمرة والاصطدام يكون الضغط من الماء على الإناء الذي هو فيه أو المكان من البحر الذي هو فيه . والفضل في معرفة ذلك يرجع إلى « كلارك مكسول » العالم الإسكتلندي من علماء القرن الماضي . ولكن كيف تركب الأكسوجين المذكور مع الأدروجين مثلاً في الماء؟ وكيف تكونت العناصر الأخرى مع بعضها في جزئيات الأجسام الأخرى . هذا أمر عجز عنه العلماء في كل عصر من العصور .

ثم إن هذه الجزيئات المائية أي التي يتركب منها الماء ونظائرها مما يتركب منه كل موجود في العالم المادي ليست هي أصغر ما عرفه الناس اليوم ، بل كل جزيء منها مركب من شيء أصغر منه جداً بمقدار (١٨٥٠) مرة ، وهذا الشيء يسمونه « إلكتروناً » وما هذا الإلكترون إلا شعاع الضوئي ، وهذا الشعاع الضوئي الدقيق تتركب منه كل ذرة ، والذرات تتركب منها المخلوقات .

إذن ماء البحر وحيوانه وكل مادة نراها مركبات كلها من مواد نورية ، اختلفت مظاهرها باختلاف حركاتها ، وهل هذا إلا قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] أي : منورهما . إذن لا ظلام ، فالعالم كله نور . ماء البحر نور ، الأرض نور ، الجماد نور ، الجبال نور ، ولكن اختلفت المظاهر باختلاف الحركات وتنوعها ، وإن شئت المزيد فارجع إلى آية : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] وادرس قطرة الماء هناك ، وافرح بنعمة العلم ، لتعلم أن العالم كله نور لا غير ، ولكن خفي علينا أمره في هذه الحياة لنتعلم ، ولا سبيل لتعليمنا بغير ذلك .

وممن لهم قدم صدق في هذا الموضوع « مدام كوري » وزوجها « المسيو كوري » المكتشفان عنصر الراديوم الذي هو أنشط العناصر كلها شعاعاً ، وقد وجد له ثلاثة أنواع من الشعاع . فمنها أشعة إيجابية ومنها أشعة سلبية . ومنها أشعة قصيرات الموجات جداً ، والأشعة السلبية هي التي قدر وزنها بما تقدم ، وهي داخلة في تركيب جميع الذرات .

الله أكبر. عجباً! أصبحنا نعجب من حيوان تحت ضغط ماء يفوق سبعمائة ضعف الهواء الجوي الضاغط علينا، ونعجب أكثر وأكثر من ضوء صغير جداً دقيق تتركب منه ذرات، وباتحاده تكون هذه المواد.

إن حياتنا عبارة عن مرسح نشاهد فيها الأعاجيب، فمن ضوء يتنوع حوتاً وذئباً وحجراً وشجراً وماء، ومن حيوان صغير طري اللحم يتحمل ضغطاً قوياً لا نقدر نحن على تحمله ولا الفيل ولا الجمل. تبارك الله رب العالمين. هذه بعض عجائب البحار، وربك يخلق ما يشاء ويختار. فهل يعجبكم هذا أيها المسلمون أن تناموا وتقوم امرأة وزوجها كـ« المدام كوري والمسيو كوري » فيبحثان عن الأشعة وعن الذرات وعن الأضواء؟ ونحن وأبناؤنا ونساؤنا عالة عليهم.

اللهم ربنا إنك أنت ربنا وربهم فأنعم علينا بنور العلم واشرح صدورنا، وألهم الأمم الإسلامية عشق العلم إنك أنت السميع العليم. اهـ. كتب صباح يوم الخميس ٨ مايو سنة ١٩٣٠م.

وإذا فرغنا من الكلام على آية: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾[فاطر: ١٢] الخ، فلنفصل القول في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[فاطر: ٢٧] الخ، فنقول:

لطيفة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الخ

لقد جاء في سورة « الكهف » عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ الخ؛ ما جاء في كتاب علوم للجميع باللغة الإنجليزية مترجماً أن هناك علماً حديثاً يسمى « علم الألوان »، وهذا العلم يقول المؤلف: إن علماء أهل الأرض الآن أطفال فيه، ولكن الذي عرفوه منه فعلاً يستبين منه للناس أن الألوان موضوعة في هذه الأرض لمقاصد صادقة وليس اتفاقاً ولا مصادفة، وذكرت لك هناك ما أوردوه في هذا المقام من الألوان المختلفة البديعة مرسومة مشروحة مبينة أسبابها، وأن ضوء الشمس هو الذي يرسمها ويخططها، وكلما كان الحيوان أكثر تعرضاً للشمس كان أقرب إلى السواد، وكلما ابتعدت أجزاؤه عن ضوئها واختبأت كانت ملونة بلون من الألوان الأخرى كالحمرة والصفرة، وترى هناك أيضاً أن هذه الأحوال العارضة التي ظهرت في أمثال « أبي دقيق الطاووسي » وفي « حمار الحبشة » المرسومين هناك قد حيرت العلماء، إذ وجدوا أن البياض في ظهر حمار الحبشة المصاب للسواد في ظهره وفي جوانبه يحتاج إلى علة غير علة إلحاح الشمس على ظهر الحمار، لأنها توجب السواد التام، أما البياض فهو أمر آخر لا يتفق مع إلحاح الشمس عليه، وهكذا تلك الألوان البهجة الزاهية في أبي دقيق الطاووسي المتزنة اتزاناً تاماً، الهندسية الشكل البديعة النظام، فإنها جاءت بسبب مواد ألصقت بأجنحة تلك الحشرة ووضعت بنظام مدهش، وهذه على قسمين:

قسم جاء اللون فيه حادثاً من انحباس الهواء في أوعية خاصة منتظمة، فعكس ضوء الشمس عن ذلك الهواء المنحبس.

وقسم آخر جاء اللون فيه عن انعكاس الأشعة الضوئية عن ذرات منتظمات رتبت ووضعت في صفوف منظمات، فظهر بها اللون بهجاً جميلاً. انظره هناك.

ثم ارجع معي هنا وقل معي: سبحانك اللهم وبحمدك. أريتنا الجميل، ذلك لأنك جميل. وضعت لنا قاعدة يا ربنا، وقلت لنا فيها: كلما كانت الشمس أكثر إلحاحاً على الجسم كان أقرب إلى السواد، وكلما كانت أقل إلحاحاً عليه كان أبعد عن السواد، وتحلى بلون من الألوان السبعة، ثم إننا رأيناك لونت الثلج بالبياض لبرودته، ولونت عروق الشجر الضاربة في الأرض بلون البياض، لماذا؟ لأنها لم تلاق حرارة الشمس، ولم تر الألوان إلا فيما برز للشمس من أجزاء النبات. فهانحن أولاء رأيناك يا الله أخذت تتفنن وتبدع الإبداع كله، وتضع ذرات على أجنحة الحشرات وتلصقها وتهندسها وتظهرها للشمس فيبهرنا لونها ونجد أفانين وأفانين من الجمال. ولو أنك أبقيت حال هذه الحشرة مثلاً بلا ابتداع مثل هذا لم نر هذه الأفانين والصور الجميلة. والحق يقال إن العالم الذي خلقتنا فيه كل جمال، ورأيناك لم تقتصر على ذرات تلصقها بالأجنحة، بل أبدعت في الأجنحة إبداعاً آخر وحبست الهواء فيها وعرضتها للشمس، فأخذت أمواج الهواء تلقي أشعتها على أعيننا داخلة في قرنيتها متخللة بلورتها ـ بتشديد اللام ـ أي عدستها، مرسومة على شبكيتها جارية في أعصابنا إلى مخنا، فهناك يظهر لنا الجمال والكمال والبهاء.

سبحانك اللهم. أبدعت ورقشت وزينت، ولما كان إبداعك في الصور وإتقانك لهندستها يراهما الجاهل فلا يأبه لهما، وذلك لأن الإنسان لا يأبه ولا يهتم ولا يعجب ولا يطرب ولا يفرح لما ألفه وعرفه من إبان صغره وريعان شبابه، إذ يطلع على هذه الأشياء وهو طفل ثم يشيب ويكون فتى وكهلاً فشيخاً فهرماً وهو في ذلك كله لا يرى في هذا الجمال إلا أنه أمر عادي لا يستحق التفكير. ألهمت طوائف من كل أمة من الأمم قديماً وحديثاً أن يصبغوا ويزينوا وينقشوا ويأتوا بأفانين الصور وأحاسن الأشكال وبدائع الجمال وروائع الزينة ومباهج الأصباغ.

وأقدم هذه الطوائف التي عثرنا عليها قدماء المصريين الذين زينوا مبانيهم بنقوش غريبة وصور بديعة حار فيها الناظرون وتحير في أمرها النقاشون والمهندسون، وإنما ألهمت الأولين والآخرين ذلك لتفتح العقول لهذا الجمال والإبداع الذي نسوه بإيلافهم وجهلوه بتكرار مشاهدته وسقوط اعتباره من القلوب، فهنالك هنالك الحكمة، استبان للناس الجمال والبهاء والحكمة. والحكمة لا تعطى إلا للمفكرين. والمفكرون لا يعرفون الجمال والحكمة إلا بالتحليل ومعرفة المقادير والأجزاء الداخلة في تركيب الأجسام والأصباغ.

ما الناس سوى قوم عرفوا ... وسواهم همج الهمج

فلأبين الآن لأذكياء الأمم كيف كانت الأصباغ عند قدماء المصريين فأقول:

أصباغ النقوش المصرية

قال الشاعر المصري شوقي بك:

غاب من حولها الزمان وشابت ... وشباب الفنون ما زال غضا

رب نقش كأنما نفض الصا ... نع منه اليدين بالأمس نفضا

ودهان كلامع الزيت مرت ... أعصر بالسراج والزيت وضا

يقول علماء عصرنا : إن قدماء المصريين تفننوا تفنناً أدهشهم ، فهاهي ذه هياكلهم العجيبة ومبانيهم الفاخرة وأصباغهم التي مرت عليها العصور والدهور وهي هي كأنما نفض الصانع عندها يده الآن .

فلننظر نظرة فيما كشفه القوم الآن لما حللوا تلك الأصباغ ، ومتى عرفنا بعض ذلك معرفة تامة رجعنا إلى صنع الله تعالى فعرفنا تلك العظمة ، وسعدنا بالجمال الذي ندركه ونفرح به في هذا الوجود ، هنالك يشوقنا جمال هذا العالم ونحس بالمسرة والبهاء .

لقد كان قدماء المصريين يمزجون الصبغ الأحمر بالأصفر ، فيكون منهما صبغ برتقال اللون ، وهذا اللون عثروا عليه في مدفن « نفرمت » الذي كان من رجال بلاط الملك « سنفرو » أحد ملوك الدولة الرابعة التي كانت تحكم مصر منذ ستة آلاف سنة وذلك قبل « خوفو » الذي بنى الهرم الأكبر من أهرام الجيزة . وهذه النقوش عميقة على هذا القبر وقد ملئت بهذا الطلاء ، وكان عندهم طلاء آخر أشد صفرة وأبهى وأجمل لوناً ، وطلاء آخر أخضر خضرة طبيعية وهو من الحجر الملكي الأخضر ، وطلاء أزرق من الحجر الملكي الأزرق ، وكلاهما من مركبات النحاس ، وهاهنا آن أن أذكر لك طلاءهم الأزرق الذي كان كثير الشيوع عندهم ، فهو كان صناعياً لا طبيعياً ، وكانوا يصنعونه قبل المسيح بألفين وخمسمائة سنة ، وما هو ذا؟هو نوع من الزجاج . وكيف صنعوه من الرمل والجير والكلس والقلي ومعدن النحاس . حرقت هذه معاً فكان منها زجاج أزرق . وقد حللوا قطعة منها تحليلاً كيماوياً فوجد فيها جزآن في المائة من «أكسيد النحاس» وثمانية وثمانون جزءاً من السليكا ، وجزء من الصودا ، وثمانية أجزاء من الجير ، وقليل من أكسيد الحديد ، وإذا كان حجر النحاس من جزئين إلى خمسة في المائة كان الطلاء أزرق صافياً ، وإذا كان حجر النحاس من (٢٥) جزء إلى (٣٠) كان لون الطلاء أزرق قاتماً أو بنفسجياً ، وإذا كان أكثر صار لونه أسود ، وإذا قل القلي كثيراً فالحاصل مادة رملية لا قوام لها ، وإذا كثر كثيراً فالحاصل جسم صلب لا يحك منه الطلاء المطلوب .

ولقد جاء في « المقتطف » في يوليو سنة ١٩٢١ ما نصه :

« ولذلك كان عليهم أن يزنوا العناصر كلها ويعلموا مقاديرها تماماً ، ومن ثم استعمل الميزان في الأعمال الكيماوية » . وأنا الآن أكتفي بهذا المثال ، فإن المدار على فهم ما نكتب لا على كثرة المعلومات .

هاهم أولاء قدماء المصريين منذ خمسة آلاف سنة نظروا في الأحجار فاستعملوها ولونوا بها مصنوعاتهم ، ثم ألهموا أن يقلدوا ما وجدوه في الطبيعة ، وهذا التقليد لا يكون سهلاً ، بل مرت عليهم قرون ودهور وهم يجربون ، فاهتدوا إلى البرتقالي بمزج الأحمر بالأصفر ، ووزنوا النحاس والسلكا وهو الرمل والصودا والجير وأكسيد الحديد فكان منها زجاج أزرق .

فيا عجبا ! يا الله نحاس وحديد ورمل وجير وصودا بامتزاجها يكون اللون الأزرق ، ولكن بمقادير محددة ، ولكن النحاس هو المقياس ، فإن قلَّ كانت الزرقة ، وإن كثر كانت البنفسجية أشد منها ثم يصير أسود .

هذا المثال يرينا أمرين :

الأول : إن هذه الأصباغ التي نراها في النبات والحيوان مخلوقة في الطبيعة أمامنا مرجعها مزيج موزون بموازين لو اختلت لاختلت الألوان ولذهب الجمال ، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧] .

يا عجباً ! هذا هو الميزان . هذا هو ميزان علماء الكيمياء الذي وزنوا به الحديد والنحاس والرمل والجير والصودا الخ ، حتى حصلوا على زجاج أزرق .

يا سبحان الله . إذن الله وزن هذه المواد وأمثالها حتى أبدع لنا أزهار الورد والقطن وأزهار أشجار الفواكه والرياحين . حينئذ هذه البساتين والرياض الناضرات التي نراها ذات بهجة تسر الناظرين قد وزنت المقادير الداخلة في تركيب هيئاتها حتى ازينت للناظرين . إذن الزينة بالوزن ، إذن الله وضع الميزان في كل مكان ، وضعه في كل شجر وحجر وجبل ، وفي كل شمس وقمر ، إذن ميزان الله يملأ السماوات والأرض .

إذن فهمنا قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، وقوله : ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ حال من الله ، فهو وحده قائم بالعدل . فهذا هو العدل وهو الوزن الحق ، والوزن الحق هو الذي به ظهرت هذه الألوان وبهرت وسرت الناظرين . لو أن اللون البنفسجي في البنفسج الطبيعي زادت مادته النحاسية عن (٣٠) في المائة لم يكن بنفسجياً بل كان أسود ، ولو كان أقل كثيراً لكان أزرق صافياً .

هذا هو الوزن في عمل الله ولم نعرف جماله إلا بدراسة الألوان . فبالدرس أدركنا معنى ، ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧] ومعنى القياس بالقسط ومعنى القول المشهور : « أسست السماوات والأرض على العدل » ، ولو اختل الوزن في عناصر هذه المواد لم تكن تلك الألوان ، واختل النظام وذهب الجمال الذي أبدع الله عيوننا لترسمه على شبكتيها وتوصله إلى عقولنا لننظر إلى ذلك الجميل الذي زين الأرض والسماء للناظرين ، وقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ [الكهف : ٧] .

ثم هو ألهم عباده أن يقلدوه ، وهاهم أولاء قدماء المصريين قلدوه في الصنعة ، وقلده جميع أهل الأرض في زماننا ما عدا أكثر المسلمين ، ولما قلدوه وزنوا وزنه فهو قد وزن في مصنوعاته ، وهم وزنوا في مصنوعاتهم تبياناً لقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧-٩] . يقول تعالى : وضعت الميزان ووزنت كل ملون وكل مكون وكل متحرك وكل ساكن ، لأجل ألا تزيدوا في ميزانكم ولا تنقصوا ، بل تعدلون وتزنون بالقسط في مصنوعاتكم لئلا تختل ، وتقيموا العدل في أعمالكم بميزان لئلا يختل نظام مدينتكم فالعدل في وزن المصنوعات يجعلها جميلة ، والعدل في القضايا ووزنها بالقسط وزناً علمياً قانونياً يحفظ دولكم ومدنكم ويجعلكم في الأرض سعداء ، ولا جرم أن الصناعات واجبة وجوباً كفائياً كما قدمناه في أكثر مواضع هذا التفسير ، وأن التقصير فيها يورث الذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة .

فيا حسرتا على أمم الإسلام، تلك الأمم التي أورثها الله أرض الأمم البائدة، وقد دفن تحت أرجلهم صناعات قدماء المصريين والآشوريين والبابليين وأمم خلت من قبلهم، فلما زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وظهرت كنوزها وتحدثت الأحجار دهش نوع الإنسان وقال: ماذا في الأرض؟ ولقد صدر الناس أشتاتاً، كل يسعى لعمل يجد فيه، وقد جنت كل أمة وكل فرد ثمرات ما عملوا في هذه الحياة الدنيا والآخرة على مقتضى الأعمال في الحياة من خير ومن شر.

كل هذا والمسلمون لم يحركوا ساكناً وأكثرهم نائمون، وعلماء أصول الفقه ينادونهم أن شكر المنعم واجب، ولا حمد إلا بعد معرفة النعمة، ونعم الله ملأت السهل والوعر فما لكم تجهلونها ولا تعرفونها، وتكفرونها ولا تشكرونها؟ ولا شكر ولا حمد إلا بمزاولة النعم وتقبلها وفهمها، فإن نظرتم فوقكم رأيتم الطيارات محلقات من فوق رؤوسكم، وإن نظرتم تحتكم ألفيتم صناعات الأمم الذين من قبلكم، ولم تبلغوا معشار عزهم، وإن نظرتم في الأمم التي معكم في أرضكم هذه ألفيتموهم سبقوكم في الصناعات أجيالاً وأجيالاً.

أما آن للمسلمين أن يتعلموا صناعات الأمم ويدرسوها؟ ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة: ١٠٥].

انتهى صباح يوم الأحد ٢٠ يناير سنة ١٩٢٩.

جوهرتان في آية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[فاطر: ٢٧]

الجوهرة الأولى: في صور الأصباغ والزينة والجمال في المصنوعات الإلهية تفسيراً للآية.

الجوهرة الثانية: فيما جاء في علم الألوان حديثاً ونحوه.

الجوهرة الأولى
في صور الأصباغ والزينة والجمال في المصنوعات

و ذلك إما في النبات. وإما في الحيوان.

أما الذي في النبات فاقرأه في سور كثيرة أقربها ما جاء في سورة «السجدة» من صور النباتات العجيبة.

وأزيد الآن ما جاء في المجلات المشهورة كـ«المصور» و«الجديد» و«كل شيء» وهكذا، وهاك نص ما جاء فيها:

أشجار غريبة

يرى القارئ في الأشكال الأربعة الآتية (شكل ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦) مجموعة من الصور عن الأشجار العجيبة، وهي وإن كانت أقل بكثير مما تصوره رواة القصص الخيالية فهي على كل حال غير مألوفة لدى القارئ المتواضع الذي لا يجمح به الخيال إلى مثل ذلك. (انظر شكل ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦) في الصفحة التالية.



(شكل ٢٣ ـ رسم شجرة ذات جدائل)

شجرة جديدة من نوع «يوشوا» الياباني في جنوب كاليفورنيا فروعها عديدة ملتفة كأنها الجدائل المضفرة



(شكل ٢٤)

شجرة عجيبة في حديقة «سونوما» بشمال كاليفورنيا وهي من أضخم الأشجار في العالم وأكبرها حجماً. يبلغ طولها عشرين متراً، وقد أحيطت بسياج يحتشد خلفه السائحون لمشاهدة هذه الشجرة الهائلة



(شكل ٢٥)

ناطحة السحاب رسم شجرة هائلة من ناطحات السحاب؛ إذا جاز لنا أن نستعير هذا الوصف للأشجار، في بريمن بألمانيا ويزيد ارتفاعها عن ٢٥متراً وعمرها تسعون سنة



(شكل ٢٦ ـ شجرة الفيل)

رسم شجرة عجيبة في الحديقة الوطنية في دنفر بالولايات المتحدة وكأنها رأس فيل رفع خرطومه

الجوهرة الثانية: فيما جاء في علم الحيوان حديثاً

وأما الذي في علم الحيوان فقد ملئ به هذا التفسير، وأزيد عليه الآن: **أولاً**: صوراً بهجة في حيوانات تطير من ذوات الأربع. **وثانياً**: صوراً لأنواع ريش الطيور غريبة بديعة. **وثالثاً**: صوراً لأنواع عجيبة من حيوان البحار. **ورابعاً**: عجائب العلاقة الزوجية بين الطيور.

أولاً: الحيوانات التي تطير من ذوات الأربع

يوجد الآن في الكرة الأرضية أكثر من نصف مليون نوع من الحيوانات المختلفة، ولكل حيوان منها طريقته الخاصة في إيجاد ما يأكله، والفرار من عدوه حتى لا يفترسه، ويوجد مصدر للغذاء في العالم لم تطرقه الحيوانات، ولا وسيلة للحصول عليه لم تجربها. وكذلك لم تدع الحيوانات أي طريقة من طرق الخداع للافتراس أو النجاة بالحياة، وكلها نضال مستمر وعداء لا نهاية له. يأكل كبيرها الصغير وقويها الضعيف ومحتالها الساذج. فهي من أجل القوت في حرب عوان وخدع دائمة.

فالحيوان الواحد في وقت واحد طالب ومطلوب. فإذا كان يجيد الهجوم على فريسته فلا بد له من أن يجيد طرق الفرار من أعدائه الكثيرة.

ومن وسائل النجاة التي منحها الله لبعض أنواع الحيوان الطيران في الهواء، فيستطيع الحيوان الذي يطير أن يتخلص من عدوه الذي لا يستطيع الطيران. وتنقسم الحيوانات التي تطير على وجه العموم إلى قسمين:

أولهما: الحيوانات التي تطير بخفقان الأجنحة إلى أعلى وأسفل بقوة عضلية ميكانيكية مثل الحشرات والطيور والوطاويط.

وثانيهما: الحيوانات التي يكون طيرانها مثل قفزات كبيرة تختلف في الطول حسب القوة الدافعة وحسب حجم أجنحتها الغشائية أو الجلدية مثل أنواع السمك الطيار والسحالي الطائرة والسنجاب الطائر.

يريد علماء التاريخ الطبيعي إذا قالوا الحيوانات الفقرية ذوات الأربع، الحيوانات التي لها سلسلة فقرية سوى الأسماك، وتسير على أربعة أعضاء بمثابة اليدين والرجلين في الإنسان، ويكون كل اثنين منها متشابهين تماماً في التركيب والشكل. وتعرف هذه الحيوانات بأنها أرضية، أي أنها تنتقل على وجه الأرض بتحرك هذه الأعضاء الأربعة، وقد صار بعض هذه الحيوانات بحرياً، مثل الحيوانات البحرية الزاحفة والحيتان، وانقرضت أعضاؤها وصارت زعانف طويلة تستعمل للتجديف في الماء.
واستطاع جانب من الحيوانات ذوات الأربع أن ينال قوة الطيران في الهواء، مثل الطيور والوطاويط، فتغيرت فيها الأعضاء الأمامية وصارت أجنحة تخفق بها في الهواء. وإنه لمن المفيد أن نقارن بين عظام جناح الطائر وجناح الوطواط وزعنفة الحوت وذراع الإنسان لنرى تقارب الشبه في تركيبها وكيف تحولت عن أشكالها الأصلية لتقوم بالوظائف التي تؤديها في الحياة حسب عاداتها المختلفة. ففي المنطقة الحارة في آسيا نحو عشرين نوعاً من السحالي الطائرة. ويرى في السحلية منها على جانبي الجسم غشاء رقيق يتصل بالأضلاع يطوى ويفتح مثل الشمسية. وإن من يتأمل حياة هذه السحالي

يجد أن هذا التركيب الغريب نشأ عندها من النظام المعتاد في حياتها . فإن هذه الحيوانات تعيش في الأشجار وتسير بكل سرعة فوق الفروع باحثة عما تقتات به من الحشرات ، وتكون أجنحتها في أثناء ذلك مطوية . فإذا أرادت السحلية الانتقال من فرع إلى فرع أو من شجرة إلى شجرة نشرت جناحيها المطويين ووثبت في الهواء دون أن تخشى السقوط . وأما الحيوانات الثديية التي تطير أو تقفز في الهواء فللواحد منها قطعتان كبيرتان من الجلد على جانبي الجسم تعرفان بالجناحين الغشائيين أو بأسفل الصدر ، كما في بعض أنواع الفالنجر ، وهو حيوان من نوع « الكانجارو » ، وأصغر نوع منه الفأر . ويمكن الفالنجر أن يعيش على الدوام فوق الأشجار بدون أن يضطر إلى النزول إلى الأرض ، فيثبت في الهواء ناشراً غشاءه لينتقل من غصن إلى غصن ومن شجرة إلى أخرى ، وهناك أنواع كبيرة من الفالنجر تشبه السنجاب ، ويستطيع الواحد منها أن يمرق بغشائه في الهواء مجتازاً نهر عرضه ٤٠ ياردة .

وأما السنجاب الطائر فليس من أنواع الفالنجر ولكنه من فصيلة الحيوانات القارضة ، وهو يعيش كذلك فوق الأشجار ويمرق في الهواء بغشائه الجلدي نحو خمسين ياردة ، وفي الهند نوع من السنجاب الطائر يمرق في الهواء ثمانين ياردة . وفي بلاد الملايو حيوان اسمه « الكوبحو » وهو لا يتصل بأي نوع من أنواع الحيوانات . ويرى بعض العلماء أنه يقرب من فصيلة الوطاويط ، ويقرب حجمه من حجم القط ، ولكن أرجله صغيرة دقيقة ، وينتهي بمخالب معقوفة . وغشاؤه الجلدي يمرق به في الهواء يغطي جميع جسمه ويتدلى من جميع نواحيه ، وهو يعيش كالأنواع السابقة في الأشجار ويمكنه أن يمرق في الهواء مسافة قدرها سبعون ياردة . وفي جزائر الفيليبين نوع صغير من هذا الحيوان ، ويعرف القراء كيف تطير الوطاويط بأجنحتها الجلدية الخالية من الريش ، وإن من يتأمل جناح الوطواط يجده مكوناً من غشاء رقيق يتصل بالساق وتتخلله عظام هي أصابع العضو الأمامي . ويوجد أنواع كبيرة من الوطاويط تعرف بوطاويط الفواكه ، ويبلغ طول أجنحة بعضها خمسة أقدام ، وتسمى وطاويط الفواكه في الهند والملايو وأستراليا بالثعالب الطائرة لأن لها آذاناً صغيرة ووجوهاً كوجوه الثعالب . وهي تنام . انتهى . (انظر شكل ٢٧ و٢٨ و٢٩) .



(شكل ٢٨ ـ الوطاويط أثناء نومها وهي تحمل صغارها)



(شكل ٢٩ ـ وطواط طول جناحيه خمسة أقدام ويسمى بالثعلب الطائر)



(شكل ٢٧)

ثانياً: ريش الطيور البديع

جاء في مجلة «كل شيء» ما نصه: بعض الطيور زاهي اللون متناسق الريش، تتماوج الألوان وتترقرق الأصباغ المختلفة عليه، حتى لقد فتن الإنسان بجمالها وصار يصيد الطير لكي يحصل على ريشه ويتزين به. والأوروبيات مولعات بريش الطيور يضعنه في قبعاتهن، حتى صار جلب الريش تجارة واسعة النطاق يشتغل بها الصيادون في مختلف البلدان، وكان أكبر ضحايا هذا الصيد أنواع «أبي قردان» المختلفة، فقد كاد الصيادون لإلحاحهم على صيدها يبيدونها لولا أن تدخلت الحكومات ووضعت الشرع المختلفة لحمايتها بعض الشيء.

وذكور الطير هي التي تتزين بالريش الباهر الزاهي، أما الإناث فتبقى عادة في سذاجتها، وهذا ظاهر في الدجاج، فإن الديك يتزين دون الأنثى، وهو وقت مغازلة الأنثى يزيف ويتطوس كأنه يشعر بجمال ريشه، أو كأنه يدرك أو يتوهم أن الأنثى تعجب به، وهذا هو الشأن في معظم الطيور وخاصة تلك التي تقتات بالأثمار. أما جوارح الطير كالعقاب والصقر فلا يزهو لونها لأن زهوته تنم عليها فتدل فريستها فتحذرها. وقل مثل ذلك في إناث الطيور جميعها، فإنها ساذجة لا زينة لها. لأنها لاحتياجها إلى الحضانة تخشى أن ترى وهي تحضن بيضها فيهجم عليها خصمها ويقاتلها أو يأكل بيضها، فمن مصلحتها ودواعي بقائها أن تختبئ لا أن تظهر. ولكن الذكر ليس في حاجة إلى ذلك. (انظر شكل ٣٠).



(شكل ٣٠ ـ رسم ريش الطيور البديع)

الريش عند مختلف الطيور:
(١) العقاب. (٢) الكاسوار. (٣) نوع آخر من الكاسوار. (٤) النعامة. (٥) اللقلق الهندي. (٦) أبو قردان. (٧) الطاووس. (٨) الطاووس أيضاً. (٩) و(١٠) و(١١) من ريش الديكة. (١٢) الأرغوس. (١٣) عصفور الجنة. (١٤) طائر القيثارة. (١٥) المومونت. (١٦) العصفور الطنان. (١٧) نوع من أبي قردان. (١٨) و(١٩) و(٢٠) و(٢١) ريش آخر من أبي قردان أيضاً في بلدان مختلفة. (٢٢) الابتريدفور. (٢٣) المانوكود. (٢٤) الكيفالوبتير.

ثالثاً: حيوانات قاع البحار

في قعر البحر حيث يبلغ ارتفاع الماء الذي فوقه نحو ميل أو أكثر تعيش أنواع من الحيوان عجيبة، فإن أجسامها مؤلفة بحيث تتحمل ضغط الماء الشديد، لأنها تعيش وكأنها تحمل مدى حياتها عموداً من الماء ارتفاعه ميل. ولحمها لا نستطيع أكله لأنه جاس لا يمضغ، ثم هي لأنها تعيش في ظلام دامس كثيراً ما تستغني عن عيونها ولها بدلاً منها حساسات تشبه حساسات القط تتلمس بها الأشياء

فتعرف الفريسة وتميز العدو، وأحياناً يكون لها ضوء يشع، فإذا كان لها عينان رأته واهتدت به، ويرى القارئ في (شكل ٣١) طائفة من هذه الحيوانات. (انظر شكل ٣١).



(شكل ٣١)

ففي (١) قنديل يشبه المظلة. وفي (٢) سمكة تسمى البالون لأنها وقت الغضب تنفخ نفسها فيكبر حجمها. وفي (٣) سمكة تعد من أشرس الأسماك وأقدرها على القتال. وفي (٤و٦) سمكتان تعيشان في أعمق مكان في البحر وفي كل منهما أعضاء منيرة. وفي (٥) سمكة تسمى الخروف. وفي (٧) سمكة القنفد. وفي (٨ و٩ و١٠) نباتات بحرية. وفي (١١) حيوان من الشائكة. وفي (١٢) بيض سمكة تدعى اللوليجة. وفي (١٣) سرطان. وفي (١٤) مرجان. وفي (١٥) نجمة البحر. وفي (١٦) و(١٧ و ١٨) حيوانات أخرى من الأنواع الدنيا.

رابعاً: العلاقة الزوجية بين الطيور

جاء في مجلة «مصر الحديثة» ما يأتي: ذكر الدكتور «ولفردودسجود» ناظر علم أنواع الحيوان «زوولوجي» أن الطائر الكبير الجميل المعروف باسم «النساف أبي القرن» يحفظ العلاقة الزوجية حفظاً يمتاز به عن أمثاله من الأطيار. وهذه العادة الجميلة معروضة للفرجة في متحف التاريخ الطبيعي، بواسطة الأوكار التي يعبأ هذا الطير ببنائها، يعيش هذا الطائر في «جزر سومطرة» و«بورنيو» وفي شبه جزيرة ملقا في المحيط الهندي، ومتى اختار أنثاه ذهب بها إلى شجرة مجوفة واتخذها مقراً لأنثاه، حيث تبيض وتنقف فراخها وتربيها هناك، وللحال تشرع الأنثى في بناء جدران المدخل في جوف الشجرة بالطين وبمواد أخرى. يساعدها الذكر في ذلك، وهو يظل خارجاً، ويتردد إلى أنثاه من وقت إلى آخر، يحمل إليها ما تحتاج إليه من الغذاء، فتظل الأنثى سجينة الشجرة مدة البيض والحضانة وتربية الفراخ إلى أن تطير، ولكن الذكر يحفظ عهد الأمانة لها فلا يتركها ولا يهملها بل يخدم حاجاتها. وهذه العادة الراسخة التي يتصف بها النساف تؤدي إلى سلامة الفراخ ووقايتها من السنجاب الذي هو أعظم خطر يتهددها. ومن القرود التي تكثر في غابات المناطق الحارة. وهكذا نرى في الحيوان من الوفاء والحرص على ذويه ما لا نراه في كثير من بني الإنسان. (انظر شكل ٣٢).

(شكل ٣٢ ـ ذكر النساف خارج باب العش ومنقار أنثاه ممتد من الداخل يتناول منه الطعام)

جمال العلم وبهجة الحكمة

رب إن الهدى هداك . وآياتك نور تهدي بها من تشاء . هاهي ذه الآيات اللاتي أوجبت النظر في الأبيض والأحمر والأسود واختلاف الأوصاف والأحوال . ولما اطلع على هذا ذلك العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير قال : هنا أمران جديران بالذكر : أمر نباتي وأمر حيواني .

أما الأمر النباتي فهو : الذرة التي أمكن أن يستخرج القوم من عيدانه وورقه ورقاً للكتابة .

وأما الأمر الثاني فهو : الجراد الذي عم البلاد المصرية في هذه الأيام والسورية والحجازية والنجدية والسودانية وكلاهما داخل في الآية ، لأن الآية تشمل الحيوان والنبات .

الأمر الأول

ورق الكتابة الذي يستخرج من حطب الذرة

فقلت له : أما كون ورق الكتابة يستخرج من حطب الذرة فقد تقدم في هذه السورة في قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[فاطر : ٢] ، فهذا من الرحمات التي أطلقها الله للناس فلم يمسكها أحد . فماذا تريد بعد ذلك؟ قال : أنا أريد أن تميط اللثام عن ثمرات هذا الخير للأمم الإسلامية بأن تجعله موضوعاً اقتصادياً كما هو شأنك في هذا التفسير ، إذ نراك تنتهز الفرص في صغيرات الأمور وكبيراتها فتتخذ منها سلاحاً لقتل الجهل وإحياء العلم . ولكنك لما كتبتها فيما تقدم رأيناك لم تعلق عليها شيئاً ، ولم تحث المسلمين على اقتفاء آثار العاملين النافعين لأممهم . فقلت : لقد أضرمت في قلبي بهذا السؤال نار الحسرة ، وأثرت في نفسي ثائرة الحزن والأسى على أمم مزقت كل ممزق كانت سراجاً للعالم مضيئاً وشمساً مشرقة ، فأقبل ليلها وأدبر نهارها وأصبحت في حلك الظلام .

ذكرتني بما قاله العلامة « سديو » المؤرخ الفرنسي في صحيفة ٢٦٨ في النسخة المترجمة ، وهذا نصه : وقد استعمل العرب بيت الإبرة من ابتداء القرن الحادي عشر في سفر البحر والبر ومحاريب الصلاة ، وصنع الورق من الحرير سنة ٦٥٠ ميلادية في سمرقند وبخارى ، ثم استبدل يوسف بن عمرو سنة ٧٠٦ ميلادية القطن بالحرير فصار القطن يستخرج منه الورق المسمى « الورق الدمشقي » الذي ذكره المؤرخون ، وأنشئ في أسبانيا معامل من الأقمشة البالية ، وسابق أهل ولنطية وقسطالونية في هذه الصناعة أهل كزطيوة ، واستعمل ورق العرب في القرن الثالث عشر بقسطيلة التي شاع منها استعماله في فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وألمانيا ، ولكن ورق الكتب العربية المكتوبة بخط اليد يفوق ورق الفرنجة لطافة ولمعاناً ، كما فاقه بما كان العرب تختاره من تزويقها بأبهج الألوان والأحبار والأزهار . وما أسلفناه هو كيفية ظهور تحكم العرب في جميع فروع تمدين أوروبا الحديث ، ومنه يعلم أنه من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر كان عند العرب أوسع ما سمح به الدهر من الأدبيات ، وأن نتائج أفكارهم الغزيرة واختراعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء ، كالمواد المختصة بتاريخ القرون المتوسطة وأخبار السياحات والأسفار وقواميس سير الرجال المشهورين والصناعات العديمة المثال والأبنية الدالة على عظمة أفكارهم واستكشافاتهم المهمة ، ولهذا كله وجب الاعتراف برفعة شأن هذه الأمة المحمدية . الخ .

وقد قال قبل ذلك بأسطر: إن اختراع العرب الورق وبيت الإبرة وبارود المدافع قد غير الحالة الأدبية والسياسية والعسكرية في جميع الدنيا. وقال: ولا عبرة بما زعمه بعض الفرنجة من أنه سلب من العرب شرف ذلك الاختراع ونسبه للصين، مدعياً أنهم عرفوا ذلك منذ زمان قديم، وأبطل ذلك بأن الطباعة لو كانت معروفة عند أهل الصين لنقلها عنهم العرب، فأما بيت الإبرة فليس من المعقول أنهم عرفوه وهم لم يزالوا إلى سنة ١٨٥٠ ميلادية يعتقدون أن القطب الجنوبي من الكرة الأرضية سعير تتلظى. ومعلوم أن الإبرة تتجه للقطبين. وهل عرفوا استعمال البارود استعمالاً مختلف الأفانين الذي بقي أثره عند العرب المشهود لهم باستعماله أصنافاً من القلل في حصارهم مكة سنة ٦٩٠ ميلادية، وباستعمالهم في مصر في القرن الثالث عشر البارود المتخذ من ملح السبخات ليرمى به نحو قلل ذات صوت كالرعد، وذكر استعماله أيضاً في معرض وصف البحرية التي عقدها ملك تونس مع أمير إشبيلية في القرن الحادي عشر، كما استعمل في حصار جبل طارق سنة ١٣٠٨ ميلادية، وحصار إسماعيل ملك غرناطة لمدينة «بائظة» سنة ١٣٢٤، وحصار طريفة سنة ١٣٤٠، وحصار مدينة الجزيرة سنة ١٣٤٢، وحكى المؤرخ «فراراس» أن الرصاص رمى بالبارود في تلك الحصارات فابتدأ نصارى أسبانيا من ذلك الوقت باستعماله. اهـ.

هذه بعض ذكريات الماضي أيها الذكي التي أثرت أنت ثائرتها في قلبي. ماذا أقول وقد عم الجهل وطم ولم يستيقظ كثير من المسلمين للجهالة الفاشية، ولم تطلع الأجيال المتأخرة على أمثال هذه الأقوال التي يذكرها الفرنجة، نعم قد حكم الترك أبناء العرب، وتسمى ملوكهم بأسماء خلفاء الإسلام، فمنعوا العلم منعاً باتاً فأظلم ليل المسلمين لا سيما العرب قروناً، وهذا زمان العز والعلم.

هاأنا ذا ذكرت لك الورق وأنهم أخذوه عن الصين ولم يكن له أصل إلا الحرير، فاخترع المسلمون في زمن الصحابة والتابعين أي في العصر الأول أن يكون من القطن، وارتقت الصناعة حتى صار من الخرق البالية في أسبانيا، ثم صارت أوروبا كلها تتعلم منهم، ولم يصلوا بشهادة المؤرخ الفرنسي لحسن الورق العربي الجميل. وهاهو ذا يقول: إن أوروبا عالة على الأمم الإسلامية العربية في صنع البارود وبيت الإبرة والورق، وبهذه الصناعات قلبت سياسة الأمم وآدابها وعسكريتها.

إن الذي أذل الأمم الإسلامية عموماً والعربية خصوصاً أمران: أولهما سبب لثانيهما. الأمر الأول: الجهل. الثاني: التفرق، جهلاء متفرقون، جمعهم الدين والعلم، وقد نسوهما فنسيهم الله فتفرقوا، ولكن الله عز وجل يريد اليوم جمعهم بعد التفرق، وهذا التفسير من مقدمات النهضة الإسلامية، ومتى وصل علم هذا الكتاب وما فيه إلى آذان أمراء العرب وملوكهم وبقية أمراء الإسلام وملوكهم دهشوا، ويقولون في أنفسهم: لم يكن يخطر ببال علماء الدين أن القرن الأول النبوي يحتوي على عجائب مثل اختراع صنع الورق من القطن بدل الحرير. أكثر المسلمين يظنون أن العصور الثلاثة الأولى ليس فيها إلا الحديث والفقه، فقد ظهر كذب هذا الرأي وأن الورق والبارود قد استعملا في أوائل تلك القرون الثلاثة، وهذا مع بيت الإبرة سبب للرقي الحاضر في فروع الحياة، وسيقول ساسة المسلمون حين يقفون على هذا: إذن نحن لسنا على نهج الصحابة رضوان الله عليهم، لأننا حصرنا

عقولنا في صغائر الأمور ونسينا ما تكنه عقولنا من الآراء السديدة والحزم الشديد والحكمة والاختراع . فلماذا لا نفكر فيما لدينا من الزرع والشجر؟ وكيف يكون القوم قد اتخذوا من حطب الذرة ورقاً؟ أواه! لقد فعلوا ما فعل أجدادنا أيام النبوة .

أجدادنا استغنوا عن الحرير الذي عرفوا من الصين أنه منه يصنع الورق بالقطن . وهؤلاء الفرنجة قالوا : بل نحن نستخرج الورق من الخشب بدل القطن الذي عرفناه من المسلمين ، بل نستخرجه أيضاً من حطب الذرة ، حطب الذرة الذي لا قيمة له أصبحت له قيمة شريفة إذا صار ورقاً . إذن في حقولنا من الثروة ما لا حصر له .

حطب متروك منبوذ جعل ورقاً وعيدان مبتذلة صارت ورقاً . وكم في الأرض وكم في الزرع من منافع جهلناها فلنقدم على العلم ثم العمل ولنفكر . هذه التي يقولها أشراف المسلمين حين يقرؤون هذا القول ، ويوقنون أنهم مقصرون ، وأن تقصير أممهم إنما جاء من الجهل ، والجهل هو آفة الإنسانية الآن . انتهى الكلام على الأمر الأول .

الأمر الثاني:وهو الجراد

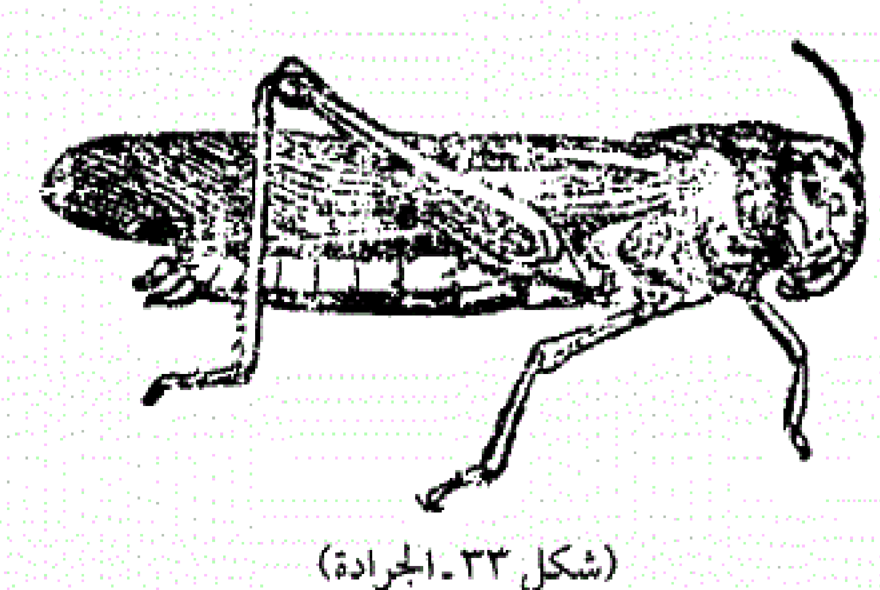
فقال صاحبي : فأفض القول في الأمر الثاني وهو الجراد . فقلت له : أما الجراد فإني لم أطلع على أحواله كما اطلعت على الكلام في حطب الذرة . فإذا سمعت منك فيه قولاً أمكنني إذن أن أوجه الخطاب لأمم الإسلام ذاكراً ما يناسب المقام . فقال :

غارة الجراد الكبرى على مصر في شهر إبريل سنة ١٩٣٠

جاء في مجلة « الدنيا المصورة » في ١٣ إبريل سنة ١٩٣٠ ما يأتي :

غزوات الجراد في مراكش

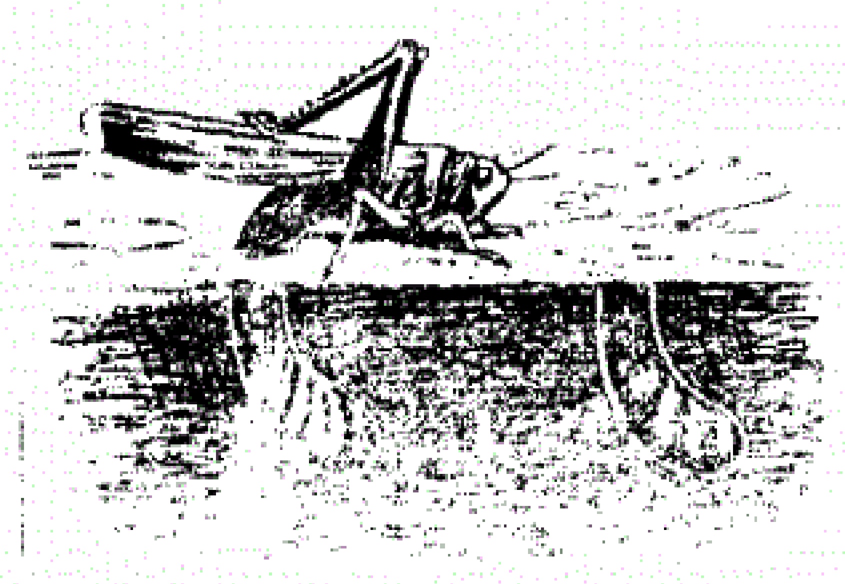
انقضت جيوش الجراد فدهمت المزروعات والحقول في ممالك جمة . فهي في مصر والأفغان وبلوخستان والعراق وسوريا والحجاز واليمن والسودان والحبش وشمال أفريقية . وقد خرج الفلاحون من مراكش يلتقطون الجراد ويجمعونه في أكياس . وقد خرجوا أيضاً مرة أخرى في وقت الفجر تحت إرشاد شيوخ القرية لمكافحة الجراد . (انظر شكل ٣٣) .



(شكل ٣٣ ـ الجرادة)

ثم جاء ما ملخصه : أن الجراد أنواع ، و نوع منه يسمى الجراد الراحل ، هو الذي يهجم على مصر وهو يؤكل في الهند مقلواً بالزيت ، ويأكله العرب في بلادهم ، وفي السودان يجففونه ويحمصونه ويحفظونه فيكون طعاماً ويعتقدون أنه يشفي بعض الأمراض . ويقال إنه ينشأ في السودان والحبشة وبلاد العرب ونجد ، فيتناسل ويفقس ثم يرحل ، وفي رحلاته

يسير (٦٠) كيلومتراً في الساعة، وله مواعيد محددة، فجراد السودان الذي يغير على مصر يأتي لها في مارس ويرحل بعد أن يكون طاف ببلاد العرب، وله بين كل عشر سنوات وخمس عشرة سنة غارة كبيرة رهيبة، وآخر غاراته سنة ١٨٩٠ وسنة ١٩٠٥ وسنة ١٩١٥ ثم هذه الغارة السنة ١٩٣٠م، وقد جمع أهل مصر سنة ١٩١٥م نحو(١٣) مليون كيلو جراماً من الجراد ونصف مليون، ومن بيضه(٤٢٤) كيلو جراماً من البيض وهو ٢٧ ألف بيضة ونصف مليون، والأنثى تضع بيضها بأن تمدد بطنها وتحني طرفها وكأنها زاوية قائمة مع الأجنحة، وتحفر حفرة تغرز فيها بطنها (انظر شكل ٣٤)، وتضع البيض كتلاً، كل كتلة أشبه بعنقود، كل عنقود يكون ما بين (٨٠) و(١٢٠) بيضة. وقد تكون كتلها (٥) أو (٦) ثم تسد الحفرة وتفرز عليها مادة بيضاء كزلال البيض فتتجمد وتسد الثقب، وبذلك تحفظ الفقس من الحشرات وغيرها، وطول



(شكل ٣٤ ـ الجرادة تضع البيض)

البيضة (٨, ٨) ملليمتراً وعرضها (٨, ١) ملليمتراً وطول الكتلة (٤) سنتيمتراً. والذكر ينهش الأنثى بعد وضعها فيكسر رأسها فيعض عليها. وبعد مدة من (٣) إلى (٦) أسابيع يفقس ويخرج الجراد الصغير المائل للخضرة ثم يسودّ بعد ساعات قليلة، ويغير جلده خمس مرات كالأفاعي، وفي كل مرة تخرج بحجم أكبر، ثم تظهر الأجنحة وتكمل في مدة ما بين (٤٠) و(١٠٠) يوم، فيكون أحمر اللون شديد الخطر، ومتى بلغ قل خطره ويهتم إذن بالتناسل. فخطره وهو أحمر اللون شديد، فإذا كبر كان خطره في النسل. وقد هجم الجراد على مصر هذه السنة (١٩٣٠م) من جهة السودان أولاً ثم من جهة «طور سيناء» ثانياً. وقد أرسلت بلادنا المصرية بعثة لتعرف مصدر الجراد، فرأت تلك البعثة أنه ينشأ في جبل عليّة ـ بتشديد الياء ـ وفي وديانه في السودان. وقد عرفت أن هذا الجبل ووديانه هي أمنع حصون الجراد، وهو أعظم منطقة للجراد وتناسله.

فلما فرغ من كلامه قلت له: فماذا أقول لك؟ إن هذه مما احتوته هذه الآية، فإن فيها الأحمر والأخضر والأصفر. فقال: أريد أن أوضح ذلك. فقلت: هي تدخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[الروم: ٢٢]. فقال: العموم هنا لا يكفي. فقلت: أليست من آيات الله تعالى. فقال: أنا أريد ما هو أوضح. فقلت: هي آيات مفصلات. فقال: مفصلات! الآيات المفصلات هي آيات القرآن. فقلت: وآيات الأكوان، ألم يقل الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[الإسراء: ١٢]. فقال: ولكن جعلك الجراد وحده آية مفصلة يعوزه دليل خاص. فأولاً اذكر الدليل الخاص على أنه آية مفصلة. وثانياً كيف كان آية مفصلة؟ وما برهانه وما نتائجه التي ستظهر في بلاد الإسلام بسبب هذا التفسير.

فقلت: أما كون الجراد آية مفصلة فهو ما قاله الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] فالجهال يسمعون هذه الآيات وتمر عليهم وهم لا يعقلون. وأما حكماء هذه الأمة الذين سيأتون بعدنا فإنهم يعلمون أن التفصيل سيظهره العلم الذي يلهمه الله لقلوب واعية إسلامية في مستقبل الزمان. فإن حكماء هذه الأمة إذا تدبروا أحوال الجراد الذي يصيب البلاد العربية خصوصاً والإسلامية عموماً يفهمون أن هذه آيات العلوم.

(١) أولاً للأحوال الاقتصادية.

(٢) وثانياً للأحوال السياسية.

(٣) وثالثاً للإصلاحات الدينية.

(٤) ورابعاً لعروج النفس الإنسانية إلى عالم القدس والجمال والفرح بالحكمة والبهاء والصفاء.

فقال: لقد شرحت صدري بهذا التفسير قبل أن تفصل تلك الآيات، فإن هذه العنوانات العظيمة لتدلني على علم وحكمة تؤخذ من هجوم الجراد على مصر في الأزمان القديمة والحديثة، فاشرح لي الأمر الأول وهو الأحوال الاقتصادية. فقلت: لقد خلق الله هذا الإنسان في الأرض ورباه وعلمه السياسة والاقتصاد، ولكنه إلى الآن لازال طفلاً صغيراً، وهذا الطفل تصيبه الكوارث والنوازل والموقظات، فهو يرتقي قليلاً قليلاً ولكنه بطيء النمو، هذا الجراد أرسله الله على أهل مصر بلادي في قصة موسى وفرعون ليكون زجراً لفرعون إذ أذاق بني إسرائيل عذاب الهون، ولكن ليس القرآن لأجل بني إسرائيل وحدهم ولا لموسى، وإنما هو لنا فالله يقول لنا: هذا الجراد أرسلته عقاباً للناس على سوء فعلهم. فلنبحث عن سوء أفعالنا فإننا نجده في أمر واحد وهو الجهل، وعلينا نحن المسلمين اليوم أن نستيقظ ونفهم أن الله عز وجل هو الذي خلق النبات وخلق الحيوان. ومن الحيوان الجراد. وأعظم حصن للجراد جبل عليّة ـ بتشديد الياء ـ في السودان والوديان التي بجانبه. ففي هذا الجبل يخلق الجراد ومنه يصدر إلى البلاد الإسلامية كما تقدم.

فلنبحث إذن في هذه أهي نقمة أم نعمة؟ إن الله يقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] فهو بدأ بالطوفان وثنى بالجراد فأي طوفان في مصر؟ هو طوفان النيل. فكلما طغى النيل على مزارعنا في مصر اتخذنا له جسوراً وقناطر فحفظناه فانتفعنا به، إذن الطوفان الذي هو آية مفصلة أرسلها الله على أهل مصر قد عرفنا حقيقة أمره والانتفاع به، فأصبحت بلادنا اليوم عامرة يسكنها (١٤) مليوناً بعد أن كانت نحو مليونين منذ قرن. ذلك بأننا فهمنا هذه الآية وهي طوفان النيل فحفظناه وانتفعنا بمائه فصار نعمة بعد أن كان نقمة.

هذا هو تفصيل آية الطوفان، فلنتبع الكلام على الطوفان بالكلام على الجراد، وهو الآية الثانية المفصلة، فنقول: كما أن النيل يهلك الحرث والنسل إذا ترك وشأنه وينفع الناس إذا حوفظ عليه؛ هكذا يكون أمر الجراد. الجراد أهمه يخرج من جبال علية في السودان كما يخرج النيل. والنيل قد انتفعنا به. أفلا نفعل هكذا بالجراد، إن الله يقول هو آية مفصلة، أما تفصيلها لفرعون وآله فأمره ظاهر، وأما تفصيله لنا فإنه يحتاج إلى حكمة وعلم فأقول:

كما أن الماء بحفظه يخرج الزرع ويدر الضرع هكذا الجراد فيه منافع عظيمة إذا عرفنا قيمته، فهاهو ذا إحصاؤه سنة ١٩١٥ ميلادية ببلاد مصر، فهو كان نحو (١٣) مليوناً كيلوجراماً من نفس الجراد و(٤٢٤) كيلوجراماً من البيض.

ولما شاع أمر الجراد في مصر سنة ١٩٣٠ في أثناء طبع هذا التفسير كتبت للحكومة المصرية في جريدة الأهرام قائلاً: أيتها الحكومة: لقد قرأت قريباً أن الجراد في بعض الممالك قد أخذته شركة أوروباوية وعصرته واتخذت منه زيتاً، وهذا الزيت كان خيراً من كل زيت في الطيارات، أقول وكأن الله عز وجل لم يطلع من قبلنا على ذلك الزيت لأنهم لم يستأهلوا تلك النعمة، أما نحن اليوم فأهل لها. ثم قلت: وما بقي من جسم الجراد بعد العصر جعلوه علفاً للبهائم.

هذا ما كتبته للحكومة المصرية. ثم لم تمض أيام على هذه الكتابة حتى جاء من بلاد البلجيك نبأ رسمي في خطاب للحكومة المصرية يقال فيه: «إلى أين تصدرين الجراد، وإلى أين تصدرين بيض الجراد». وهذا الخطاب يراد منه أن تلك الشركة تريد أن تقوم بشراء ذلك الجراد وذلك البيض لتصنع ما صنع بالجراد الذي قرأت عنه في بلاد جنوب أفريقيا. وقد أدرجته في هذا التفسير سابقاً، وكاتبت به الحكومة المصرية كما قلت آنفاً.

كل هذا حصل في هذه الأيام وحكومتنا المصرية لم تحرك ساكناً. والسبب في ذلك أن البرلمان والحكومة مشغولان بمعاهدة الإنجليز وبالاستقلال وبالأمور السياسية، ولو أنهم كانوا في حال أحسن من هذه لقال قائلهم: إن أجسام الجراد البالغة (١٣) مليوناً من الكيلوجرامات لو أننا عصرناها زيتاً للطيارات واستخرجنا منها (٦) مليونات من الكيلوجرامات زيتاً، فماذا يكون ثمن ذلك كله؟ فلو أن الكيلو الواحد بقرش واحد لكان عندنا (٦) ملايين قرش وهي (٦٠,٠٠٠) جنيه، وليس من المعقول أن يكون هذا الثمن حقيقياً بعد المصاريف، بل يكون أضعافاً مضاعفة. فإذا أضفنا إليه ما بقي من جثمان الجراد وهو (٧) ملايين فإنه لا ينقص عن نصف قيمة الزيت المذكور لأنه يكون علفاً للبهائم يغني عن الفول والبرسيم بل هو أجلّ وأحسن.

إذن الجراد في ظاهره نقمة وفي حقيقته نعمة. فالحكومة المصرية التي صرفت مائة ألف جنيه لإحراق الجراد ومطاردته وإتلافه لو أنها عصرته زيتاً وجعلت جثمانه علفاً لأخذت من ذلك أضعاف ما صرفته.

فأنا أذكر هذا إيقاظاً للمسلمين بعدنا أن يفكروا في هذا ويبحثوا حقيقة ما قرأت أنا في الجرائد، هل عصيره زيت للطيارات وهو خير لها من كل زيت، وهل الجثمان الباقي بعد العصر خير علف للبهائم، فليبحثوا وليفكروا وليعلموا هذا في مثل مصر من كل أمة لم تعتد أكل الجراد، أما الأمم التي تأكله كبلاد العرب فالأمر فيه ظاهر، هو نعمة حقاً وصدقاً، نعمة ساقها الله لهم وهي ظاهرة واضحة، فالناس يدفعهم حب حفظ الحياة إلى الاتحاد على المقاومة كما يتحدون على حفظ جسور النيل، وهذا الاتحاد يقوي عاطفة المودة بين الناس ويلهب الشعور العام بين الناس في الوطن الواحد وفي الأوطان المتجاورات. هذه هي الآية الأولى من آياته المفصلات وهي الاقتصادية.

الآية الثانية من آيات الجراد: وهي آية الأحوال السياسية

اعلم أن أبناء العرب في مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام والعراق والموصل وهكذا في الصحراء الكبرى والسودان، كل هؤلاء يبلغون عشرات الملايين. فهذه أمة واحدة أصبحت أمماً متفرقة لا راعي لها ولا أمير يجمعها ولا عالم يوقظها، بل هم قوم مختلفون وطوائف متشاكسون فأنا إلى الله أشكو وإليه أضرع أن يهدي هذه الأمم إلى حال سعادتها ويهديها إلى رشدها. هذه الأمم هي أنفسها التي انتشرت في مبدأ الإسلام من أرض الحجاز ونجد واليمن، فكانت في العراق شرقاً والموصل وامتدت إلى تخوم الصين والهند وأيضاً بلاد فارس وسمرقند وبخارى.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى توغلت في السودان وفي جنوب أوروبا، فتوطنت في الأندلس ثم ذهبت إلى جنوب فرنسا في وقت ما كانت حكومتها واحدة، ثم أخذت تتمزق رويداً رويدا حتى انحلت عصبيتها وتفرقت وجهتها وذلت أعقابها، لأنهم جماعات جماعات لا جماعة واحدة وأمة واحدة. علم الله ذلك قبل أن يخلق السماوات والأرض، وأن هذه الأمة بما فيها من الفضائل النفسية والنخوة العربية والقوة الأدبية وإنكار الذات والحرص على الكرامة والشرف وحسن الذكر والإباء والشمم والكرم وما أشبه ذلك ستنشر في الأرض الدين، وبها تموج الأمم ويحصل لعملها آثار تظهر في جميع العالم قديمه وحديثه، وأن الأمم ستتجه للتعليم العام في الصين واليابان وأمريكا وأستراليا. كل ذلك بما أحدثت هذه الأمة من الفتوحات في أول نهضتها، وما نشرت من صناعة الورق وبيت الإبرة والبارود كما تقدم قريباً في كلام الأستاذ «سديو الفرنسي»، فأحدثت في الأرض نهجاً جديداً في العسكرية والآداب والنظم.

أقول: علم الله ذلك كله فأنزل في القرآن: ﴿الٓمٓ﴾ في أول سورة «آل عمران» تذكرة بآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[آل عمران: ٢٣] الخ، التي ترجع إلى أن اليهود أيام النبوة قد اتكلوا على مجد آبائهم وشفاعات آبائهم، وناموا فأذلهم الله، وجعل ملكهم للعرب كما تقدم واضحاً هناك، وأن ﴿الٓمٓ﴾ المذكورة في أول السورة تشير إلى ﴿الٓمٓ﴾ المذكورة في أول هذه القصة التي بها يتذكر أبناء العرب خصوصاً والمسلمون عموماً، أن الاتكال على مجد الآباء وشفاعتهم بلا عمل بلاهة وجهالة، وهذه الجهالة كما أنها انتزعت ملك اليهود منهم هكذا انتزعت ملك العرب منهم فتفرقوا، ومتى قرؤوا علوم الأمم المحيطة بهم وعرفوا بالتاريخ أنهم أمة واحدة، بل أنهم هم من خير أمة أخرجت للناس، وأنهم لا يليق بكرامتهم ولا بشرف أصلهم ولا بحقائق دينهم ولا بفضائل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكونوا اجهل الأمم، ممتازين بالتفرق والانحلال، فلم يساووا أمة ما من أمم الأرض ، فالصين ذات لغة واحدة لها حكومة واحدة، وهكذا اليابان اتحدت نسباً ولغة فاتحدت سياسة، ومثلها الإنجليز والألمان والفرنسيون والإيطاليون، فكل هؤلاء لهم لغة واحدة، فكانوا أمة واحدة في السياسة. فالعجب كل العجب أن يكون أبناء العرب مثلاً من أقاصي السودان إلى بلاد الموصل ومن جبل طارق إلى حضرموت والعراق لا تكون لهم حكومة واحدة مع اتحادهم ديناً ونسباً ولغة واتصالهم في البلاد. كل هذا تقدم مفصلاً في سورة «آل عمران».

أقول: إذا عرفوا ذلك وأدركوه في الكتب المنتشرة اليوم وفي هذا التفسير فإنهم لا جرم يسعون للاتصال فيكونون أمة واحدة، كما فعلت الممالك المتحدة، لكل جماعة منهم رئيسهم الذي رضوه إما من سلالة استتب ملكها عندهم وهم بها راضون، وإما بطريق الانتخاب بهيئة رئيس منتخب، وهؤلاء الرؤساء ينتخبون من بينهم رئيساً كما فعلت الممالك المتحدة تماماً.

هذا هو الذي تدعو إليه آية: ﴿الٓمٓ﴾ في أول سورة «آل عمران»، خزنها الله في القرآن لتظهر آثارها في زماننا عند الحاجة إليها، كما خزن الفحم الحجري في الأرض وأبرزه الآن لننتفع به. هذا ولم يقتصر وعظ هذه الأمم على الآيات المسموعة القرآنية، بل أنزل لهم آيات نظروها بعيونهم وهي آيات هذا الجراد المفصلات، إن الجراد كما تقدم من الآيات المفصلات، فهو آية مفصلة بالاقتصاد كما تقدم، وهو آيات مفصلات في السياسة أرسله الله على هذه الأمم وهو يهاجم مثلاً مصر تارة من بلاد السودان وتارة من طريق طور سيناء، ويهاجم العراق والشام وهكذا. فهذه الآية واضحة ظاهرة مبينة، فإن الجراد بهجومه على بلاد العرب من مراكش إلى العراق والموصل يذكر أبناء العرب مثلاً ويقول لهم: أنا الجراد. أمتي أمة واحدة. فإذا هاجمت بلادكم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة وأنتم تقتلونني وتحاربونني وتطاردونني وتحرقون وتهلكون مئات الملايين وملايين الملايين من جنودي فهل تفرقنا شيعاً؟ وهل اختلت صفوفنا؟أفليست الجحافل الجرارة التي هجمت على دياركم سنة ١٩١٥هي هي مثل الجحافل والجيوش الجرارة التي هجمت على بلادكم سنة ١٩٣٠، وهكذا سأرجع لكم الكرة بعد الكرة تذكرة لكم بالاتحاد، وستخجلون إذا قرأتم العلوم وتنورتم إذ تقولون: يا ويلتنا أعجزنا أن نكون مثل هذا الجراد فنتحد مع إخواننا ونكون مملكة واحدة كما اتحدت أمة الجراد، كما قال أحد ابني آدم: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾[المائدة: ٣١]، بل إن سوءة التفرق والتخاذل في البلاد العربية الإسلامية أعرق في الفضيحة وأظهر في الخزي من جسم غراب وقع فوق الأرض، فهذه أمم وأمم ربما تبلغ ثمانين مليوناً تفرقت شذر مذر ولم تعقل ما عقله الجراد بغريزته، إذ اجتمع وكوّن مملكة واحدة، وقد جعله الله آية يقرؤها المسلمون في أمثال هذا التفسير، فيرجعون مجدهم ويكونون مملكة واحدة. وهذا آت بعد نشر العلوم في هذه الأقطار.

تذكرة

آيات الله على قسمين:

آيات مسموعة. وآيات منظورة. والآيات المسموعة هي الكتب السماوية. والآيات المنظورة هي هذه العوالم المشاهدة.

وللأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[النمل: ٨١].

وللثاني الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾[غافر: ٨١]، وبقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[فاطر: ٢٧]، وهي الآية التي نحن بصدد الكلام عليها. وبقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾[طه: ٥٦]، وبقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[فصلت: ٣٧]، وبقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾[السجدة: ٢٧] الخ،

فهذه كلها آيات مشاهدة، والآيات المشاهدة يحاسب عليها الناس إذا قصروا فيها لأنها في الحقيقة المقاصد الحقيقية للآيات المسموعة.

ألم تر أن الله بعث غراباً ليري ابن آدم كيف يواري سوءة أخيه، فالغراب إذن مبعوث لنا ليرينا، والجراد مبعوث لنا ليرينا، وكل هذه آيات مفصلات لنا. إن جميع الأمم في الأرض وجميع أنواع الحشرات والطيور والكواكب مبعوثات لنا مسخرات لتكون باعثاً لنا على الفكر والبحث والنظر، فننتفع بها في الحياة ونذكر به العقول. وإذا كان الغراب علمنا صناعة دفن أمواتنا أفليس هذا معناه أن كل ما حولنا يعطينا دروساً من دروس الحياة. وهل أنزلها الله في القرآن لمجرد التلاوة؟ كلا، ثم كلا. بل إن القرآن كتاب أنزله الله للناس مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولو الألباب، إذن هذا القرآن نزل لفتح أبواب العلم على مصراعيه لأولي الألباب.

فإذا وجدنا فروض الكفايات قد وجبت بمقتضى آية «التوبة»: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[الآية: ١٢٢] الخ، فليزدنا تأكيداً ذلك الوجوب بما نشاهد من آيات الحشرات والحيوانات المنظورة اللاتي تعطينا دروساً ودروساً. والله هو الولي الحميد. وبهذا تم الكلام على الأمر الثاني من آيات الجراد والمفصلات وهي الأحوال السياسية.

الأمر الثالث: وهو الكلام على الإصلاحات الدينية

إن أهل هذه الأرض قد أنزل الله لهم ديانات في أوقات مختلفات، وهذه الديانات متى نزلت عليهم تؤول في آخر أمرها إلى أحوال تلك الأمم وأخلاقهم وعوائدهم وهذين البوذية والبراهمة. هذا الدين حرم أكل الحيوان شفقة ورحمة. وذلك نظر جزئي سطحي، إن أكل الحيوان هو عين الرحمة، إن من قرأ ما تقدم في سورة «سبأ» من أن الأرضة تلك الحشرة التي تبني لها مدناً فوق الأرض وترفعها (٦) أمتار فأكثر وتتسع إلى مدى أميال، وهذه المدن لا يقدر على هدمها الإنسان إلا بالديناميت كما يفعل في الجبال إذا أراد أن يقطعها بالطرق الحديدية. أقول: إن هذه الأرضة لها في كل سنة وقت معلوم تصدر فيه من ذريتها ذات الجناح آلاف الملايين تخرج كلها في ساعات معينة وتطير في الجو طلباً للتناسل ورغبة ضوء الشمس ونعيم الهواء بعد الحبس في تلك المدن المظلمة مع آبائها وأمهاتها العمياء التي تدير مملكة شاسعة لها منافذ، ومنافذ عليها حراس أشداء أقوياء من تلك الجنود العمي ذوات الأسلحة الفتاكة التي لا تدرك إلا بالمناظير المعظمة. وهذه الذرية ذوات الأجنحة المذكورة الطائرات في الجو الفرحات بأنها ستنعم بالتناسل والزواج وعليها حليتها من الأجنحة البهجة الجميلة الحريرية لا تلبث في الهواء إلا زمناً قليلاً ثم تقع على الأرض، وهناك تتلقفها الأفاعي والكلاب والهرر وأنواع أخرى من الحيوان حتى الإنسان، فتصطاد وتؤكل ويحمصها الإنسان ويجعلها مع السكر ويأكلها.

فهذه مخلوقات نظمت بحكمة وصدرت في زمن معلوم لحيوانات تأكلها، وهكذا نرى الأسود والنمور وسائر السباع ذوات الأنياب المحددة والجوارح في السماء ذوات المناقير الملتوية المحدودبة. كل هؤلاء وهؤلاء قد منعت من أكل النبات وأبيح لها أكل الحيوان. وهذه العصافير تأكل الدود وهي مأكولة لغيرها. وهكذا الحيات والعقارب تأكل الحشرات. وكذلك سمك البحر بعضه آكل وبعضه

مأكول. بل الإنسان والحيوان إذا هلكن خلقت أمم الدود في أجسامها دلالة على أنه لا معطل في الوجود، هكذا الجراد هنا يخرج من مواطنه في جبل علية ووديانه ومن غيره، ويغزو الأمم كرة بعد كرة، فيكون غذاء لها ومتاعاً إلى حين، فمثله كمثل حشرات الأرضة اللاتي تخرج كل سنة في وقت معين والحيوانات تنتظرها طعاماً شهياً، فهكذا هذا الجراد يخرج في سنين معلومة كما تقدم، وآكلوه منتظروه فلا معطل في الوجود. إذن أهل الديانات إذا لم يتفطنوا لعلوم هذه الكائنات فإنهم يعيشون جاهلين ويموتون غافلين. فليس نظام هذه الدنيا مبنياً على مجرد الحواس، بل هو يجري بقواعد صادقة ثابتة مبنية على العدل والحساب، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾[يونس: ٦٤]، والحمد لله رب العالمين. وبهذا تم الكلام على الحالة الثالثة وهي إصلاح الديانات.

الحال الرابعة

عروج النفس الإنسانية إلى عالم الجمال

وهذه منتهى ما ترقى إليه النفوس وتعرج إليه الأرواح. فإن نفوسنا إذا فكرت في أمر الإنسان والحيوان اعتراها الشك والوسواس وقالت: هذه الدنيا بأسرها دار وبال وخسران. فأهل الديانات في شقاق، والأمم في ضلال، والحيوان آكل ومأكول، وهذا الجراد يغزونا ونغزوه، وما هذه الدنيا إلا الوبال والخبال.

هذه آراء جميع العقلاء في هذا العالم الإنساني إلا قليل منهم وهم المفكرون. أما العامة فهم لا حساب لهم لأنهم آمنوا بظواهر الديانات، وهؤلاء في طبقة خاصة يدخلون الجنة. فأما المفكرون فأكثرهم يتخبطون في دياجي الظلمات شاكون متحيرون، وليس يرقى منهم إلا أفراد قلائل. فهؤلاء يدرسون العلوم الرياضية والطبيعية، ولهم عقول مفكرة وآراء محمودة، وتكون آراؤهم متوجهة إلى الكليات لا إلى الجزئيات. ففي أمثال هذا المقام تكون عقولهم في جحافل الجراد المنتشرة، الطاغية على بلاد مصر والشام، غير مقصورة على آلام الناس من الجراد وعلى أكل الناس له، بل يكون النظر متجهاً إلى القاعدة العامة، وهي أن هذه الأرض أشبه بشجرة، والحيوانات والنباتات من فوقها أشبه بأوراق على أغصانها، وتلك الأوراق تذبل وتحل محلها أوراق أخرى والغصن باق إلى أمد معلوم. فهذه هي حال الأرض وأحوال هذا العالم، مادة شكلت بأشكال مختلفة بنظام جميل مدهش، فالمادة كالشجرة والأشكال كالأوراق ووراءها قوة مدبرة منظمة حاسبة لكل مخلوق حسابه ونظامه. فهي تزوقه وترقشه وتسوقه إلى حكمة من الحكم الكونية البديعة النظام، وهذه الطائفة التي لا أشك أن منها قراء هذا التفسير هي التي ترى ربها وتفوز فوزاً عظيماً بعد الموت، وتكون في أعلى عليين، وتفوق العبادة ـ بتشديد الباء ـ الذين جعلوا جميع حياتهم فيها، وهم خلو من هذه العلوم الجميلة، فالعباد هم الصالحون ولهم عند الله أجر عظيم.

أما المفكرون بهذا المعنى فهم الصديقون، وهؤلاء مقامهم بعد الأنبياء، وهم في الدنيا هداة لأهل الأرض، وفي الآخرة يرون ربهم ويفرحون به وهم مستبشرون. كتب يوم الأحد ١ يونيو سنة ١٩٣٠م.

بهجة هذه الآيات

من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾[فاطر : ٢٧]
إلى قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر : ٢٨]

كيف يخشى اللهَ من عباده العلماءُ؟

اللهم إنا خلقنا في هذه الأرض ولم ندر من أين أقبلنا ، ولا نعرف متى نموت ، وإذا متنا لا ندري إلى أين ننقل ومع من نعيش؟ وعلمنا في هذه الحياة علم ضئيل ، مع أن الحياة بحر لجي واسع الأكناف عظيم عميق فلا ندري أوله ولا نعرف آخره . وغاية الأمر أننا نسمع في كتابك الكريم تقول لنا : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة : ٥٤] ، وتقول : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾[البروج : ١٤] ، وتقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل : ٧] .

فأنت تحب وترحم وتغفر وتود . هانحن أولاء نظرنا في هذه العوالم المحيطة بنا فألفيناها بحسب إحساسنا جوامد وسوائل وغازاً كالحجارة والماء والهواء ، ومن هذه تشكلت عوالم وعوالم انتفعنا بها ولكننا إذا أقفلنا أعيننا وفكرنا ونحن في حال الصفاء فإننا نحس أن هذه العوالم كأنها نور في خيالنا ، ونحس بأن وراءها قوة عالية تحمل هذه الأنوار المتلألئة التي نتخيلها أمانات توصلها إلينا ، وهي الأرزاق والعواطف والعقول ، فأما الأرزاق فما هي إلا نتائج لأحوال خاصة لتلك الأنوار المتخيلة في عقولنا ، وما هي إلا العناصر التي أظهر العلم أنها جميعها أنوار متراكمة متحركة أبداً ، فإذا تخيلنا العناصر المادية نوراً في أنفسنا فهي في حقائقها نور حقاً ، وإن كان نوراً متلبداً حتى أصبح مظلماً ، وهذه الأنوار الحاملات لأمانات الأرزاق الواصلة إلينا هي أيضاً حاملات لعواطف وأخلاق تؤثر في حياتنا كلها ، وهذه العواطف نراها واضحة ظاهرة مجسمة في رحمة الأم وفي عشق الفتى والفتاة ، رحمة الأم والعشق والحب الشهوانيين في الشبان هما أشبه بأنوار البترول الذي نجعله سبباً في إضاءة منازلنا ، وأشبه بالشمع الذي نوقده فيها أيضاً . فإذا كان الشمع المتخذ من أقراص عسل النحل والبترول المستخرج من الأرض قد أضاء لنا منازلنا بعد غروب الشمس ؛ فهكذا نرى الرحمة والحنان والعطف ثم الحب المتنزلات من العالم القدسي الساري في الأنوار التي عبرنا عنها بالمادة قد ظهرت في الأم بهيئة رحمة ، وفي الذكور والإناث من الإنسان وغير الإنسان بهيئة عشق ، البترول في الأرض وشمع العسل أضاءا لنا في منازلنا والشمس أضاءت العوالم كلها . ما أشبه ضوء الشمع ونور البترول وبرحمة الأم وتحاب الزوجين الذكر والأنثى . وقد جعلت لنا ضوء الشمس العام وانتشاره كضرب مثل لعموم رحمتك وحبك وودك . إن البترول والشمع من المواد الأرضية والأرض من الشمس . ورحمة الأم وحب الذكور للإناث في كل حيوان أثر من آثار الرحمة العامة التي وضعها الله في الأرض نبراساً وهدى لنا ، بها نهتدي إلى فهم رحمتك وحبك وودك ، حتى إذا درسنا ذلك عشنا سعداء سعادة لا حد لها ، وأمنّا أمناً لا خوف بعده .

فهاك أيها الذكي : شذرة من شذرات رحمته تعالى العامة وموازنتها برحمة الأم ، ووده وحبه بمودات الناس وحبهم ، فنقول : أولاً ليس الحب من الله والود والرحمة كما نرى في حبنا نحن ورحمتنا .

إن حبنا ورحمتنا حيوانيان وحبه ورحمته هو قدسيان والله مقدس عن المادة. فحبنا ورحمتنا انفعال في أنفسنا، وحبه ورحمته قدسيان لا نعرفهما إلا بآثارهما في الآفاق وفي أنفسنا. ومن آثارهما حنو الأم وحب الذكور للإناث وغرامهم بهن وبالعكس. ولا ريب أن نتائج رحمة الأم بولدها مواصلة الجد والتشمير والسهر على راحة الذرية وجعل جسمها وآرائها ومالها وقفاً على تلك الذرية من الشفقة والحنان، كما يفعل ذلك نفسه العاشق ولكن على طريق الولوع بالوصال.

ومن عجب أن نتائج رحمة الأمهات وعشق الفتيان للفتيات إن هي إلا حفظ بقاء النوع الإنساني مثلاً. فنتائج رحمة الأم الحرص على بقاء ولدها. ونتائج العشق والغرام من أحد الصنفين للآخر إنما هو إيجاد ذكور وإناث يخلفان هذين المتعاشقين.

الله أكبر: أصبحت نتائج الرحمات ونتائج أنواع الغرام منصبة على بقاء الأشخاص وبقاء الأنواع. فانظر نظرة واعجب من علوم الأشعار التي أذاعها العشاق، وأنواع المراثي التي يرثي بها الناس موتاهم، وأحزان الأمهات والآباء على أبنائهم، فكلها موجهات إلى تمني بقاء هذا النوع الإنساني.

فماذا يريد العاشق؟ يريد الوصال. وما نتائج الوصال إلا حصول ذرية، وعلامَ تسهر المرأة إذا مرض ولدها؟ تسهر على صحته مؤملة أن يعيش. إذن الحب والرحمة منصبان موجهان معاً لغاية واحدة هي غاية حياة الأشخاص وحياة الأنواع، فإذا سمعت جميلاً يشبب في بثينة ويقول:

وأول ما قاد المودة بيننا ... بوادي بغيض يا بثين سباب

وقلت لها قولاً وقالت بمثله ... لكل كلام يا بثين جواب

وسمعته يقول:

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أبصره الواشي لقرت بلابله

بلا وبألا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى وبالحول ينقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

ثم علمت بعد ذلك أنه كلما كان الحب شريفاً طاهراً كان أبعث على الأعمال الشريفة ورفعة الشأن وكبر النفس وارتقائها مراقي عالية في مدارج الرقي في الحياة، وبعكس ذلك إذا تنزل للشهوات الحيوانية فإنه ينطفئ ولا يؤدي مقصوده. وبالجملة حب الذكر والأنثى إما أن ينتج الذرية وهنالك ينقلب رحمة للذرية. فإن انتهى بالشهوة نفسها وبمجرد المتعة فإنه يكون حقيراً، إذ به تسفل النفس وتذل وعاقبته وخيمة. فأما إذا كان العفاف والشرف فنتائجه تحصل في نفس العاشق فإن همته تعلو، فنتائج الغرام إما علو في نفس العاشق إذا كان عفيفاً، وإما ذرية ينقلب الغرام الذي كان أولاً رحمة بها، وإما سقوط مروءة مع الدناءة والخسة، إذا انتهى بالشهوة البهيمية وحدها، فإن الذم والعار في الدنيا يقترنان بالفاسقين.

أقول: إذا سمعت ذلك فاعلم أن الحب على ثلاثة أقسام: حب أدنى. وحب أوسط. وحب أعلى. وقد علمت مراتب الحب الأدنى وهو الحيوان، فإن نتائجه الصحيحة اثنتان لا غير، نتيجة ترفع

نفس العاشق إلى العلا . ونتيجة توجه لإحداث الذرية . فأما الحب الأوسط فإنه أعلى من الحب الأول وهو حب العلوم ، وحب العلوم إما أن يكون موجهاً للعمل بحيث تكون مباحث العلوم لها نتائج راجعة للمجموع الإنساني كالعلوم الرياضية والطبيعية وعلوم الصناعات . فهذا كالعشق المؤدي إلى إيجاد الذرية . وإما أن يكون موجهاً إلى المباحث العامة كالتي في هذا التفسير ، بحيث تكون العلوم كلها موجهات لرفعة نفس النوع الإنساني من حيث بعث الهمم وارتقاء العزائم وإحداث اليقين في النفوس وتوجيهها إلى المحبة العامة والأخوة والترغيب في حوز المعالي . فهذا أشبه بالعشق مع العفة الذي أورث في النفس انبعاثاً إلى المعالي ، ولكن الفرق بينهما أن ذلك انبعاث شخصي ، وهذا انبعاث عام ، لأنك علمت أن حب الذكور للإناث حب أدنى ، وغاية الأمر أن النفس الإنسانية بما لها من السلطان والقوة حولته إلى منفعة ، فأحدث لها همة وعلو نفس . أما حب العلوم فهو أوسط . فإذا جعل الإنسان حب العلوم وسيلة لجمع المال له خاصة كان حبه أسفل طبقات الحب ، وكان ذلك أشبه بمن أحب ولا عفة عنده وانتهى حبه بالشهوة البهيمية كما انتهى حب صاحب العلم بالشهوة المالية .

مثال حب العلم الذي أثبتنا أنه أعلى من سابقه

ما جاء في إحدى المجلات المصرية في شهر مايو سنة ١٩٣٠ من نبأ بعثة علمية دولية تتسلق الجبال من كبار العلماء برئاسة الأستاذ « ديرنفورث » ، إذ أخذت هذه البعثة تتسلق جبال همالايا المسماة « كانش جونجا » ، وهي الثانية في الارتفاع بعد « إيفرست » ، وأهوال هؤلاء المتسلقين أعالي الجبال أشد من أهوال رواد القطب الجنوبي والشمالي ، لأن الجليد يغطي قمم الجبال بسمك (٨٠٠) قدم . وهؤلاء المرتادون يعيشون فوق الجليد والرياح العاتية تعصف بهم . وسلسلة جبال همالايا ارتفاعها ٢٠٠٠ ألفا ميل ، ومن قممها ما يرتفع ٢٤٠٠٠ قدم وتزيد ، وعدد القمم المذكورة (٧٥) قمة ، ولقد حاول العلماء الوصول إلى أعالي تلك القمم فعجزوا ، وقد ذهب العالم « دوجلاس فرشفيلد » سنة ١٨٩٩ وقضى سبعة أسابيع في دورته حوله ، ووصف المناظر التي رآها فقال : إنه لم ير في حياته ما هو أجمل ولا أبهى من مناظر ذلك الجبل الذي تكسوه قلنسوة من الجليد الأبيض الناصع الذي يشبه القطن النقي المنفوش ، ولقد ورد موارد الهلاك أثناء ذلك التسلق مرات كثيرة .

ولقد حاولت ثلاث بعثات الوصول إلى تلك القمم فلم تصل ، ومات أكثرهم بالرياح العاصفة وبالثلوج التي تنقض عليهم فتهلكهم . أما البعثة الرابعة فهي في طريقها عند كتابة هذه الأسطر في هذا التفسير في شهر مايو سنة ١٩٣٠م . هذه هي الطبقة الوسطى في الحب وهو حب العلوم .

يا سبحان الله . نسمع مجنون ليلى يقول :

وإني إذا ما جئت ليلى أزورها ... أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسها ... إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

ونرى العاشقين في الدرجة الدنيا يقدمون أنفسهم للهلاك ويقدمون على الموت باطمئنان وراحة بال إذا حرموا من الحظوة بالمحبوب . وفي الدرجة الوسطى وهي درجة العلماء نراهم يقدمون أنفسهم للموت سراعاً من أجل قمة جبل أو مناظر قطب .

ولكن لما كان حب العلم أعلى كان عاماً في الشيوخ والشبان. وأما ما قبله فهو خاص بالشباب أيام حرارة الشهوة، فإذا كبر قال:

قضيت سنون بالوصال وبالهنا	فكأنها في قصرها أيام
ثم انقضت أيام هجر بعدها	فكأنها من طولها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها	فكأنها وكأنهم أحلام

هذا كلام الإنسان إذا كبرت سنه وتذكر أيام شبابه.

أما حب العلم فهو لا يختص بسن معينة بل يزيد بكبر السن، أما الدرجة الثالثة فهي العليا وهذه خاصة تمتاز عن سابقتيها. فانظر لأهل الدرجة الدنيا في العشق فإنك ترى عشقها محصوراً في محاسن إنسان خاص، وهذه لم تجعل إلا توطئة للدرجة الوسطى، والوسطى مقدمة للدرجة العليا، وهي درجة العلماء الذين يخشون الله، فإذا خشي العاشق في أدنى الدرجات هجر تلك الفتاة التي افتتن بجمالها، وإذا خشي علماء البعثة العلمية فتك الثلج بهم في « جبال همالايا » وهم يحبون أن يتسلقوها، فالعلماء الدارسون لمثل هذا الكتاب الناظرون لهذا العالم أشد لله خشية من خشية عاشق امرأة أن تهجره ومن خشية متسلق جبل أن يهلكه. إن خشية العاشق مقدرة بمقدار جمال المعشوق وعلو قدره، والناظرون للجبال والشجر والدواب والماء والزرع والثمرات وما أشبه ذلك؛ المفكرون في عجائب هذه الدنيا؛ عشقهم وغرامهم لا حد له، وخشيتهم لمبدع هذا الوجود لا حد لها. فهؤلاء ينظرون فيقولون: إن هذا الجسم الإنساني قد أخذ من الأرض والماء غذاءه وشرابه، ومن الهواء إصلاح نفسه وحروف كلامه ووصول الروائح له، ومن ضوء الشمس هدايته للسبل وتدفئة جسمه وإصلاح أحواله. ومن مناظر السماء ودوران الأفلاك عدد أيامه وشهوره وحساب سنيه. وقد وزعت حواسه على هذه العوالم.

فللغذاء والشراب حاسة الذوق. وللمواد كلها من حيث الحرارة والبرودة والثقل والخفة وهكذا حاسة اللمس. وللروائح حاسة الشم. وللأضواء حاسة البصر. وللهواء حاسة السمع. إذن هو لم يذر مخلوقاً حوله إلا وجد في نفسه استعداداً لتناوله تناولاً مادياً أو تناولاً معنوياً.

يقول الحكيم في نوع الإنسان العوالم كلها متصلات بي، فلا كواكب ولا سحاب ولا هواء ولا رياح ولا شجر ولا حجر ولا نبات ولا حيوان إلا لها اتصال بي. وذلك طبعاً يدعوه إلى التفكر فيها، وهنالك يبحث في الجمال الذي نقش فيها، كما نظر جميل جمال بثينة، وتوبة جمال ليلى، وكثير جمال عزة، فهاموا في ذلك الجمال الجزئي من العالم المادي، وكما هام العالم « مالري » والعالم « سومرفيل » والعالم « نورتن » بحب استطلاع جبال همالايا وطلعوا إليها عام ١٤٢٤م، فما نصبوا خيامهم ومكثوا أسبوعين على جبل جليدي هناك حتى هبت زوبعة اكتسحتهم واكتسحت خيامهم، ولكن حب الاستطلاع غلب عليهم، فقد رجعوا كرة أخرى وصمموا على أن يصلوا إلى مقصودهم أو يموتوا، فرجعوا في ٢٠ مايو من تلك السنة وانضم إليهم غيرهم، ولكن البرد أهلك أربعة منهم، فرجع الباقون كرة أخرى، وطلع فوق القمة رجلان منهم فالتهمتهما سحابة قضت على حياتهما، كل

ذلك نتائج حب العلم، وحب العلم ضحاياه أكثر عدداً من ضحايا حب الذكور للإناث، إن حب الشرف والمجد وهو الحب الأوسط لا تعد ضحايا الغرام المعروف بالنسبة لفرائسه شيئاً مذكوراً، وأرقى منه وأشرف وأعلى منزلة حب الجمال العام في هذه الدنيا، ولهذا الحب طائفة أرقى وأعلى من الطائفتين السابقتين، ولذتها وسرورها أعلى من سرور الطائفتين قبلهما بما لا حد له، فلئن أغرم « الدوق ابروزي » عم ملك إيطاليا المعاصر لنا إلى ارتقاء جبال همالايا، وكذلك العلامة « دوجلاس فرشفيلد » و« الدكتور بوير » وغيرهما وقالوا جميعاً: إما هلكاً وإما ملكاً، وكذلك غرام كثير بعزة وتوبة بليلى، ليكونن غرام هذه الطائفة غير محصور في مناظر الثلج في أعالي جبال همالايا، ولا جمال امرأة خاصة، بل غرامها بالنجوم والجمال والشجر والدواب والبحار والأنهار، فهم يجدون الجمال في تركيب أجسامهم وتركيب الذرات وخطرات الرياح وهبوب النسمات وتمايل الأشجار ونغمات الحشرات وأصوات الطيور وضوء البرق وبهجة السحاب ورؤية الضباب وسير العلماء وفهم ذرات الكيمياء ونظام الحركات الكوكبية، فالأشجار والأحجار والأنوار والظلمات والنجوم والعلوم وكل دقيق وجليل من هذا الوجود أنواع من الجمال يذكر بمحبوب غائب لم تره عيونهم، ولكن أدركته قلوبهم. فهؤلاء إذا سمعوا بالهوى العذري في الأمة العربية الذي ينتهي بموت العاشقين هناك قديماً، أو الهوى الياباني الذي بلغنا خبره حديثاً، وإن كثيراً من الشبان يرمون أنفسهم من أعلى لحرمانهم من الاتصال بمعشوقاتهم، وإذا سمعوا أيضاً أن عشاق العلوم والكشف للقطب الشمالي أو الجنوبي قد رضوا بالموت طوعاً لما شغف قلوبهم من الغرام الأوسط وهو الغرام بالاطلاع. فهؤلاء إذن يرون أنفسهم في ساحة من الغرام لا حد لها لما يرون من جمال لا نهاية له، وإذن يهون عليهم الموت في سبيل حبهم لذات لم ترها عيونهم، هي مصدر جمال عزة وبثينة وليلى، وجمال الثلج في قمم جبال همالايا الذي افتتن به العلماء، فهاموا وهلكوا وهم يكشفون عن ذلك المحبوب.

إن هذه الطائفة ترجع كرة أخرى فتنظر في أمر رحمة الأم وحب الشبان، فترى نتائجهما بذل كل ما تملك الأم وما يملك العاشق، ولكن الذي صنع العالم بذل ما لا حد له، فأين المناسبة بين ثياب وطعام وشراب لطفل من أمه وبين هذه العوالم كلها المبذولات للإنسان، وإذا كان ذلك لا يعرفه إلا العلماء ولا يعقله إلا هم فإن خشية الله عندهم أعلى من خشية العاشق لمعشوقه.

وقصارى القول وحماداه أن في الحيوان لا سيما نوع الإنسان مبدأ ونهاية.

أما المبدأ فهو العشق والحب وبهذا تكون الذرية.

وأما النهاية فهو أن ينقلب الحب إلى رحمة تلك الذرية، وإلى الحب النافع الدائم بينهما، إن غرام الذكور بالإناث وحب الإناث للذكور لم يكن إلا لحكمة وهي حصول الولد. وهناك ينقلب غرام كل منهما بالآخر شيئاً فشيئاً إلى حب ورحمة. أما الحب فإن كلًّا منهما يحب الآخر للتعاون على أمر الحياة، وهو أشرف من الحب الأول، وهناك يذبل الجمال، إذ لا منزلة له، فهو كزهرات الرياض يذبل إذا ظهرت الثمرات، وأما الرحمة فهي أن كلًّا منها يعطف على ولده عطفاً كلياً ويبذل نفسه وماله في إرضائه وهو فرح به قرير العين، وهاتان العاطفتان ترتقيان عند الحكماء، فالعشق والحب

الحيواني ينقلب عند الحكيم إلى عشق العوالم كلها من حيث إدراك حقائقها. فكما نسمع جميل بن معمر يقول:

وما زلتم يا بثن حتى لو انني ... من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا

ونسمع عمر بن أبي ربيعة المتوفى سنة ٩٣ يقول في الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث وكان قد تزوجها رجل اسمه سهيل:

أيها المنكح الثريا سهيلاً ... عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا ما استقلت ... وسهيل إذا استقل يماني

ونسمع المخزومي يقول في عائشة بنت طلحة لما تزوجها مصعب بن الزبير:

ظعن الأمير بأحسن الخلق ... وغدا بلبك مطلع الشرق

ونسمع مجنون ليلى كما يقال وينسب إليه يقول:

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس بالليل خاليا

أقول: كما نسمع هؤلاء يقولون ذلك وأمثالهم كثير؛ نسمع عدداً أكثر منهم من الحكماء يؤلفون الكتب ويولعون بالبحث في العوالم، ويعشقون العلم عشقاً مفرطاً، وكثير منهم مات وهو دائب في بحثه، ومنهم من يجد لذة في مبحثه فيزيد فرحه فيموت من شدة الفرح، وأكثر الكاشفين للمباحث العلمية لم يكن ذلك الكشف إلا عن غرام وحب، كما اتفق لكاشف أمريكا «كريستوف كلومب»، فقد خاطر بنفسه وبرجاله وحاولوا أن يقذفوه في البحر، ولكن القدر نجاه بظهور أمارات تدل على العمران.

إذن عشق العلم عند الحكماء لم يخرج عن كونه عشق الجمال، فجمال وجه ليلى وبثينة ولبنى عرفه الشباب بنظرات العين، وجمال العوالم المحيطة بنا يعرف بالعين وبالعقل وبالسمع، وهناك يزداد العشق والغرام بازدياد المعرفة، إذ لا غرام إلا بمعرفة. فهذا هو المبدأ عند الحكماء المقابل للمبدأ عند الشبان كما قدمنا، أما النهاية فهي أمران: حب الله تعالى، ورحمة المخلوقات. فكما نرى الزوجين انقلب غرامهما إلى حب أحدهما للآخر ورحمة للولد، هكذا هنا ينتج حب العلم أمرين: حب الله تعالى حب يليق بجماله، ورحمة النوع الإنساني، إذن قراءة أمثال هذا التفسير تنتج حب العلوم، وحب العلوم ينتج أمرين: حب الله تعالى على مقدار العلم بمصنوعاته، ورحمة النوع الإنساني إذن كلما كثر علم العالم بالعجائب في هذه العوالم ازداد حباً في ربه ورحمة لعباده، وسعد سعادة لا حد لها لأنه قد وصل إلى اليقين.

وهذا كله نتائج هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

إذا علمت ذلك وفهمته حق معرفته فهمت ما يقوله الإمام الغزالي في الجزء الرابع من كتابه المسمى «إحياء علوم الدين» تحت العنوان الآتي وهذا نصه:

بيان أن أجلّ اللّذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذتها في نيلها لمقتضى طبعها الذي خلقت له، فإن هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان عبثاً بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر الأمور هو مقتضاها بالطبع، فغريزة الغضب للتشفي والانتقام، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى طبعها، وغريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، فلا جرم في نيل هذا الغذاء الذي هو مقتضى طبعها. وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والإبصار والشم، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها، فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر: ٢٢]. وقد تسمى العقل، وقد تسمى البصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين، ولا معنى للاشتغال بالأسامي، فإن الاصطلاحات مختلفة، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني، لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست متخيلة ولا محسوسة، كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية، ولتسم تلك الغريزة عقلاً بشرط ألا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة، فقد اشتهر اسم العقل بهذا، ولهذا ذمه بعض الصوفية، وإلا فالصفة التي فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات، فلا ينبغي أن تذم، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها، وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة، حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به، و الذي ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغتم به، وحتى إن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدي بالعلم والتمدح به في الأشياء الحقيرة، فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم، وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به، فإن العلم من أخص صفات الربوبية ومنتهى الكمال، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثني عليه بالذكاء وغزارة العلم، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به، ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم وسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السماوات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، حتى إن الذي يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك، فإن الرئيس اطلع على أحوال الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه في أمور الوزارة، فهو أشهى عنده من علمه بأسرار الرئيس، فإن كان خبيراً بباطن أحوال الملك والسلطان الذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير، وكان تمدحه

بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد، وحبه له أكثر، لأن لذته فيه أعظم، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجلّ والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها.

وليت شعري هل في الوجود شيء أجلّ وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟ وهل يتصور أن يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين، فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار، وبهذا تبين أن العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين، فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولاً، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة، وهي مختلفة بالضعف والقوة، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر الشهوة، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه من الجمال، وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة؛ إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل، فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل، فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات، فنعود ونقول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق. والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة، وإن كان عالي الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياماً كثيرة، فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة، نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة يعد كالصبي، أو كالذي ماتت قواه الباطنة، كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة، وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته. فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق، وغاية العبارة عنه أن يقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة: ١٧]، وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في

بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم له بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكونه مشوباً بالكدرات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها، وإنما عرضها من حيث التقدير السماوات والأرض، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السماوات والأرض يرتفع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة، ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى، ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي، وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها عن جنسها، فأما أن يعدمها فلا، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[آل عمران: ١٦٩-١٧٠]، ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد، وفي الخبر: «إن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة، وإن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء»، فإذا جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السماوات والأرض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عند الله، ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوي الكمال من لذات الحواس كلها، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة، فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة؛ فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له، لأن القلب معدن هذه القوة، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال: من ذاق عرف.

ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استكشفوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوي حرصهم على طلبها، فإنها أيضاً معارف وعلوم، وإن كانت غير شريفة شرف المعلومات الإلهية. فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح

ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى، فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء وأنه لا لذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني: إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله. ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له: أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟ فسكت وقال: ذكر الموت. فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ. فقال: وأي شيء القبر. فقال: خوف النار ورجاء الجنة. فقال: وأي شيء هذا، إن ملكاً هذا كله بيده، إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. وفي أخبار عيسى عليه السلام. إذا رأيت الفتى مشغولاً بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه. ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال: ما فعل أبو نصر النمار وعبد الوهاب الوراق؟ فقال: تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان. قلت: فأنت. قال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه. وعن علي بن الموفق قال: رأيت في النوم كأني أدخلت الجنة فرأيت رجلاً قاعداً على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل، ورأيت رجلاً قائماً على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضاً ويرد بعضاً، قال: ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس، فرأيت في سرادق العرش رجلاً قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف، فقلت لرضوان: من هذا؟ فقال: معروف الكرخي عبد الله لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته، بل حباً له، فأباحه النظر إليه إلى القيامة، وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل، ولذلك قال أبو سليمان: من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غداً مشغول بربه. وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه. وقالت في معنى المحبة نظماً:

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، ويحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها، وهو أعلى الحبين وأقواهما، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكياً عن ربه تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وقد تعجل بعض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية، ولذلك قال بعضهم: إني أقول يا رب يا الله، فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال، لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليساً ينادي جليسه؟ وقال: إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة، أي يخرج كلامه عند حد عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً، فمقصد العارفين كله وصله ولقاؤه فقط. فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما

أخفي لهم منها، وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها، وصار القلب مستغرقاً بنعيمها، فلو ألقي في النار لم يحس بها لاستغراقه، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وما له صورة ولا شكل، وأي معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم، بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة، كما قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده ... وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم ... شغلاً بذكراك يا ديني ودنيائي

ولذلك قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ... ووصله أطيب من جنته

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس. فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط، ومثال أطوار الخلق في لذاتهم ما نذكره، وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو، حتى يكون ذلك عنده من ألذ سائر الأشياء، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء، فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها، ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها، كما قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾[الحديد: ٢٠] الآية، ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الأخير. إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز، وحب النساء والزينة في سن البلوغ، وحب الرياسة بعد العشرين، وحب العلوم بقرب الأربعين وهي الغاية العليا، وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة، فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى، والعارفون يقولون: ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[هود: ٣٨-٣٩].

هذا ما أردت نقله من كتاب الإحياء، واعلم أيدك الله أن حب الله وحب العلوم المذكورين في كلام الغزالي المذكور قد مهدت له الطرق في زماننا تمهيداً أتم من الأزمان السابقة، فإن المسلمين في العصور المتأخرة كانت معارف جمال العالم محصورة عندهم في كتب قليلة غير موضحة ولا مفصلة وهي كتب التوحيد وكتب الفلسفة. أما في زماننا فإن الله عز وجل قد أوسع دائرة المعارف وبذلها للناس قاطبة والمسلمون منهم، فعليهم اليوم أن يغترفوا منها، ولقد أخذ المؤلفون في ديار الإسلام يتفننون في فنون الحكمة ويعبّدون طرقها، وأحمد الله إذ جعل لمن يقرؤون أمثال هذا التفسير مراقي وسلالم يرتقون بها إلى الأعمال الشريفة في الدنيا وفي حب الله تعالى، وفرق ما بين النابغين في أمم الإسلام قبل اليوم وبينهم بعد زماننا أن النابغين في الأمم الإسلامية المتأخرة أكثرهم كان يجعل همه

الانقطاع عن الناس كما يفعل البراهمة في الهند، أما النابغون بعد الآن القارئون لأمثال هذا التفسير، فهؤلاء يجدون أن الله يوجب عليهم الجد والتشمير في حوز العلم بجميع أنواعه، وسينبغ قوم في الكيمياء في معاملها، وآخرون في رصد الكواكب وحسابها، وآخرون في النبات والحيوان والحشرات وهكذا، وآخرون في علم طبقات الأرض، وتكون العلوم كلها موجهة لغرضين اثنين:

الغرض الأول: خدمة المجموع بها كما تحنو الأم على ولدها بالعطف والشغف والسهر.

والغرض الثاني: ازدياد الغرام بالعلم ونظام العالم مع حب الله والغرام بلقائه، ومن يعش يره والحمد لله رب العالمين. كتب ليلة الأحد (١١) مايو سنة ١٩٣٠م.

بهجة علمية في الحب والغرام

لطالما خطر لي في هذه الآونة من المعاني الشائقة في الحب أنني رأيت أن الأم المحبة لولدها والعالم المحب لأمته والمحسن المحب لمن أحسن إليهم، كل هؤلاء أكثر حباً للولد وللأمة ولمن أحسنوا إليهم من الآخرين إلى الأولين كما هو مبرهن عليه.

فإذا رأينا الله عز وجل إحسانه ورأفته أعم وأعظم أفلا يكون حبه لمخلوقاته أكمل وأعظم من حبهم له سيما أنه يقول: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة: ٥٤] مع ملاحظة الفرق بين الحبين، إذ حبنا له حب حادث ناقص، وحبه منزه مقدس له معان غير ما نعرفها وعلى هذا يكون كل ألم وكل مرض وكل سوء وكل فقر لم توجه لنا إلا لإسعادنا وتكميلنا حتى نصلح للقائه ونشاهد ذاته. وأيضاً لم نجد أباً ولا أماً ولا ملكاً ولا أميراً له إحسان يوازي إحسان الله لمخلوقاته. وإحسان الله للخلق لم يكن عن كراهة، إذن هو عن ذلك الذي أسميناه حباً منزهاً عن سمة الحوادث.

أقول: فهذه المعاني التي كانت تختلج في نفسي لم أجد لها تعبيراً يليق بها ولا كسوة جميلة تلبسها حتى ظهرها في هذا التفسير. أفلا أحمد الله إذ رأت نفسي هذه المعاني بنصها وفصها ظهرت على ألسنة قوم قبلنا. فانظر واعجب أيها الذكي لما جاء في الإحياء في الحب وهذا نصه:

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود، هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين علي؟ يا داود، أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني، وأجلّ ما يكون عندي إذا رجع إلي.

وقال أبو خالد الصفار: لقي نبي من الأنبياء عابداً فقال له: إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معاشر الأنبياء نعمل عليه. أنتم تعملون على الخوف والرجاء، ونحن نعمل على المحبة والشوق.

وقال عبد الله بن محمد: سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية والدموع على خديها جارية: والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقائه. قال فقلت لها: أفعلى ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا، ولكن لحبي إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟.

ومن خطاب الله لداود عليه السلام : ذكري للذاكرين ، وجنتي للمطيعين ، وزيارتي للمشتاقين ، وأنا خاصة للمحبين .

ويقال : الشوق نار أشعلها الله في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات . انتهى .

بهجة الجمال في ليلة ١٤ من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٨ هجرية

أكتب هذا صباح يوم الأربعاء من نفس هذا الشهر . هل لك أيها الذكي أن أحدثك عن الجمال والبهجة في المزارع النضرات والنخلات الباسقات في دجنات الظلمات . هل لك أن أريك كيف يكون العلم أثناء الرياضات وتشتق الحكمة من الحقول العطرات والجمال من جوانب الطرقات .

ذلك أنني كنت يوم الاثنين الماضي وهو آخر أيام التشريق الثلاثة في مزرعتنا بقرب القاهرة ، وهي قريبة من بلدة المرج ، أنظر في أمر الزرع والحصاد والحساب بيني وبين المستأجرين للأرض ، وهكذا كانت هناك هجمات الجراد على البلاد ، فقابلني الموكلون بإبادته ، وهم يجمعون الرجال والأطفال ليهلكوا ذلك الجراد من الأرض ، ويبيدوا صغاره اللاتي خرجن من البيضات اللواتي دفنها الجراد في الأرض ، وقضيت معهم زمناً طويلاً ، حتى إذا أرخى الليل سدوله قفلت راجعاً إلى بلدة المرج لأركب القطر وأتوجه للقاهرة ، فما كدت أقرب من بلدة المرج المذكورة حتى شاهدت منظراً بديعاً جميلاً لم أشعر بنظيره أمد الحياة . وما هو ذلك المنظر ؟ هو نفسه الذي أشاهده منذ عشرين سنة ، نعم ، هو نفسه ، ولكن هذا المنظر في هذه الليلة يمتاز بالظلام الساكن الهادي ، فوقفت والنخيل حولي من الجهات الأربع فرفعت طرفي إلى السماء إذا أمامي منظران مدهشان : منظر البدر شرقاً ، ومنظر النجوم غرباً . نظرت البدر بوجهه المشرق يطل من بين الجريد والخوص وعراجين النخلات وهو يفيض على الأرض أنهاراً من الفضة الذائبة ، كأنه ملاءة تغطي جذوع النخل وعراجينه ، وتغشى وجه الحقول بالبهجة اللامعة والأنوار الساطعة والجمال الباهر . وهنالك من جهة الغرب كأن الكواكب قطع من الماس جميلات باهرات تنفذ أشعتها من خلال النخيل . فالبدر شرقاً والنجوم غرباً ، ذهبن بلبي من الجمال والنضرة ، والرياح عابثات بالغصون والجريد والجذوع والزروع والحشائش ذات الغوير والترنح . وهناك سمعت غناء الحشرات في تلك الأرجاء . فهي إذن حانة جمعت بين رقص الزروع والأشجار وغناء الحشرات وألحان أعواد النخيل وأوراق الزروع والأغصان . وهناك خيل إلي أن البدر ـ وقد علاه في الأفق فوق تلك النخلات الباسقات ـ يخاطبني قائلاً : لقد أعجبك أيها الجوهري منظرنا الجميل ، وآنسك ما ترى من نور باهر وجمال ساحر . لقد مر في هذا المكان قبلك رجال ورجال في قرون مضت وأمم خلت أيام الفراعنة القدماء ودولتي اليونان والرومان والأمويين والعباسيين والإخشيديين والطولونيين ، وهكذا إلى أيامكم هذه ، وقليل منهم المفكرون .

هاأنت ذا اليوم حبست في الأمور الجزئية والأعمال الزراعية والأحوال الاقتصادية والحيرة في أمر الجراد . فمنظرنا الذي تراه يبشركم بالسعادة والبقاء . ألا ترى أن أعمالكم الجزئية المدنية من زراعية وتجارية وصناعية ليس لها مستقر ولا بقاء ، وحياتكم ذاهبة وأعمالكم كلها ستصبح في خبر كان .

فالجاهل لا يعقل ما فوق ذلك، أما الحكيم فإنه يتذكر بمنظر الكواكب في سمائكم أنكم مخلوقون للدوام، كما دمت أنا ودامت النجوم قروناً وقروناً فرآها أجدادكم الأولون، وهكذا أنتم لنا الليلة تنظرون. وأما أنا أيها الجوهري وما النجوم إلا ضرب أمثال للدوام الروحي، فأرواحكم دائمة كما دامت أنواري على توالي القرون والسنين، وأشرقت في نفس هذه البقعة ورآها من قبلكم وسيراها من بعدكم. نحن تذكرة لكم بأمرين: جمال الله الدائم الباقي وإن اعترتكم الحوادث المزعجات المهلكات. وبقاء أرواحكم على مدى الزمان.

إن هذه الخواطر كلها قد استغرقت عقلي وأثرت في نفسي وكأني غير واع لما حولي. وكنت أخشى أن يمر إنسان فيكون سلامه علي قاطعاً للفكر فكان ذلك، وسلم رجل فرددت سلامه، ولكن الفكر لم ينقطع، بل ازداد وضوحاً، وكأني أقرأ في وجه البدر الذي فهمت من منظره هذه المعاني آيات أخرى. ذلك أن العباد في الأمم الإسلامية أشبه بذلك النجم الذي ظهر من خلال النخلات غرباً، والعالم الحكيم الذي درس العلوم أشبه بنفس ذلك البدر والناس بينهما درجات.

يا عجبا! إن ذوي العقول الكبيرة في الإسلام إذا قصروا أنفسهم على علم الفقه أوالعبادة كانوا أشبه بهذا الكوكب، يرى صغيراً جداً، فإذا درس نظام هذا العالم كان كالبدر، بل كحقيقة النجم، لأنه كثيراً ما يكون أكبر من الشمس.

إن المسلم إما قادر على العلم وإما قادر على منفعة الناس وإما عاجز. فالأول كالبدر إذا درس العلم، والثاني ينفعهم في دولهم وأمورهم العامة. والثالث لعجزه يقتصر على العبادة وحدها. ومن الجهل والبلادة أن تكون العقول الكبيرة محصورة في العبادة اللفظية، بل عليهم التوغل في العلوم ليكونوا بدور الأمم الإسلام وإلا فليكونوا نافعين بالأعمال. وإلا فليكونوا في المساجد، وهذه آخر المنازل التي تشبه النجم وهو صغير في نظر الإنسان. هذا آخر ما فهمته من مناظر البدر والنجوم والشجر والزرع. والحمد لله رب العالمين.

جوهرة في قوله تعالى

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[فاطر: ٣٧]

تذكرتي

هاأنا ذا أيها المسلمون قبل أن أفارق هذا العالم أكتب إليكم تذكري ونذري. أكثر هذا النوع الإنساني لا يعيش فوق الستين، وقليل منهم يعيش إلى السبعين، والنادر من يجاوز ذلك إلى المائة. والشاذ جداً يجاوزها.

نظرت في هذا العمر الإنساني نظرة غير نظرة الأطباء. الأطباء في عصرنا يقولون: إن الإنسان يستحق أن يعيش (٢٠٠) سنة، ولكنه بجهله وشرهه وعدم انتظام شهواته قطع حياته فمات قبل ذلك. واستدلوا على ذلك بسكان البادية الذين يعيشون إلى (١٥٠) وأكثر وأقل بلا مرض ولا عطب، وهم أقوياء الأبدان أهل صحة وقوة وجمال. ويقولون: إن الحيوان يعيش ثمانية أمثال مدة نموه، والإنسان ينمو إلى (٢٥) سنة، وهذه لضربها في (٨) تساوي (٢٠٠)، فإذا حافظ الإنسان على صحته واستغنى

عن العقاقير الطبية واكتفى بالمآكل البسيطة وتعرض للشمس وأكثر من الرياضات الجسمية وعاش عيشة خاوية؛ فإنه يعيش إلى المائتين كما عاش كل حيوان ضعف مدة نموه ثمان مرات.

هذا حكم الأطباء وقد ذكرته في ثنايا هذا التفسير، وقد أجمعوا على أن ترك الشهوات والتنعم والاكتفاء بأبسط الأطعمة خير ما ينفع في ذلك، ويستحسنون أكل الفواكه، فإن أمكن الاقتصار عليها فبها ونعمت: وإلا استعان الإنسان بالحبوب والخضر وامتنع عن أكل جميع التوابل ولا يشرب قهوة ولا خمراً ولا شاهياً وهو الشاي المعروف ولا يدخن التبغ. ويستحسن أن يستغني بالفواكه عن السكر ويقلل من الملح ويأكل الخبز بلا نخل. اقرأ هذا في سورة «الشعراء» عند آية: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الآية: ٨٠]، وفي «طه» عند ذكر آدم في آخر السورة، وفي أول سورة «الحجر» عند قصة آدم، وفي سورة «الأعراف» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾[الآية: ٣١]، وفي سورة «البقرة» عند آية: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[الآية: ٦١]، فستجد في بعضها ما قرره ابن خلدون في مقدمته، من أن الذين اقتصروا على طعام الذرة والزيت لم يقربهم الطاعون.

أما الذين أكلوا أنواع اللحوم والأدهان ونوعوا الألوان فإن الطاعون يبيدهم ويفنيهم إلا قليلاً وقال: إن الأولين يتصفون بالصحة والذكاء والجمال والعلم والعبادة وحسن الخلق وصفاء العيش والشجاعة، وأن الآخرين يتصفون بالمرض والبلادة وقبح الصورة والجهل وترك العبادة وسوء الخلق وكدر العيش والجبن.

هذا كلام الأطباء فارجع إليه. وإنما ذكرته هنا لأذكرك بعلم الطب، ولترجع فتدرس ذلك قياماً بحق جسمك ورقياً لأمتك وإسعاداً لك في حياتك إذا كنت مستعداً لها، ومع هذا كله لست الآن في مقام كلام الأطباء، بل أنا في مقام آخر وهو أني أفسر آية: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، فأريد أن أبين لك ما يخالج قلبي في هذه الحياة وما أعرفه من ندرها تذكرة لك وتنشيطاً للمسلمين وذكرى لقوم يعلمون. هذه هي تذكرتي في الحياة.

لقد نظرت في حياة الناس على الأرض فوجدت أكثر الآجال مناسبة لهذا العالم الأرضي. فليقل الأطباء ما شاؤوا، وليقولوا إن الناس قد أساؤوا في صحتهم وأكثروا ألوان الطعام والشراب والتفاني في المهلكات واللذات اللاتي يمنعن لذة الحياة ويحطن الإنسان بالأسقام والعلل وتنغيص الحياة وقصر العمر، فليقولوا ذلك، ولكن هذا الإنسان على ما به من عوج رأيناه يتعلم في الأمم الراقية وينتهي تعليمه فيما بين العشرين والثلاثين غالباً، فنجده حاز درجات التفوق في العلم والفنون، وأخذ بعد ذلك يفيض من علمه على أمته.

وبعبارة أخرى: رأينا مدة النمو التي ذكروها وهي (٢٥) سنة هي المدة التي ينمو فيها علمه، فكأن نمو الجسد ونمو العلم فرسا رهان معاً يبتدئان ومعاً ينتهيان غالباً، ثم يعقب تلك المدة أننا نراه يأخذ في الأعمال ويؤلف الكتب وينشر العلوم بين الناس، وليس لنا في الحياة إلا علم أولاً وعمل ثانياً، فالعلم حصلناه في سن النمو والعمل متصل به، إذن هذا العمر مع قصره قد أدى الوظيفتين: وظيفة العلم في سن النمو، ووظيفة العمل في السن التي بعدها.

أما قولهم : إنه مستعد أن يعيش فوق ذلك ، فربما أن يكون بعض ما قالوه حينما يرتقي الإنسان عن هذه الحال ويعرف حقاً أن سعادة الحياة ليست باللذات الحقيرة ، بل بالصحة والعافية والعلم والحكمة والمساعدة العامة ، تلك اللذات التي لا يعرفها إلا من نالها ، وهيهات أن يقدر على وصفها لغيره من الناس الذين لم ينالوها .

هذه تذكرتي في أمر الحياة إجمالاً ، أما تذكرتي فيما أنذر به الإنسان في هذه الحياة فهاأنا ذا أحدثك عنه ، فإنه أهم مما قبله فأقول :

إني وجدت هذه الحياة ترجع إلى أربعة أشياء : (١) ألم . (٢) وأمل . (٣) وعمل . (٤) وحب وغرام . فالثلاثة الأولى مقدمات ، والرابعة هي نتيجة الحياة .

الألم

أما الألم فهاك وصفه إجمالاً فقد ذكرته في غير ما موضع ، ولكن ألخصه لك تلخيصاً فأقول :

لا ألم في هذا الوجود إلا لإسعادنا ، الحياة كماء النهر ولا سبيل لحفظ الماء إلا بالجسور ، هكذا هذه الحياة لا تمام لها ولا بقاء إلا بالآلام ، فألم الجوع به طلبنا الطعام فدامت الحياة ، ومثله ألم العطش فنلنا الري ، وألم الشبق فكانت الذرية ، وألم الفقر فنلنا المال ، وألم الذلة فنلنا العزة ، وألم الخمول فنلنا الظهور والمجد ، وألم الذم بوصفنا بالبخل فاتصفنا بالكرم ، وألم الذم بالخور والجبن فكسبنا الشجاعة ، وألم المرض فتداوينا فرجعت الصحة .

آلامنا كلها خلقت لإسعادنا ، ولا شقوة في هذا الوجود إلا لنتيجة نافعة . وإذا رضينا أن نقطع عضواً من أعضائنا خيفة أن يصاب بقية الجسم بما أصابه واستعملنا الحمية في أمراضنا طلباً للصحة ، فإن النتيجة لذلك كله منافعنا . فإذا كانت هذه أفعالنا مع قصور علمنا ، فهكذا نتذكر أن كوارث هذه الدنيا على هذا النمط من قحط وزلازل وإهلاك بلاد وإغراق سفن . فهذه كلها أشبه بقطع سلعة من الجسم ، وإن كنا ندرك حكمة قطعها من جسمنا ، ولكنا نعجز عن إدراك الحكمة في قطعها من الجسم العام كله ، بل علماء الاقتصاد أدركوا أن الزلازل بها تظهر تربة جديدة فيها خصب لا نظير له في التربة كما تقدم في أول سورة « سبأ » ، فاقرأه هناك عند آية : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الآية : ٢] الخ . نظر في أحوال هذه المخلوقات الحيوانية فتجد أربع لذات وأربعة آلام ، والآلام سابقات على اللذات :

(١) نرى لذة المآكل والمشارب والملابس والمساكن التي سبقتها آلام العري أو توهمه وخوف البرد والحر والفضيحة بين الناس . فآلام هذا النوع من موارد الحياة سبب لطلب الطعام والشراب والملابس والمساكن ، فهنا ألم تبعه أمل ثم يكون الجد والتشمير في طلب هذه المطالب ثم تكون اللذة بها ، فهاهنا ألم تبعه أمل أوجب العمل لحصول المطالب ، وقد لازمه الشوق والغرام المطلوب .

(٢) ثم نرى الناس والحيوان جميعاً يسعون لاجتماع الذكر والأنثى ، فهناك ألم يتبعه أمل في الاجتماع فيكون العمل لطلب الشريك من ذلك النوع من الإنسان أو غيره ، والحب هنا قوي متين والغرام لازم ، فباجتماع الصنفين الذكر والأنثى تزول آلام الشبق ، وبظهور الجمال والموافقة والأنس تزداد اللذة ، كما تزداد السعادة في أنواع الطعام والشراب بجمال المائدة وحسن الطهي وجمال

الرونق، ويتبع ذلك ما يرى في الزروع والأشجار من الجمال والبهجة والحسن والإشراق. كل ذلك ترغيب بالمحافظة على النبات ليتم نضجه، فالجمال صاحب المطاعم في حقولها وفي إبان تعاطيها، وهذا كله يزيد اللذة والانبساط والأنس.

(٣) ثم نرى هنا درجة ثالثة أعلى من السابقتين، وهي أن الأبوين اللذين تعاشقا لمنفعتهما الخاصة وفرحا باللذات والجمال فزالت آلام الشبق وحصلا على بهجة وأنس وموافقة، فمتعا الأعين بمحاسن المناظر والأسماع بعذب الألفاظ وحاسة الذوق بما يناسبها، كما متعا الأعين بمناظر الزرع وبهجة الانتظام في موائدهما ومآكلهما ومشاربهما، ومتعا حاسة الذوق بألوان الطعام.

أقول: إن هذين الأبوين اللذين ظنا في أول الاقتران أنهما اقترنا لحصول لذتهما الشهوية لا غير؛ وأن ما يتعاطيانه من الطعام والشراب واللباس لم يكن إلا لأجل بقائهما وحدهما، نراهما بعد ذلك قد أخذا يربيان البنات والبنين، وأن الجمال منهما قد ذهب وحل محله الضعف والنحول، وأخذا يضمحلان وانتقلت القبلات منهما إلى أبنائهما وبناتهما، وبعد أن كانا يتهاديا أصبحا معاً يقدمان أموالهما وما يملكان إلى الذرية.

فيظهر للحكيم من هذا الكتاب المسطر أمام الناس يرونه بأعينهم ولا يفقهونه، وهم مسوقون مساكين مسخرون، أنه لا فرق بين أهل الشرق والغرب في ذلك التسخير، ولا بين الإنسان والحيوان، فكلهم مسخرون ولا يدرون إلى أين يساقون، يساقون في الحياة كما يساقون في الديانات ويساقون في الحكومات. فأهل هذه الأرض على وتيرة واحدة، تقليد أعمى في الديانات وأحوال الحياة، ولا حياة لأجسامهم إلا بسائق الألم وقائد اللذة للذوق وللعين، ولا بقاء لأنواعهم إلا بسائق الشبق وقائد اللذات. فالعين لها نظر الجمال، وشهوة الذوق لها لذة الوصال، وإذا ولدوا الذرية ساقتهم آلام الرحمة المسلطات على قلوبهم إلى الإرضاع والتربية، وشاقتهم صداقة الأبناء وظهورهم وقيامهم بأمرهم في الكبر، وهنا ظهر عالم جديد عالم أرقى من سابقيه. نرى الحيوان في الدرجة الوسطى يتغزل ويهوى الجمال ويموت غراماً وينشد الأشعار وينصب أشراك الحب لصيد المحبوب، وهو في كل ذلك لا يدري أن هذا كله وسيلة لا غاية. وما الغاية إلا الدرجة الثالثة التي ظهر فيها رحمة الولد والعطف عليه قاما مقام آلام الشبق هناك، فهذا سائق هنا كما ساق الشبق هناك، وإن انتظار نبوغ الولد وأن يقوم مقام الأبوين بعد موتهما، يقوم مقام الجمال المطلوب والأنس المرغوب وهو شائق، إذن الفرح بمنافع الولد هنا قائم مقام الجمال المطلوب هناك وكلاهما شائق. وآلام القلب والعطف على الولد السائق هنا كالشبق السائق هناك.

الله أكبر وصلنا إلى المطلوب في هذه الحياة، وهو أن خلقنا يدل على أن سعادتنا العظمى لا تحصل إلا بتوجيه الهمة لإسعاد سوانا.

أنا أكتب هذا القول ولا حجة عندي فيه إلا الطبيعة المشاهدة، فأنا أكتبها لأهل الشرق ولأهل الغرب، فهذا علم قام بالحجة ولا مناقض فيه. فليقل أهل الشرق وليقل أهل الغرب ما شاؤوا، وليفكر الفلاسفة والحكماء في هذه الدرجات الثلاث. أليسوا يشاهدونها في نفوسهم، ومن حق الحكماء بعد

ذلك أن يسألوا أنفسهم لِمَ هذه المشاق كلها في الحياة؟ ولمَ نجد النبات لا يتعب في تحصيل قوته ولا له أعمال كثيرة في التناسل، فالزهرات تلقح بواسطة الهواء أو الماء أو الحشرات وهن هادئات. وقوت النبات مما حوله، ثم ننظر فنجد أدنى الحيوان لا يكون ذكراً وأنثى. كلا. فقد تقدم في سورة «مريم» الكلام على المحار، وأن المحارة تلد الألوف، وهي تقوم مقام الذكر ومقام الأنثى، فلا غرام ولا عشق ولا هجران ولا حرمان، وهناك حيوانات دنيئات متى كبرت تفجرت، فتقطع الحيوان الواحد إلى قطع كل منها يصبح حيواناً آخر، وهذه الحيوانات تملأ البر والبحر، وقد تقدم من أن أدنى الحيوان ما يكون تناسله بالانقسام بحيث يكون (٢) و(٤) و(٨) وهكذا، أي أن كل واحد ينقسم إلى اثنين، وكل منهما ينقسم إلى اثنين وهكذا إلى ما لا نهاية له. وسموا تلك الحيوانات بالخالدة، لأن الحيوان الأصلي موجود، ولما انقسم اثنين وهذان انقسما قلنا إنه حيوان خالد، فأين الموت؟ اللهم إلا إذا أحرق أو منع عنه الماء، كل هذا تقدم في هذا التفسير. فهنا نقول: لمَ هذه المشاق كلها في نوع الإنسان؟ ولمَ أغرم كثير بعزة وجميل ببثينة وتوبة بليلى؟ ولم نسمع الهوى العذري الذي يستولي على عقل الشباب فيموت في هوى من أحبها كما نسمع في هذه الأيام بما يحصل في اليابان من الهوى العذري كما كان عند قبيلة بني عذرة.

الحكيم إذا سمع ذلك يقول: لا معطل في الوجود، ولا بد لهذا النصب من نتيجة في أخلاق الإنسان. وعسى أن تكون النتيجة في المرتبة الرابعة وهي مرتبة الحكماء. في هذه الأرض أناس عقولهم أرقى ونفوسهم أصفى جاؤوا إلى هذه الأرض وهم مفكرون فيها. فهؤلاء يقولون: إن هذه الإنسانية آراؤها كلها محدودة، والحيوان عندهم تقف أغراضها عند مقاصد جزئية، وهم درجات بعضها فوق بعض يكتفي أحدهم بالمال والآخر بالنساء والثالث بالبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ويتعالى قوم إلى أعلى من ذلك فيكونون محافظين على المجموع كالأمراء والحكام والملوك، وهؤلاء يعطفون إذا كانوا صادقين على المجموع عطف الأبوين على الذرية ولهم لذات على مقدار ما يعملون، أرقى من لذات الأبوين بالذرية لذات المتعاشقين، بدليل أنا نجد القواد إبان الحرب لا تتوجه هممهم إلا إلى غلبة العدو، وأن الملك مقدم عند عقلائهم على معشوقه، فإذا توقف حوز الملك على تركها؛ تركها لأن لذة الملك أعلى، لأنها عقلية، ولذة الاقتران بالأنثى حسية، واللذة العقلية أعلى من الحسية. ثم ينظر هؤلاء الحكماء نظرة عامة في حال الناس فيقولون:

(١) نحن عرفنا أن السوائق والقوائد في المراتب الثلاث المتقدمة لم نرها إلا في الحيوانات العليا. أما الدنيئة فلا، وكلما ارتقى الحيوان وجدنا فيه هذه الأحوال أشد، ونرى عطفه على الولد أكمل، فلنجعل هذه مقدمة نبني عليها نتائجنا في مستقبلنا مع الناس، ولبسنا وشربنا وذقنا الحلو والمر وعاشرنا الأزواج. ويقولون أيضاً: نحن أكلنا وولدنا كما يلدون، فوجدنا أن آخر المراتب نتائج المقدمات. وهناك أناس تولوا المحافظة على المجموع، ولهم لذة على مقدار تلك المحافظة وهي أعلى كما تقدم.

(٢) فأين مزيتنا إذن إذا وقفنا عند هذا الحد. نحن نحب أن نتجاوز هذه المراتب الثلاث وملحقاتها، فلا نكتفي بالذرية ولا بالملك، لأن هذه كلها لذات محدودة مشوبة بالكدر والحزن

والأسى في الذرية، والعزل وكيد الأعداء في الملك، ولكل من الناس درجات يصل إليها ولا يتعداها. أما نحن فإنا لا نقف عند هذه الدرجات بل لننظر نظرة أعلى فنقول:

(٣) إذا ثبت أن هناك عشقاً بين الذكر والأنثى وأن هذا العشق أنتج الذرية؛ فالدرجة الثانية أنتجت الدرجة الثالثة التي هي أعلى منها، فنحن نعشق عشقاً أعلى، وهي مباحث هذا الوجود كله فندرسه ونعقله، لأننا أهل له، وهذا العشق لا نقص فيه، وحكمة العشق الحيواني أنه مؤهل للعشق العلمي، وهذا العشق لا نهاية لمداه، فهو نفسه لذة لا يشوبها كدر ولا يعتريها نقص. وإذا كان العشق الحيواني في الشباب فالعشق العلمي يكون في الشباب ويزيد في المشيب، وهناك تضعف اللذة الحسية وتقوى اللذة العقلية. ثم يقولون: إنا رأينا أن الدرجة الثالثة وهي النهاية للحيوان أنه يعطف على الولد ويفرح به. فعطفه عليه بسائق آلام الرأفة والرحمة، وفرحه به بشائق اللذة بصحته وعلمه ومنافعه، ويرمز لهذه الدرجات كلها: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾[النحل: ٨]، فالركوب لدفع ألم المشي، والزينة بحصولها في الملك والتباهي بها، فهاتان ساريتان في الدرجات كلها.

فهانحن أولاء نعطف على المجموع الإنساني كله، ونجد في السعادة بما نملك من قدرة وما نستطيع من علم وما نقدر عليه من صناعة. إذن نحن آباء للناس والناس أبناؤنا. فنحن نعشق الوجود كله، والعشق يدعو للوصال، والوصال صور الموجودات في النفس، فمتى أدركنا جمال العوالم العلوية والسفلية بصورها العلمية الجميلة، فقد نلنا محبوبنا وحصلناه في نفوسنا، وهذا هو الوصال الحقيقي، لأن المحبين لا يطلبان إلاّ اتحاد النفوس. أما الوصال المشهور الجسمي فهو وصال حسي يعقبه فتور الحب نوعاً ما. أما تحصيل صور الموجودات من حيث حقائقها، فذلك هو اللذة التي نحس بها، والناس حولنا تائهون جاهلون نائمون لا يشعرون ما نحس به من الجمال، ومستحيل أن يصل الإنسان لذلك إلا بدراسة مقدار من العلوم الرياضية والطبيعية والحكمة.

فنحن بهذا نلنا أعلى اللذات في مقابلة أخسها التي نلناها، ونحن هائمون كبقية الشبان. وإذا رأينا أن نهاية هذا الإنسان إنما هي الذرية والتربية، فهانحن أولاء نسعى لتربية الجميع، نربي الملوك والسوقة ونعطف على الكبار والصغار والفقراء والأغنياء، ونحس في ذلك بلذة تقطع دونها الأعناق.

ولنا في هذا الوجود نظرة عامة بعد ذلك فنقول: هاهنا إشراق للشمس وضوء للكواكب وللقمر أرسلت هذه لنا من غير عمل منا، وهذا الضوء لولاه لم تكن لنا حياة، وقد أحسسنا في أنفسنا بأعمالنا القليلة، وإحساسنا بسعادة على مقدار ما زاولنا من إسعاد أبناء نوعنا. ورأينا أن العلماء والحكماء يحبون عموم الناس نظراً لعموم نفعهم، وأن الآباء يحبون الأبناء أكثر من حب الأبناء للآباء، لأن الدائن يحب بقاء المدين، والعالم يحب المتعلم، والمحسن يحب من أحسن إليه، أكثر من حب الآخرين للأولين.

فهذه الأنوار المشرقة وأنواع السعادات في الأرض والهواء والماء والأرض والكواكب؛ كل هذه ليس لنا فيها عمل. ولقد وجدنا أنفسنا نعيش بينها ونتلقى المنافع من ذات لا نراها. أفلا نقول على سبيل القياس التمثيلي وإن لم يكن يقينياً: إن هذا الإحسان لم يكن إلا بناء على حب، وأن تلك الذات

لما أحبت وجود المخلوقات نوعتها ووضعت كلًا في مرتبته، وهذه الذات هي التي جعلت بعض الناس فرحين بالبرك والمستنقعات، وأفرحت الفيران بالمراحيض، كما أفرحت النحل بالبساتين، وأفرحت العلماء بإدراك ذلك كله، وأن استعداد الحكماء أرقى من استعداد جميع المخلوقات في هذه الأرض بعد الأنبياء، فلذلك كثر إلهامهم وتعليمهم وآثارهم وإرشادهم لأهل الأرض إخوانهم، وإن أعظم الحب من تلك الذات قد اختص به أولئك الحكماء بعد الأنبياء، بدليل أنهم أدركوا الجمال فعلموا وألهموا رحمة العباد فعطفوا عليهم، فهم إذن صفوة الله في أرضه بعد الأنبياء بهذا البرهان، ولذّاتهم الحقيقية أعلى من لذات الناس بعد الأنبياء طبعاً. ثم يقولون: وإذا كنا نعلم أن تلك الذات المقدسة المحجوبة عنا تحبنا حباً أكثر من حبنا لها بدليل هذه النعم؛ وأن المحسن أوفر حباً لمن أحسن إليهم منهم له، وأن كل جمال وبهاء وحسن وإنعام فإنما هي مظاهر ذاته المقدسة. أفلا يكون ذلك يحفزنا إلى حبه والغرام به والشوق للقائه؟ ثم نجعل كل حياتنا وقفاً على إرضائه، بإسعاد عباده وباقتفاء آثاره، فنفكر في سعادة هذا الإنسان المسكين، فنجد أنه لا يزال في الجهالة مغموراً. ذلك أنه في الشرق والغرب عاش مقطع الأوصال لا رابطة تربطه ولا جامعة تجمعه، إذ جعل اختلاف الأوطان والقبائل والممالك أسباباً للقتال، كل ذلك منه جهل وغباوة. ذلك أنه لم يدرس جسمه، ولو درس جسمه لوجد أن جميع الجسم متصل بالأعصاب، ومتى اختل منها عضو أسرع الطبيب بإحضار الدواء، وتتوارد الحيوانات التي في الدم من الكرات الحمراء والكرات البيضاء فتجتمع على ذلك المرض ويساعدها الدواء من الخارج فيبرأ المريض. فهكذا فليكن هذا النوع الإنساني بعد ما اتصلت الأمم بالمواصلات في زماننا. فإذا حصل لإحداها ضيق أو كرب فلتقم الأمم كلها لها بالمساعدة، والاتصال اليوم سهل. فأما إذا كانت تلك الأمة لا تصلح للمساعدة، وزاد توحشها ولم تنجع الوسائل في تعليمها وإسعادها، فلتقطع من جسم الإنسانية العامة كما يقطع العضو المريض إذا لم يفد فيه الدواء.

هذه هي نهاية آراء الحكماء في مستقبل الزمان، فهم سيقولون للأمم: لتكن أيتها الأمم مساعدات بعضكن بعضاً، ومن لم يكن عندها استعداد لمساعدة المجموع وغلبت عليها عقائدها الموروثة فلتحتل الأمم كلها في تعليمها. فإذا فشلت جميع الطرق فلتنبذ تلك الأمة ولتتركها جميع الأمم مهملة. وآخر الطب الكي. وهناك يسود السلام وتتم سعادة الإنسان.

فهؤلاء الحكماء الذين هذه آراؤهم يفرحون من الآن بالسعادة. وهؤلاء هم الذين يفهمون آية: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨]، لأن المربي الرحيم الذي عرفوه قد ألهمهم السلام من الآن. ذلك أنهم أيقنوا بأن الأمراض ما هي إلا منذرات تقود للإصلاح، والموت خلاص من أسر هذه الطبيعة ورجوع إلى الكمال المطلق وأي سلام بعد هذا. فهؤلاء ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٣].

بل هذه البشائر عندهم، وهم في هذه الحياة والملائكة المذكورون هم معه الآن يلهمونهم العلوم والمعارف لعلمهم أنهم يبثونها للأمم. فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب يوم القيامة، ويلهمونهم هذه العلوم الموجبات للسلام وللأمان، فيلقون العلوم للناس وهم بها مطمئنون ولا يبالون بالأعداء

ولا بالخصوم والحاسدين، فهؤلاء لا خوف عليهم بالمستقبل، ولا هم يحزنون على ما مضى، والملائكة تنزل عليهم وتلهمهم ذلك في الحياة وإن لم يروهم، وبعد الموت وهم إليهم ينظرون.

هذا ما تذكرته عند تفسير الآية وهي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٧]. الله عمرني في الأرض سنين وسنين، وهذه تذكرتي لمن بعدي من المسلمين والناس أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

انتهى تفسير سورة «فاطر»

يوم الجمعة ٢٣ مايو سنة ١٩٣٠م و٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٤٨هجرية



تفسير سورة يسٓ

هي مكية

إلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

فمدنية

آياتها ٨٣ نزلت بعد الجن

والكلام على هذه السورة في أربع فصول:

الفصل الأول: في تفسير البسملة.

الفصل الثاني: في تفسير الألفاظ.

الفصل الثالث: في ذكر ما كنت فسرتها به منذ سنين، لتكون ماثلة معانيها أمام القارئ ملخصة مجتمعة.

الفصل الرابع: في العجائب العلمية من سائر العلوم لا سيما علم الكيمياء، وكيف كانت لفظة ﴿ يسٓ ﴾ التي ابتدأت بها السورة تشير إلى التحليل، وقد ظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾[الآية: ٨٠]، مما يبعث في الأفئدة شوقاً إلى الحكمة وميلاً إلى التعلم، وحباً في استطلاع العجائب والحكم الكونية وغرائب العلم.

الفصل الأول: في تفسير البسملة

مقدمة

اعلم أن العوالم التي نعيش فيها تجري على وتيرة واحدة وأسلوب خاص لا يتغير، وذلك أنك ترى اليوم يولد بشروق الشمس، ويظهر ضحى، ويشتد وقت الزوال، ويضعف وقت العصر، وينتهي وقت الغروب. هكذا السنة فلها ولادة، إذا حل فصل الربيع ونزلت الشمس برج الحمل وأخذت الحياة تدب في الأرض وذاب الثلج، ودبت الحشرات وانبعثت من مراقدها، وقامت الزواحف من نومتها، وسعت الحيات لحياتها، وأورقت الأشجار وأزهرت الأغصان، وأثمرت الحدائق وأخذت الأرض زخرفها وازينت. فإذا حلت الشمس برج السرطان، هناك يأخذ النهار في القصر والليل في الطول، وتنضج الثمار، وتكون الدنيا أشبه بامرأة كاملة تكلأ أبناءها وتحفظ صغارها وتعطف عليهم وهم مبتهجون، فإذا جاء فصل الخريف وحلت الشمس في برج الميزان، فهناك يعتدل الليل والنهار ثم يأخذ النهار في القصر والليل في الطول، وتكون الدنيا أشبه بامرأة هرمة ولى شبابها وأدبرت أيامها وساءت حالها، فإذا جاء فصل الشتاء وحلت الشمس برج الجدي، هنالك تدخل الحيات في

أوكارها، وتتوارى الحشرات في بيوتهم، وتقف الحركات ويخيم السكون على أرجائها، وتكون الدنيا أشبه بجثة هامدة لا حراك لها، وهكذا تبقى، حتى إذا جاء فصل الربيع وحلت الشمس برج الحمل، وهكذا دواليك، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾[الروم: ٥٤] .

فهذا نفسه هو حكم الإنسان، فهو في أول حياته كاليوم إذا أشرقت الشمس، وهو في شبابه كالشمس في ضحاها نهاراً. وفي استوائه رجلاً كاملاً كالشمس إذا توسطت كبد السماء وكان الزوال، فإذا ولت أيامه وأدبر شبابه وأقبل هرمه، كان كالشمس إذا آذنت بالمغيب وفارقت أهل الأرض وهم لها وامقون، وهكذا صباه أشبه بفصل الربيع، وفتوته واستواؤه رجلاً أشبه بوقت الزوال، فإذا ولى زمانه وشابت مفارقه وانحلت مفاصله واصفر لونه، كان أشبه بالسنة إذا حل فصل الخريف وأخذت تنحل عراها وتضعف قواها، فإذا ما حل في الرمس وودعوه كالأمس، كان كفصل الشتاء، وهكذا دواليك. ومثل ذلك كله الأمم:

(١) فلها ولادة كولادة الإنسان تبدأ فيها بقراءة تواريخ الأمم ودراسة الآثار، وتضرب الأمثال كالطفل إذا ابتدأ يفتح عينيه، فإنه إذ ذاك يأخذ يبحث فيما حوله ليتخذ مثالاً يقتدي به، ومنوالاً ينسج عليه، وسبيلاً ينهجه، ومهيعاً معبداً ـ بتشديد الباء ـ يسلكه.

(٢) ولها أيام فتوة وقوة وعظمة إذا اشتد كاهلها وعظمت مسرتها وقويت شكيمتها، كالإنسان أيام فتوته وتمام رجوليته، وكالسنة في فصل الصيف.

(٣) ولها أيام انحطاط وضعف كما تنحط الشمس ذاهبة إلى الغروب كل يوم، وكالشمس تدخل في برج الميزان ويأخذ النهار في القصر والليل في الزيادة.

(٤) وأيام موت كموت الإنسان وإقبال الليل وحلول فصل الشتاء.

إذا عرفت هذا أيها الذكي فلتعلم أن الأمم الأرضية كانت أيام النبوة قد اعتراها خمول وضعف كخمول السنين وموتها أيام الشتاء. فلما أن ظهر الإسلام ثارت العزائم وانتشر العمران وهاجت الأرض وماجت وانبعثت المدنية فيها كرة أخرى، إذ تدهورت المدنيات القديمة في الفرس والرومان وحلت محلها مدنيات حديثة، وأخذ العرب الذين كانوا مبعثرين في الصحراء لا جامعة لهم يستخرجون العلوم من مكامنها، ويدرسون تواريخ أمم الفرس والروم، ويقرؤون علوم الأمم، شأن الصبي أيام طفوليته، والحيوانات في فصل الربيع، إذ تخرج من أوكارها وتقوم من أجحارها كأنها مبعوثة من أجداثها منتشرة في الأرض تسعى حثيثاً للحياة، فلما أن استقر قرار الأمم الإسلامية في أواخر القرن الثاني وقد استتب لهم الملك وعظم شأنهم، أخذوا يستثمرون ما زرعوا ويحصدون ما أنبتت لهم مدنيتهم أيام الدولة الأموية، فوقفوا الفتوحات قروناً وقرونا حتى إذا كانت أيام الشيخوخة وأيام الضعف كالشمس وقت العصر والسنة في فصل الخريف، أخذت أمم التتار تكتسح هذه الأمم، فرجع المسلمون أشبه بفصل الشتاء في السنة، وبالإنسان إذا مات، وبالنهار إذا أدبر، والليل إذا أقبل.

وهاهي ذه الأمم الإسلامية اليوم قد أقبلت أيام شبابها وحلت شمسها في برج الحمل، وها هم أولاء يبحثون في كتب الأمم ويقرؤون تاريخها، شأن الطفل أيام طفوليته إذ يقلد ما حوله، والحيوانات المنتشرات في فصل الربيع، وشأن المسلمين في القرون الأولى أيام ظهور النبوة، وهذا التفسير قد ظهر اليوم في إبان صبا الإسلام بعد نوم الأمم الإسلامية في شتاء دهرهم وخمولهم ونومهم العميق، ويريد الله أن يوقظهم من كهفهم ويحيي مجدهم بعد موتهم. فماذا يفعلون؟ يقرؤون أمثال هذه السورة سورة «يسٓ» فماذا يقابلهم في أولها؟ فأول ما يسمعون منها قسماً بالقرآن على صحة الرسالة، كالقسم بالنجم إذا هوى على أنه صلى الله عليه وسلم ما ضل وما غوى، فهذه تفرع أسماء المسلمين اليوم، فيقول حكماؤهم: حقاً إن النجم هو الذي يهدي الضالين السارين في ظلمات الليالي الحائرين في الصحاري والقفار لا يهتدون سبيلاً ولا يجدون دليلاً، وهكذا سفن البحار تضل في أمواجها وتصطدم في شعابها، فلا تجد لها واقياً يقيها ولا هادياً يهديها إلا ببيت الإبرة «البوصلة البحرية»، فهي التي تنير لهم السبل وتهديهم إلى سواء الصراط في لجج البحار. فالنجم في الصحراء هداية لمسالك الجبال، وهو في البحر هدى للربان. وقوام الهداية تلك البوصلة التي تتجه بالمغناطيسية شمالاً وجنوباً منحرفة انحرافاً قليلاً بقوانين لها علوم خاصة تعرف الربان الشرق والغرب والشمال والجنوب، وهنالك يدرس النجوم وأماكنها فيهتدي بها في ظلمات البحر. فهذا هو النجم الذي أقسم الله به حين هوى؛ على أن النبي صلى الله عليه وسلم ما ضل وما غوى. ولا ريب أن النجم إذا كان في وسط السماء لا يهدي وإنّما هدايته إذ هوى، والقرآن الحكيم في سورة «يسٓ» هنا يهدي كما يهدي النجم، لذلك أقسم به على أنه من المرسلين على صراط مستقيم، لأن هدايته كهداية النجم، وكما أن للنجم علوماً تعرف أماكنه في السماء وبوصلة تهدينا إلى طرقه، هكذا القرآن لا تتم الهداية به إلا بعلوم وعلوم. فهداية النجم نفتقر معها إلى علوم، هكذا هداية القرآن لا بد معها من علوم، والعلوم التي في هذه السورة وطرق الهداية فيها إلى الصراط المستقيم لا تحدو سنة مسير الشمس في اليوم وفي السنة، ونظام الدول في أول ظهورها. ألا ترى رعاك الله أن السورة مبدوءة بضرب المثل بأصحاب القرية التي جاءها المرسلون؟ وكان لهؤلاء المرسلين أنصار وأعداء، وانتهى أمرهم بأن غلب الحق الباطل، فهذا سبيل الأمم في أول ظهورها تقرأ التاريخ وتعتبر به كالطفل يحبو ويدرس ما حوله، والحيوانات خارجات من مخابئها منتشرات في فصل الربيع، وكالأمم العربية إذ بزغت شمسها أيام النبوة. فهاهي ذه أمم الإسلام تعيد سيرتها الأولى إذ أخذت تدرس تواريخ الأمم العربية السابقة أيام النبوة وقبل النبوة، وتدرس تاريخ الأمم التي حدث بعد ذلك جيلاً فجيلاً، وتستخرج خلاصتها وتقوم من نومتها وتستيقظ من رقدتها وتخرج من كهفها.

لم يقص الله علينا قصص أصحاب القرية لنقتصر عليهم. كلا والله. ألم يقل: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾[يس: ١٣]، فهذا مجرد مثل، والمثل به تكون الذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين. لحياة الأمم شباب ثم قوة وتمام ثم انحطاط وضعف، فهي في أيام الشباب تقرأ علوم لغاتها وتاريخ أجدادها وتدرس الأمم المحيطة بها، فإذا أدركت ذلك كله عرفت أنه لا مناص لها من إدارة شؤون هذه

الأرض، فهنالك تغرس الأشجار وتحفر الأنهار وتقرأ العلوم. وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾[يس: ٣٣]. وهاهنا أخذ يذكر الجنات والزروع والثمار والشمس والقمر والسفن، فهنا في هذه السورة ثلاث درجات:

(١) درجة الاستيقاظ لدراسة الآثار البائدة والأمم الخامدة والأيام الخالية، كالبحث عن آثارهم في أحجارهم وكتاباتهم في قبورهم وأخبارهم في تواريخهم، وهنالك يسمعون: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[يس: ٣٠]، بعد ما سمعوا أن صيحة واحدة أخذتهم فإذا هم خامدون. فخمود الأمم أعقبها الحسرة عليهم، فتواريخ الأمم للاعتبار بحوادثها والاهتداء بعلومها، وهنالك يقول الشاعر:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
وأنزلوا بعد عز من مراتبهم وأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل
أجاب سائلهم في القبر قائلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
فطالما أكلوا يوماً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

فهؤلاء أحق بالحسرة وبهم يكون الاعتبار، فهم مضروبون لنا مثلاً. فإذا سمعنا الله يضرب لنا مثلاً بأصحاب القرية فلنقل نحن ما أكثر الأمثال الإسلامية التي خلفت تلك الأمم البائدة لما أعرضت وقعت مشمخرة وذهبت كأمس الدابر. فهذه دولة العرب في الشرق ذهبت ريحها وخر عليها السقف من فوقها، إذ أبادها التتار، وكذلك لما تخاذلوا في بلاد الأندلس سطت عليهم الجيوش الجرارة من أمم الفرنجة وهم غافلون، فأخرجوهم من أوروبا، وهؤلاء أبناؤهم مشتتون في طول الأرض وعرضها، وسيجمع الله شملهم كما جمع شمل آبائهم بظهور الإسلام في ثوبه القشيب كرة أخرى.

تخاذل المسلمون في الأندلس وكانت لهم (٢٠) دولة وهم جاهلون بمن حولهم، وقد انغمسوا في النعيم، وذاقوا سوء المصير. وهاهي ذه قارة أستراليا دخلها الفاتحون فانقرض العنصر الأصلي في البلاد إلا قليلاً، وهكذا أهل أمريكا الأصليون وهم الحمر المتوحشون، هاهم أولاء أخذوا ينقرضون أمام المحتلين.

هذه نبذة يسيرة ذكرتها هنا اقتداء بالكتاب العزيز، إذ ضرب لنا مثلاً فأتبعناه بأمثال تبييناً للقرآن وتذكيراً بالفرقان، لأن الله يقول: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: ٤٤]، فبمثل هذا يكون التفكير، وبمثل هذا يكون التبيان. فهذه هي الدرجة الأولى، درجة الاستيقاظ.

(٢) أما الدرجة الثانية فإنها آتية بعد عدة سنين في الأمم الإسلامية، وقد ظهرت بوادرها، وفيها يكون تمام أمرهم، وإليها الإشارة بقوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾[يس: ٣٣] الخ. فهذه الدرجة أشبه بالتحلية بعد التخلية. فالأمة تتخلى أولاً عن الجهالة وتنبذ الكسل وتعتبر بالأمم الخالية، ويعقب هذا الدور دور العمل، إذن الأمم الإسلامية اليوم أشبه بآبائنا أيام ظهور النبوة، فنحن اليوم كآبائنا أيام الصحابة وأيام النبوة، ابتدأنا حياة جديدة نراها آخذة في النمو والاستيقاظ في مصر والشام

والعراق والفرس والهند وبلاد جاوه والملايو، وهذه كتلك تماماً، فهاهم أولاء أخذوا يقرؤون تاريخ أسلافهم وتاريخ الأمم، ولا محيص لهم من تولي زعامة الأمم وقيادتها كما قادها آباؤهم وكانوا نبراساً للأمم كأيام الدولة العباسية.

(٣) أما الدرجة الثالثة فهي أيام الفناء والزوال، وهي المذكورة في السورة من النفخ في الصور وانقسام الناس فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

ومن عجب أن الرحمة المذكورة في آية البسملة أحاطت بهذه الأقسام الثلاثة، فبينما تجد الاعتبار بالأمم في أول السورة بقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[يس: ٥]، إذ أنت ترى دخول الجنة مشمولاً بها، إذ يقال لهم: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[يس: ٥٨]، فالرحمة في الاعتبار بالأمم البائدة المضروبة لنا أمثالاً كالرحمة في اقتطاف ثمرات الأعمال في الجنان وشرب الرحيق المختومة ختامه مسك هناك، فإذا قرأنا تاريخ البائدين فذلك من رحمة الرحمن الرحيم وهي الدرجة الأولى.

وإذا غرسنا الأشجار ونظمنا الحقول وقطفنا الأزهار وجنينا الثمار فذلك من رحماته، وإذا دخلنا الجنات وشربنا شراب الحب من كأس كان مزاجها زنجبيلاً فذلك من الرحمات، إذن الرحمة في الاعتبار بالأمم وفي السعادة وفي الحياة وفي سعادة الجنات واحدة، لذلك ابتدأ السورة بقوله: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في تفسير البسملة.

الفصل الثاني

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم

مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن
يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾
إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى
رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا
يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ
إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ
أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ
وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾
سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ
لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى
لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا
ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ
فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟
مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا
كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾
قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ
إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾
وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ

إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

التفسير اللفظي

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يسٓ ﴾ قد اطلعت على ما كتبته على الحروف التي في أوائل السور في أول « آل عمران » من عددها ومناسبتها للأوضاع الفلكية والفقرات التشريحية والعجائب الطبيعية، والاستدلال بها على بقاء اللغة العربية بعد فناء اللغات الأوروبية كما أوضحه علماء الألمان بالاستنتاج الموافق لرمز القرآن.

ولعلك أيضاً قرأت ما جاء في سورة « العنكبوت » و« الروم » وما بعدهما من إشارة الحروف في أوائلها، وفوق ذلك إلى استكناه العلوم الحكمية ونظام العناصر الأرضية وعجائبها الحكمية والإلماع هناك إلى أن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة « البقرة » تزيد على ذلك بالإشارة إلى الاستفهام التقريري في مسألة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ومسألة إبراهيم والطير والعزير. فهناك قد جاء القول بلفظ ﴿ الٓمٓ ﴾ في أوله.

ولكن هذا المقام أبدع بياناً وأعجب نظاماً وأعدل ميزاناً وأحسن صنعاً وأبدع وضعاً، وذلك من ناحية الآراء الاستنتاجية التي فهمتها، والعلوم الحكمية التي منها عرفتها، لا من حيث نفس الآيات القرآنية، فإنها كلها منظمة موزونة، هي آيات الكتاب، وسترى إيضاح هذا المقام في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى، ويسرك منظره من جمال الصنع وبدائع الحكمة ونظام الجمال والجلال.

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: قسم بالقرآن ذي الحكمة ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين هم ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريقة مستقيمة، نزل القرآن ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بخلقه. أرسلت ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ أي: غير منذر آباؤهم قبلك ﴿ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ أي: فبقوا غافلين ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ ﴾ لقد وجب القول بالسخط والعذاب ﴿ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ذلك لأن الله جعل استعدادهم كذلك فقلوبهم طبع عليها، وهذا يفيده قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ جمع غل ﴿ فَهِىَ ﴾ أي: الأغلال واصلة ﴿ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ ملزوقة إليها ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ مرفوعة رؤوسهم. ذلك لأن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يمكنه من أن يطأطئ رأسه فلا يزال مقمحاً، وهذا كله تمثيل أي: منعناهم بموانع عن الإيمان تشبه ما ذكر، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ شبههم بمن أحاط بهم سدان فغطيت أبصارهم بحيث لا يرون ما أمامهم وما خلفهم فهم محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات، وتكون نتيجة ذلك ما بعده، وهو ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لأن من يرد الله إضلاله لا ينفع تخويفه ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي: لا ينفع إنذارك إلا من اتبع القرآن ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وهو لا يراه ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ لذنوبه ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ للبعث ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾ من خير وشر ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ أي: ما سنوا من سنة حسنة أو سيئة ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ ﴾ من أعمالهم وغيرها ﴿ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ كتبناه في اللوح المحفوظ. ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ أي: اجعل لهم صفة أصحاب القرية صفة. ثم أبدل من « أصحاب القرية » « إذ » من قوله: ﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهل القرية وهي أنطاكية ﴿ إِذْ ﴾ بدل من « إذ » الأولى ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: أرسل عيسى بأمرنا اثنين وهما « يوحنا » و« بولس »، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار، فسألهما عن حالهما، فقالا: نحن رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن وشفي ابنه المريض إذ مساه، فآمن وفشا الخبر في المدينة بأن الأبرص والأكمه يشفيان على أيديهما، فشكاهما الناس إلى الملك فحبسهما، ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكراً وعاش مع حاشية الملك وصار من أصحابه، واحتال في ذكر قصة الرسولين أمام الملك، وقال له: اسمع ما يقولانه فدعاهما الملك فحضرا، فسألهما شمعون فوصفا الله بالتوحيد والقدرة. ثم أتى بغلام مطموس العينين فدعوا الله له فشق له البصر. فأما الملك فاعترف بأن إلهه لا يسمع ولا يبصر، وهكذا حيي ميت مضى له سبعة أيام بدعائهما، فآمن قوم وكفر قوم، وصاح جبريل بمن لم يؤمن فهلكوا وهذا قوله تعالى:

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أي: يوحنا وبولس ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ فقوينا بثالث وهو شمعون ﴿ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي: لا مزية لكم علينا ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ وحي ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ في دعوى رسالته، فاقتضت الحال زيادة التأكيد لزيادة الإنكار ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ هذا استشهاد بعلم الله وهو يجري مجرى القسم ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ تشاءمنا بكم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ ﴾ عن مقالتكم ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أي: سبب شؤمكم معكم وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ أي: أتشاءمتم بأن ذكرناكم وخوفناكم بالله ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أي: في ضلالكم وشرككم متمادون في غيكم ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ وهو حبيب النجار ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فأنتم لا تخسرون شيئاً من دنياكم وتربحون صحة دينكم فيحصل لكم خير الدنيا والآخرة، فقالوا له: أتبرأت من ديننا ودخلت في دين عدونا؟ فقال لهم: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ خلقني ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الموت ﴿ ءَأَتَّخِذُ ﴾ أأعبد ﴿ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ من دون الله بأمركم ﴿ ءَالِهَةً ﴾ أصناماً ﴿ إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ ﴾ إن يصبن الرحمن بشدة عذاب ﴿ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي: لا تدفع عني ﴿ وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ من المكروه ﴿ إِنِّىٓ إِذًا ﴾ إن عبدت من دون الله شيئاً ﴿ لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ خطأ بيّن ﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك، فلما قال ذلك وثب القوم عليه وثبة رجل واحد فقتلوه. فلما لقي الله ﴿ قِيلَ ﴾ له ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فلما دخلها ورأى نعيمها ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ تمنى أن يعلم قومه أن الله غفر له وأكرمه. وقيل: إنهم لما هموا بقتله رفعه الله إلى الجنة على ما قاله الحسن، فقال ما تقدم، ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد إهلاكه أو رفعه ﴿ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ وهم الملائكة لإهلاكهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾ وما كان يصح في حكمتنا، ذلك لأن إهلاكهم أيسر مما يظنون ﴿ إِن كَانَتْ ﴾ العقوبة ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ صاحها جبريل ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾ ميتون كما تخمد النار ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ﴾ أي: تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك فحقك أن تحضري فيها، وهي حال استهزائهم بالرسول ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ ألم يعلموا، وهو معلق عن المفعولين بـ«كم» في قوله: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾، وقوله: ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ بدل من «كم»، والمعنى ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إلينا ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي: وما كل إلا مجموعون محضرون عندنا للحساب، وهذا على قراءة «لَمَّا» بالتشديد. فأما المخففة فالمعنى أن كلهم محشورون مجموعون الخ. ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ بالمطر ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا ﴾ من الأرض ﴿ حَبًّا ﴾ جنس الحب ﴿ فَمِنْهُ ﴾ من الحب ﴿ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا ﴾ في الأرض ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ بساتين ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ أي: ثمر ما ذكر وهو الجنات ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

نعمة الله تعالى ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾ الأصناف والأنواع ﴿ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ من النبات والشجر ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الذكر والأنثى ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وأزواجاً مما لم يطلعهم الله عليه ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ تدلهم على قدرتنا ﴿ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ ﴾ ننزع ونكشط ﴿ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ داخلون في الظلام ﴿ وَ ﴾ آية لهم ﴿ ٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ لحد لها مؤقت تنتهي إليه من فلكها وهي نهاية العالم أو نهاية ارتفاعها في زمن الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء. وهذا لا ينافي قراءة ابن مسعود « لا مستقر لها » أي لا قرار لها ولا وقوف، فهي جارية أبداً إلى يوم القيامة تنتهي كل يوم في مرأى العيون إلى المغرب، وتنتهي مدة السنة وتنتهي مدة ارتفاعها ومدة انحطاطها ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الجري المنتظم العجيب ﴿ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ الغالب المحيط علمه بكل معلوم ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ ﴾ أي: قدرنا سيره ﴿ مَنَازِلَ ﴾ أي: جعلنا له منازل كما جعلنا للشمس، وهي ثمانية وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في واحدة منها ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر. فإذا كان آخر منازله رق وتقوس، وهذا قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ وهو العود الذي عليه الشماريخ إذا أتى عليه الحول فتقوس واصفر ودق. وهذه الصفات الثلاث تكون للقمر عند انتهاء المنازل ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ ﴾ أي: لا يصح لها ولا يتسهل ﴿ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾ في سرعة سيره، أو لا يتسهل لها أن تجتمع معه في وقت واحد وتداخله فتطمس نوره، لأن لكل منهما سلطاناً في وقت خاص، فسلطانه بالليل وسلطانها بالنهار ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي: ولا يسبق الليل ـ أي آيته وهو القمر ـ آية النهار فيحل سلطانه محلها. كلا، لأنهما يجريان بحساب منظم ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من الأرض والشموس والأقمار ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ كما يسبح السمك في الماء. فالشمس في مدارها حول كوكب من كواكب الجاثي على ركبتيه ولا يدري مدة دورتها، والأرض تجري حول الشمس في سنة وحول نفسها في يوم وليلة، والقمر يجري حول الأرض كل شهر. ولما كانت مسألة الأرض صعبة الفهم على النوع البشري قديماً قدمها في الذكر وفصل بينها وبين الشمس والقمر بجمل حتى لا يقال إنها داخلة في الكلية فيتنافى ما عرفه الناس إذ ذاك، وأتى بلفظ ﴿ كُلٌّ ﴾ للدلالة على دخولها ليتفطن لها الناس في هذه الأعصر، وليعلموا أن الله خبأ لهم الحكمة في القرآن ليستخرجوها مطبقة على الكشف لئلا تقف عقول المسلمين عن السير في العلوم خيفة أن تنافي كلام ربهم. وليعلم الذكي أن هذه الرموز وضعت في القرآن ليبشر بها المسلمين أن هذا زمان رقيهم وليسوا كالأمم المسيحية الذين ارتطموا أمداً طويلاً في الجهالة، وهم أذلاء جهلاء متوحشون، فلم يخرجهم من وحشيتهم وجهالتهم إلا نهضة المسلمين وحروبهم المتوالية معهم في الشرق بالحروب الصليبية وفي الغرب بالحروب الأندلسية والحروب في القسطنطينية، إنه لم يخرجهم من مأزقهم إلا احتكاكهم بأمم الإسلام لأن دينهم ليس فيه ما به يخرجون من الجهالة من الإشارات للعلوم، أما المسلمون أيام تأليف هذا الكتاب فهم على بينة من ربهم، فقد ظهر في هذا التفسير أن القرآن كتاب حكمة وعلم تصريحاً وتلويحاً، وإذا جاءت شبهة ففي القرآن حلها، حتى لا يقف المسلمون زمناً ما عن الرقي مثل ما نحن بصدده، وأقول: سيقرأ هذا التفسير المسلمون ويصعدون بمدنيتهم إلى العلا في أقرب زمن، هكذا قضى الله وهكذا سيتم وهو

الحكيم العليم . انظر كيف يقول : ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ ، ومعلوم أن السبح للسمك أليق ، مع أن الفلك القديم قد جعل الكواكب مركوزة في الفلك أو في تدوير الفلك على ما تراه في اصطلاحات القدماء ، فليس للكوكب أن يسبح من تلقاء نفسه ، بل لا بد له من حامل يحمله ، وذلك الحامل هو الذي يدور به ، فالكوكب مستحيل عليه السباحة ، وكيف يسبح ما لا حرية له ولا قدرة له على الاستقلال في السير ، بل هو محمول هكذا كان في الفلك القديم ، ولست أطيل لك فيه لأنه معقد ولا يفيدك ، إنّما الذي يفيدنا أن جميع الكواكب تسير على الرأي الحديث في مدارات ، وتلك المدارات في عالم الأثير ، فهي إذن كأنها سمك في بحر .

هذه حقيقة مدارات الكواكب في العلم الحديث . وهذا هو الذي نطق به القرآن . انظر انظر إلى كلام المفسرين رحمهم الله كيف تراهم يقولون في ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ يسيرون ، وذلك لأن الفلك القديم المشهور إذ ذاك لم يكن فيه للكواكب سبح ، فاعجب للقرآن كيف أتى بالكشف الذي يسميه الناس حديثاً ، وقد شرحناه بعض الشرح في سورة « يونس » ، وهو مشروح ببسط في كتابي « جواهر العلوم » وانظر كيف أعقب ذلك بذكر السفن السابحة للمناسبة بينهما ، وأن كلًّا له طرق لو تركها اختل في جريه وكل سابح في مداره ليؤكد للمسلمين بهذا التناسب أن الكشف الحديث يناسب القرآن أشد المناسبة ، ويشير لهم من طرف خفي أن يجدّوا في المعقولات والبحث ، فالقرآن أمامكم لا ينفر من المعقولات ولا يأنف إلا من الخرافات والجهالات ، فقال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ أي : الموقرة أو المجهزة المملوءة التي فرغ من جهازها ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ من مثل الفلك ﴿ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر ، وقد حمل بعضهم السفينة على سفينة نوح ، والذرية على الآباء ، لأنها من الأضداد ، وما يركبون مثله هي السفن والزوارق . وربما كانت إشارة إلى الطيارات اليوم ، فهي في الهواء كالفلك في البحر ، ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ في البحر ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ فلا مغيث ، أو فلا إغاثة ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ لا ينجون ، أي : لا ينقذون إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل ، فقوله : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ منصوبان على المفعول له ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ أي : ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر مما أنتم تعملون من بعد ، أو من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها ، وما خلفكم من أمر الساعة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي : لتكونوا على رجاء رحمة الله ، وجواب الشرط محذوف ، أي : أعرضوا ، وإنّما جاز حذفه لأن الجملة التي بعده تدل عليه ، وهي قوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ معناه أن دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة ، ولا فرق عندهم في الإعراض بين العقائد وبين الأعمال ، ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ على الفقراء ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بالصانع وهم المعطلون ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ تهكماً بهم من إقرارهم وتعليقهم الأمور بمشيئته ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ على زعمكم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ في خطأ بيّن ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يعنون وعد البعث ﴿ مَا يَنظُرُونَ ﴾ ما ينتظرون ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ ﴾ وهي النفخة الأولى ﴿ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يتخاصمون في متاجرهم

ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم أمرها، وأصلها «يختصمون» فسكنت التاء وأدغمت ثم كسرت الخاء، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيروا حالهم، بل يموتون حيث تبعتهم الصيحة ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ مرة ثانية ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور جمع جدث ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يسرعون ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أي: من أنشرنا من مضجعنا وقوله: ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ خبر، أي: تقول الملائكة أو بعضهم لبعض أو بعض المؤمنين لبعض: هذا الذي وعده الرحمن والذي صدق فيه المرسلون ﴿إِن كَانَتْ﴾ النفخة الأخيرة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب، ثم يقال لهم في ذلك اليوم: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ كضيافة الله والنظر إلى وجهه الكريم حتى ينسوا كل نعيم سواه، وكزيارة بعضهم بعضاً، وسماع الأوتار وما أشبه ذلك، وكل منهم يستلذ بما كان أهله في الدنيا ورفعة وضعة، وقوله: ﴿فَاكِهُونَ﴾ أي متلذذون في النعمة من الفكاهة ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظل كشعاب، أو ظلة كقباب ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على السرر المزينة ﴿مُتَّكِئُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يدعون به لأنفسهم من الدعاء أو يتمنونه، تقول: ادع على ما شئت، أي: تمنه، ولهم ﴿سَلَامٌ﴾ يقوله الله ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أو يقال لهم قولاً كائناً من جهته، أي أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً. ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: وانفردوا عن المؤمنين، وذلك حين يسار بهم إلى الجنة، ومن جملة ما يقال لهم تقريعاً: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ العهد: الوصية، إذ عهد الله إليهم بما ذكر فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع ألا يعبدوا الشيطان بالإصغاء إلى وسوسته وتزيينه، كما جاء في الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]؛ إذ فسر ذلك بأنهم يشرعون لهم الشرائع ويسنون لهم السنن، فهنا إصغاء للوسوسة وهناك اتباع للشرائع المزيفة، ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ عطف على «أَلَّا تَعْبُدُوا»، ﴿هَٰذَا﴾ الذي عهد إليك ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ بليغ في استقامته ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ بضمتين أو كسرتين واللام مشددة فيهما، أو كرسل أو قفل لغات، ومعناه الخلق في الجميع ﴿كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا ﴿اصْلَوْهَا﴾ ادخلوها ﴿الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ تجحدون بها وبالكتاب وبالرسل ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ نمنعهم من الكلام ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. يروى أنهم يجحدون يوم القيامة ويخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم، وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي، فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل».

واعلم أن هذا القول هو الذي يطابق العقل وعلم الحقيقة على التحقيق، ألا ترى رعاك الله أن الإنسان في الدنيا وهو في هذه الدار المملوءة أكاذيب وشروراً ونفاقاً يخجل، فتظهر في وجهه الحمرة

ويوجل فيصفرّ، ويتخذ القضاة من ذلك أدلة على إدانة المتهم، وترى بعض الناس يقصون أثر الجناة ويتبعونهم في السهل والجبل حتى يصلوا إليهم فيقدمون للقضاء، وهكذا أيدي المجرمين يختم بها على الورق فلا تشابه يد يداً، وإذا كان هذا في عالمنا الجسماني فما بالك بالنفوس التي هي من عالم الأرواح فإن لكل ذنب أو عمل حسن أثراً في النفوس بحيث يتربى فيها الخير والشر، فإذا انفصلت الأرواح عن الأجساد ظهرت بهيئتها التي كانت عليها من شر وخير، وهذا قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء: ١٤]، فالنفس إذن هي الكتاب المكنون الذي لا غش فيه ولا كذب، فإذا صمت اللسان نطقت الجوارح كما نطقت في الآثار اليوم في الدنيا، ولكن هناك نطقها أفصح وعملها أكمل وعلاماتها أتم. وفي حديث مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا: لا يا رسول الله. وهكذا قال وقالوا في القمر ليلة البدر، قال: فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما»، ثم شرح في الحديث لقاء العبد ربه إذ ذاك إذ يقول له: «ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل»؟فيقول العبد: بلى. ويقر بأنه ما كان يظن لقاء الله، وهكذا الآخر. ثم يقول آخر: يا رب آمنت بكتابك، الخ، فيختم على فيه، إلى آخر ما تقدم. انتهى ملخصاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لمسخنا أعينهم حتى تصير ممسوحة ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فاستبقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه، وهو منصوب بنزع الخافض ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي: فكيف يبصرون حينئذ وقد طمسنا أعينهم، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ قردة أو خنازير ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: في مكانهم، وقرئ: «مكاناتهم» أي: لمسخناهم في منازلهم حيث يجترحون المآثم والكفر ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء أو مضياً أمامهم ولا يرجعون خلفهم ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ نطل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه حتى نرده إلى أرذل العمر ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: من قدر على ذلك تدريجاً قدر على الطمس والمسخ فجأة، ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ رد لقولهم: إن محمداً شاعر، فلا لفظه موزون ومقفى كالشعر، ولا معناه مما يتخيله الشعراء، كما تقدم بيانه في سورة «الفاتحة» من الموازنة بينه وبين القرآن، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصح له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قرضه، لأن الشعر سجية في النفس وصعب على الإنسان ما لم يعود، فليس كل الناس شاعراً ولا كل من أراد الشعر تيسر له، كيف لا وما كان ينبع من العرب في كل قبيلة إلا شاعر أو شاعران، وتصنع له الولائم متى ظهر، فهو كالجمال لا يخلقه الإنسان في نفسه فكيف يتأتى لمحمد، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وإرشاد ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ كتاب سماوي يتلى في المعابد، وظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآن ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً فهماً ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قابلهم بالأحياء إعلاناً بأن الجهل والكفر موت كما أن العقل والعلم حياة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مما تولينا إحداثه وحدنا ﴿أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ متملكون متمكنون من ضبطها ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ صيرناها منقادة لهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبهم أو ركوبتهم في قراءة أخرى، وهي

بنفس المعنى كالحلوب والحلوبة ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أي : ما يأكلون لحمه ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ من الصوف والوبر والشعر والجلد ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ من اللبن جمع مشرب بمعنى المصدر ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ نعم الله في ذلك . فلولا خلقه لها أولاً وتذليله لها ثانياً ما أمكن تحصيل هذه المنافع ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ أشركوها به في العبادة بعد علمهم بتلك النعم الظاهرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاء أن ينصروهم فيما نابهم من الأمور مع أن الأمر ليس كذلك لأنهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ ﴾ لآلهتهم ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ أي : الكفار جند الأصنام يغضبون لها ويحضرونها في الدنيا وهي لا تنصرهم وهم جندها أيضاً في الآخرة ، إذ يؤتى بكل معبود من دون الله ومعه أتباعه الذين عبدوه في الدنيا كأنهم جند محضرون في النار .

واعلم أن هذا هو مقتضى علم هذه الدنيا ، فإنك ترى أن الهواء لا يكون موضع الماء والماء لا يكون موضع الهواء ، والأرض لا تكون موضع واحد منهما ، وترى الفلينة إذا وضعت قطعاً منها في الماء تتجاذب ويجذب الأكبر الأصغر أكثر مما يجذب الأصغر الأكبر ، هكذا القلوب تتجاذب وتصير كل طائفة مع بعضها ، كما ترى الطيور والوحوش في الفلوات ، والحشرات في الحقول والغابات ، وفي الحديث : « أنت مع من أحببت » ، فالعالم كله سائر بالعشق في المادة وفي الروح والقلوب شواهد ، ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ في الله بالإلحاد والشرك ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فنجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتسلى به ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : جدل بالباطل بين الخصومة ، كأنه قيل : العجب من جهل الإنسان كيف يخاصم ربه ولا يتفكر في بدء خلقه ومهانة أصله وأنه من نطفة قذرة . نزلت في أبي بن خلف ، خاصم النبي صلى الله عليه وسلم في إنكار البعث وأتاه بعظم قد رم وبلى ففتته بيده وقال : أترى يحيي الله هذا بعد ما رمّ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم . ويبعثك ويدخلك النار وهذا قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ بدء بأمره ﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ بالية ، أي : وضرب لنا مثلاً في إنكار البعث بالعظم البالي حين فتته بيده وتعجب ممن يقول إن الله يحييه ، ونسي أول خلقه وأنه مخلوق من نطفة ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : بتدأ خلقها ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلم تفاصيل المخلوقات وأجزاء الأشخاص المفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ كالمرخ والعفار فمن أراد النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار فتخرج منهما النار بإذن الله تعالى ، تقول العرب : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، أي : استكثر منها ، وذلك أن هاتين الشجرتين من أكثر الشجر ناراً ﴿ فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ تقدحون فتوقدون النار من ذلك الشجر . ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أي : وهو القادر على ذلك ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ يخلق خلقاً بعد خلق ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بجميع ما خلق ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ ﴾ أي : إنما شأنه ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن ﴾ أي : تكون ﴿ فَيَكُونُ ﴾ أي : فهو يكون أي يحدث ، وهذا تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة ،

﴿ فَسُبْحَانَ ﴾ أي: تنزيه بما وصفه بـه المشـركون وتعجب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ ﴾ ملك ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وزيادة الواو والتاء للمبالغة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تعادون بعد الموت. انتهى التفسير اللفظي وهو الفصل الثاني من السورة.

الفصل الثالث

في ذكر ما كنت فسرتها به منذ سنين لتكون ماثلة معانيها أمام القارئ ملخصه مجتمعة

مقاصد سورة يس

(١) ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم حق ما أرسل به وأنه نذير للأميين وغيرهم.

(٢) بيان أن المنذرين صنفان: صنف يئس من صلاحه، وآخر سعى لفلاحه.

(٣) تبيان أن أعمالهم تحصى عليهم ولهم فتكتب آثارهم وتحصى أخبارهم.

(٤) إيضاح المقصدين السابقين بقصص حبيب النجار وقومه بأنطاكية إذ حكم عليهم بالكفر وله بالإيمان، فقتل فدخل الجنة بما قدم من الإيمان والإرشاد وهلك قومه.

(٥) الدليل الطبيعي العقلي على البعث بعد التاريخ من العوالم السفلية وجناتها والعوالم العلوية وكواكبها وتبيان لقدرة الله ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة.

(٦) جزاء الفريقين في الآخرة وهو فصلان:

الأول: بيان كفران الجاحدين هذه الأنعم وسرعة أخذهم أخذ عزيز مقتدر وندمهم عند معاينة العذاب.

الثاني: الجنة ونعيمها وما أعد للمؤمنين فيها.

(٧) توبيخ الكافرين على ما ارتطموا فيه من الجهل واتباعهم الشياطين.

(٨) ثلاثة فصول لثلاثة أغراض سبق في السورة شرحها بأسلوب آخر، وذلك ليستدلوا بما يعلمون من أنفسهم أعمالهم الخاصة بهم:

الفصل الأول: قدرته على مسخهم في الدنيا وطمس أعينهم وأبرز لذلك دليلاً من الأنفس وهو تنكيس خلق المعمر من الناس، وهذه تقابل قصص حديث أهل أنطاكية، فذاك في الآفاق وهذا في النفس.

الفصل الثاني: الانتفاع بالأنعام من مأكل ومشرب وملبس. وهذه نعم راجعة لأنفسهم في مقابلة ما أنعم من نعم عامة من الأرض وجناتها والشمس وأضوائها والكواكب ودورانها والسفن وغيرها من النعم العامة، فمن لم يشكر على النعم العامة فما باله لا يفقه ما يزاوله منها بنفسه.

الفصل الثالث: إثبات البعث بما يعانون لخاصة أنفسهم من الزناد إذ يقدحونها فيستخرجون نارها. أفلا يستطيعون السبيل للهداية مما يزالون لما يعود على أنفسهم بالمنافع إن جهلوا ما كان مشتركاً نفعه من الأرض والسماوات.

وهذا هنا كما ختم السورة السابقة بجوهرتين زهراوين وياقوتتين حمراويين من إتقانه النظام وإصلاحه العام ومن تدمير الناس وإفسادهم في الأرض، فهو مصلح وهم مفسدون، ولقد كانوا خلفاءه في الأرض، وما أجدرهم أن يتخلقوا بأخلاقه ويسيروا على الصراط المستقيم.

وإيضاح الأولى أنه عز وجل نظم جواهر النجوم المزهرات والكواكب السيارات، وربطها بأسباب فدارت، وأرسل لها من لدنه رحمة فأمسكتها، ومحبة فحفظتها، فدارت في مداراتها وجرت في أماكنها واجتذبها جذباً لطيفاً بمواسك من التعاشق يسميها علماء المحسوسات جاذبية. تمسكهم لئلا تزول عن مداراتها وتختل في نظامها، ولولا ذلك لتفرقت أيدي سبأ، وطاحت شذر مذر، فباد الوجود وهلك الموجود، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[فاطر: ٤١].

وإيضاح الجوهرة الثانية أن الناس أفسدوا وما أصلحوا وعجزوا أن يعقلوا عجائب النظام وبدائع الإتقان، فاتخذوا لله أنداداً وعبدوا أوثاناً فباؤوا بالغضب صاغرين ورجعوا بالمقت محرومين، وإذا عاهدوا عهداً نبذوه وإن حلفوا أن يتبعوا رسولاً إن جاءهم لم يتبعوه، وطباعهم الكبرياء وشأنهم الإباء فهلا ساروا في الأرض فدرسوا أحوال الأمم الظالمة والأجيال البائدة، ألا إن عاقبة البغي لهم ودائرة السوء تدور عليهم، ولولا رحمة واسعة أحاطت بهم لأبدنا كل نسمة ولكننا نؤخرهم إلى أجل معدود لأن رحمتنا أوسع وفضلنا أعم، فليتمتعوا أياماً في ساحات رحمتنا، ولنوردهم موارد الهلاك بعدلنا جرياً على ناموسنا العام وعدلاً في النظام، و ذلك قوله تعالى في سورة «فاطر»: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾[فاطر: ٣٩]، إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾[فاطر: ٤٠]، وقوله: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾[فاطر: ٤٢] إلى آخر السورة، وهم كانوا أكثر منهم عدداً وأعز نفراً، طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بطوله، فتلك بيوتهم خاوية وجماعاتهم فانية للأقدار جاثية.

المقصد الأول

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾

ابتدأ الله عز وجل السورة بإثبات رسالته صلى الله عليه وسلم وتوثيق عرى نبوته وتأييد دعوته وتبيان أن القرآن أنزل عليه من ذي العزة والقهر والرحمة والفضل، توطئة لما ستسمع من قصص الظالمين، وتفصيل بدائع الخلقة الشاملة آثارها، الفائضة أنوارها.

المقصد الثاني

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾

لما أثبت الرسالة والمرسل به شرع يشرح حال المرسل إليهم من أهل الدعوة إذا هم فريقان.

فأما أحدهما فأحاطت به خطيئته وأرهقته ذلته وفقد إيمانه وأوثقه طغيانه، فمثله كمثل من ضم الغل يديه إلى ذقنه فلا يستطيع حراكاً، أو كمثل الذي سدت عليه المسالك وأحاط به السدان من خلفه وأمامه، ثم غشي على عينيه فسدت عليه الطرق في نفسه بالعمى وفي الآفاق بالسدين. ومن التعذيب تهذيب الذيب.

وأما الآخرون فهم الذين اتبعوا الذكر وخشوا الرحمن في خلواتهم، فأولئك لهم البشارة والرزق الحسن. ولا جرم أن الفريقين يرتقيان جزاء وفاقاً، و ذلك في المقصد الثالث.

المقصد الثالث

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)﴾

ولا جرم أن للمقدمات نتائج. وللأسباب مسببات. وللشجرات ثمرات. وللمبادئ نهايات. والقسمان المذكوران تحصى أعمالهما وتسطر أحوالهما ويحييان بعد موتهما وتعرض عليهما ما عملا من خير قدماه ومن شر جنياه. ولما أن سجل ما ذكر عليهم أخذ يشرح ذلك بالقصص، وهو المقصد الرابع.

المقصد الرابع: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (١٣)﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾

لما تبين أن لكل حظاً مما جناه، وقسطاً مما اقترفه، من خير وشر، وأن الكتاب أحصى أعمالهم وأظهر أخبارهم، أخذ يوضح ذلك بالقصص. ويبينه بالتاريخ، ويثبته بالشواهد، كشفاً للمقام وتثبيتاً للبرهان، ففصل خبر أصحاب المسيح عليه السلام من الحواريين، إذ جاء اثنان منهم إلى أهل أنطاكية ودعوهم للإيمان، فجلدوهما مائة جلدة وسجنوهما، فجاء الثالث «شمعون» واحتال على أرباب الدولة وعظماء الأمة والملك المطاع وأرباب الضياع أن يستنطقوهما ولا يؤذوهما، فأخرجوهما منه وظهرت الخوارق على أيديهما من إحياء الميت وإبراء الأكمه، ثم نكسوا على رؤوسهم وآذوهم. فجاء حبيب النجار الذي كان أسلم من قبل لما شفي ابنه بدعائهما، فقتلوهم أجمعين ورموهم في الرس ميتين. فهؤلاء هم أصحاب الرس. فهلك حبيب النجار ودخل الجنة وهلك قومه وأدخلوا النار. فهذا القصص يدعو للاعتبار بالأمم البائدة والأجسام الهامدة، إذ كفروا فبادوا وكتبت آثارهم ووعيت أحوالهم وحفظت في كتاب ليوم المآب. فما أجدر العباد بالحسرة. جهلوا الرسل. ومصير الدول. إن كل إلا لدينا محضرون. ولئن لم يؤمنوا بما يسمعون. ولم يعقلوا ما يقرؤون في الكتب السماوية، والأخبار المروية، والكلمات اللفظية، والجمل الحكمية، فهلا درسوا الكلمات العالية والعلوم الشافية مما كتبناه بأيدينا في طروس السماوات وألواح الفلوات وفوق الجبال الراسيات وتحت البحار الجاريات، وهو المقصد الخامس، وهو حكمة الحكماء ودرس الكبراء وأدب العلماء.

المقصد الخامس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾

ألم تر إلى الأرض اليابسة أنزل الله عليها الماء فنبت زرعاً وشجراً فكان الحب والثمر والجنات والأعناب، وفجرت الأرض عيوناً، وفي الأرض أزواج النبات والحيوان والإنسان فمنها الذكران والإناث، وما من نبات إلا وفيه ذكر وأنثى، كما يرى في الذرة والقمح كما تقدم في «الفاتحة». ومن عجب تفجير العيون من الجبال، ألم تر كيف برد الماء في الجبال فصار ثلجاً فكبر حجماً فضغط الحجارة فانفجر ماء. ذلك أن الجبال مخازن للماء والعين برنازها وصنبورها، والوادي مجراها، والأشجار والنبات منتهاها. وانظر الشمس والقمر والليل والنهار كيف نظم الميقات وحفظ الحساب. وإذا سلخنا النهار عن الليل بدا عارياً وظهر أسود قاتماً. وترى الشمس جارية إلى مداري السرطان والجدي وهما

منتهاها. والقمر يجري في ثمانية وعشرين منزلة لا يتقدم عن وقته ولا يتأخر عما رسم له، فهو أبداً مسخر مطيع بجريه السريع، وكيف غفل الإنسان عن الحساب وسها عن درس الميقات.

حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمنتسج

ما للناس يعيشون ولا ينظرون، وإن نظروا لا يذكرون، وإن ادكروا لا يدرسون، وإن درسوا لا يحسبون، وإن حسبوا لا يتغلغلون في باحات العوالم العلوية والسفلية. الشمس طالعة غارية، والقمر في ذهاب وإياب، فهلا درسوا علم الفلك وفهموه واطلعوا في الأرصاد فكشفوه. إذن يعلمون أن الشمس لا تدرك القمر في دورانه، ولا يسبق الليل أوانه. فالليل والنهار بحسبان. والشمس والقمر يسجدان. ألا ترى أن الشمس في جريها دائبة على قانون لا تتعداه. وسائرة على صراط لا تتخطاه.

انظر وفكر. أنت تعلم أن الفصول أربعة: الخريف والشتاء والربيع والصيف. وأول فصل الخريف في نصف شهر توت في برج الميزان، إذ يستوي الليل والنهار في المقدار، وهناك يزيد الليل أبداً نصف درجة وهو دقيقتان، حتى إذا حلت ركائبها بساحة العقرب وزفت بموكبها إلى باحات القوس والأول في نصف بابه والثاني في نصف هاتور، فهنالك يزيد الليل كل يوم، في الأول ثلث درجة، وفي الثاني سدس درجة، فتكون الزيادة إذ ذاك ثلاثين درجة وهي ساعتان: ساعة في الميزان، وساعة في العقرب والقوس، وتنتهي الشمس إذ ذاك إلى أول فصل الشتاء، زمن يكون فيه الليل أربع عشرة ساعة والنهار عشر ساعات. وهناك يبتدئ فصل الشتاء في منتصف كيهك، فيتدرج الليل بالنقص والنهار في الزيادة، فسدس درجة كل يوم إلى منتصف طوبه وثلث إلى منتصف أمشير، ونصف إلى منتصف برمهات، وقد تنقلت في هذه الأبراج على التوالي وهي: الجدي والدلو والحوت، وهناك يتساوى الليل والنهار، وتحل الشمس ساحة برج الحمل، وهناك تسمى الشمس الكبيرة. وإذا نزلت البرج قبله وهو الحوت سموها الشمس الصغيرة، إذ يكون الليل ثلاث عشرة ساعة، وبحلول الشمس في الحمل يبتدئ فصل الربيع، ويزيد النهار نصفاً فثلثاً فسدس درجة على التوالي في البروج: الحمل والثور والجوزاء، من نصف برمهات إلى نصف برمودة إلى نصف بشنس إلى نصف بؤونة، وهناك تكون الشمس في مدار السرطان، ويبتدئ فصل الصيف ويأخذ النهار في النقص والليل في الزيادة بسدس فثلث فنصف درجة من نصف بؤونة إلى نصف أبيب إلى نصف مسرى إلى نصف توت في الأبراج الآتية وهي: السرطان والأسد والسنبلة، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]، وهذا الحساب تقريبي في القطر المصري.

فالشمس لا تفتأ تسير على هذا النمط لا تتعداه من يوم خلق الله السماوات والأرض إلى الأبد.

وهذا معنى سجودها لله، فـ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥-٦] ألا تعجب كيف سارت الشمس على هذا النظام فلا يتغير سيرها ولم تتأخر لحظة ولم تتقدم دقيقة بل جرت جريها المعروف أبداً وأمداً إلى يوم يبعثون. أليس الذي حسب نظامها وقدر جريها محيط بأعمال العباد.

وذلك قوله تعالى هنا: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝٤١﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٤٤﴾، وإذا لم تقو بصائركم على الاعتبار بكواكب السماء وسياراتها

وشموسها وأقمارها، فهاكم دلائل مما تعملون لتكون أقرب لأفهامكم وأسرع لعقولكم، فانظروا إلى السفن كيف أقدرناكم على صنعها، وجرت كما يجري السمك في البحر، وعلمناكم كيف وزنتموها بالخيزرانة «الدفة» فقامت مقام ذيل السمكة حتى تسير يميناً وشمالاً، وكيف عرفتم قاعدة «أرشميدس» التي بها تحملون السفينة ما تطيق، حتى لا يزيد جرمها وحملها عما أزاحت من الماء في جريها، ولولا ذلك لغرقتم، ولكنا نجيناكم في أسفاركم كما نجينا آباءكم الأولين من الغرق مع الظالمين، وهكذا فعلنا معكم في طياراتكم. أفلا تعقلون؟.

المقصد السادس

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) ﴾

إلى قوله

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) ﴾

يقول بعد أن عدد النعم التي خلقها، والحكم التي أودعها، والعجائب التي أبدعها، أنهم معرضون لا يسمعون الناصحون، ومهما رغبوا في الإنفاق على ذوي الإملاق احتجوا بالقضاء وقالوا: أليس ربكم أقدر على الإطعام وأرحم بالأنام. وجهلوا أن الحياة اختبار، والدنيا امتحان وابتلاء، فسنحضرهم للحساب ونأخذهم بغتة وهم في شقاق وسباب متخاصمين، فتأتيهم الساعة بغتة وتحل بهم الحسرة، فلا يودعون حبيباً ولا يوصون بمال، ولا يرجعون إلى أهلهم بحال، ثم يقومون وهم من كل حدب ينسلون، وآخرون في الجنة ناعمون، فلهم فيها ما يشتهون من الثمرات واللذات، وما تسر به أفئدتهم من اللذائذ المعنوية من سلامة وسلام، وهنا آن توبيخ الكافرين على التقصير وهو:

المقصد السابع إذ قال: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) ﴾

في هذا المقام امتاز المؤمنون من المجرمين، وقرع الله سبحانه الكافر على أن نبذ العهود، وكيف أضل الشيطان جبلّهم ـ بتشديد اللام ـ فهلا عقلوا إضلاله، هذه جهنم التي أغريتم بتكذيبها، فاليوم صمت الناطق وهو اللسان، ونطق الصامت وهي اليدان والرجلان، ولما كانت عناية الله بالناس شاملة ولطفه بهم أعم، أخذ يتلطف بهم في الإفهام، ليدخل في قلوبهم الإيمان، من طرق أقرب، ومسالك أقصر، مما يعملون ويشاهدون.

فتعجب كيف قدم في أوائل السورة قصص أهل أنطاكية إذ حاق بهم العذاب في الدنيا، ثم أتبعه بتبيان مبين من نظرة في العوالم العلوية والسفلية، ليعلم الإنسان بالعقل بعد ازدجاره وإزعاجه بالعذاب فهكذا هاهنا أخذ يعيد الكرة بمنهج أقرب ومعنى أدق، ذلك أنه قابل أول المعنيين بأنه أقدر على طمس الأعين حتى لا يبصروا، ومسخ الصور فلا يعقلوا ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ﴾[يس: ٦٦] الخ.

يقول: ليس العذاب قاصراً على إهلاك أمة وإبادة قبيلة. كلا. بل يتناول تشويه الأعضاء وطمس العيون ومسخ الصور ومحو العقول، كما نرى في الأمم التي عم جهلها فقل خيرها وزاد شرها، فإنهم ذوو صور مشوهة الباطن وإن كانت حسنة الظاهر.

ولما كان تصور ذلك عسراً على العامة صعباً على الجهلة، قربه بعد ذلك بما هو أوضح محجة وأبين حجة فقال: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[يس: ٦٨] إنا قادرون أن نمسخ صورهم كما غيرنا صور المعمرين، ونعكس صور العقول فتذل الأمة وتعيش في خزي فلا تموت في الدنيا ولا تحيا، وهذا هلاك أدنى كالهلاك الأبدي الجسمي في أهل أنطاكية، ولا جرم أن في هذا القول تصويراً للمعقول بوصف المحسوس، وإيضاحاً وإرشاداً، فلذلك نفى أن يكون القول شعراً والنبي صلى الله عليه وسلم شاعراً، فالشعر في الأكثر لم يكن لمثل هذه الأغراض الشريفة، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[يس: ٦٩] يفهمه العاقلون الأحياء ويجهله الغافلون الأموات، ثم قابل ثانيهما بذكر الأنعام وملكها وصوفها ولبنها وركوبها وتذليلها، فمن لم يعقل النظام العام من شمس وقمر وأرض ونهر مما لا يعقل نظامه العالي إلا الأذكياء. فلينظر فيما يزاوله من دابة يركبها وبهيمة يحلبها، أفليس ذلك يكفي دليلاً على وحدانيته وبرهاناً على قدرته، فأين الأصنام الميتة والأوثان الجامدة؟ تالله لا يستطيعون نصرهم ولا يملكون نفعهم.

ولم يبق إلا أدق الأدلة على المعاد ويوم الجزاء، فضرب له مثلين دقيقين: مثلاً من الأنفس الإنسانية، ومثلاً من أعمالها اليومية. فالأول أن التراب صار رجلاً والطين صور عقلاً. أليس ذلك عجباً؟ والثاني ترتب عليه فكان نتيجة ذلك أن الأجسام الإنسانية كالأشجار النباتية لها صور ظاهرة وأنوار باطنة. ولكم قد حتم الزندة والزند من الأشجار لا سيما المرخ والعفار، فأدرتم غصناً من المرخ في نقرة نقرتموها في غصن من العفار حتى أحدثت الحركة حرارة فاتقد شرارة فأنتم منه توقدون. وهل يعسر أن تتصوروا أن في أبنيتكم الجثمانية نفوساً نورية يكون لها شؤون وأي شؤون، كما اتقدت النار من شرر العفار ونفعت أمماً وكانت متاعاً للمسافرين ونضجاً للعجين، واصطلاء للمشتين، وتسخيناً للماء، وزجراً للقطار وللسفن في البحار. وإذا كانت الأشجار كالمرخ والعفار والزناد من الأحجار قد فعلت عظيماً وبقيت أجسامها بعد ذلك كثيراً فما بالكم بالإنسان؟ أفلا يرى أن له نفساً باقية وروحاً خالدة ستلقى جزاءها.

على أن الذي خلق الأرض والسماوات قادر على أن يحيي الأموات فما لكم لا تعقلون؟ إن كانت القدرة على الإحياء يعوزها كثرة الأعمال وضخامتها فهذه السماوات والأرض أو دقتها فهذه النار في الأشجار، أو مزاولتها من قبل فهاهي أجسامكم كانت مخلوقة من قبل وهو على إعادتها قادر فلم يبق إلا الإجلال والإعظام والإنصاف بالاعتراف، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس: ٨٣].

آيات العلوم في هذه السورة ٢٤ آية

من قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ (٧١)﴾ إلى قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ آخر السورة.

هذه الآيات (٢٤) تشير إلى هذه العلوم، «علم الزراعة، النبات، البساتين»، وفي قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[يس: ٣٦] الحث على البحث في العالم عما لم يعلم من الحيوانات المكروبية والنباتات الخفية، وهكذا الكرات البيضاء والحمراء في دم الجسم وغير ذلك، وعلم النفس وعلم التشريح ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[يس: ٣٦] وعلم الهيئة وعلم التقويم وبناء السفن والخطوط البحرية، ومعرفة الجهات لسير السفن، والنجوم والتيارات البحرية وخطوط البحار، وكل آلات السير من الآلات الجارية كالقطارات الجارية بالبخار والكهرباء، وذلك في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾[يس: ٤٢]، وعلم الأنعام وتربيتها.

آيات الأخلاق

ليس فيها آيات خاصة بالأخلاق إلا بطريق الإشارة والتلويح.

آيات الأحكام

من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

هذه آيات احتج بها الله تعالى على منكري البعث، فدحض دعواهم وأثبت أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر، وهذا دليل على أن رد الشبهة مشروع، فإن القرآن بالحجج كالبحر الزاخر لا يذر اعتراضاً للملحد ولا نكراناً للجاهل، بل يصدع بالحجة ويدحض الباطل ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، فلا جرم أن حرب اللسان والقلم أقوى من وخز السنان، وطعن الصارم، وفتك المدفع، وحصد الديناميت، يطيع بها العاصي، ويدنو بها القاصي، وتخبت لها القلوب وتخضع لها النفوس.

فعلى قادة الأمة نشر الفضائل، ودحض النقائص، وإذاعة أخبار الخير والشرف عن هذه الأمة ودينها، وإقامة الحجج على فضلها، فعلى كل امرئ أن لا يذر فرصة حتى يلهج بمحاسن الدين ويذب عنه في شرق الكرة الأرضية وغربها، وليعلم الصغار وهم في حداثة سنهم كي ينشروه وهم مستبشرون

انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع: في عجائب العلوم التي تشير لها هذه السورة

معنى ﴿يس﴾

اعلم أن ﴿يس﴾ حرفان ذهب العلماء فيهما كل مذهب، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «معناها يا إنسان في لغة طيء» ويقول غيره يا محمد، وقد علمت في سورة «آل عمران» أن هذه الحروف جاءت في القرآن لتذهب العقول فيها كل مذهب لا تختص بطائفة دون طائفة، ولقد ذكرت لك آنفاً أن هذه الحروف تحليل الكلمات، وليس في العالم المشاهد إلا اثنان: العناصر والحروف، فالعناصر منها تكون المركبات من حيوان ونبات وشمس وقمر، والحروف منها تكون الكلمات والجمل والخطب والنثر والنظم.

هذا ملخص علوم الإنسان على هذه الأرض. فهذه الحروف المذكورة في أوائل السور تبلغ ١٤ حرفاً وهي نصف الحروف الثمانية والعشرين، وقد تقدم هنا إيضاح حكمتها، والذي يهم في هذه السورة

بيان ذلك إشارة إلى أن الحروف قد حللت إليها الكلمات كما تحلل المركبات إلى عناصر. وكأن الله يقول لنا تأملوا الجمل والآيات أليست من حروف؟ وهل تعرف الجمل إلا بتحليلها إلى كلمات؟ وهل تعرف الكلمات صرفاً واشتقاقاً وكتابة إلا بمعرفة حروفها؟.

هذا في علوم اللغات. أما في علوم الآفاق المشاهدة فكذلك، إذ لا يعرف علم إلا بمعرفة حقائقه وإرجاع مركباته إلى أصولها كما ترى في هذه السورة، فإن خروج النار من الشجر الأخضر يرجع إلى علم الكيمياء وهو من العلوم الطبيعية، وتقدير القمر منازل يرجع إلى علم الفلك وهو من العلوم الرياضية، ويقول الله لنا: لا علم للناس إلا إذا حللوا المركبات في كل شيء. فيحللون المسائل الحسابية والهندسية والفلكية وكذلك المركبات الطبيعية.

الكلام على قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾

انظر في هذه الآية وتأمل كيف يقول الله للناس وهم لا يزالون في بداوتهم وأول تطورهم. انظروا واعرفوا ما تزاولونه من أعمالكم.

أيها الناس، تأملوا في العجائب البارزة أي التي سبقت في خواصها بحيث تلتفت إليها الأنظار. انظروا شجر المرخ والعفار كيف يكون الغصنان منهما يقطران ماء، فإذا حك أحدهما في نقرة من الآخر اشتعل ناراً، أليس هذا من العجب أن تروا النار والماء معاً، وكيف يجتمع الضدان الماء والنار، إن هذا الاجتماع يدعو إلى الفكر، فإن التعجب أول العلم، ومن تعجب في شيء فهو مشاق إليه، ومن اشتاق طلب، ومن طلب نال، ونظير هذا الأحجار، فإذا حك حجر على آخر انقدحت منهما نار وظهر شرر، أمر الله الناس بالنظر في هذا استدلالاً على سعة قدرته، وحث الناس قبل ذلك على الاعتبار بما ينتفعون به من دواب للركوب وأخرى لمنافع ومشارب، وأمر بالشكر عليها ووبخ من لم يشكر.

البدو والحضارة

كل ذلك والقرآن يقرأ في بادية العرب عند قوم أميين في حال البداوة. يأمرهم أن يستخرجوا البراهين من العجائب التي يرونها ويشكروا على كل ما انتفعوا به. هذا هو شأن القرآن. يخاطب الأميين. انظر ماذا حصل بعد ذلك؟ تطورت الأمة العربية خصوصاً والإسلامية عموماً. فماذا جرى؟ انتقلوا من البدو إلى الحضارة.

كان الإفتاء أولاً من صدور الرجال وفهم القرآن، كثر الناس، سكنوا المدن، نظموا الممالك والبرد والقضاء، فاضطروا إلى التأليف والتصنيف، ودونوا الدواوين، واختلفت طرق الاجتهاد فكانت مذاهب متشعبة كأغصان شجرة فيها الورق والزهر. ذلك كله في علم الفقه المستمد من آيات لا تزيد على مائة وخمسين آية، فقد ألف فيه مؤلفات ملأت خزائن وخزائن في بغداد وقرطبة ومصر وحلب، لماذا؟ لأن الفقه اضطر له الناس ليحفظ أحوالهم الاجتماعية، فهو في دين الإسلام كجسم، والجسم مقدم النظر فيه على النظر في الروح، وروح بجسم ضعيف ضعيفة، وأمة بلا قانون مشتتة. تمادى الناس في الفقه، واختص بالبحث في العالم وعجائبه أناس ودونوا الكتب، ولكنهم لم يكونوا في الكثرة ولا في نظر العامة كالفقهاء.

نبغت الأمة الإسلامية في الفقه تبعاً لنمو الحضارة حتى أمكن أن يستنتجوا من آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾[الحشر: ٢] ربع علم الفقه وهو القياس. جلّ الله وجلّ العلم هذا شأن آبائنا في علم الدين، وبعبارة أخرى سياج علم الدين وجسمه.

أما روح الدين الإسلامي فهي الأخلاق والعلوم الكونية. والدليل على ذلك أن الأخلاق نحو (٧٥٠) آية وكذلك العلوم، بل إن القسمين الأخيرين يشملان أكثر القرآن، فالقصص كلها أخلاق من حيث نتائجها وعلوم. لم يحث أكثر العلماء في القرون الأخيرة على علوم الأخلاق ولا علوم الآفاق. عرف آباؤنا الصوف والشعر والوبر والزناد، وكلمهم الله فقال: انظروا، تحضر آباؤنا، نظموا المدن، فتحوا مصر والشام وشمال بلاد أفريقيا، ولما فعلوا ذلك كله ملكوا الأندلس، ملكوا الهند والفرس، واتسع الفقه باتساع الملك، فكان مقتضى القياس أن يتسع علم الكائنات، وينتقل من لبن البقر وصوف الغنم ووبر الإبل وزناد المرخ والعفار إلى جميع العلوم الكيميائية والطبيعية، كما اتسع علم الفقه من القضايا الأولى المذكورة في القرآن، كآية المواريث وآية الدين وآية الوضوء والصلاة والزكاة إلى كتب ضخمة هائلة، وعلماء خصوا لذلك كان القياس أن يكون للعلوم الكونية من طبيعة وفلك ورياضة وسياسة رجال أكثر عدداً من علماء الفقه، ذلك لأن هذه العلوم بها يكون الغذاء والدواء والحياة، فأما علم الفقه فهو ضابط لما هو موجود، فعلم الفقه لحفظ ما نملك، ولكن لا نملك شيئاً إلا بهذه العلوم.

وما مثل الأمة التي تدرس الفقه وتنسى العلوم الأخرى إلا كمثل من يتغذى بالدواء، إن الدواء ليس غذاء، فلذلك يعيش مريضاً. لذلك ولغيره اضمحلت الممالك الإسلامية في أقطار الأرض، ولكن الله عز وجل لم يحلها من علماء قاموا بالأمر لا سيما المسيحيين والفارسيين، فقد نبغ كثير منهم في تلك العلوم، ولما آذنت شمس المسلمين بالغروب انتقل علم آبائنا في ذلك إلى أوروبا، والذي نقله هو الله. نقل البذرة فنمت هناك وأزهرت وأثمرت، فعل الله ذلك لأنه هو المهيمن على أهل الأرض وكلهم عباده وهو الذي يعلمهم، فلما انحطت دولنا في الشرق نقل علمنا إلى الغرب، فلما تم العلم هناك أخذ الغرب يطغى علينا وحاربنا بثمرات علوم آبائنا، والله هو الذي سلطهم علينا رحمة منه بنا لأننا إن كنا أهلاً للحياة اشتقنا فقرأنا فنبغنا وهو المقصود، وإن كانت الأمة لم تستعد لذلك فإنها تهلك والعياذ بالله تعالى، فموت البليد راحة له ولأهل الأرض، وحياة الذكي نفع له ولأهل الأرض، فمن هذا ترى أن شكوى الشرق من الغرب خطأ لأن الله هو الذي سلطهم، وإنّما سلطهم لرحمتنا إما بحياة علمية وإما بموت على شهادة، فأما إذا كان غير ذلك فيكون الناس في الأرض أشبه بمن في جهنم لا يموت فيها ولا يحيا.

علوم الآفاق في مستقبل الزمان في بلاد الإسلام

علمت أن أهل البادية من آبائنا كفاهم نظرهم العلمي فيما كان بأيديهم من منافع، وآمنوا ووحدوا وجاهدوا وملكوا الأقطار. لماذا؟ لأن الفطرة السليمة في البادية أقرب إلى الكمال، لم تدنس تلك الفطر المدنية، فلذلك قنعوا بما حولهم من علوم المادة، فكان العلم بما حولهم كافياً لإيمانهم كما كانت حاجاتهم المعيشية البسيطة كافية لأغذيتهم الجسمية.

ولا جرم أنه على مقدار انتشار المدنية واتساع المدن يحصل أمران: الأول: كثرة الحاجات، فتنشأ الصناعات الكثيرة والعلوم العظيمة. والثاني: أغشية العقول والشهوات والرذائل وأمراض الأخلاق التي تتكاثر بكثرة المدنية.

فهذان أمران متناميان معاً: كثرة الحاجات الجسمية في المعيشة، وتطلب العقول لحل المعضلات وإزالة الشكوك التي يولدها الترف والتنعم وانتشار الآراء المضلة التي لا يعرفها أهل البداوة. وإذن ترى أهل المدن مضطرين للعلوم الآفاقية لترقية المدنية والحاجة لها، ولتنمية العقول وارتقائها. ولما مال الميزان في الأمم الإسلامية ولم تتزن القوى العقلية والقوى الجسمية فيها انحطت كلها إلا قليلاً. فترى المسلم أينما حللت في الشرق أو الغرب موصوفاً بالنظافة لما اشتهر في علم الفقه من الوضوء والصلاة، ولكنه مشتهر بأنه جاهل. ولذلك لما رحل العلم إلى أوروبا رجعت إلينا تعاقبنا على جهلنا، العقاب من الله. فأوروبا تحاربنا وتحتل بلادنا لمنافعها وهي لا تعلم أن الله أرسلها رحمة منه لنا لنستيقظ لهذا الكتاب الذي نؤمن به ولندرسه حق دراسته. ومن دراسته دراسة هذه السورة، وفيها أن النار تتقد من المرخ والعفار، ومن هذه مع حرفي الياء والسين وأمور أخرى سيرجع للإسلام كرة أخرى مجده وعلومه. وسيكون في هذه الأمة من يقرؤون هذه العلوم على أنها دين، بل هي روحه وهي أصل التوحيد.

محاورات بين المؤلف وبين أحد العلماء

حضر اليوم وأنا أكتب هذا صديق حميم من أهل العلم. فقال: لقد أطلت في مسألة الشجر واتقاده ناراً وأدخلت كل شيء في شيء واحد، وهذا بعيد المنال ليس مما يعتاد احتماله ولا يقبل أمثاله. قلت: إن اتقاد النار في الأشجار رطبة أو غير رطبة من الظواهر الكيماوية. فقال: ما معنى كيماوية وما معنى طبيعية؟ فقلت: إذا تنوعت صفات الأجسام بتأثير مؤثر كالحرارة والكهربائية أو بتأثير بعض الأجسام؛ فهذا التنوع يسمونه «ظاهرة»، فإن غير هذا التنوع طبيعة الجسم وحوله من حال إلى حال سميت الظاهرة كيميائية. وإن لم يغير طبيعته سميت ظاهرة طبيعية.

فإذا أخذت قطعة من السكر ووضعتها في الماء فإنها تذوب فيه وتصير سائلة بعد الصلابة. فاستحالة قطعة السكر من الصلابة إلى السيولة ظاهرة طبيعية، لأن طبيعة السكر لم تتغير، لأنك إذا وضعت الماء الذي ذابت فيه قطعة السكر على النار رأيت الماء يتصاعد ويبقى السكر كما كان قبل ذوبانه. وإذا وضع السكر على الجمر المتقد مباشرة فإنه يحمر وتشم منه رائحة الخبز المحرق. فهذا التنوع يسمى ظاهرة كيميائية لأنه غيّر طبيعة السكر، وإذا حل السكر في الماء المضاف إليه عصير الليمون وسخن المحلول فإنه يصير مادة طعمها حلو سكري وتركيبها يخالف السكر المعتاد، وهذه المادة تسمى «جليكوز» وهي تكون في جميع الثمار السكرية الحمضية. فإذن استحالة السكر المعتاد إلى «جليكوز» بتأثير عصير الليمون يسمى أيضاً ظاهرة كيميائية. فمعرفة الظواهر الطبيعية في علم الطبيعة ومعرفة الظواهر الكيميائية في علم الكيمياء. فقال صديقي: فمن أيهما مسألة النار في الشجر؟ قلت: من الظواهر الكيميائية. قال: إذن تريد أن تستمر في شرح الأمور الكيمائية. قلت: نعم ما يناسب منها المقام.

قال : ولكن المعلوم أن علم الكيمياء علـم غير لذيذ ، وليس للطـالب إلا أن يحفظه عن ظهر قلب ، ففائدته غير موجودة ونحن الآن في تفسير القرآن . وإذا كانت المسائل الكيميائية تصعب على طلابها فما بالك بطلاب التفسير . فقلت : اعلـم أيدك الله أن الكيمياء وغيرها إذا درست في التفسير فإنها لا تدرس إلا بطريق مشوق لجمالها محبب للاطلاع عليها . ألا ترى إلى المثل « ليست النائحة كالثكلى » فذكر مسائل من هذا العلم هنا على سبيل عرض مناظر الجمال العلمي والنور الإلهي والحكمة العالية فما أشوق الطالب حين يطلع على ما سأورده الآن من جمال وبهاء ونور وعرفان .

نظرتي لهذا العالم وأنا طالب بالجامع الأزهر

إني أتذكر اليوم ما كان يجيش بخلدي ويهجس في نفسي إذ كنت طالباً بالجـامع الأزهر ، فلقد كنت أقف على شاطئ نهر يسمى « أبا الخضر » بالشرقية قرب قريتنا ، وأتأمل الأوراق والنسمات تهب بهن مترنحات ذات اليمين وذات الشمال .

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

فلقد كان يخيل إلي أن في تلك الأوراق أسـراراً و يخيـل إلـي أنـها تكـاد تتحلـل أمـامي وكأنـها مملوءة حكمة محجوبة عني ، وكان قلبي يتقد ناراً من الشوق إلى معرفـة عجائبـها ، وهـو يحس كأنـها تتوهج وتضيء وكأنها تنطق بلسان الحال بأنها ذات أسـرار لا يعرفـها إلا العـالمون ، كذلـك كنـت أنظر إلى النجم وأقول :

النـجـم أخـبـرنـا بأن وراءه حكماً تجل عن العقول وتعظم

بعد ذلك دخلت مدرسة دار العلوم . فلما اطلعت فيها على أثارة من هذا العلم انشرح صـدري وكأني أعطيت ملكاً ، وكان ذلك أعظم بهجة لنفسي وسروراً وحبوراً .

إيضاح المقام وتفصيله بالمثال

فهذه العلوم إن درست مجردة من الحكمة النظامية كانت صعبة المنـال ، وإن درسـت علـى أنـها جمال وحكمة وبهاء فإن العقل يألفها ويعشقها ويراها سعادته . فلأذكر لك الآن من عجائب الكيمياء ما به تقر عينك ويثلج صدرك فأقول :

لقد قرأت في السورة أن الله يأمر بـالنظر في الأنعـام وأصوافـها وألبانـها ، وفي الأشجار ونارهـا . وبعبارة أخرى : يقول انظروا في كل ما حولكم من السماء والأرض . فهل ذكر الله ذلك للاقتصار عليه؟ كلا ، ذكر ما هو موجود عندهم . فلننظر نحن إلى كـل مـا نعلـم ممـا حولنـا ، ويذكـر الله أن الشـجر اتقـد فصار ناراً . وما هي النار؟ إن هي إلا اتحاد عناصر الخشب والفحم وغاز الاستصباح والبترول والزيـت وغيرها بالمادة التي في الهواء المسماة « الأكسوجين » ، فـهذا هـو الاحـتراق ، فإذا رأيـت مصباحـاً متقـداً بالبترول أو بالزيت أو رأيت ناراً متقدة في خشب أو فحم ، فمعنى ذلك أن أكسوجين الهواء قد اتحد مع تلك المواد فحصل تفاعل ، وهذا التفاعل أنتج الحرارة والضوء ، فالنار إذن من التفاعل الكيميائي وهـي ظاهرة كيميائيـة ، ومـا الأكسـوجين إلا أكسـوجين غـاز عديـم اللـون والطعـم والرائحـة يسـيل بضغطـه ضغطاً عظيماً وتبريده تبريداً شديداً ، وهو أثقل من الهواء قليل الذوبان في الماء ، وإذا وضعت قطعة مـن

الخشب متقداً طرفها في غاز الأكسوجين النقي فإنها تلتهب حالاً ، وكذا الفحم فإنه يحترق بلمعان شديد ويزول بسرعة ، فهذا الذي رأيته يسمى احتراقاً حاداً ، فما ذكره الله في الآية من الاحتراق الحاد .

الاحتراق البطيء

إذا وضعت الحديد في الهواء الرطب اتحد بالأكسوجين المذكور فاستحال شيئاً فشيئاً إلى صدأ ، أي إلى مركب أكسوجيني للحديد ، فإذن الحديد الذي ركبه الصدأ مركب من حديد وأكسوجين ، ولم تظهر حرارة ولا ضوء ، لأن الحديد بطيء الاحتراق ، بخلاف الخشب والفحم والزيت ، فرجال الكيمياء يرون أن الخشب الملتهب والحديد الذي ركبه الصدأ كلاهما في احتراق؟ أما الأول فهو حار ، وأما الثاني فهو بطيء .

تنفس الحيوان من الاحتراق

لقد علمت أن الحديد الذي صدئ يحترق واحتراقه بطيء ، هكذا قل في نفس الحيوان ، إن الحيوان يأخذ بالشهيق الهواء فيدخل في الرئتين ويترك هناك الأكسوجين ، وتأخذه الكرات الدموية وتنقله إلى الأوعية الشعرية ، وهذا الأكسوجين يتحد بالكربون والأيدروجين اللذين في الأنسجة ، فيتكون من هذا الاحتراق جسمان لا يصلحان للبقاء في الجسم ، فينقلهما الدم الوريدي إلى الرئة ويخرجان منها بحركة الزفير ، فكأن جسم الإنسان أرض سقيت بماء النيل ، وما بقي من الماء الذي يضر الأرض يصفى من جهة أخرى ، وهذا هو الذي تم في الأكسوجين ، يتحد بالمادة الكربونية وبالمادة الأيدروجينية فتكون الحرارة في الجسم مستديمة بهذا الاتحاد ، وما نشأ من مادة فاسدة يكون أشبه بالفحم بعد احتراق الخشب فلذلك يلفظه الجسم بواسطة الدم الوريدي ويخرج في النفس على هيئة مواد تقع على المرآة إذا تنفس فيها الإنسان فيغطيها بطبقة تحجب المناظر عن العيون ، ذلك هو ما تخلف من الاحتراق من المواد الكربونية مع غيرها كما نرى في أعمالنا اليومية .

فانظر أيها الذكي كيف كان الأكسوجين قوام الاحتراق في مسألة الشجر والنار . وكيف كان العلم لا يفرق بين الشجر المتقد ناراً في الآية ، والحديد الذي صدئ ، وجسم الإنسان والحيوان وهو دائماً يتنفس . فإذا كان الشجر يتقد ناراً فالجسم الإنساني اليوم يتقد ناراً بطيئة ، والحديد الذي صدئ كذلك . وهذا كله لم يعرف إلا بتحليل المادة إلى عناصرها وفهمها كما فهمنا اللغة بتحليلها إلى حروفها . كل هذا يؤخذ من هذين الحرفين « ياء وسين » ، فذكر هذين الحرفين في أول السورة يتضمن هذه العلوم . يتضمن أن يدرس المسلمون الكيمياء وجميع العلوم . لا درس لعلم إلا بتحليله كما ستراه . فانظر كيف ظهرت الخواص بالتحليل كما عرفت الكلمات بالتهجية .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : إن هذا العلم لذيذ وشهي ، وإني سمعتك تقول الآن إنه كان يخيل لك أن أوراق الشجر كانت تكاد تتحات أمامك وكأن فيها أنواراً . فهل عرفت من هذا شيئاً؟ فإن كان كذلك فأرجو الإسهاب في هذا المقام . قلت : انظر شعر القطن وحب القمح وحب الشعير وحب الذرة وحب الفول والبطاطس والقصب والبرسيم والصابون اللين وملح البارود والنطرون والزجاج .

انظر إلى هذه المواد وهي ثلاثة عشر وتأمل في عجب من عجائبها .

إن البوتاسا تدخل في القطن ٥ , ٥ من المائة وفي حب القمح ٥ , ٣١ وفي حب الشعير ٢١ وفي الذرة ٣٧ وفي الفول ٤٢ وفي البطاطس ٦١ وفي القصب ٢١ وفي البرسيم ٣٤ ، وترى الصودا تدخل فيما تقدم بنسب تختلف عن هذه ، مثلاً تدخل في شعر القطن ٥ , ٣ تقريباً وفي حب القمح ٢٦ , ٢ في المائة وفي حب الذرة ٣ وفي حب الفول ٣ . ٣ من المائة ، فإذن كل هذه المواد دخل فيها البوتاسا والصودا ، ثم إن الصودا تستعمل في الصنائع لتحضير الزجاج والصابون وبها تبيض الأقمشة القطنية وتستعمل في المنازل لغسل الأواني وتنظيفها .

فقال صاحبي : أنا لا أدري ما هي الصودا ، هذا كلام معمى علينا ، فكيف تقوله في تفسير القرآن والقرآن سهل ، ومثل هذا صعب لا يعرف إلا بالأجزخانات « الصيدليات » . فقلت له : الصودا هي النطرون ، وهو يوجد في بلاد المجر وفي القطر المصري . وترى في بلادنا المصرية بركاً يتبلور فيها النطرون في الصيف . وقديماً كان يستخرج من النباتات البحرية ، والآن يحضر من الملح المعتاد الذي يسمى كلورور الصوديوم ، والصودا المذكورة أو ملح الصودا الذي منه النطرون عبارة عن كربون وأكسوجين وصوديوم أعني أنه من المادة الفحمية والصوديوم والأكسوجين المعروف اتحدت فكونت هذا الملح .
قال : وما الصوديوم وما صفاته ؟ فقلت : الصوديوم فلز لين ذو لمعان فضي يصهر في الهواء من غير أن يلتهب . وإذا ألقي في الماء اصطهر وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء ، وهذا التفاعل يحصل نظيره في البوتاسيوم كما سيأتي ، وهو يكون في الحبوب التي نأكلها المذكورة ، ودخل في القطن الذي نلبسه . كل ذلك فيه بوتاسيوم وفيه صوديوم . أما الصوديوم فهو من الأجزاء المركبة للصودا المذكورة .
وأما البوتاسيوم فهو من الأجزاء التي تركبت منها البوتاسا المذكورة سابقاً ، فإن البوتاسا المذكورة أي الداخلة في الحب والشعر وغيرها عبارة عن بوتاسيوم قد اتحد مع أكسوجين وأيدروجين ، وتسمى « البوتاسا الكاوية » ، والبوتاسا جسم كاو شديد إذا لامس الأنسجة أحدث فيها استرخاء وأتلفها .
ومن مركبات البوتاسا ملح البارود . إنك مهما قلبت نظرك في المواضع الرطبة والحيطان الرطبة في أراضي القطر المصري والهند والعجم وأسبانيا ، فإنك تجد ملح البارود ظاهراً لا سيما في المحال الخربة ، فهذا الملح الذي في تلك الأماكن مركب من الآزوت والأكسوجين والبوتاسيوم المذكور . فهو إذن من مركباته .

فالبوتاسيوم إذن داخل في البارود وفي ملابسنا وفي مآكلنا ، وإذا أردت أن تعرف صفاته قلنا إنه جسم من الفلزات لونه أبيض فضي لماع لين كشمع العسل ، ويصهر على درجة ٥ , ٦٢ ويتطاير على درجة دون الاحمرار ، ولون بخاره أخضر جميل ، وهو أخف من الماء ، ويتغير لونه بملامسة الهواء ، ويحلل الماء على الدرجة المعتادة فيحصل تفاعل بشدة ، فإذا ألقيت قطعة من البوتاسيوم في الماء فإن كرات البوتاسيوم تحمر بسبب شدة ارتفاع الحرارة الناتجة عن التفاعل ويحصل التهاب . وترى بعينيك كرات من البوتاسيوم يدور بعضها على بعض سابحة جميعها على سطح الماء . وهذه العملية يحصل بها استحالة البوتاسيوم إلى بوتاسا وحينئذ ينقطع التصاعد ، فتسقط قطعة البوتاسا على الماء فيظهر بخار فجأة بسبب الحرارة وتحصل فرقعة .

هذه ملخص أوصاف البوتاسيوم . انظر وتعجب ، لقد عرفت البوتاسيوم الذي هو من أجزاء البوتاسا تلك البوتاسا التي تدخل في تركيب الصابون ، ويدخل البوتاسيوم أيضاً في ملح البارود الذي هو مركب من البوتاسيوم والأكسوجين ومن الآزوت .

انظر إلى الصابون الطري وإلى ملح البارود الذي تراه على الحيطان الرطبة والأماكن الخربة ، وانظر إلى ثوبك الذي تلبسه ، وإلى حب القمح وحب الفول والشعير والبرسيم ، انظر هل يدور بخلدك أنها قد دخل فيها عنصر لو وضعناه على الماء اتقد ناراً ، هل كان يدور بخلد أحد أننا نلبس ثياباً محتوية على مادتين لو وضعتا على الماء اتقد ناراً؟ الله أكبر . جلّ العلم وجلّت الحكمة . نسمع أن البارود يهلك البلاد والعباد ، والبارود مركب من ملح البارود الذي فيه البوتاسيوم ومن الكبريت والفحم ، البارود مركب من الفحم الذي نوقده في بيوتنا ومن الكبريت ومن ملح البارود . وقد اختلفت الدول في المقادير كما تقدم ، ففرنسا تدخل من ملح البارود ٧٥ في المائة وإنكلترا ٧٦ في المائة في تركيب البارود . البارود الذي فازت به أوروبا علينا وأتت وحاربتنا به ودخل في تركيبه البوتاسيوم ، ذلك البوتاسيوم الذي إذا ألقي على الماء التهب الماء ، ذلك البوتاسيوم الذي هو من جملة الأجزاء المكونة لملابسنا القطنية ، والقمح والشعير والفول والبرسيم . جلّ الله . ما أجمل العلم ! انظر إلى علم الكيمياء . لا . لا . بل انظر إلى سورة « يس » كيف ظهر من سرها هذا الجمال ، وهو التحليل ، تحليل الحروف في أولها وتحليل الكيمياء في آخرها .

انظر كيف دخل البوتاسيوم ودخل الصوديوم هذان الجسمان اللذان يلتهبان في الماء ، يلتهبان أشد من التهاب الشجر الأخضر ، أكثر من التهاب المرخ إذا حك بالعفار ، جلّ الله وجلّ العلم . ما أبهج نور العلم وما أجمل الحكمة ، إن العلم ملأ السهل والجبل وعرفه الغربيون ، أما المسلمون فهم نائمون .

أيها المسلمون : يقول الله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[يس : ٨٠] ، ولعلكم سمعتم أن الله خلق ملكاً نصفه ثلج ونصفه نار ، فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ، ذلك إشارة إلى آثار صنعة الملائكة بأمر الله ، ألم تروا كيف اجتمع في ملابسنا جسمان ناريان مصحوبان بالماء .

العجب في هذين الأمرين : الأول : أن البوتاسيوم والصوديوم يلتهبان في الماء على الدرجة المعتادة وهذا عجب عجاب ، هذا أعجب من اتقاد النار في شجر أخضر ، فهذا اتقاد في ماء واتقاد الماء نار أغرب فإذا ذكر الله سبحانه الشجر والنار المتقدة فيه فهاهنا اتقاد في الماء وهو أبدع وأعجب في الحكمة الإلهية كما قال : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل : ٨] ، وكما قال في هذه السورة : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يس : ٣٦] .

أما الأمر الثاني فهذان الجسمان المحرقان ، نحن الآن نلبسهما ونأكلهما لأنهما دخلا في تركيب القطن والحب ، ونحن نغسل ثيابنا بأحدهما ، لأن البوتاسيوم هو من أجزاء البوتاسا داخل في الصابون الذي نغسل به أجسامنا وثيابنا ، وإنّما أكلناهما ولبسناهما لأنهما دخلا بمقادير قليلة في الحب والقطن ، دخلا بحساب بديع ونظام متقن في أرزاقنا ، أدخلهما الله بحسابه وترك لنا الحرية في إدخال البوتاسيوم

والمركب منه وهو ملح البارود، فأدخلته الأمم مع الكبريت والفحم. ولكن إدخال الأمم له ليس كإدخال الله له في النبات. إن الناس أدخلوه بكثرة بحيث صار ثلاثة أرباع البارود. أما الله فإنه أدخله بقلّة، فإذن البوتاسيوم حياة لنا إذا قلّ وموت لنا إذا كثر، والله جعله لنا حياة والناس تصرفوا فيه فجعلوه آلة للموت. وهذا هو السر في هذه السورة.

جعل الله الحروف مجزأة في أولها وفي أول غيرها من السور لتعليمنا علم التحليل، فلم يبق للمسلمين عذر بعد هذا البيان. استدل الله بالنار في الشجر على بديع حكمته وإتقان صنعته مشيراً إلى التحليل الكيماوي في العالم. ثم رأينا المواد المحرقة من البوتاسيوم ومن الصوديوم منتشرة في أكثر النبات ورأيناها مستعملة عند الأمم في البارود. فهي مهلكة تارة ومحيية أخرى، ووجدنا هذا كله لا يكون إلا بمعرفة العناصر الكيميائية وسرها، وهذا هو سر سورة « يس »، وقد ورد: « قلب القرآن يس ».

لقد ظهر أن فيها قلب العلوم وأسها، وهو التحليل بالحروف في أولها وبالعلوم الطبيعية والرياضية في وسطها وآخرها. وإياك أن تظن أنها قلب القرآن بسبب هذا وحده، بل هذا من جملة علومها، فثبت مما تقدم ما يأتي:

(١) الصوديوم والبوتاسيوم باتصالهما بالماء تتقد ناراً كما اتقدت من احتكاك المرخ مع العفار.

(٢) هما عنصران داخلان في أغذيتنا وملابسنا بمقادير قليلة فكانت من أسباب حياتنا ومنفعتنا.

(٣) هما داخلان في البارود بمقادير كثيرة يستعملان لإزالة الحياة.

(٤) سورة « يس » أشار الله فيها إلى ذلك التحليل بالحرفين الهجائيين في أولها، وبذكر اتقاد النار في المرخ والعفار اتقاداً كيميائياً في آخرها، أي أن العلوم كلها ترجع إما إلى عناصر إن كانت طبيعية وإما إلى حروف إن كانت لغوية، وكلاهما لا يعرف إلا بالتحليل، واللغة مقدمة وتليها العلوم.

(٥) إذا زادت الكلمة حرفاً أو نقصت حرفاً تغير المعنى وتغير الأثر في العقول، هكذا إذا زاد المركب عنصر أو ذرة من عنصر أو نقص عنصراً أو ذرة من عنصر تغيرت خواص المركبات، وهذا مقصود لفظة ﴿ يسٓ ﴾.

فائدة

(١) من مركبات البوتاسيوم السواريخ التي تظهر على هيئة مطر وتسمى سواريخ المطر، فهي مكونة من البارود الناعم ومن الفحم الخفيف ومن عنصرين آخرين، وهما: الخارصين والأنتيمون.

(٢) ومن مركباته أيضاً النيران.

(٣) والنيران الخضراء.

(٤) والنيران البنفسجية.

(٥) والنيران الحمراء.

ومن البوتاسيوم حياتنا بالأغذية. حفظ أجسامنا بالملابس، وهلاك الأعداء بالمدافع والبارود، وانشراح الصدور في المواسم والأعياد بالألوان المختلفة للأمة. فجلّ الله الذي جعل ذلك كله في معنى لفظ « يس ». بهذا يعرف المسلمون بعض سر هذين الحرفين « ياء » و« سين ».

فائدة ثانية: ملح الطعام

الناس يأكلون ملح الطعام ويعيشون ويموتون وهم لا يعلمون من أي شيء ركب. يعيش الإنسان وهو يأكل الملح في طعامه ولا يدري أنه يأكل في الملح جسمين متحدين: أحدهما ناري إذا ألقي في الماء اصطهر، وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء كما يحصل في البوتاسيوم. و ذلك الجسم هو الصوديوم. فالصوديوم يلتهب في الماء وينتهي بفرقعة. هذا أحد الجسمين. أما الجسم الآخر فهو الكلور وهو غاز لونه الصفرة مخضر يؤثر بقوة في أعضاء التنفس فيحدث سعالاً وتهيجاً في الأغشية المخاطية، وإذا استمر تأثيره أحدث الموت، والكلور يزيل المواد الملونة ويتلف الجراثيم المعدية والروائح العفنة التي تكون في التخمر العفن، ويستعمل في تبييض الأنسجة التي من القطن والكتان والتيل لإتلاف المواد الملونة، ويستعمل في تبخير السجون والمستشفيات والمحال العفنة، لإتلاف الجراثيم فيها والمواد المسببة للعفونة.

ولا يستعمل الكلور لتبييض الصوف أو الحرير لأنه يتلفها، وهو يبيض عجينة الورق لأنه يزيل لون الخرق المستعملة في العجينة. إن الذهب والبلاتين لا تؤثر فيهما الحوامض ولكن يؤثر فيهما الكلور فيتحد معهما ويسميان كلورور الذهب وكلورور البلاتين.

الماء الملكي

الكلور يدخل في التركيب الذي يسمى الماء الملكي، وهو سائل أصفر يذيب البلاتين والذهب فيتكون كلورور البلاتين وكلورور الذهب، وإنما سمي ماء ملكياً لأنه يذيب الذهب الذي هو ملك المعادن، فجلّ الله وجلّت الحكمة وجلّ العلم، ملح نأكله في هذه الحياة ولا ندري أننا نأكل جسمين: أحدهما ناري يتقد ناراً مع الماء وهو الصوديوم، وثانيهما جسم غازي مخضر اللون محدث للسعال مميت يميت الإنسان إذا طال استعماله، ويميت الجراثيم حالاً ويؤثر في الذهب ملك المعادن ويضر الصوف وينظف القطن.

إن الملح نافع لنا، والجسمان اللذان تركب منهما أحدهما مهلك تارة ونافع أخرى، كل ذلك لا يعرف إلا بصناعة التحليل في علم الكيمياء، و ذلك كله في معنى «يس».

يا ليت شعري هل يدري المسلم وهو يأكل الملح أن هذا الملح سر سورة «يس»، وعلومها تحتوي على بسائط ضارة ونافعة وقاتلة. عرفت أوروبا ذلك. عرفت سر التحليل فعلمتنا كيف نزيل العفونات، وكيف نقتل الجراثيم، ولم ندر نحن أن القرآن يطالبنا بذلك في لفظة «يس».

جاءت أوروبا بالغازات المخنقة والمحدثة للسعال ونحن نتعجب ونقول عجباً عجباً! ما أعلمهم، ونحن في الوقت نفسه نأكل الملح المحتوي على الكلور، والكلور يحدث السعال ويحدث الموت، ونقرأ «يس» صباحاً ومساء لقضاء الحاجات من رب الكائنات ولا نعلم أن في لفظ «يس» هذا السر المصون وهو سر التحليل، وبه نعرف المواد المهلكة والمواد النافعة، وبه نحارب من يحاربنا. لما جهلنا ذلك أرسل الله أوروبا فحاربتنا وغلبتنا فانتبهنا، فلذلك ظهر بعض سر «يس» في هذا التفسير. لولا فضل أوروبا علينا وحربها لنا لم يظهر بعض سر «يس» الذي اطلعت عليه الآن.

نأكل الملح ولا ندري أن أحد جسميه وهو الكلور هو الذي ينظف الخرق المستعملة لعجينة الورق، أنا أكتب الآن على هذا الورق الذي لولا الكلور لم يكن ورقاً، أي لولا أحد جسمي ملح الطعام لم يكن ورقاً. لم يكن ورقاً إلا بإزالة الكلور الذي هو أصفر اللون مع اخضرار لألوان الخرق. لولاه لم يكن الورق أبيض، بل كان كثير الألوان فلا ينفع فيه كتابة. إن ملح الطعام منتشر في الدنيا، فهو في الجبال وفي أغوار الأرض وفي مياه البحار بنسبة (٣١) جراماً في اللتر في المحيط الأطلانطيقي والهادي والباسفيكي، و(١٨) جراماً في البحر الأسود، وفي بحر الخزر (٦) جرامات في اللتر، وفي البحر الأبيض (٣١) جراماً في اللتر، ويحضر في ملاحات الإسكندرية ورشيد ودمياط، وقد تقدم في ذلك في هذا التفسير في آخر «آل عمران».

هذا هو الملح الذي نأكله. هذا هو الملح الذي ملأ البحر وهو في الجبل حلل إلى جسمين ناري وقاتل أو ممرض ونافع، وسر «يس» لاستخراج منافعه. فالناس يقرؤون «يس» ويتعاطون الملح وهم لا يعلمون. ذلك سر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾[يس: ٨٠]وأكثر الشجر فيه الصوديوم والبوتاسيوم، والصوديوم في الملح. فهذا كله من سر سورة «يس»، فلأكتف بهذا القدر ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور: ٤٦]. انتهى الكلام على علم الكيمياء.

الكلام على بعض العلوم

لقد علمت بعض ما ترمز إليه الحروف التي في أوائل السور ومنها سورة «يس». ولعلك تقول: أترى أن «ياء» و«سين» تفيد هذه المعاني كلها؟ أقول: نعم. إن الله لما أنزل القرآن أراد هذه المعاني التي كتبتها والتي سيقولها من بعدنا. فالعقول الإنسانية اليوم وبعد اليوم مستمدة من الله، وهي تفهم من الوحي فهماً يؤدي إلى الثمرات المطلوبة في زمانها، فما كان حقاً بقي، وما كان باطلاً اضمحلّ. وإذا كان القرآن نفسه محفوظاً بالنص فهكذا ما كان حقاً من تفسيره أو تأويله أو رمزه.

ولعلك تقول: أوضح. فأقول: إن الحروف التي في أوائل السور لم تعرفها العرب. لم نقرأ في المعلقات التي هي أشرف ما قيل في زمن الجاهلية ولا في غير المعلقات، أن الشاعر قال: «طس»، ولا «حم» ولا «المر»، ولا «الر»، ولا «الم»، وإنّما ينطق بقوله: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» أو بقوله: «لمية أطلال ببرقة ثهمد» أو بقوله: «آذنتنا ببينها أسماء» أو بقوله: «ألا هبي بصحنك فاصبحينا».

ولم نسمع شاعراً يوماً ولا خطيباً يقول: «الم قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» الخ، وإنّما هذه الحروف اختص بها القرآن، والنبي صلى الله عليه وسلم قرأها ولم يفسرها، ولو فسرها لوقفت العقول عند تفسيره. فمعنى هذا أنه تعالى يقول لنا فكروا في هذا. لم أنزل ولم اختص القرآن به مع أن القرآن ليس مدرسة لتعليم الهجاء وإنّما هو ذكر وقرآن مبين. فأين الذكر هنا؟ ولقد فكر من قبلنا كل بحسب ما وصل إليه فهمه وقد تقدم في أوائل سورة «آل عمران».

أما نحن فنقول: إن هذه أشبه بخزائن علم أبقيت ليتدبر الناس فيها، والخزائن لا تبرز إلا عند الاقتضاء، ووجدنا المسلمين مقصرين في جميع العلوم التي فيها التحليل، فقلنا: إذن الله يريد أن يذكرنا

بما نسيناه وهو إرجاع الأمور إلى أصولها ، ويقول لنا أمراً سهلاً : ا ل م . ي س . وهكذا يقول : ادرسوا أصول الأشياء ، فلما سمعناه يقول ذلك فكرنا فوجدنا أن أوروبا نبغت في علم الكيمياء وغيرها ، وعرفت العناصر واستخدمتها في الحرب والتجارة وجميع فروع الحياة ، فقلنا : أيها المسلمون ادرسوا هذا العلم ، انظروا النبات وحللوه كما حلل الشجر واحترق ناراً .

هذا ما قرأته أنت في القول السابق ، ونقول الآن : إن ذلك سار في أكثر العلوم ، ألا ترى إلى علم الحساب ، أليس هو راجعاً إلى تحليل وتركيب . أليس الجمع والضرب يرجعان إلى التركيب ، والطرح والقسمة يرجعان إلى التحليل ، كذلك الهندسة وفروعها ترجع جميع نظرياتها إلى الأصول التي قبلها وكل نظرية ترجع إلى ما قبلها حتى تصل إلى الأوائل العقلية ، مثل الكل أعظم من الجزء ، والشيئان المساويان لشيء واحد متساويان ، كذلك علم المنطق .

إن علم المنطق يرجع إلى أربعة أصول وهي : التحليل والتقسيم والحد والبرهان ، وأنت ترى أن المنطق اليوم في بلاد الإسلام قد خلا من التحليل فأصبح علماً ناقصاً لا ينفع ، وكيف ينتفع الناس بعلم ينقصه أهم أصوله ، فالتحليل للأشخاص كقولك : هذا الإنسان وهذه الشجرة وهذا البناء وهذه المدينة وهذه الأمة . فكل هذه من حيث إنها أشخاص لا تعرف إلا بالتحليل . وعلم الكيمياء المتقدم كله تحليل . فكل مركب في المنطق لا يعرف إلا بمعرفة أجزائه ، أعني تحليلها ، وهذا مفقود في المنطق اليوم ، وقد ذكرته في كتاب الفلسفة الذي ألفته حديثاً .

فأما التقسيم فيكون لمعرفة الكليات وتمييز بعضها من بعض . وأما الحدود فللأنواع ، وأما البراهين فإنها تكون للأجناس . فإذا رأينا المسلمين على هذا النحو من النوم العميق . ورأينا هذه الحروف فإننا نقول : إن الله أراد إيقاظ الأمة لهذا النوع من العلوم ، حقاً هو أراده حين أنزله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنا أقول الآن : أيها المسلمون ، جهلتم أهم ما في المنطق وجهلتم علم الكيمياء ، والله يناديكم أن هلموا وإلا فأنتم هالكون .

لطيفة

حضر صديقي العالم واطلع على ما تقدم فقال : إن هذا منك هجوم على القرآن ، كيف تدعي أن هذه المعاني قصدها الله ، وهل أنت اطلعت على علم الله ، إن هذا غلو في الدين؟ فقلت : لقد جاء في سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ ﴾ للإشارة إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ ﴾[البقرة : ٢٤٣] الخ ، وفي « آل عمران » لمسألة اليهود الخ ، وهنا لم تجئ ﴿ الٓمٓ ﴾ بل جاء « ياء » و« سين » المذكوران في أهم أدلة السورة من نار الشجر المشير للكيمياء ، ومن خلق ما هو أكبر من الإنسان ومن خلق ما ابتداه أولاً . فقال : أين ذلك؟ قلت : في قوله : ﴿ وَنَسِيَ ﴾[الكهف : ٥٧] وفي قوله : ﴿ أَوَلَيْسَ ﴾[يس : ٨١] ، فتأمل . إن الله أراده حقاً . ألم تر أن علم الكيمياء من الواجبات والفروض الكفائية؟ قال : بلى . قلت : إذن هذا يحرم تركه ، هكذا التحليل في المنطق ، أليس جزءاً من علم وهو فرض كفاية؟ قال : بلى . قلت : إذن هو من الدين ويحرم تركه . قال : ولكن كيف تقول أراده من هذه الحروف؟ قلت : إذا وجدنا أن هذه الحروف قد انطبقت على ما نحن في حاجة إليه وفهمناها بطريق الرمز . وفوق ذلك جاءت « ياء »

و« سين » فيما ذكرته لك، فنقول: إن الله أراد هذا المعنى، لأن الله لا يستحيي من الحق وهذا حق.
ولقد قال علماء التفسير: إن المعاني الرمزية المعقولة النافعة أرادها الله من القرآن مهما كثرت. إن القرآن أنزل لأجلنا. فإذا وقف قوم بسبب فهمهم فهماً أدى إلى الانحطاط، فليكن اليوم هو الذي نفهم فيه ما يؤدي إلى السداد والنجاح.

على أني لا أكتمك أيها الذكي الحديث أن وجداني يملي علي ذلك وأجده في النفس بدافع قوي شديد بحيث لا أقدر على مدافعته والله عليم بذات الصدور.

وقد قال علماؤنا رحمهم الله: إن الخاطر إذا كان موافقاً للشرع فهو إما من الله أو من الملك.
وأقرب شاهد لذلك أني منذ ليلتين حين ابتدأت في تفسير هذه السورة؛ كنت أتعاطى طعام السحور، فقام في نفسي بدافع شديد قوي أن الدورة الغذائية في الأجسام الإنسانية تدخل في سر لفظ ﴿ يسٓ ﴾، فأردت أن أدافع هذا الخاطر فلم أقو على دفعه.

الدورة الغذائية في الأجسام الإنسانية والحيوانية

لما خطر هذا الخاطر وجدت أمراً عجيباً، وجدت أن الغذاء تقطعه القواطع وتمزقه الأنياب وتطحنه الأضراس. فقلت: يا عجباً! هذا كالتحليل، هذا خبز وخضر ولحم وفاكهة للإنسان، وأبّ وورق ولحم وحب للحيوان تقطع وتمزق وتطحن. إن ذلك تحليل الجسم إلى دقائقه، ثم ينبع (٦) أنهر من تحت اللسان لتعين الآكل على عجن اللقمة فيمكن بلعها، وهذا الريق لتحويل ذلك الطعام حتى ينهضم ويقابله البنكرياس فيزيده هضماً، كل ذلك تحويل للطعام ليصير كقوام اللبن وهو الكيموس، ويدخل إلى الأمعاء فيصير كيلوساً، ويتجه في الشرايين فتمتصه ثم يطبخ فيصير دماً، وهناك تفرز منه المواد اللطيفة فتذهب إلى الصفراء، والمواد الغليظة فتذهب إلى الطحال، والمواد المائية فتذهب إلى الكليتين، وتبقى المواد الدموية الخالصة فتذهب إلى الشرايين، وهذه تمر على سائر الأعضاء البدنية ظاهرها وباطنها، فتعطي كلًّا منها ما يناسبه، والصفراء لا تذهب سدى، بل هي تنبه الشهوة من جهة، ومن جهة أخرى تسهل انزلاق الطعام في الأمعاء حتى يبرز إلى الخارج، وأما الماء فإنه يذهب إلى الحالبين فالمثانة فيكون البول، وأما الفضلة الغليظة فتذهب إلى المستقيم، وأما السوداء فإنها تساعد كما تساعد الصفراء في أعمال الغذاء ونظامه.

الدورة التنفسية

وهكذا الدورة التنفسية، إن الهواء في دخوله إلى الرئتين يحلل فيكون الأكسوجين ذاهباً مع الدم إلى داخل الجسم، ويرجع ما بقي من عناصره متحملاً بالمادة الكربونية الراجعة مع الزفير إلى الهواء الجوي، هكذا الدائرة العقلية قد قسمت أعمالها على الحواس الخمس الظاهرة، فكل حاسة لها عمل لا تتعداه، هكذا الحواس الخمس الباطنة مثل الحس المشترك والخيال والقوة المفكرة والحافظة والواهمة، فكل واحدة منها لها عمل.

إن الله عز وجل يوقظ المسلمين إلى التحليل الذي أغفلوه وأظهره الله في الحواس وفي أعمال الهضم في حروف أوائل السور لا سيما ﴿ يسٓ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ

﴿نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[يس: ٨٠]، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

لطائف هذه السورة

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾[يس: ٢٦].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾[يس: ٣٠].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾[يس: ٣٣]، وذلك في أمرين:

الأول: كم عمر الأرض في رأي بعض العلماء. الثاني: في نقصها المستمر.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي﴾[يس: ٣٨] الخ.

اللطيفة الرابعة: في ضوء الشمس وحرارتها.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾[يس: ٣٦] الخ.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾[يس: ٦٥].

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾[يس: ٨٠].

اللطيفة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[يس: ٨٣].

اللطيفة الأولى فيها فصلان:

الفصل الأول: في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾

نذكر في هذا الفصل ما جاء في كتاب «إخوان الصفاء» تحت العنوان التالي؛ وهذا نصه: «فصل: ينبغي أن نبين كيف يكون تواصل إخوان الصفاء وكيف يكون معاونة بعضهم بعضاً في طلب معيشة الدنيا وماذا كيف يكون حال من سبقته المنية قبل صاحبه وكيف يكون عيش الباقي منهم بعد صاحبه؟».

ذكر أن مدينة كانت على رأس جبل في جزيرة من جزائر البحر، مخصبة كثيرة النعم رخية البال طيبة الهواء عذبة المياه، حسنة التربة كثيرة الأشجار، لذيذة الثمار، كثيرة أجناس الحيوانات على حسب ما تقتضيه تربة تلك الجزيرة وأهويتها ومياهها، وكان أهلها إخوة وبنو عم بعضهم لبعض من نسل رجل واحد، وكان عيشهم أهنى عيش يكون بتودد ما كان بينهم من المحبة والرحمة والشفقة والرفق بلا تنغيص من الحسد والبغي والعداوة وأنواع الشر، كما يكون بين أهل المدن الجائرة المتضادة الطباع المتنافرة القوى المتشتتة الآراء القبيحة الأعمال السيئة الأخلاق، ثم إن طائفة من أهل المدينة الفاضلة ركبوا البحر فكسر بهم المركب ورمى بهم الموج إلى جزيرة أخرى فيها جبل وعر، فيه أشجار عالية وعليها ثمار قذرة، فيها عيون غائرة ومياهها كدرة، وفيها مغارات مظلمة وفيها سباع ضارية، وإذا عامة أهل تلك الجزيرة قردة، وكان في بعض جزائر البحر طير عظيم الخلقة شديد القوة قد سلط عليها في كل يوم وليلة يكر عليهم ويختطف من تلك القردة عدة، ثم إن هؤلاء النفر الذين نجوا من الغرق تفرقوا في الجزيرة وفي أودية ذلك الجبل يطلبون ما يتقوتون من ثمارها لما لحقهم من الجوع، ويشربون من تلك العيون، ويستترون بأوراق تلك الأشجار، ويأوون بالليل إلى تلك المغارات ويحتصمون بها من

الحر والبرد، فأنست بهم تلك القرود وأنسوا بها، إذ كانت أقرب أجناس السباع شبهاً لصورة الناس، فولعت بهم إناث القردة وولع بها من كان به شبق، فحبلت منه وتوالدت وتناسلوا وكثروا، وتمادى بهم الزمان فاستوطنوا تلك الجزيرة واعتصموا بذلك الجبل، وألفوا تلك الحال ونسوا بلدهم ونعيمهم وأهاليهم الذين كانوا معهم بدياً، ثم جعلوا يبنون من حجارة ذلك الجبل بنياناً ويتخذون منها منازل، ويحرصون في جمع تلك الثمار ويدخرونها من كان منهم شرهاً، وصاروا يتنافسون على إناث تلك القرود، ويغبطون من كان منهم أكثر حظاً في تلك الحالات، وتمنوا الخلود هناك، وانتشبت بينهم العداوة والبغضاء، وتوقدت نيران الحرب، ثم إن رجلاً منهم رأى فيما يرى النائم كأنه قد رجع إلى بلده الذي خرج منه، وأن أهل تلك المدينة لما سمعوا بمجيئه استبشروا، واستقبله خارج تلك المدينة أقرباؤه، فرأوه قد غيره السفر والغربة، فكرهوا أن يدخل المدينة على تلك الحال، وكان على باب المدينة عين من الماء فغسلوه وحلقوا شعره وقصوا أظافره وألبسوه الجدد، ويخروه وزينوه وحملوه على دابة وأدخلوه المدينة، فلما رآه أهل تلك المدينة استبشروا به، وجعلوا يسألونه عن أصحابه وسفرهم وما فعل الدهر بهم؟ وأجلسوه في صدر المجلس في المدينة واجتمعوا حواليه يتعجبون منه ومن رجوعه بعد اليأس منه، وهو فرحان بهم وبما نجاه الله عز وجل من تلك الغربة وذلك الغرق، ومن صحبته تلك القرود وتلك العيشة النكدة، وهو يظن أن ذلك كله يراه في اليقظة، فلما انتبه إذا هو في ذلك المكان بين أولئك القرود، فأصبح حزيناً منكسر البال زاهداً في ذلك المكان مغتماً متفكراً في الرجوع إلى بلده، فقص رؤياه على أخ له فتذكر ذلك الأخ ما أنساه الدهر من حال بلدهما وأقاربهما وأهاليهما والنعيم الذي كانوا فيه، فتشاورا فيما بينهما وأجالا الرأي، وقالا: كيف السبيل إلى الرجوع وكيف النجاة من هنا؟ فوقع في فكرهما وجه الحيلة بأنهما يتعاونان ويجمعان من خشب تلك الجزيرة ويبنيان مركباً في البحر ويرجعان إلى بلدهما، فتعاقدا على ذلك بينهما عهداً وميثاقاً أن لا يتخاذلا ولا يتكاسلا، بل يجتهدا اجتهاد رجل واحد فيما عزما عليه، ثم فكرا أنه لو كان رجل آخر معهما لكان أعون لهما على ذلك، وكلما زاد في عددهما يكون أبلغ في الوصول إلى مطلبهم ومقصدهم، فجعلوا يذكرون إخوانهم أمر بلدهم ويرغبونهم في الرجوع ويزهدونهم في الكون هناك، حتى التأموا جماعة من أولئك القوم على أن يبنوا سفينة ويركبوا فيها ويرجعوا إلى بلدهم، فبينا هم في ذلك دائبون في قطع الأشجار ونشر الخشب لبناء تلك السفينة، إذ جاء ذلك الطير الذي كان يختطف القرود فاختطف منهم رجلاً وطار به في الهواء ليأكله، فلما أمعن في طيرانه تأمله فإذا هو ليس من القرود التي اعتاد أكلها، فمر به طائراً حتى مر به على رأس مدينته التي خرج منها فألقاه على سطح بيته وخلاه، فلما تأمل ذلك الرجل إذا هو في بلده ومنزله وأهله وأقربائه، فجعل يتمنى لو أن ذلك الطير يمر في كل يوم ويختطف منهم واحداً ويلقيه إلى بلده كما فعل به، وأما أولئك القوم بعد ما اختطفه الطير من بينهم فإنهم جعلوا يبكون عليه محزونين على فراقه لأنهم لا يدرون ما فعل به الطير، ولو أنهم علموا بحاله وما صار إليه لتمنوا ما تمنى لهم أخوهم. فهكذا ينبغي أن يكون اعتقاد إخوان الصفاء فيمن قد سبقته المنية قبل صاحبه، لأن الدنيا تشبه تلك الجزيرة، وأهلها يشبهون تلك القردة، ومثل الموت كمثل ذلك الطير، ومثل أولياء الله

كمثل القوم الذين كسر بهم المركب، ومثل دار الآخرة كمثل تلك المدينة التي خرجوا منها، فهذا اعتقاد إخواننا الكرام في معاونتهم في الدنيا، وما يعتقدون فيمن سبقته المنية قبل إخوانه. فانتبه أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة فإن الدنيا دار غرور ومحن، لا يرغب العاقل الخلود في دار الحزن والبلاء، وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسداد، وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيل الرشاد. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني من اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾

اعلم أن هذه الجملة سجلت على النوع الإنساني التعمق في الجهالة، وإذا أردت شرح هذا المقام فارجع إليه في سورة «التوبة» فإنك تجد هناك كيف كان تقصير المسلمين اليوم في علومهم وأعمالهم منطبقاً على الاستهزاء من حيث العمل لا الاعتقاد، وستطلع هناك على عجائب العلم، وأن المسلمين قد أبرز الله لهم ولغيرهم الكواكب والجبال وغيرها، فأعرضوا فأبرز لهم أمراً آخر وهي الطيارات القاذفات المهلكات، كأنه يقول لهم: أنتم أعرضتم عن جمال العوالم. فهأنا ذا أرسل عليكم شواظاً من نار حامية تقذف من المدافع والطيارات. وتجد الموازنة هناك بين استهزاء الأمم المحكومة بجنود الأمم الحاكمة، ومقاطعة حكامهم، أو الخضوع، وبين آيات الله التي قصها للناس، فلما أعرضوا فعل معهم ما تفعله الأمم القوية مع الضعيفة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[النحل: ٦٠]. انتهى الفصل الثاني.

اللطيفة الثانية: في عمر الأرض ونقصها المستمر

كم عمر الأرض؟

بعد اكتشاف الراديوم أصبح تقدير علماء طبقات الأرض، وهو مائتا مليون سنة، أول تقدير حديث مع أنه كان يظن أنه مبالغ فيه، والبحث الآن ليس في حسم النزاع بين علماء طبقات الأرض والفلك، بل بين علماء طبقات الأرض وأنصار نظرية إشعاع الراديوم، ثم لو حسم هذا النزاع الجديد وقر الرأي على عدد معين من ملايين السنين، فهل يعتبر هذا العدد مبدأ لخلق الأرض أو مبدأ الحياة فيها، أي هل للأرض أول ولها آخر؟

يقول اللورد «كلفن»: لا يمكن غير ذلك، أي لا بد أن يكون لأرضنا مبدأ وسوف تكون لها نهاية، وأن هناك فكرة أو تدبيراً يعمل في الكون وهو الخالق الأحد. هذا هو رأي اللورد الطبيعي، وهو رأي يتفق وتعاليم الأديان، وفي النهاية فإن أقل تقدير لعمر الأرض الآن هو مائتا مليون سنة، وقد يظهر غداً أنه أكثر من ذلك بكثير، إذ أن «أدنجون» يعطي حداً أقصى لعمر الأرض بعشرة آلاف مليون سنة. انتهى من مجلة «كل شيء».

واعلم أن مسألة حزام الأرض هي مقتضى قوله تعالى: ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾[الرعد: ٤١]، فقد جاء في بعض المجلات العلمية تحت العنوان التالي ما نصه: «الأرض تشد حزامها: يقرر الدكتور «ميرمان الألماني» أن طول خط الاستواء قد نقص ميلاً عن طوله منذ ١٠٠ سنة نظراً لانكماش الأرض». اهـ

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾

الله قدر سرعة الشمس وكل سرعة في العالم، فهو عزيز أي غالب عليم بما يقرره، وهنا فتح لنا باب السرعة في العالم الذي نعيش فيه. إن أسرع حركة في عالمنا هذا هي سرعة الخاطر. إن خواطرنا تنتقل من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. ومن العرش إلى الفرش، في جزء من آلاف الثانية. إن الجاهل لا يعبأ بهذه السرعة ولا بهذا التقلب، ويقول: هذا وهم، ونحن نقول: أليس هذا التقلب أمراً موجوداً بدليل أن هذه الحركات في النفس لها آثار في شعورنا، وكل ما له أثر فهو موجود. فهذه السرعة موجودة وهي أعجب ما في هذا الوجود، ويلي هذه السرعة سرعة النور، فإنه في الثانية الواحدة يمكنه أن يجري حول الأرض فوق (٧) مرات، ومعلوم أن محيط الأرض (٤٠) ألف كيلو والضوء يجري بسرعة (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية أو نحو (٣٠٠, ٠٠٠) ثلاثمائة ألف كيلو. ثم سرعة القنبلة في الثانية (٢٠٠٠) ميل. وسرعة الأرض حول الشمس (٦٥, ٥٣٣) ميلاً في الساعة. وسرعة الطيارة الفرنسية (٣٠٢, ٣) ميل في الساعة، ثم الطيارة الأمريكية (٣٠٠) ميل في الساعة. ثم الطيارة المائية (٢٤٥, ٧١)، ثم الأوتوموبيل (١٥٦) ميلاً. (انظر شكل ٣٥ وشكل ٣٦ الآتيان قريباً).

وهكذا تصل قوة الإسراع في الانحطاط إلى سرعة الرجل إذ يسير بسرعة ٩ أميال في الساعة، ثم تهبط السرعة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى سرعة الحلزون إذ يجري ١٥ من (١٠, ٠٠٠) من الياردة في الثانية، ثم تهبط إلى درجة نحو شجر الغاب إذ يصل إلى ٢٧ جزء من عشرة آلاف مليون جزء من الياردة في الثانية الواحدة. فيا سبحان الله. يقول الله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[يس: ٣٨]، هذه الحركة الشمسية التي ذكرناها هنا هي الحركة الأرضية، ولكنها منسوبة للشمس باعتبار ما يظهر للرائي، وهناك حركة أخرى للشمس هي ومجموعتها حول كوكب آخر. فالشمس تجري، والأرض تجري، وجري الأرض حول الشمس بحسب الظاهر لا يختلف عن جري الأرض حول الشمس، كما هو مبرهن عليه في ذكر الموازنة بين الحركات، الله تعالى قدر الحركات كلها، فقدر حركات الأشجار في نموها حتى بلغت جزءاً ضئيلاً جداً من الياردة في الثانية، ومعلوم أن الياردة أقل من المتر قليلاً، كما قدر حركة النور الذي يجري حول الأرض قريباً من ثمان مرات في الثانية، وقدر ما بينهما من حركات الإنسان وسياراته وسيارات السماوات. فالله قدر هذه الحركات وأعطى كل مخلوق ما يستحقه، فلو أعطى الغاب في نموه حركات النور أو لو أعطى النور حركات الغاب في نمو أشجاره لاختل نظام العوالم، فإذا جرى جرياً ضعيفاً كجري العربات لم يعش حيوان على الأرض، ولو أسرع نمو الأشجار إسراع الأضواء في جريانها لم ينتفع الناس بشيء في الأرض، لأن سرعة النمو يتبعها سرعة الذبول، فلا يكون هناك ثبات لشيء ولا بقاء ولا انتفاع. فهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[يس: ٣٨]، فهو قدر حركات الأجرام السماوية بمقادير تناسبها. ولم يعط القطارات على الأرض ولا الطيارات سرعة النور ولا الكواكب، لأنها إذا أسرعت هذا الإسراع أهلكت من عليها حالاً بسرعة حركتها. فمن تأمل هذا التقدير والإبداع أدهشه حسن التقدير ونظم المسير، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[يوسف: ١٠٠].

ركوب الريح أو الطيران خمسة أميال في الدقيقة

جاء في مجلة «كل شيء» ما نصه:

كان القدماء لا يعرفون مركوباً أسرع من الجواد والبختي «وهو الجمل ذو السنامين»، وكانوا يقولون في وصف أحدهما إنه ينهب الأرض نهباً، ولكننا نحتاج الآن إلى تعابير أقوى من هذه الجملة لكي نصف طيران الطيارات التي تطوي بساط الريح وتشق الفضاء. ومن يقرن الطيارات إلى الخيول كمن يقرن المصباح الكهربائي الحديث إلى مصباح الزيت القديم الذي كان القدماء يضربون المثل بجماله وصفاء زيته.

وقد كان الناس قديماً يعجبون لقطار الاكسبريس وسرعته التي تبلغ أحياناً (٦٠) ميلاً في الساعة. وكان بعضهم من المتعاقلين يهز رأسه ويقول بضرر هذه السرعة العظيمة على الركاب. ولكن أسرع الاكسبريسات الآن سلحفاة إلى جانب الطيارات. فقد ذكرت الصحف من مدة قريبة أن مهندساً فرنسياً استطاع أن يطير (٣٠٢,٣) من الأميال في ساعة واحدة، وهذا أبعد مدى بلغه طيار للآن، لكن الطيارين يؤملون أن يطيروا قريباً نحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ ميل في الساعة، بحيث يستطيع الإنسان أن يتغدى في لندن أو باريس ويتعشى في القاهرة. وقد كانت هذه الأقوال تعتبر قبل سنوات خيالاً سخيفاً لا يتحقق ولكنها الآن فقدت غرابتها، وباتت المسألة محصورة في تحسين محركات الطيارة من وجوه الإتقان ومتانة المواد. أما الاختراعات الجديدة فليس الطيارون في حاجة إليها. وأقرب سرعة بلغها طيار بعد هذا الفرنسي هي سرعة طيار أمريكي في خدمة حكومة الولايات المتحدة، قطع ٣٠٠ ميل في الساعة، تلي ذلك سرعة ضابط أميركي بلغت(٢٤٨,٧١) في الساعة، ثم سرعة طيارة بحرية بلغت (٢٤٥٧١) في الساعة، ثم سرعة أوتوموبيل بلغت (١٥٦) ميلاً في الساعة، ثم القطار الكهربائي وسرعته (١٣٠) ميلاً في الساعة، وأخيراً زورق يدفعه محرك سرعته (٥, ٨٠) ميلاً في الساعة. (انظر شكل٣٥و٣٦).



(شكل٣٥ ـ أسرع العجلات في العالم)

١ - (زورق) ٥, ٨٠ ميلاً

٢ - (قطار كهربائي) ١٣٠ ميلاً

٣ - (أوتوموبيل) ١٥٦ ميلاً

٤ - (طيارة مائية) ٧١, ٢٤٥ ميلاً

٥ - (طيارة أميركية) ٣٠٠ ميلاً

٦ - (طيارة فرنسية) ٣, ٣٠٢ ميلاً



(شكل٣٦ ـ بيان تصويري لأسرع الأشياء في العالم وأبطئها)

هل بلغ الإنسان أقصى سرعته في البر والبحر والهواء

أسرع قطار في العالم يجري بسرعة نحو ٦٨ ميلاً في الساعة. وفي السنة الماضية أجرى المسابق جاروود قاربه بسرعة ٩٣ ميلاً، وساق سيجرايف سيارته بسرعة نحو ٢٣٢ ميلاً في الساعة، وطار أورلبار في الصيف الماضي بسرعة ٦٩٣ ميلاً في الساعة، ويلغ متوسط سرعته في سباق ٣ كيلو مترات ٣٥٨ ميلاً. ولا يزال الإنسان يطلب المزيد. والعلماء مختلفون فمنهم من يقول: إن سرعة الإنسان قد تجاوز ٥٠٠ ميل إلى ألف في الساعة، ومنهم من ينكر ذلك، ومسألة السير على مبدأ انطلاق الأسهم النارية تجعل الخبيرين حائرين لا يدرون أتبلغ هذه السرعة أم لا؟ والسرعة عند الإنسان لا يريد بها مجرد التظاهر، وإنّما هي خلة كانت لأسلافه واليوم تظهر فيه على مبدأ الرجعية، فعلى سرعة عدو الإنسان الأول توقف فراره من أعدائه ومطارديه، ولم يكن على جانب عظيم من سعة الحيلة لينجو منها، ولا يزال يعمد إلى السرعة حتى الآن في بعض مواقفه إما دفاعاً عن نفسه، وإما مماشاة لسائر الأشياء التي حوله، وهو يعلم بخبرته أن كثيراً من الوقت الثمين يقتصد بهذه السرعة، ففي أمريكا مثلاً اقتصد بالطيران ثلاثة أيام في قطع أميركا من الشرق إلى الغرب أو العكس، اكتشف العلماء ذبابة اسمها ذبابة الغزال تطير في مسافات قصيرة بسرعة لا تصدق، أي بسرعة ٨١٥ ميلاً في الساعة أو نحو ٣٦٠ متراً في الثانية، وسرعة مثل هذه مستحيلة على اليابسة، وقد تكون ممكنة على الماء في طيارة تستخدم الهواء والماء معاً من نوع الهيدروبلاين ولكنها ليست مرجحة، والصعوبة العظمى في بلوغ هذه السرعة فسيولوجية أكثر منها ميكانيكية، وبعبارة أخرى: إذا تمكن الإنسان من اختراع سيارة أو طيارة تحتمل هذه السرعة فهل يحتملها هو؟ والجواب لا. ثم لا، وإذا احتملها فالمرجح أنه لا يستطيع أن يدير مركبة تجري بهذه السرعة من غير أن يلقى الحتف الأكيد. وإذا كانت السيارة تسير بسرعة ٢٣٠ ميلاً فقط لا ٨١٥ ولا ١٠٠٠ فإنها لا تستطيع أن تسير في خط دائري منحرف إلا وتتعرض لآفات وصدمات هائلة بل يشك في هل يستطيع إنسان أن يقود سيارة تسير بسرعة ٣٠٠ميل لأن أعصابه لا تحتمل هذه السرعة. فقد قاس همهولتز الألماني سرعة انتقال الانفعالات على أعصاب الجسم بين الدماغ والأطراف فوجد أنها ١٠٨ أقدام في الثانية، وسيجرايف سار في سيارته بسرعة ٢٣٢ ميلاً في الساعة أو ٣٣٩ قدماً في الثانية، أي ثلاثة أضعاف سرعة أعصابه، ومعنى هذا أن السيارة ليست في قياده، وأن أقل ميل أو تردد يجر أعظم الأخطار. وأن كل خطر يحسب حسابه يمر قبل ما يشعر السائق به فضلاً عن أن يحول دون وقوعه. وقد وجد الماجور سيجرايف أن مصاعب إدارة السيارة كانت عظيمة فلذلك استخدم في إدارتها وسائل مختلفة، وقد سئل عن شعوره في أثناء مسيره هذا فقال: لا أعلم وليس عندي أقل صورة في ذهني، لأن كل شيء يتم بسرعة عظيمة لا مجال فيها للشعور ولا لتقديره وتسجيله. ولما لم يرض سائلوه بهذا الجواب ألحوا عليه فقال: إن كل شيء مضى بسرعة، حتى إن شعوري كان جميلاً فقد كان قصيراً. فعلى جانب رأيت سداً أسود هائلاً من المشاهدين، وعلى الآخر الأعلام المنصوبة للسباق متصلة كأنها خط مستقيم مرسوم على ورقة الآلة الكاتبة. وفي وقت من الأوقات مرت السيارة فوق شبه قناة احتفرها المد في الرمل فانكسر شيء فيها. ثم صدمت حفرة ماء كالبركة فظن أن الدولاب

الذي تدار به السيارة اقتلع من يديه . فاختباره يدلنا على أن سرعة السيارة لا يمكن أن تزيد على هذه السرعة وتكون سرعة نافعة يعمل بها . ومن رأي الخبيرين أن حد احتمال الإنسان هو ٤٠٠ ميل في الساعة ، لأنه إذا كانت السرعة ٥٠٠ ميل فما بعد تصبح قوة الدفع عن المركز عظيمة إلى حد أن دورة إلى هذه الجهة أو حركة إلى فوق أو إلى تحت تفرغ الدم من دماغ الراكب أو تدفعه بقوة إليه ، فإما أن يغمى عليه أو يقتل في مكانه ، ويقال إجمالاً عن سرعة الطيران : إن الإنسان قد يبلغ على التدريج سرعة ألف ميل في الساعة ، فيدور حول الأرض فوق خط الاستواء في يوم كامل . ولما كانت هذه السرعة هي سرعة دوران الأرض على محورها ، فإذا خرج طيار بطيارته من القاهرة ظهر يوم ما على نية الدوران حول الأرض فإن الوقت يبقى عنده الظهر على الدوام حتى يعود إلى القاهرة بعد ٢٤ ساعة أي ظهر اليوم التالي فيها ، وتبقى الشمس فوق رأسه لا تشرق عليه ولا تغرب عنه . انتهى من مجلة « كل شيء ».

علم الفلك ودراسة الكواكب فيما وراء البحار

مقدمة

إن من يدرس هذه الدنيا قديمها وحديثها علويها وسفليها يدهشه نظام محكم وتشابه مبين . نظر العلماء أيامنا هذه في أصل العالم فوجدوا عناصر الشمس وعناصر الأرض متحدات . فالشمس المشرقة الباهرة الجميلة إذا أرسلت أشعتها فلم تكن هذه الأنوار إلا فيضاً من أنوار عناصرها اللواتي تمت عناصر أرضنا إليها بنسب ويربطها بها سبب . فإذا كان عندنا الأكسوجين والأدروجين والنتروجين « وهو الآزوت » وهكذا غيرهن كالكربون والحديد والنحاس والذهب والرصاص وما أشبهها من العناصر التي تبلغ نحو الثمانين عداً .

أقول : إذا كان ذلك كله في أرضنا فإنهم وجدوه في شمسنا ، وجدوه بمعونة النور ، إذ حللوه فظهر لهم الاختلاف بعلامات واضحة في ثنايا الأشعة النورية ، وهي خطوط سود تتخلل سبعة الألوان ، وهذه الأشعة السود المتخللات تختلف أحوالها باختلاف العناصر . فالحديد والنحاس والأكسوجين والفسفور مثلاً كلهن إذا ظهرت أنوارهن في حال خاصة تبينت تلك الخطوط السود في ثنايا سبعة الألوان بهيئات مختلفة ، كما اختلفت أجسام الناس لوناً وشكلاً وكبراً وصغراً . وكما اختلف النبات في تنوع لون خضرته وبهجة زهرته ورونق ورقه وبديع ثمره كما يذكر في ثنايا هذا التفسير ، وكما رأوا ذلك في الشمس رأوه في غيرها من الكواكب بواسطة النور . إذن الحال تجري على نسق واحد ، لأن أصل العالم صادق البناء أساسه فهو الواحدة على طريقتها يجري ، اقرأ ما تقدم في سورة « السجدة » عند ذكر الإنسان في المجلد الثامن . انظر فيه هناك وتأمل تجد نظام الإنسان يحاذي نظام العالم كله ، أظنك الآن تسمعني قوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣-٤] .

إنك أيها الذكي بعد هذا البيان توافقني على ما قلته لك ، وهو أن العالم متشابه النظام ، فترجع إلى سورة « البقرة » فتسمع فيها قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا

مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾[البقرة: ٢٥] ، فاقرأ هذا الموضوع هناك ثم ارجع هنا واسمع ما أقوله لك، ألم تقرأ ما نقلته عن أكابر العلماء هناك من أن الجنة الحسية لا تكفي الحكماء، وإنّما نعيمهم وسعادتهم في جنة المعارف والعلوم. فإذا تشابهت الثمرات المأكولة لأهل الجنة الحسية فما أقرب التشابه والمشاكلة في الجنة العقلية وهي العلوم والمعارف. فترى دراسة الجسم الإنساني تمتد بنسب إلى دراسة النظام الشمسي والكوكبي، وكلما درس الإنسان علماً من العوالم ووجد المشابهة واضحة رجع إلى أصلها ومبدئها فوجده واحداً. إذن تشابه العوالم يرجع المفكر إلى منبعها وهو التوحيد. إن الوحدة ظاهرة في النظام.

إذا عرفت هذه المقدمة فهل لك أن أحدثك في علوم عوالمنا الأرضية. وهل كان يدور بخلدك قبل ما ستسمعه أن علم الفلك أو حساب سير الشمس والقمر والكتابة بالقلم ونظام الأبنية له نظير في الأمم التي لا صلة بينها وبين أممنا في آسيا وأفريقيا وأوروبا. وبعبارة أخرى: هل كان يخطر لك أو تحدثك نفسك أن أهل أمريكا الأصليين الذين عرفهم الأسبان منذ ٤٠٠ سنة وكشف بلادهم «كرستوف كولمبس» كان لهم علم فلك وحساب للسنين والأشهر مثل ما عندنا الآن.

أما أنا فأقول: إن الاطلاع على ذلك والوقوف عليه ودراسته إذا كان له وجود يكون ساراً للذيذاً وشارحاً للصدر وموافقاً كل الموافقة لما ظهر من تناسب العناصر في الأرض والشمس واتحادها ذاتاً وصفاتاً، وذلك يؤيد صدق قاعدة هذا الوجود وهي المشابهة، إذ متى أطلعتك على هذا الآن كما جاء في الكشف الحديث في هذه الأيام عند طبع هذه السورة، فإنك تقول بطريق القياس التمثيلي: إن هذه الكواكب التي نراها مسكونة كما سكنت أرضنا، نعم هذا ليس باليقين ولكن ذلك هو ما وصل لنا، وعقولنا لا قدرة لها على أكثر من ذلك.

لقد تقدم رسم صورة للتقويم في المكسيك في آخر سورة «الفرقان»، فاسمع إذن ما جاء في مجلة «المقتطف» في شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ تحت العنوان الآتي وهذا نصه:

الحضارة القديمة في العالم الجديد

(مصر) القارة الأمريكية

كتابتها. علمها. مبانيها. نقوشها. تاريخها

لقد أطلق الكتاب على بلاد المايا في غواتيمالا بأمريكا المتوسطة وما يجاورها من البلدان كيوكاتان وجنوب المكسيك وسلفادور وشمال هندوروس لقب مصر القارة الأمريكية، لما عثر عليه العلماء من وجوه الشبه بين عمارة المايا وكتابتهم وعمارة المصريين وكتابتهم. وازداد هذا اللقب تمكناً وتأييداً لما ثبت للباحثين أن حضارة المايا هي أقدم الحضارات الأمريكية الراقية، ومصدر الثقافة التي امتدت عناصرها إلى البلدان المجاورة، ولأن أنصابها أعلام تقاس بها مراحل الحضارات الأمريكية القديمة وتؤرخ كمسلات المصريين القدماء ومدافنهم.

وإذا نظرنا إلى الأحوال التي نشأت فيها أمة «المايا» وجدنا أن منشآتها العمرانية تضاهي أرقى المنشآت العمرانية في أرقى الأمم القديمة. فإقليم البلاد التي نشأت فيها حار يضعف القوى ويخمد النشاط، وهو في الوقت نفسه يؤتي الزرع، مما جعل الزراعة هناك نزاعاً دائماً بين الإنسان والطبيعة في

غاباتها وحراجها الغضة، التي كانت لخصب الأرض وجودة الإقليم تسطو على المناطق التي يزرعها الإنسان وتكسوها. ومع ذلك نشأ في تلك البلاد وفي ذلك الإقليم حضارة راقية من أرقى الحضارات القديمة مع أنها لم تتصل ـ على ما نعلم ـ بالعالم القديم.

وشعب المايا هو الشعب الوحيد الذي استنبط في أمريكا طريقة للكتابة واستعملها في تدوين مدوناته، وهذه الطريقة الكتابية الهيروغليفية تحسب أعظم مآتي أمريكا العقلية في العصور الغابرة، أما العلماء فلم يفوزوا حتى الآن بحل كل هذه الرموز الهيروغليفية، ولكنهم عثروا فيما حلوه منها على أركان التاريخ «المايا» وأصول تقويمهم وعلومهم الفلكية والرياضية. وقد يكون الباقي منها منطوياً على وصف الحوادث العظيمة التي حدثت لهم، أما الرموز نفسها فرسوم للأشياء أو للأفكار فيها ظل من الأثر الصوتي، ولكن ليس لها أبجدية.

أما تاريخ هذه الكتابة ومنشئها فمتغلغل في القدم تحيط به سحب الريبة والخرافة. ولم يعثر حتى الآن على أثر يحتوي على اسم المستنبط أو تاريخ الاستنباط أو غير ذلك من دقائق الموضوع. ومع أن أقدم المدونات المؤرخة يرجع تاريخها إلى سنة ٩٦ قبل المسيح، نجد في آثار الإتقان البادية في الإشارات الهيروغليفية دليلاً مقنعاً على أنها ليست بنت ساعتها، وأن قروناً انقضت عليها قبل ما بلغت هذه الدرجة في الإتقان. وما في هذه الإشارات من الخطوط المنحنية يدل على أنها كانت ترسم على سطح مستو أملس قبل استنباط فن النحت في الحجر الذي مكن أصحابها بعدئذ من نقشها في الحجر الصلب لحفظها مقاومة لأنياب الدهر، وعلاوة على هذه الكتابات المنقوشة في الصخور كان لشعب «المايا» كتب مكتوبة بالطريقة الهيروغليفية. وقد تلف منها معظم الكتب التي كانت تحتوي على كل علوم المايا وحكمتهم، أتلفها الأسبان حين افتتحوا البلاد وحكموها. فقد كتب مطران لندا يقول: وقد جمعت أربعة آلاف من هذه الكتب والتصاوير الشريرة وحرقتها كلها في الميدان العام ببلدة تيكال رغم حزن الوطنيين وبكائهم.

على أن الوطنيين في حزنهم وبكائهم على فقد هذه الكنوز العقلية الثمينة لا يبلغون شأو العلماء في هذا العصر الذي لا يرون بين أيديهم إلا ثلاثة من هذه الكتب، يحاولون أن يستخرجوا منها أصول حضارة المايا ومآثرها، والكتب الثلاثة التي لم تعبث بها أيدي الأسبان محفوظة الآن في خزائن أوروبا، وهي في الغالب تدور حول جداول فلكية ورياضية وبعض التهاويل السحرية، والظاهر أن انحصار هذه المعارف في طبقة كهنة «المايا» كان الباعث على إتلاف الكتب التي دونت فيها، لأن الكهنة الأسبان كانوا ينظرون إلى كهنة المايا نظرهم إلى الشياطين، فحملوا القواد على الفتك بهم وإتلاف كتبهم. (انظر شكل ٣٧).

(شكل ٣٧ـ خريطة البلاد التي نشأت فيها حضارة «المايا» وازدهرت)

معارفهم الفلكية والرياضية

وقبل ما نلم بتاريخ « المايا » لننظر نظرة عجلى في معارفهم الفلكية والرياضية ، لأن الباحثين مجمعون على أن عملهم في هذه الناحية من نواحي الثقافة لا يفوقه عمل أية أمة أخرى في إقليم كإقليمهم وبيئة كبيئتهم . فهو كاستنباطهم للكتابة الهيروغليفية أعظم المآتي العقلية في أمريكا القديمة .

التقويم

كل تقويم يجب أن يبنى على قياس دقيق لطول السنة . وهذا القياس عمل صعب إن لم يكن متعذراً في أمة لا تملك أدوات فلكية دقيقة . فالسنة على ما نعلم يتعذر تقسيمها إلى عدد كامل من الأيام والشهور ، لأنها مؤلفة من ٢٤٢٢ , ٣٦٥ يوماً أو ١٢ شهراً قمرياً و٣٧ في المائة من الشهر ، كل منها مؤلف من ٢٩ يوماً و٥٣ في المائة من اليوم ، وهذه الكسور في الأيام والشهور كانت ولا تزال العقبة الكأداء في سبيل واضعي التقاويم على اختلافهم . فالسنة حسب التقويم اليوناني الذي كان مستعملاً في جنوب أوروبا إلى سنة ١٥٣٢ وفي شمال أوروبا إلى سنة ١٧٠٠ وفي روسيا إلى بعيد الحرب ؛ كانت أطول من السنة الحقيقية ١٢ دقيقة ، فكانت النتيجة أنه لما عزمت روسيا أن تجري على التقويم الجريجوري كان الخطأ في اليولياني قد بلغ نحو أسبوعين ، على أن أمة « المايا » تمكنت من غير أدوات الرصد أن تضع تقويماً من نحو ألفي سنة ، لا يبلغ الخطأ فيه أكثر من يوم في ٢١٤٨ سنة . أما التقويم الذي نجري عليه اليوم فلا يفوق المايا كثيراً . فالخطأ فيه يبلغ يوماً واحداً في ٣٣٢٣ سنة . كذلك تمكن علماء المايا أن يضعوا تقويماً قمرياً لا يزيد فيه الخطأ عن يوم واحد في ٣٠٠ سنة .

علم الهيئة

وعلاوة على ذلك تمكن رصد « المايا » من أن يعرفوا مدى دوران الزهرة ، والمرجح أنهم قرروا مدى دوران المريخ ، ويحتمل أنهم عرفوا مدى دوران المشتري وزحل وعطارد . وبنوا على دورة الزهرة تقويماً كانوا يستعملونه في ضبط التقويم الشمسي والتقويم القمري . فقد كانوا يعرفون مثلاً أن ثماني سنوات شمسية تعادل تقريباً خمس سنوات من سني الزهرة ، وأن ٦٥ سنة من سني الزهرة تعادل مائة سنة وأربع سنوات من سني الشمس . وكانوا يستعملون التقاويم الثلاثة لتقدير أزمنة طويلة ، وقد وجد على ما يدل أنهم تنبؤوا بحدوث حوادث فلكية تمتد إلى أكثر من ٣٤ ألف سنة . وكانوا يتنبؤون بالكسوف .

الصفر

أما الجداول الرياضية التي وضعوها فكان يلزم لها قبل وضعها استنباط فكرة « الصفر » ، وهذا الاستنباط من مفاخر حضارة « المايا » . فالصفر أمر تعودناه في الجداول الحسابية الآن حتى أصبحنا نراه غير ذي خطر ، فنقول عنه إنه رمز للعدم . ولكن لولا هذا الرمز لتعذر القيام بالعمليات الحسابية قياماً سريعاً ، ولما تمهدت الطريقة للحساب العشري ، ولظلت العلوم الرياضية تجر ذيولها على الأرض . فالصفر هو الذي يمكننا من ترتيب الأرقام حتى يكون لكل رقم منها قيمة خاصة بحسب الرتبة التي يكون فيها . ومع ذلك لم يستنبط الصفر إلا في القرن السادس أو السابع بعد المسيح ، استنبطه الهنود

ونقله العرب إلى أوروبا فانتشر في بلدانها . على أن أمة المايا استنبطته على حدة قبل ما استنبطه الهنود بألف سنة . اهـ .

هذا ما جاء في « المقتطف » ولم أرد أن أذكر تاريخهم السياسي كما ذكر لأنه لا يعنينا ، وإنّما أقول لك : إن هذه الأمم التي ارتقى علمها إلى هذه الدرجة قد أصابهم داء التخاذل وفشت المجاعة فيهم ، وجاء على أثر ذلك فتوح الأسبان . هاأنت ذا أيها الذكي رأيت الأمم الأمريكية القديمة وكيف استنبطوا حروفاً كما استنبط أسلافنا ، ودرسوا الفلك كما درسوه ، وبنوا أبنية شامخة كما بنوا ، مع أنه لا صلة بينهم ، فاعجب لنظام واحد في نصفي الكرة الأرضية كنظام واحد في الشمس وفي الأرض ونظام واحد في المجرات .

إن هذه هي الموسيقى الجميلة . إن الموسيقى والنقش والتصوير وجميع العلوم الجميلة ترجع إلى التناسب ، فكلما كثر التناسب تضاعف الجمال ، ولا نهاية للجمال ، وهذه العوالم كلما عثرنا على ازدياد تناسبها وارتباطها ازدادت بهجتنا وفرحتنا ، وإذا رأيت هنا في الأرض مشابهة في الحساب السنوي والشمسي والقمري في نصفي الكرة الأرضية فأبهجنا الاتفاق والتناسب ، وتعجبنا كيف اتفقت العقول المختلفة المتباعدة على وضع واحد ومهيع قليل الاختلاف ، فكيف يكون فرحنا حينما نخلع هذا الجسم ونسير في المجرات والعوالم وتشابه مدنيات ونظم تربو وتعظم على مدنيات أهل الأرض ونظمها ، أليس ذلك يورثنا سعادة لا نهاية لها وغراماً لا حد له لبهجة الجمال والحسن والإشراق . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٣ مايو سنة ١٩٣٠ .

تذكرة لأمم الإسلام

هذا هو الذي ظهر للناس اليوم من العلوم الفلكية في القارة الأمريكية ، تلك البلاد التي لم تكشف إلا منذ ٤٠٠ سنة كشفها « كرستوف كولمبس » بأمر الملك « فرديناند » وزوجته « إيزابلا » ذلك الذي أزال ملك الأمم العربية الإسلامية من بلاد الأندلس وشردهم شر مشرد . إذن ظهر بهذا أن الأمم كلها متحدات على النظر في هذه العوالم العلوية ، ولقد تقدم في سورة « يونس » نبذة من علم الفلك مصورة بالتصوير الشمسي بهجة المنظر عجيبة . وذلك في موضوعين : الأول : عند آية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾[يونس : ٥] . والثاني : عند آية : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾[يونس : ٩٢] . وقد ذكرت هناك أن بين المقامين تناسباً عجيباً ، فإن المقام الأول فيه ذم الغفلة عن هذه الآيات ، وأن هذه الغفلة تورث نار جهنم ، والمقام الثاني فيه ذم الغفلة أيضاً عن آيات الله ، فترى الصور الفلكية العلمية واضحة في المقام الأول هناك ، بحيث تجد صور كثير من السدم وصورة المجرة وهكذا . وفي المقام الثاني تجد من أعجب ما أنتج العقل الإنساني بمصر من صور البروج الاثني عشر مرسومة بحسب ما تخيلته الأمم ، وبقيت أسماؤها إلى الآن ، وهذا عجب . وهنالك ترى عجائب الأهرام ونظام حسابها المبني على أساس الدائرة السنوية للأرض حول الشمس ، ولارتفاعه نسبة إلى بعد الأرض عن الشمس ، وهذا الهرم هو أس القناطر والرطل والوقية وهكذا من الموازين ، وأس الفدان والقيراط والحبة والدانق والسهم والذراع البلدي والنيلي والمعماري والهندسي في المساحات . وأيضاً هو أس الأردب والويبة

والكيلة والربع والملوة والقدح ونصف القدح في المكيالات، فكل هذه منسوبة للهرم المنسوب لنظام الفلك. كل ذلك تقدم هناك فارجع إليه إن شئت.

وإن تعجب فعجب أن ترى صور البروج المرسومة هناك قد استخرجها القوم في زماننا من صناديق الموتى وصوروها بالتصوير الشمسي، فنحن المصريين الآن نعجب أن نرى الأمم الذين كانوا قبل آلاف السنين في ديارهم يحظى موتاهم في قبورهم بعلم الفلك مرسوماً على الصناديق التي تضم أجسامهم بعد موتهم، ونحن الآن وأكثر المسلمين أجهل الأمم بعلم الفلك الذي أقسم الله ببعضه فقال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾[الشمس: ١-٦]، وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وأعظم قدره فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[الواقعة: ٧٦]، وأكثر من ذكر الشمس والقمر وأنهما آيتان من آيات الله تعالى، وهكذا هنا يذكر الأرض والشمس والقمر والليل والنهار، إذن المسلمون أقل علماً من الأمم الحاضرة كلها، ومن قدماء المصريين وقدماء أهل أمريكا الذين انقرضوا إلا قليلاً، فأين الأمم الإسلامية الحقيقية، وإذا سمعنا الله يقول: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، ثم نظرنا فوجدنا الأمم البائدة تعلم من جمال الله في كواكبه ما لا نعلم، ووجدنا الأمم النصرانية كلها عالمة به ونحن عالة عليهم، فأين نحن من هذه الخيرية التي لا توجه إلاّ إلى أمم علمت وارتقت ورقت أهل الأرض كما تم فعلاً لأسلافنا، فهم حقاً ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، ولا يلزم من أفضلية الأب ونفعه للناس أفضلية الابن ونفعه لهم، فتأمل ما جاء في كتاب الأستاذ سديو الفرنسي في صحيفة ٢١٢ وما بعدها المطبوعة في الترجمة العربية، إذ يقول ما ملخصه: إن نار الحرب المشتعلة في القرن الحادي عشر في الشرق بعد الميلاد، فكان فتح محمود الغزنوي، وكانت غارة السلجوقيين، وكانت حروب الصليبيين وإعدام صلاح الدين الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١ من مصر، وإعدام هولاكو الخلافة العباسية ببغداد سنة ١٢٥٨، قد غيرت معالم السياسة في آسيا، ومع ذلك ما زال تقدم العلم كما كان قبلاً، وظهر هناك علماء مثل البيروني في الفلك إذ أحضره محمود الغزنوي سنة ٩٩٧ في ديوانه، وأحضر هولاكو خان المغولي إلى ديوانه بعد تغلبه على الملك سنة ١٢٥٩ نصير الدين الطوسي، وهكذا نقل جمال الدين الفلكي مع الخان كوبلاي علوم العرب إلى مملكة الصين، وهكذا الخ، وقد ذكرت هذا مطولاً في مواضع أخرى من هذا التفسير. إذن هؤلاء هم الذين كانوا ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] بنص الآية، لأننا وجدنا الفرنجة شهدوا بأن علمهم في الفلك الذي نحن بصدد الكلام عليه قد امتد إلى الصين وبقي بعد ذهاب دولهم ونفع الدول التي جاءت بعدهم في الشرق.

(١) ألم تر إلى ما يقوله العلامة الفرنسي المذكور من أن أبا ريحان محمد بن أحمد البيروني المتقدم ذكره ـ الذي كسب علومه من المدرسة البغدادية حين أحضره الغزنوي المتقدم ذكره إلى ديوانه ـ أخذ يستفيد العلوم الفلكية من الروايات الهندية التي عندهم قديمة وحديثة، ويفيدهم علوم قومه في الفلك أيضاً ويبثها لهم في كل جهة مر بها، وألف ملخصات عربية وهندية، وكان مشيراً وصديقاً

للغزنوي المذكور في ديوانه ، وأصلح الغلطات الباقية في حساب الروم والسند وما وراء النهر ، ووضع قانوناً جغرافياً كان أساساً لأكثر القسموغرافيات المشرقية ، واعتمد على كلامه سائر المشرقيين في الفلكيات ، ومنه استمد أبو الفداء الجغرافي العروض والأطوال الأرضية ، وكذا أبو الحسن المراكشي .

(٢) ويقول : إن الهند لم يكن فيها قبل الإسكندر المقدوني علم الفلك تاماً ، بدليل أن أرسطاطاليس أستاذه لم ينقله عنهم لليونانيين . ولذلك تجد « كتاب السند هند » المترجم في خلافة المنصور إلى العربية لم تكن فيه إلا مسائل ابتدائية في علم الفلك .

(٣) ويقول : إن العرب أتوا في الفلك بالعجب العجاب ، وأتقنوا الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والميكانيكا وطبقوا الجبر على الهندسة .

(٤) ويقول : « ليس للعرب مجرد نقل كتب اليونان ، فقد اخترع « البتاني » استبدال أوتار الأقواس التي استعملها اليونان في حساب المثلث بأنصاف الأوتار للأقواس المضاعفة وهي جيوب الأقواس المصورة . قالوا : إن بطليموس لم يكن يستعمل الأوتار الكاملة إلا لتسهيل الإثباتات والتوضيحات ، وأما نحن فقد استصوبنا استعمال أنصاف الأقواس المضاعفة وهكذا .

وقد أطال في ذلك ولا أريد أن أطيل لئلا يكون الملل ، وإنّما أريد الآن إظهار الحقيقة واضحة ، وهي أننا نحن الآن في مصر والشام والعراق وبلاد الفرس وجاوه وبلاد الملايو وبلاد شمال إفريقيا قوم جهلاء في علم الفلك الذي حض القرآن عليه ، ولم نساو أمة من الأمم . فلا نحن وصلنا لقيمة قدماء المصريين الذين صوروا هذا العالم على صناديق الموتى تبركاً به ، ولا لقيمة قدماء الأمريكيين قبل فتح بلادهم ، ولا لقيمة الهند القديمة ، ولا لقيمة آبائنا القدماء في الإسلام أيام صولتهم وبعد ذهاب ودلتهم ولا لقيمة أمم أوروبا واليابان والصين الآن ، فنحن اليوم بهذا البرهان أجهل الأمم بالعلوم الرياضية ومنها الفلك ، والسبب في ذلك ما انتاب أمتنا قديماً من الاضطهاد والإذلال . فلقد كانت الأمم الإسلامية المتأخرة لا تريد إلا العلو ، كما فعل الترك ، إذ هم لما دخلوا مصر أزالوا منها الصناعات بمجرد دخولهم ، وأخذوا مئات ومئات من رجال الصناعات فسافروا في البحر ثم أغرقوا ، فأما المدارس المنتشرة فإنهم نقصوها تدريجاً حتى خلت البلاد من رائحة العلم ، ولم يبق إلا قشور ضئيلة وإلا مشايخ التصوف الذين كان أكثرهم جهلاء . فلما جاءت أيام محمد علي باشا حوالي سنة ١٢٢٠ هجرية واستتب له الملك ، أدخل جميع العلوم في البلاد ومنها الفلك . ولما دخل الإنجليز بلادنا في أوائل القرن الرابع عشر الهجري أخذوا يقللون العلوم تدريجاً كما فعل الترك . ولما دخلنا نحن « دار العلوم » سنة ١٨٩٠م أي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري بعد الحرب العرابية بقليل قرأنا هذا العلم مع الرياضيات ، إذ كان ذلك بقايا علوم تلك الدولة المصرية التي أسسها المغفور له محمد علي باشا . وبعد ذلك بسنين معدودة وجدنا هذا العلم قد محي من البلاد ، ومحيت معه علوم المعدن والنبات والحيوان والتشريح ، علماً من الفاتحين للبلاد بأن تلك العلوم مرقيات للأمم وهم لا يريدون ذلك . فلما أخذت بلادنا استقلالاً اسمياً سنة ١٩٢٢ ميلادية دخلت بعض تلك العلوم ، وهاهي ذه علوم التاريخ الطبيعي تدرس كالحيوان والنبات الخ ، ولكن إلى الآن لم يدخل علم الفلك مع توفر علم الرياضيات ، وذلك

بعد أن أرسلت خطاباً لمجلس النواب وللوزارة المصرية، تجده مكتوباً في هذا التفسير في سورة «يونس» تحت عنوان: «مذكرة لإصلاح التعليم الثانوي بالمملكة المصرية» عند الكلام على آية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾[يونس: ٥].

إن الأمم الإسلامية كما منيت بالملوك الظالمين الجاهلين من الأمم الإسلامية وغير الإسلامية فغيروا وجهتها؛ منيت أيضاً بكثير من رؤساء الدين الجهلاء الذين يفعلون معهم فعل الملوك الفاتحين، فيذمون لهم العلم ويزينون لهم الجهل، وقد تقدم هذا في غير ما موضع في هذا التفسير. وتجد بعضه في سورة «إبراهيم» في أواخرها، وبعضه في سورة «الكهف» عند الكلام على آية: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[الكهف: ٥١]، وبعضه في سورة «سبأ». ووالله إنه ليؤلمني أن يسود الجهل في بلاد الإسلام، تلك الأمم التي كان أسلافها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، فهم هم الذين بعلم الفلك والجغرافيا أيقظوا العمران، وأناموا الجهل، ونفعوا عباد الله. ألم تر إلى ما ذكره العالم المذكور الفرنسي في صحيفة (٢٢٧) وما بعدها أنهم أنشؤوا أربع طرق عظيمة تجارية توصل من مدينتي قادس وطنجة إلى أقصى آسيا إحداها: تخترق أسبانيا وأوروبا وبلاد سلاوونة إلى بحر جرجان ومدينة بلخ وبلاد تجزجز. والثانية: تخترق بلاد المغرب ووادي مصر ودمشق والكوفة وبغداد وبصرة والأهواز وكرمان والسند هند. والثالثة والرابعة: تعبران البحر الأبيض المتوسط، وتتجه إحداهما من الشام والخليج الفارسي والأخرى من الإسكندرية والبحر الأحمر للتوصل إلى بحر الهند. فكثرت بهذه الطرق السياحات، ونقل السياحون إلى أقصى البلاد ما عند العرب من الأفكار والتمدن واستفاضت الأخبار الجليلة الخ.

هذا ما أردت ذكره الآن، ولقد سبق بأوسع من هذا في غير هذا الموضع، فهؤلاء هم أسلافنا في العلوم الفلكية والجغرافية، فهم كانوا نوراً أضاء بلاد المشرق والمغرب بشهادة الأوروبيين الذين نقلوا العلم عنهم كما رأيته. إذن الآيات المذكورات هنا في الشمس والقمر والأرض والليل والنهار لا يعمل بها المسلمون الآن لا هي ولا غيرها إلا قليلاً منهم كأمة الترك الآن.

فإذا ثبت هذا فهل نحن ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] الآن. لا. لا. نعم إن انتشار هذا التفسير وأمثاله سيحدث في أمم الإسلام انقلاباً عظيماً، وسيكون وطيد البنيان ثابت الأركان، لأن المدنية المستقبلة ستبنى على تجارب مما حل بآبائنا المتأخرين، ودراسة تاريخهم تجعل أبنائنا يقظين، ويكونون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، لأنهم يرون الضعف الذي حل بآبائهم فيجدّون ليقووا أنفسهم ويداووا هذا المرض الذي حل بهذه الأمة. إذن الأمم الإسلامية ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، ولكن أصابها الوهن والضعف والمرض فخفيت خيراتها وبانت عوراتها. ومتى حصل التداوي بنشر أمثال هذا التفسير يصح جسم الأمة وترجع المجد الذاهب والعز الزائل، ويكون أبناؤنا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] عملاً بالفعل لا بالقوة. ولن يكون ذلك إلا إذا قرؤوا جميع علوم الأمم شرقاً وغرباً وفاقوهم في ذلك وكانوا لهم نافعين، كما كان آباؤهم الأولون، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الاثنين ٢٦ مايو سنة ١٩٣٠.

اللطيفة الرابعة: عجائب الكواكب في الكشف الحديث وبدائع الحرارة والضوء في قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ إلى آخر الآيات

الله يقول إنه سلخ النهار من الليل فأظلم الناس. إن هذا فتح باب للتحليل. فهاهنا ضوء وهاهنا ظلمة، يقول الله إنه سلخ الأول من الثاني. أما الظلمة فهي عرض قائم بالأثير، وكذلك النور الذي هو تموج، وهذه الموجات المتتابعات الواقعات في الأثير إذا كثرت بحيث يكون في الثانية الواحدة منها مئات آلاف الملايين فإنها تكون حينئذ ضوء أحمر وأصفر وبرتقالياً وبنفسجيا، وقد تقدم ذكرها في غير هذا المكان، أعني أن ضوء الشمس ركب من سبعة ألوان، وهذه الألوان تختلف بحسب عدد الموجات في الثانية الواحدة، أي: نحو أربعمائة ألف ألف مليون إلى نحو (٧٠٠) ألف ألف مليون، فهذه الأضواء المرسلة من الشمس باتحادها صار هذا اللون الذي نشاهده على الأرض. فهذا كله يسلخه الله فيبقى الجو مظلماً. ولا جرم أن الظلمة عرض، والعرض يقوم بجوهر، إذن هناك جوهر مظلم ألبس نوراً فلما خلعنا لباسه أظلم كأصله.

هذا هو الذي عرفه الناس في الأرض من حال هذه العوالم ظلاماً وإضاءة. وهذا السلخ له نظير تقدم في هذا التفسير في الهواء وفي الماء، الماء يسلخ أكسوجينه من أودروجينه، وهذا يسمى في علم الكيمياء تحليلاً، فمتى حللناه إليهما صارا جسمين غازيين أي كالهواء. ومعلوم أن الأكسوجين يفيدنا الحياة في تنفسنا، وينقي دم كل حيوان وينفع كل نبات. أما الأودروجين فإننا إذا أحرقناه في الجو كما تقدم في سورة «النمل» اتحد حالاً بالأكسوجين الذي في الهواء الآن، لأن الهواء ركب منه ومن النيتروجين، وحينئذ ينفرد النيتروجين المذكور أي الآزوت. وهذا الآزوت يدخل في النوشادر لأنه يمكن اتحاده بالأودروجين أيضاً بعمل خاص، وهذا النوشادر نافع في أمرين: أمر السماد، وأمر الآلات المهلكة في الحرب. إذن التحليل في الماء والتحليل في الهواء أعطيانا منافع جمة وأريانا حكماً تحيط بنا من كل جانب.

سلخت يا الله النهار من الليل فأظلمنا، وأنت جعلت البخار الطائر في الجو ماء، فنحن بإلهامك كشفنا جزءاً من الهواء فجعلناه سماداً وآلات مهلكات إذ جعلناه كالثلج، فماؤنا حللناه وهواؤنا حللناه وأنت سلخت ضياء من الظلام.

فصل: في الحرارة والنور

سبحانك اللهم، أنت أنعمت علينا بالعلم، وكسوتنا حللاً من الحكمة، وأريتنا الجمال والبهاء والحسن والنور والإشراق والبهجة. سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. إن ما ظهر من جمالك قد استغرق أيامنا وملأ قلوبنا بهجة. فكيف بنا إذا اطلعنا على ما هنالك من جمال وبهاء وحسن وإشراق، إن الإنسان إذا جلس في حجرته ونظر نور القنديل فيها وجده متحداً بالحرارة. فلا نور في أرضنا إلا وقد اتحد بالحرارة. نوقد النار في الفرن فنحس بالحرارة أولاً ثم نرى النور آخراً. إذ الحرارة مقدمة على النور وهما ممتزجان متحدان اتحاد القوة الغضبية في الإنسان بالقوة العقلية. إن أهل الأرض خلقوا من نور ونار، من حرارة وضوء، من شر وخير.

نور الشمس فيه الحرارة وفيه الضوء، ولما كانت هي الأصل كانت جميع الأنوار منها على هذا النمط. فما من نور إلا ومعه حرارة، ولم نعرف قبل أيامنا هذه النور ينفصل عن الحرارة. لا نور بلا حرارة، ولكن ظهر في النوع الإنساني من الأذكياء من قالوا: إن الحرارة يمكن فصلها عن النور، وهم الآن يجدّون ليجعلوا القوة التي صارت حرارة تنقلب إلى ضوء. فالشمعة التي أبرزت حرارة وضوءاً بحسب العادة إذا حولت حرارتها إلى ضوء تضاعف الضوء البارد وزاد نفعه وقلت نفقاته.

هذه هي آراء الناس الآن وهم فيها مجدّون. إذن الناس اليوم يريدون أن يصنعوا من الحرارة والضوء ما صنعوه مع أجزاء الهواء وأجزاء الماء، أي يحللون الأعراض هنا كما يحللون العناصر هناك يشير لذلك كله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾[يس: ٣٧]، فذلك كله انسلاخ.

انسلاخ الحرارة من الضوء كما انسلخ النهار من الليل

وهل كان يدور بخلدنا ـ ونحن في هذه الأرض التي اتحدت الحرارة عليها بالضوء وأخذ العلماء يفصلونهما ـ أن الله في سماواته قد فصل الحرارة من الضوء فجعل شموساً مضيئة لا حرارة فيها، أوَليس هذا من الإبداع العجيب أن نجد في السماوات تلك العجائب، عجائب الشموس المضيئة التي لا حرارة فيها.

اللهم إن فعلك عجيب. خلقت نفوسنا وجعلت عقولها مرتبطة بغضبها، أي أن أنوار العقول جعلتها في أنفسنا مصاحبة للقوة الغضبية. فلما كان ضوء الشمس مصحوباً بالحرارة كانت أنوار عقولنا مصحوبة بالقوة الغضبية التي هي في الحقيقة قوة ذات حرارة. ففينا قوة ملكية هي قوة العقل مصاحبة لقوة سبعية هي قوة الغضب.

فهل هذه الشمس التي رآها الناس اليوم مضيئة غير حارة، قد خلقت يا الله فيها أناساً مثلنا فيهم عقل ولا غضب لهم. إذن أنت كما جعلت الذكورة والأنوثة ليستا شرطاً في إيجاد المواليد كما تقدم في سورة «مريم» لأن بعض الحيوان لا تحتاج الأنثى منه إلى ذكر بل هي تلد ولا ملقح لها.

هكذا خلقت شمساً فيها ضوء لا حرارة لها. إذن أنت تخلق إناثاً مثلنا ذوي أجسام كالحيوان ولكن لا غضب لهم ويكونون أرقى منا مع أنهم ليسوا ملائكة، ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

الكشف الحديث في الحرارة والضوء، وعظمة الأجرام السماوية

جاء في بعض المجلات العلمية ما نصه:

تيليسكوب جديد يرينا ملايين من النجوم

كلما أعجبنا باختراع وحسبناه في منتهى درجات الكمال راح العلماء المفكرون والمخترعون المجددون يزيدون فيه ويحسنون وينتقلون به من حسن إلى أحسن، فإذن الاختراع الأول شيء بسيط لو قارناه بالثاني.

حينما نصب التيليسكوب الذي قطر عدسته (١٠٠ إنش) على جبل ولسن بكاليفورنيا؛ قلنا: إن العلم قد انتهى إلى كشف أسرار الكواكب والنجوم، وإن المراصد الفلكية وصلت إلى حد الكمال.

وكأن العلماء لم تكفهم الحقائق الغريبة التي توصلوا إليها ولم يجدوا في تيليسكوب قطر عدسته (١٠٠ إنش) ما يطفئ شهوتهم للعلم والبحث، فاستقر رأيهم على صنع تيليسكوب قطر عدسته (٢٠٠ إنش). وإذا كانت الآلة الحالية التي في مرصد جبل ولسن قد أبرزت (١٥٠٠) مليون نجم؛ فإن العدسة الجديدة التي سيتم صنعها بعد خمس سنوات ستكشف أمام الأنظار مئات الملايين من النجوم والسدم التي لم تر بعد. وستكون العدسة الجديدة أقوى من الأولى بنحو عشر مرات. ومنذ بدأ مرصد جبل ولسن بحوثه بالتيليسكوب البديع أضاف إلى معلوماتنا ـ على قصر عهده ـ أشياء كثيرة عن السماء ونجومها. ولقد ذكر الدكتور جيانس سكرتير الجمعية الفلكية الملكية وعضو مرصد «مونت ولسن» حقائق غريبة يقف العقل أمامها مدهوشاً حائراً.

وقد جاء في كتيب أصدره أخيراً: أن بعض النجوم بعيدة عنا جداً. ولو علمت أن ضوءها يصلنا بعد (١٤٠) مليون سنة؛ وأن سرعة الضوء (١٨٦,٠٠٠) ميل في الثانية الواحدة؛ لاستطعت أن تتصور مبلغ البعد الشاسع الذي بيننا وبينها. ويتكهن الدكتور أنه بمعونة عدسات قوية يستطاع رؤية أضواء غادرت كواكبها منذ (١٠٠,٠٠٠) مليون سنة. إن شمسنا أكبر من الأرض بمليون مرة، وما هي إلا إحدى الشموس العديدة ذوات الأجرام التي هي أكبر من الشمس. وقد تبلغ تلك المجموعة الشمسية آلاف الملايين، وهذه المجموعة بدورها إحدى المجاميع الهائلة التي يتكون منها شموس وكواكب.

ويقول الدكتور جيانس: إن هناك شموساً باردة، وإننا لو اعتمدنا على أشعتها مثلاً لجمدت بحارنا على الفور ولتحول جونا إلى هواء سائل، وإن هناك شموساً يبلغ من شدة حرارتها أنها لو سلطت على الأرض لصيرتها بخاراً، ولو وضعت قطعة من حجم الحمصة من تلك الشموس الشديدة الحرارة على بعد ألف ميل ووقف تحتها إنسان لشوته وكوته، وبعد فأي عجائب وغرائب سيطلعنا عليها تيليسكوب (٢٠٠ إنش). انتهى ما جاء في المجلة المذكورة.

هذا هو الكشف الذي عرفه الناس الآن. ثم ما هذه الشمس المحرقة التي تكون نصف الحمصة منها تشوي الإنسان وتكويه على بعد ألف ميل، هل هذه دار من دور جهنم؟ ومن ذا كان يظن أننا نعرف ونحن في هذه الأرض أن لله شمساً مضيئة باردة وأن له شمساً أخرى محرقة وصفها كوصف جهنم، بل هذا وصف لم يكن ليخطر بالبال معرفته. إذن القرآن أتى لنا بشذرات من العلم وقال لنا: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]. اللهم إنك أنعمت علينا بقراءة هذا التفسير بنعمة العلم وبنعمة الحكمة، أريتنا العجب العجاب، اللهم إننا إذا انطلقنا إلى ساحات الجمال وشاهدنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ هنالك نكون في جنة العرفان والعلم التي هي أقصى ما يشرئب إليه المجدون وأعلى ما يبغيه المحققون.

وهل من عجب بعد هذا كله إذا سمعنا الله تعالى يقول: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[الحجر: ٤٧]. إن الناس في الأرض قد مزجت عقولهم بأهوائهم وشهواتهم. وهذا المزج والاتحاد لا يساعدهم على دخول الجنة، لأنها للجمال المجرد، لا حظ للشيطان الشهواني الغضبي فيها. فإذا رأينا الله قد سلخ الحرارة من الضوء في بعض الكواكب، ورأيناه علمنا طرقاً بها نباعد ما بين

الأكسوجين في الماء والأدروجين وما بين الأكسوجين والآزوت في الهواء، ورأيناه هو سلخ النهار من الليل، فهل من عجب إذا نزع ما في الصدور من الغل كما نزع ما في الضوء من حرارة؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[العنكبوت: ١٩] .

ألا وإن هذه الأبعاد الكوكبية التي ذكرت هنا يقف العقل أمامها حائراً باهتاً. فما هذا الكون الواسع؟ ضوء الشمس يصل لنا في ٨ دقائق و١٨ ثانية، مع أن المسافة بيننا وبينها بسير القطار المعتاد نحو ٣٥٠ سنة، ويسير قلة المدفع نحو ١٢ سنة. هذا الضوء الذي هذه صفته يسير ١٤٠ مليون سنة حتى يصل لنا من بعض الكواكب البعيدة عنا. ثم إن الدكتور «جيانس» المذكور يقول: إن الناس سيشاهدون كواكب لا يصل ضوؤها إلى الأرض في أقل من مائة ألف مليون سنة. هذه أحوال تدهش وعجائب يحار العقل فيها. إن هذا العالم عجب. والحمد لله رب العالمين.

بهجة العلم في المبصرات والمسموعات
من حيث الفلك والموسيقى والشعر وغناء الأطيار
وسر قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾
عملي في الحقل وعواطفي فيه

في ليلة الثلاثاء ١٠ يوليو سنة ١٩٣٠ بينما أنا جالس بمنزلنا بالقاهرة وكان معي ذلك الصديق العالم ونحن نتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث، إذ سمعت نغمة في الطريق وتوقيعاً صادرين من بعض المارين في الشارع، فكان لذلك وقع في نفسي، فصمت قليلاً فأدرك صديقي ما يخالج نفسي فقال: إن للعواطف لآثاراً وإن للآثار لنتائج. أنغمات العامة في الشارع تبهجك أم توقيع المارة يطربك. وعهدي بك لا ترنوا إلا إلى ما كان بالقواعد مرسوماً وعلى شرائط العلم موزوناً. وهؤلاء لا هم بالموسيقى عارفون ولا بفنون الأنغام عازفون.

على أنني أقول: ولعلك استرسلت مع عواطفك وسرت مع عادات سرائرك. وإذا كنت لسجع الطيور على الغصون ولغوير الأعشاب في الحقول تهز طرباً وتبتهج عجباً، فليس بدعاً إذن طربك الساعة بتوقيع العامة في الطرقات، ولا بغريب إصغاؤك لهم في حنادس الظلمات والنجوم مشرقات في هذه الدجنات. فهل لك أن تفيض القول في بعض آثار الأنفس الإنسانية وعجائبها الحكمية إذا أبصرت بهجة الجمال أو سمعت بديع النغمات. فقلت: لقد أثرت أيها الصديق في نفسي ثائرة الذكرى، وهجت من فؤادي ما كمن أيام الشباب.

فكم كانت الذكرى تعاودني لأدنى سبب، ولواعج الشوق تبعث في النفس بواعث الطرب. فقال: إن الحديث يحلو لا سيما في أوقات الخلوات وصفاء الأوقات وقد خشعت الأصوات وسكنت الحركات.

فقلت: لأذكر لك حديثين: الأول: أني كنت وأنا مجاور بالجامع الأزهر إذا حل فصل الصيف قفلنا راجعين إلى قرانا، فكنت أنا أزاول الأعمال الزراعية مع والدي بقريتنا، وكنت أحس بنشاط ومسرة لا حد لهما بعد تمام الأعمال في حقلنا. وكان العمل فيه يكسبني سبع خصال:

(١) استنشاق الهواء الطلق في الحقول.
(٢) وملاحظة النبات وأوراقه وأزهاره.
(٣) وقوة العضلات بالعمل.
(٤) ويتبعه نشاط العقل للعلم.
(٥) وتدريب النفس على ملاحظة دقائق الأمور، إذ يصطفي الإنسان ما زرع فيحفظه ويبيد الحشائش الضارة به.
(٦) وتحسين الخلق لأنه يتبع صحة الجسم والعقل.
(٧) وإني تعاطيت أفضل أنواع الرياضة لأنه يليها رياضة المشي، وآخر الدرجات رياضة التمرينات العضلية في المدارس «جمناستك».

فهذه هي الفوائد العوائد على من يتعاطى الأعمال الزراعية من أهل العلم في هذه الكرة الأرضية، وفوق ذلك يشارك أهل بلدته في عواطفهم، فيكون ذلك أدعى للعلم بأحوالهم، وذلك يوسع نطاق المعارف العامة للكتاب، فأما من لم يعرف من العلم إلا ما سطره المؤلفون، فذلك في العلم غير مأمون.

المسرة في السماوات أعلى من مسرات الأرض

وبينما أنا في الحقل أعمل مع والدي إذ أخذ يحدثني عن أيام أسرتنا الأولى وما كان لهم من مجد باذخ وعز كامل، وإنهم كانوا قد نصروا على أعدائهم، وإن جدي لأمي مع أسرتنا كلها كانوا يبتهجون بالولائم العظيمة التي كانوا يصنعونها فرحاً بالنصر وابتهاجاً بالثروة. وأخذ يصف الطبل وأنواع النغمات التي كانوا بها فرحين، فأطربني حديثه، ولكنني أحسست في نفسي بدافع قوي ووجدان داخلي لم أقدر على مدافعته، فقلت: يا والدي، هذه النغمات المطربات والطبول وأنواع الآلات التي فرحتم بها؛ أحس في نفسي بأنها قطرة من بحر، وقلّ من كل من طرب العوالم السماوية فوق الكواكب، لأني أحس في نفسي بأن تلك العوالم أوفر طرباً وأعظم بهجة من كل ما يعرفه الآدميون. فرأيته سرّ بهذا القول وظهر عليه هيئة التعجب من هذه المفاجأة التي لم تكن منتظرة. انتهى الحديث الأول.

الحديث الثاني: غناء المغنيات الفرحات زاد فِيَّ شوقاً للعلم

إني كنت يوماً متوجهاً إلى الجامع الأزهر ـ وربما تقدمت الإشارة إلى هذا الحديث في هذا الكتاب ـ وبينما أنا سائر في الطريق المؤدي إلى بلدة «بوردين» إذ رأيت ركباً سائرين فوق سكة الحديد. وهناك نسوة على الجمال يغنين طربات وأمامهن شبان يسوقون ويقودون الجمال وهم جميعاً فرحون. وكان ذلك ضحى والجو جميل، وهم سائرون إلى زيارة «الشيخ أبي مسلم» على عادة أهل بلادنا. هنالك خيل إلي أن أشجار السنط التي كانت تحف بالجسر من الجانبين والحشائش النابتة حولها والنهر الجاري بجانبها وزروع الحقول حولها كأنهن جميعاً رواقص مغنيات بهجات، وخيلت لي هذه الدنيا كلها كأنها حفلة طرب وبهجة أنس، ونسيت أن هؤلاء فرحون بزيارة شيخ الضريح وأنهم لا

يعلمون عني شيئاً، وصرت أشعر أن هذه الحفلات وأنواع الطرب والمسرات إنّما تجلت لي أنا، أنا ذاهب إلى المجد الباذخ والسعادة العظمى. فسعادتي دائمة وسعادتهم مؤقتة، ألا ترى أن عادتهم أنهم يرجعون من هذه الزيارة بعد ثلاثة أيام. فهذه حال نفسي في ذلك اليوم، فإنها حولت طرب العامة إلى طربها، وأخذت تتجلبب جلابيب الأنس والسعادة التي استلبتها مما يحيط بها وتجاهلت أنها لم تكن مرادة بهذه المناظر البهجات ولا النغمات المطربات ولا المظاهر الفرحات، كأنها كانت تحس إذ ذاك أن للعلم دولة سوف تتبوأ منها مكاناً شريفاً، وأنها لا بد واصلة إلى ما أحبت من الحكمة والعرفان. فهاتان الحادثتان كانتا أيام الدراسة الأزهرية في أيام الشباب.

صدحت الموسيقى فكانت من أهم المبشرات لي

وهناك حادثة ثالثة أيام أن شرعت في تدريس العلوم بالمدارس المصرية، فبينما أنا ليلة جالس ببلدة الجيزة مع المدرسين في ليلة احتفال بزفاف عروس؛ إذ فاجأتنا نغمات الموسيقى، فما أن سمعتها حتى أغشي علي وأنا أكتم حالي عمن حولي. ذلك أني كما تقدم في ثنايا هذا التفسير كنت عاهدت الله أني إذا عرفت أن هذا العالم منظم وأدركت حقائقه بقدر طاقتي البشرية، فإني أؤلف كتباً لمن بعدي من المسلمين حتى لا يقعوا في حيرة كما وقعت، ولا يشكو في أمر هذا الوجود كما شككت. واتفق أني كنت إذ ذاك في أوائل أيام عهدي بالقيام بمهنة التدريس، وأني فكرت فيما عاهدت الله عليه لأني إذ ذاك أخذت من العلوم بحظ يكفي أن أؤلف للمسلمين، وأني لذلك أخذت أراجع الفلسفة القديمة كما قرأت شذرات من الحديثة مع ضيق الوقت وكثرة أعمال الدراسة. فلما سمعت نغمات تلك الموسيقى وهي تصدح خيّل إلي أن هذا الطرب إنّما هو لتمام أمري، وأني لا بد واصل إلى ما طلبت، وأن آمالي صادقة وأعمالي تامة. فهذه الخواطر كلها هي التي فهمتها من تلك الموسيقى، وإخواني حولي لا يشعرون بما يجول بخاطري، وأنا أجتهد أن لا يبدو على وجهي علامات الآثار النفسية. ثم قلت: فهذه الوقائع الثلاث ضربتها أيها الأخ مثلاً لما يتردد في نفسي من العواطف التي لا يد لي في تحصيلها ولا قوة لي على دفعها، فقال صديقي: فحدثني ما الذي أثارته في نفسك هذه النغمات التي سمعتها الليلة في الشارع؟ فقلت: أنا لا أكتمك الحديث، يظهر لي أن هذه العوالم المحيطة بنا موقظات لنفوسنا مشجعات لها على أعمالها، أتدري ما الذي خيّل إلي وأنا معك؟ خيّل لي أن هذه السماوات كلها حفلات طرب، وأن النجوم في آفاقها راقصات تجلببت بجلابيب الجمال، وتسربلت بسرابيل البهاء، وأن نغمات الأشجار والزروع والطيور وخرير المياه في هذه الحفلة الرائعة بعض الموسيقى الصادحة في هذا العرس العظيم. وكأن أسماعنا وأبصارنا هي المرادة من هذا الجمال. نعم نحن لنا حاسة اللمس وإن هي إلا منذرة لنا ومبشرة للاحتراس مما يؤلمنا من نار محرقة مثلاً، وللإقبال على ما يوافقنا من كل ما لنا به انتفاع وسرور، ولنا حاسة الذوق فيها نذر ما يضرنا ونصطفي ما يوافقنا من المطعوم والمشروب. فهاتان الحاستان خاصتان ببقاء أجسامنا وإيجاد نسلنا بالتقاء الصنفين الذكر والأنثى. فأما حاستا السمع والبصر فلهما شأن أعلى وإن شاركتا تينك الحاستين. ألم تر أن سماع الموسيقى ونظر الوجوه الجميلة يدعوان أكثر نوع الإنسان إلى ما تدعو إليه تانك الحاستان، فكأن السمع والبصر كما أنهما

متممان لشهوتي البطن والفرج عند الحيوان، هكذا هما كذلك عند أكثر نوع الإنسان. وهما وإن كان ذلك دأبهما عند العامة والجهال وبعض صغار العلماء لهما القدح المعلى في استخراج طائفة من الجمهور الإنساني وفي بذر بذور السعادة والبهجة العلمية. ألم تر إلى ما تقدم عن طيماوس الحكيم الذي يقول في محاورته مع سقراط: إن الله خلق لنا البصر لندرك به النجوم وندرسها، ومن هذا الباب نلج الفلسفة. وهكذا تسمع الفلاسفة يقولون: إن الموسيقى المسموعة باب من أبواب الموسيقى المعقولة التي لا تعرف إلا بإدراك هذا النظام العام. ولا سبيل لذلك السماع العقلي إلا بدراسة سائر العلوم من الرياضيات والطبيعيات وأساسها والنظام العام لهذه الكائنات. هنالك مؤازرة واتحاد في النتائج بين حاستي السمع والبصر. فالصور الجميلة تذكر بالنغمات والأخيرة تذكر بالأولى. ومن عرف هذا أدرك معنى قوله تعالى في سورة «الملك»: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[الملك: ٢٣]، وأدرك: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾[الأحقاف: ٢٦] الخ، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[الإنسان: ٢]، إذن السمع والبصر هما البابان المفتوحان في الإنسان ليوصلا المعارف والعجائب إلى الأفئدة المستيقظة، كما أنهما يوصلان طرق استبقاء الشهوات الحيوانية للنفوس الضعيفة في هذه الحياة. فقال: أريد إيضاحاً أتم للالتئام ما بين حاستي السمع والبصر يكون أكثر إيضاحاً وأتم شرحاً. فقلت:

حزن الباكيات على الميت

حولته نفسي فجعلته بكاء على جهلها بعلم النجوم ونظام العالم

أنا أذكر حادثة رابعة وقعت لي أيضاً أيام كنت مجاوراً بالجامع الأزهر، وربما مر ذكرها في هذا التفسير، ذلك أني توجهت إلى بلدنا بالشرقية وقد مات رأس أسرتنا وعظيمها، وكانت عادات أهل البلاد أن يقيموا مأتم مثله (٤٠) يوماً، فكنت كل ليلة أنتبذ من القوم مكاناً قصياً وأجلس في ناحية وأنا ناظر إلى النجوم أستمع النغمات المحزنات ـ اللاتي تتخلل أشجار النخيل المحيطة بالقرية في ظلمات الليالي الحالكات ـ من أفواه نساء القرية اللاتي يندبن ذلك العظيم، ويرتلن ذلك الندب بهيئة منتظمة موسيقية على مقدار ما تعلمن من أسلافهن بالمحاكاة والممارسة والتدريب، فكانت هذه الأصوات أتخيلها كأنها ترتفع في جو السماء من خلال الأشجار وتسارع إلى النجوم وكأنهن لا يندبن عظيم أسرتنا الميت، بل هن يندبنني لأنني جاهل بهذه العلوم التي يسارع الصوت في الصعود إليهن من خلال النخيل، فهذه كانت حالي في تلك الليالي، أسمع غناء النادبات فتصل رنات الحزن إلى قلبي وهن يبكين علي لجهلي بهذه العوالم.

هذه هي العواطف التي كانت تتسابق إلى قلبي إذ ذاك، وهي من أعظم المشوقات إلى تلك العلوم التي لم يكن ليخطر لي أن أعرف بعد ذلك منها شيئاً، اللهم إلا الأماني والآمال والتلهف عليها والحسرة والحزن على موت النفس بالجهل العظيم، فهاهو ذا الصوت المسموع ذكرني بعلوم النجوم وسيرها، أي أن المسموع ذكر بالمنظور. فقال: أريد أن تذكر لي بعض ما تتخيله الآن في هذه السن،

لأوازن بالحق ما بين خيالك في الشباب وخيالك في المشيب. فقلت: لقد قدمت لك في سورة «فاطر» عند آية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[الآية: ٢٧] الخ ما يكفيك، وأزيدك عليه الآن ما تخيلته من مخاطبة القمر المذكورة هناك.

بهجة البدر في الموقف المتقدم ذكره في سورة فاطر عند آية:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ﴾[الآية: ٢٧]

كأنه أخذ يقول لي: سيقف موقفك هذا قوم من الأمم الإسلامية وغير الإسلامية ويفكرون في أنفسهم. وقد أحاطت بهم الأشجار والزروع، هل يتجاذبون في خواطرهم الحديث معي؟ وهل يخيل إليهم أنهم في بهجة وجمال، وينظرون هل أحسوا في أنفسهم أن الأرض أشرقت بنور ربها وأن هذه الدنيا فيها مبادئ جنانهم ومسرات نعيمهم، وسيذكر المصطفون منهم أن الأرض التي هم عليها في مثل هذا الموقف إن هي إلا ذرة من الوجود، وما الشمس وتوابعها التي لا تزيد في المجموعات الكوكبية «المجرات» و«السدم» البالغات (٣٠) ألف مليون إلا كحبة رمل في فلاة واسعة. وإذا صغر العالم كله على هيئة خاصة بحيث تصبح الأرض فيه جوهراً فرداً فإن جميع شموسه ومجراته وسدمه تبلغ ألف مليون أرض، وهنالك تذهلهم عظمة الكون وتدهشهم كما أدهشتك، ويرون كما ترى أنت الآن أن علومهم نسبتها إلى حقائق هذا الكون كنسبة ضآلة أجسامهم وحقارة أرضهم إلى سعة هذه العوالم.

وإذن يحقرون أكثر ما يسمعون من علوم أهل الأرض الجاهلين الذين ورثوا عن آبائهم مخازي من العلم وأضاليل من الجهل وهم يدرسونها ولا يعقلونها، وكيف يكون لله ولداً وهذا الولد لا يولد إلا في هذه الذرة المنبوذة من الوجود؟ ومعلوم أن الشمس لا تزيد عن جزء من (٢٥) مليون جزء من كوكب الجوزاء، وما الجوزاء إلا كوكب واحد من مئات الملايين من مجرة واحدة، والمجرة معها مجرات وسدم لا تنقص عن ثلاثين ألف مليون مجرة وسديم، وأن هذه العوالم كلها إذا جرى النور حولها لا يتم دورته في أقل من مائة ألف مليون سنة - كما تقدم في آخر سورة «الكهف» عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾[الكهف: ١٠٩] الخ فراجعه - هناك تبدل العقول غير العقول، ويقولون: إذا كان الضوء يسير في الثانية الواحدة (١٨٦) ألف ميل أو ٣٠٠ ألف كيلو، وبهذه النسبة يصل نور الشمس إلى الأرض في (٨) دقائق و(١٨) ثانية مع أن القطر لا يصل منها إلى الأرض فرضاً إلا في (٣٥٠) سنة وقلة المدفع لا تصل في أقل من (١٢) سنة.

فإذا كانت هذه حال الكون فعلوم أهل الأرض أكثرها ضلال وجهالة. فكيف اختصت أرضنا بأن الله له ولد فيها وحدها بل كانت الأولى به نحو الجوزاء. وهذه ترهات سيزيلها العلم من هذه الدنيا. وهؤلاء يرون أن أكثر ما عرفه الناس إنّما هو حثالة العلم. وكما أن الذباب والحشرات تعيش على المواد العفنة القذرة إذ لا معطل في الوجود؛ هكذا أهل الأرض اليوم تعيش بعض عقولهم على أقاصيص وأكاذيب وخرافات تعافها النفس ولكنها كافية لحياتهم كما تكفي الرمم لأكل الدود والعفونات والرطوبات لحياة الذباب والناموس. والله واسع الفضل على الفاضل والمفضول وعلى

الناس والذباب، وستخلص الأجيال المقبلة من كثير من الأضاليل والأكاذيب ويسعدون بالعلم سعادة لا يحس بها أهل الأرض الآن.

هذا ما جال بخاطري في ذلك الموقف، ثم بعد ليال وقفت بعد ذلك المكان قليلاً بعد الغروب وقد قفلت راجعاً من حقلنا كالمرة الأولى. فهنالك تجلت لي الدنيا بهيئة جميلة وكأنها ازينت لي وأخذت أشجار النخيل تترنح على نغمات النسمات وهن يلغن مئات ومئات مصطفات صفوفاً متقاربات بحيث يتصافح الجريد ويلتئم. هنالك وقفت دقائق والنخلات راقصات رقصاً مفرحاً، وهن يدرن دورة تامة بسبب اهتياج الريح وهبوب العواصف. فلو رأيت ثم رأيت قصراً مقاماً على أعمدة جميلة من جذوع النخل تعلوه قبب متناسقات خضر ناضرات من الجريد والخوص، وسقفه وأعمدته تترنح ذات اليمين وذات الشمال وهن شامخات الذرى بهجات المناظر، وتسمع بين آن وآخر هبات النسمات تجعل هذا القصر كله في هيئة راقصة على نغمات تأخذ بالألباب ومناظر تزيد الإعجاب.

ولو رأيت أيها الذكي ما رأيت أنا من نجوم أخذت تهوي جهة الغرب وقد نظرن لي، ولهذه الجوقات الموسيقية وهن باسمات تشير بطرف ساحر خفي وتقول: هيا يا حكماء الأرض. إياكم أن تشغلكم عوالم أرضكم عن جمال العوالم، ما أشد فرح أحدكم إذا لمح ابتسامة من حبيب جميل أو أمير نبيل أو ملك جليل، أفليس يطير بتلك الابتسامة فرحاً ويهتز لها طرباً؟ فإذا كان العاشق يفرح لابتسامة المعشوق والسوقة لابتسام الملوك فلكم يطير الحكماء فرحاً ويهتزون طرباً في أرضكم إذا أدركوا أن عناية الحكمة العامة الإلهية اختصتهم وحدهم في هذه الحياة بوجوه باسمات مشرقات لا عدد لهن من كواكب السماء، فابتسامة واحدة من جميل واحد أو ملك تنسي العاشق والصعلوك أشجانه ويتيه على خلانه، فكيف بآلاف البسمات المشرقات كل ليلة من مئات ألوف الملايين في السماء. إن نسبة سعادة النفوس الناقصة في أرضكم هذه إلى سعادة النفوس الكاملة كنسبة بهجة انبساط معشوق واحد لعاشقه إلى بهجة ابتسام النجوم السماوية إلى الحكماء المفكرين. إن جمال هذه النجوم مغناطيس بها تجذب النفوس الصغيرة إلى مجاراة العقول الكبيرة فيرتقون إلى أشرف الأعمال وأرفع العلوم ويستعدون لزيارة تلك العوالم، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢].

ومما لمحته في نظرات النجوم إذ ذاك خواطر أخرى وذكريات وكأني أخاطب بما في نفسي من تلك الذكرى لبهجة المقام. وذلك أنني بعد أن قطعت زمان الشباب وحل بساحتي المشيب وأنا أزاول مهنة التعليم في المدارس وتأليف الكتب وجاوزت الستين، رأيت شباب نفسي لطلب العلم وحبه لا يزال غضاً طري الإهاب قوياً، فأخذت أكتب هذا التفسير. فأكببت على العمل نحو سنتين كاملتين أو يزيد. وكنت أكتب في اليوم نحو ٤٠ أو ٥٠ صفحة، ومتى كتبت العدد الذي أقرره في نفسي أقوم للرياضة في الحقول حول القاهرة وأمشي نحو (٦) كيلو مترات، فلما أتممته أحسست في نفسي بضعف شديد وإنهاك في القوى وضعف في الأعصاب، ولكن فرحت فرحاً وسررت سروراً كثيراً لأني اعتقدت أني أكملت واجباً. والذي سقت الكلام لأجله أني بعد تمام التفسير كما قدمت أخذت أروض نفسي خارج القاهرة، فكنت في بعض الأوقات أجلس عند بلدة المرج وأجلس هناك في الهواء الطلق وأنا

ضعيف، فسمعت إذ ذاك الآلة الحاكية المسماة «الفونوغراف» إذ يحكي بالصوت الجميل واللغة العامية ما معناه: «يا بابا وأعمل له الواجب، وأنا أمشي له وأتعاجب، وأغمز بالعين والحاجب».

هذا ما كنت أميزه من أصوات الفونوغراف المذكور، الذي يعبر عن شعور الفتاة البكر وقد حضر خطيبها وهي توصي أباها أن يكرم مثواه في الضيافة، وهي تتولى إظهار المحاسن له وتكون معجبة بجمالها، فإكرامه موزع بينها وبين أبيها، فعليه الإكرام المالي كما يكرم أعز الضيوف، وعليها هي إظهار المحاسن ليزيد غرامه بها فتتزوجه. هذا ما خطر لي، ولكن هذه النفس حولته إلى سعادتها هي كما حولت غناء النساء على الجمال إلى نفسها في جهة «بردين» بالشرقية، وبيانه أني لما سمعت ذلك الغناء أحسست كأن نفسي في عالم أجمل من هذا، وكأني لست في هذه الدنيا، وكأن هذه الفتاة هي الحكمة، وكأن الذي تخاطبه هو الله عز وجل، وكأن الخاطب لها أنا، وكأن الحكمة التي أعشقها وأنا أخطبها تخاطب الله عز وجل وتقول له: يا رب انظر في أحواله المنزلية، وأموره المعاشية، حتى يتفرغ لي، وأنا سأتزين له وأظهر له محاسني فيعشقني ويحبني ويكتب ما ينفع للناس.

ولما رجعت إلى المنزل بالقاهرة بقي أثر تلك المعاني أياماً وأياماً، ولكني كنت أقول: لقد أتممت التفسير فما هي الحكمة إذن التي سيظهر جمالها لي؟ ولقد ظهر بعد ذلك ما لم أكن أحلم به، فإن التفسير الذي كتبته لم يكن ليتجاوز نحو (١١) مجلداً، فما كاد عمال المطبعة يشرعون حتى بدرت لي بوادر وسنحت لي سوانح لم تكن لتخطر لي، ومنها جميع المسائل العلمية التي ازدانت بالصور الشمسية، فتضاعف الكتاب بما أضعه فيه من تلك العجائب الحكمية التي ازدان بها، فعرفت إذ ذاك معنى ما فهمت من صوت الفونوغراف، وأن فهمي كان حقاً، وأن هذه تنبيهات وإشارات تقتبسها النفس من الأحوال المحيطة بها، إذن نفوسنا مستعدة أن تحول جميع ما حولها إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمفكرين. فإذا نظرت القمر هذه الليالي في هذا الشهر والنجوم والنخل والزرع، وتصورت المعاني المتقدمة، فذلك أن نفوسنا لها حال أخرى فوق هذه الحال وهي أن ترى العوالم كلها سعادة لها وحبوراً وجنات ونعيماً، وتحظى بذلك في الحياة في سنحات وأويقات. فإذا خلعت هذا العالم لبست أثواب السعادة في عوالم أخرى. انتهى صباح يوم الاثنين ١٩ من شهر مايو سنة ١٩٣٠م.

فلما أتممت ذلك قال: إن الذي قصصته علي الآن إنما هو خيالك الخاص بك. وهل لهذا الخيال رابطة بالحقائق العلمية؟ وهل المسموع والمبصر من واد واحد في العلوم الحكمية كما كان في خيالك الطارئ لك في أوقات مختلفات؟ فقلت: إن أمثال هذا المقام يعوزه شرح طويل، ولكن لأختصره لك اختصاراً فأقول:

علاقة النظام السياسي
بالنجوم والحساب والهندسة والتمرين العضلي والموسيقى

هاهي ذه أمامي جمهورية أفلاطون التي ألفها لإحداث نظام سياسي ثابت. وقد تعرض فيها لكل فروع الحياة وشرحها شرحاً وافياً. والجمهورية مقسمة إلى عشرة كتب، والكتاب السابع هاهو ذا

بين يدي وهو يبحث في الرجل الحكيم الذي يقود أمته إلى الصلاح والفلاح، ووصفه بأنه هو الذي لا يقف عند الحواس بل يرتقي إلى ما هو اليقين، وقال: لا سبيل للوصول إلى اليقين إلا باجتذاب العقل من المحسوس إلى المعقول الثابت، ومتى وصل العقل إلى اليقين وهو صورة الخير الجوهرية؛ أيقن أنه سبب لكل ما هو جميل في المحسوسات كالأنوار، ولكل ما هو باه وكامل في المعقولات وهو الحق والعقل. وكل من أراد أن يتصرف بحكمة يجب عليه أن يضع صورة الخير الجوهرية بين عينيه. أقول: وبعبارة أخرى، يجب أن يجعل الحكام والحكماء صانع العالم دائماً في قلوبهم.

العقبتان في طريق الفيلسوف في حال تعلمه وفي حال قيامه بواجبه

ثم أخذ يبين ما يعتري الفيلسوف من المشاق إبان تعلم الفلسفة. ثم ما يعتريه من النصب والتعب بعد كمال نفس. إذ يرى عقله الذي وصل إلى درجة الكمال، ومعرفة الجمال ومبدأ النظام، وهو الله تعالى، قد رجع كرة أخرى يقاسي مشاق السياسة ونظام المدن، فيكون إذن أشبه بمن مشى في النور طويلاً ثم فاجأه الظلام، ثم بعد الممارسة يكون أقوى وأكمل في نظام المدن من أولئك الجهلاء.

الرياضة البدنية والموسيقى

وهاهنا أخذ يبين الدروس التي يتعلمها أولئك الحكام الفلاسفة، وقدم لذلك مقدمة فقال: عجب أن يحكم الدولة الأغنياء الحقيقيون، أغنياء لا بالذهب ولا بالفضة بل بثروة الإنسان السعيد، وهي حياة البر والحكمة، فإذا تسلط الفقراء أي المتهافتون على المنافع المادية كانت المدينة في غاية الانحطاط. وهنا أخذ يبحث في العلوم التي تنقل الإنسان من الفاني إلى الباقي وتجعله مقبلاً على الخير المحض وهو الله تعالى، فقال: هل تكفي الرياضة البدنية التي تقوي الأبدان وعلاقتها لا تكون إلا بالجسد الفاني. كلا. وهل الموسيقى التي لا عمل لها إلا أن تمرن النفس على نوع من الاتزان والاتساق كافية لذلك؟ كلا. فالجمناستك لصحة الأبدان، والموسيقى لها نوع من التهذيب في النفس بالاتساق.

علم الحساب

وهنا أخذ يذكر علم الحساب فقال: إنه هو العلم الذي منه تستمد كل الفنون والعلوم وجودها. وهو أول ما يجب على المرء حوزه من العلوم، ولا جرم أن فن الحرب أحدها، وهو يكون نافعاً للتاجر ولضابط الجيش والفيلسوف، وعلى الجملة أن المنصبين على الحساب سريعو الخواطر أذكياء إلا النادر منهم، وهو دواء لبطء الفهم فوق منافعه الأخرى، وأعظم فائدة لدرس الحساب أنه يقودنا إلى درس الوحدة والتفكر في الوجود الحقيقي، إن الواحد في كل موجود له صفتان صفة الواحدة من جهة. وصفة الكثرة من جهة أخرى. أقول: أي كبدن الإنسان، فهو واحد من وجه، كثير من وجه آخر، باعتبار أجزائه. وهكذا كل مدينة وقرية وكرة أرضية وأمة وهكذا.

يقول: إن البحث في الوحدة يعرفنا الوجود الحقيقي الذي لا كثرة فيه بوجه من الوجوه، بل هو واحد من كل وجه، أما العوالم فوحدتها من جهة واحدة فقط بالملاحظة لا غير.

ولما أتم الكلام على الحساب أخذ يذكر الهندسة السطحية كالمثلث والمربع وكثير الأضلاع وسطح الكرة وما أشبه ذلك. ثم علم الهندسة الفراغية كالكرة والمكعب ونحوها. ثم عطف على هذه

الثلاثة علم الفلك وأبان أنه يحمل النفس على النظر إلى الأمور الثابتة، وفضح علماء الفلك في زمانه قائلاً: إنهم يزاولونه فينزل بهم إلى أسفل سافلين، إذ لا فرق بين من نظر إلى جلد منقط منقوش، وبين من نظر إلى هذا السقف المرفوع المزين بالنجوم. وأي فرق بين منظر ذلك الجلد وهذا السقف من حيث شكلهما، فكلاهما من المحسوسات، والمحسوسات أخس المخلوقات. إن المثقف في علم الهندسة إذا رأى رسماً عرف حالاً إتقانه ودرجته في الجمال والكمال، فلم يكن له ذلك غرضاً مقصوداً، وإنما هو واسطة لما فيه من المعادلات والمضاعفات والنسب، أما نفس الرسم فليس مقصوداً من حيث ذاته، بل الإبداع هو المقصود. هكذا علم الفلك. فليكن مقصد الفلكي أن ينظر إلى حركات النجوم بهذا الاعتبار نفسه. إن الحركات تعطينا علمين: علم تؤديه لنا العيون، وعلم تؤديه لنا الآذان. فالعلم الذي تؤديه لنا العيون هو علم الفلك. والعلم الذي تؤديه لنا الآذان هو علم الموسيقى، فآذاننا لضبط الحركات المتسعة بالموسيقى، وعيوننا خلقت لتناول حركات الأجرام الفلكية، وهذان يؤلفان علمين شقيقين كما يقوله الفيثاغوريون. وهاهنا أخذ يشنع على طائفة من علماء الموسيقى وعلماء الفلك، إذ يقصرون بحثهم في الموسيقى على أن يتلقفوا الصوت ويتنصتوا ويبحثوا عن الفرق بين هذا الصوت وذاك، وأن هذا أخفض وذاك أعلى، إذن هم يخضعون عقولهم للمحسوسات، فهم لا يبرعون إلا في شد الأوتار ولفها على الأشظة، فهم بذلك يجعلون أنفسهم سخرية لغيرهم.

إن الإنسان لا يفك من أغلال هذه الطبيعة التي سخر لها إلا إذا بحث في نظام هذه الأنعام وحسابها ونسبها، وأدرك بدائعها الموزونات وزناً حسابياً، كما ينظر عجائب الحيوان والنبات وتشريح الإنسان، ثم ينظر في الشمس والنجوم، وهذه المباحث كلها عقلية لا حسية منطقية لا لفظية. قال: ولا يكف حتى يدرك الخير والحقيقة، فحينئذ يبلغ آخر مدى العالم العقلي، فإذا وقف العقل على كنه هذه الحقائق العقلية وأشرف على معرفة الذات العلية تمتع بالسعادة الخاصة به، كما تتمتع الأعضاء الأخرى بالسعادة بما يلائمها، فهذا هو النشيد وهذه هي النغمات، وما هي إلا نغمات عقلية دائمة في مقابلة النغمات الحسية الفانية.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: يا سبحان الله، أنا اطلعت على هذه القطعة من كتاب جمهورية أفلاطون وهو الكتاب السابع، ولكن لم أفهم منها ما كتبته أنت الآن، إن المحاورات هناك فيها صعبة بين سقراط وبين غلوكون، ولكن يظهر لي أنك لخصت المعاني وأوضحتها بعباراتك أنت، وأثبت المفهوم مع المنطوق حتى أسمعتها لي واضحة ظاهرة بينة، ويظهر لي أن صناعة التدريس في المدارس النظامية تجعل في نفس المدرس ملكة بها يوضح كل ما يكتبه، ألا ترى أنك ذكرت الكرة والمكعبات وما أشبه ذلك وضربت الأمثال في الهندسة، وسقراط لم يوضح ذلك. فقلت: إنني أراعي فيما أكتب أحوال أذكياء القراء في هذا التفسير، ولا يتسنى فهم ما أكتبه إلا بهذه الطرق، فالإيضاح واجب متى وجدنا إليه سبيلاً. فقال: ولكن أريد أن أبحث معك في مسألة واحدة مما ذكرته. ذلك أنك قلت في تلخيص كلام سقراط قولين متناقضين، فتارة نسمعه يقول: إن علماء الموسيقى الخاضعين للأصوات الذين يوازنون بين النغمات، وإن علماء الفلك الذين لا همة لهم إلا في صور النجوم والحساب من

حيث نتائجه الأرضية، فهؤلاء وهؤلاء لا حظ لهم من الكمال. وتارة يقول: إن الموسيقى ملطفة للأخلاق مهذبة منعشة، وإن التمرين العضلي إذا قوى الأبدان فإن سماع الموسيقى يلطف الوجدان، فكأن القول فيه تناقض. فقلت: أنا الآن أبين لك حقيقة ما يقول بحسب ما يذهب إليه، ثم آتي لك بما هو الحق في نفسه. إن هؤلاء القوم ينظرون إلى الفلك وإلى الموسيقى من وجهين مختلفين، فالموسيقى تلطف الوجدان وتحسن الأخلاق، لأن الاتزان والاتساق يعطيان النفس صفة تشابه ما جاورها، فيكون صاحبها موزوناً في معاملاته، وهذه النغمات تطرد من نفسه تلك الخشونة التي أودعتها في النفس التمرينات العضلية، وهذه هي الطريقة العملية. أما الطريقة العلمية فهي أن يفكر في أصل وضع الأنغام ونظام حسابها ونسبها الهندسية ونظام سير النجوم والشمس والقمر، فهنالك يجد ثباتاً ونظاماً كاملاً، ولا جرم أن نظام الحساب والهندسة وثباتهما يعرف النفس أن هناك ثباتاً في هذا الوجود، بخلاف نفس الكواكب ونفس النغمات فإنها فانيات متجددات، أما حساب ذلك كله فهو ثابت، فإذا رأيته يذم الفلكي وعالم الموسيقى فذلك إذا اقتصر كل منهما على ظواهر الكواكب ونتائج حسابها من الشهور والسنين، وهو لا يفكر في ثبات القواعد الحسابية وعلى ظواهر النغمات والتلذذ بها، إذن ظواهر النغمات إنّما تكون منفعتها في تنظيم النفس لا غير، فأما إذا عدل بها عن ذلك فإنها تصبح ضارة. ولا فرق عند هؤلاء بين الطعام والشراب وبين النغمات، فكما أن إكثار ألوان الطعام ضار بالآكلين، هكذا التفنن بالموسيقى ضار بالسامعين، لأن هذا التفنن يفتح أبواب الفجور فتحتاج الأمة إلى القضاة، وأكثرهم كما يقول شهوانيون، وكثرة المآكل في الأمة والتفنن فيها يدعوان إلى كثرة الأمراض وهذه تدعو إلى الأطباء. وعار على رؤساء الجمهورية أن يدعوا رعاياهم يتفننون فيما يضرهم من المسموعات والمأكولات فيحتاجون إلى القضاة وإلى الأطباء. فلتكن الموسيقى في حال خاصة، ويجب أن تكون بسيطة غير موجبة لإثارة الشهوات بكثرة التفنن بها، فالسماع والطعام أخوان والبسائط فيهما أهدى سبيلاً وأقوم قيلا، وهو يقول فوق ذلك. إن الأطباء يختص عملهم بالأحوال الطارئة والأمور العارضة، أما إعطاء العقاقير وطول التمريض بوجبه الشره في المآكل والمشارب، ومتى امتنع ذلك خلصت الجمهورية من الأمراض.

فقال: وهل أنت ترى هذا كله؟ فقلت: إن بعض هذه الآراء قد عدل في وقتنا الحاضر، إن التمارين العضلية والألعاب التي جعلها عمدة في صحة الأبدان قد أصبحت اليوم في الدرجة الثالثة، ذلك أن أرقى الرياضات ما كان من إتعاب البدن في أعمال الحقول والبساتين، ويليه المشي على القدم، وآخر درجات التمرين الرياضي هو «الجمناستك» أي التمرينات المعروفة، وقد قال علماء أوروبا وأمريكا بالاختبار: إن الذين يكثرون تلك التمرينات هم أقل الناس علماً وأضعفهم تفكيراً وأظلمهم بصيرة، ولست أقول إن التمرينات العسكرية داخلة في ذلك، كلا. بل هي صناعة من الصناعات لا بد من الحذق فيها وإتقانها، وهذه التمرينات أهم ركن فيها، وأكثر كلام الجمهورية في العسكرية.

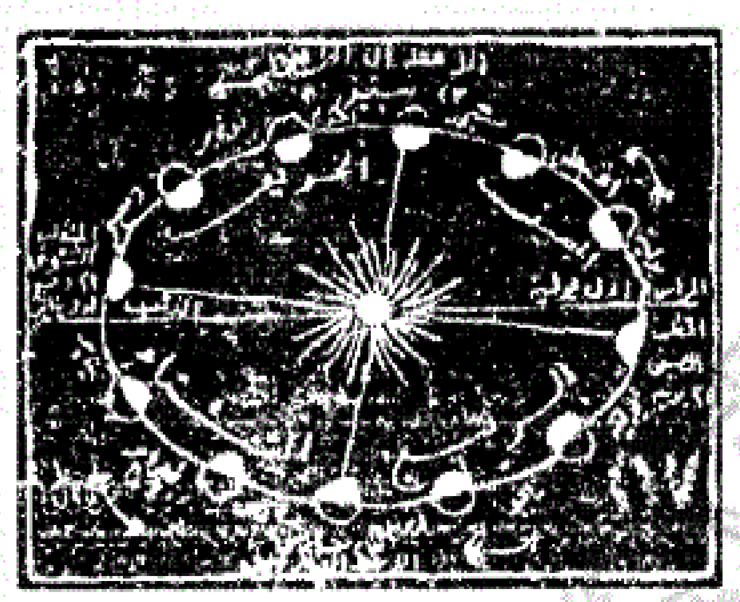
والخلاصة إن الإنسان لا يكون رجلاً كاملاً إلا إذا أحب الجمال، وحب الجمال يشمل بهجة النجوم والمزارع النضرة، وحسن نسق الثياب والنظافة وتنسيق المنازل. وبالجملة كل جمال في بر أو

بحر. ومتى عشق الناس الجمال فتحت بصائرهم للحقائق وحسنت معاشرتهم. والرياضة البدنية حافظة للصحة وهي مع حب الجمال صنوان لا يفترقان في سعادة الإنسان.

فقال صاحبي: هل هذا آخر رأي؟ فقلت: إن هذه عليها نظام المدارس والتعليم في العالم الإنساني اليوم، ولكن جاء الإسلام فأحدث مدنية وجعل أركانها أركان الإسلام ومنها الصلاة. وهذه الصلاة بنظامها الجميل ونظافتها قد أبدعت أمة واسعة النطاق في الشرق والغرب، ولما كسلوا عنها تمزق شملهم وضل سعيهم، ومدنية الجمهورية وحدها لم تقم بها أمة من الأمم. أما المدنية التي قامت بإقامة الصلوات في خمسة أوقات التي هي نوع من النظام يهيج النفس إلى عالم قدسي؛ فقد نجحت أمم وأمم بها. ولما تركها ملوك الإسلام وأمراؤه ذهبت ريحهم وضل سعيهم وتمسكوا بما لديهم من الموسيقى وأكثروا منها، فشربوا الخمر فكانوا من الخاسرين.

فقال صاحبي: لقد أطلنا في هذا المقام وخرجنا عن المطلوب. فقلت: كلا. الآية فيها نظام الشمس والقمر، وفيها: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[يس:٣٨]، وتقدير العزيز العليم كما رأيناه في سير النجوم؛ رأيناه أيضاً في علم الألحان.

وانتهى الأمر بنا إلى أن ما جمل من النظام محسن لأخلاقنا، وما ثبت من الحساب ونظام الهندسة يعطينا ثباتاً في عقولنا ودلالة على مبدع للعالم ترجع النفس إليه. (شكل ٣٨).



(شكل ٣٨ـ شكل تستبين فيه الفصول الأربعة)

فقال: أرجو الآن أن تشبع القول في نظام الحساب في الفلك والموسيقى وغناء الأطيار كما وعدت وكيف كانت من واد واحد. فقلت:

(أولاً) انظر إلى الفصول الأربعة. فهذه الدائرة المرسومة أمامك تحاكي الدائرة التي تقطعها الأرض في حركتها حول الشمس، فهو نظام ثابت بحساب لا تغيير له، وهاهنا يتجلى للعقل الكمال الحقيقي وتهيج نفسه بما وراءه من منظم للكون حكيم.

(ثانياً) انظر إلى أشكال القمر الآتية قريباً وفيها وجوه القمر وصوره المختلفات، فهذه الوجوه القمرية هي التي تظهر في القمر كل شهر، فثباتها الظاهري راجع لحساب كحساب سير الشمس في الصورة التي قبلها.

(ثالثاً) تفكر في جدول الخسوف والكسوف، وهو أنه يكون (٧٠) خسوفاً وكسوفاً في مدة (١٨) سنة و(١١) يوماً. منها (٢٩)خسوفاً و(٤١) كسوفاً، والخسوف والكسوف في كل مدة في نفس المواعيد والساعات والدقائق في المدة التي قبلها.

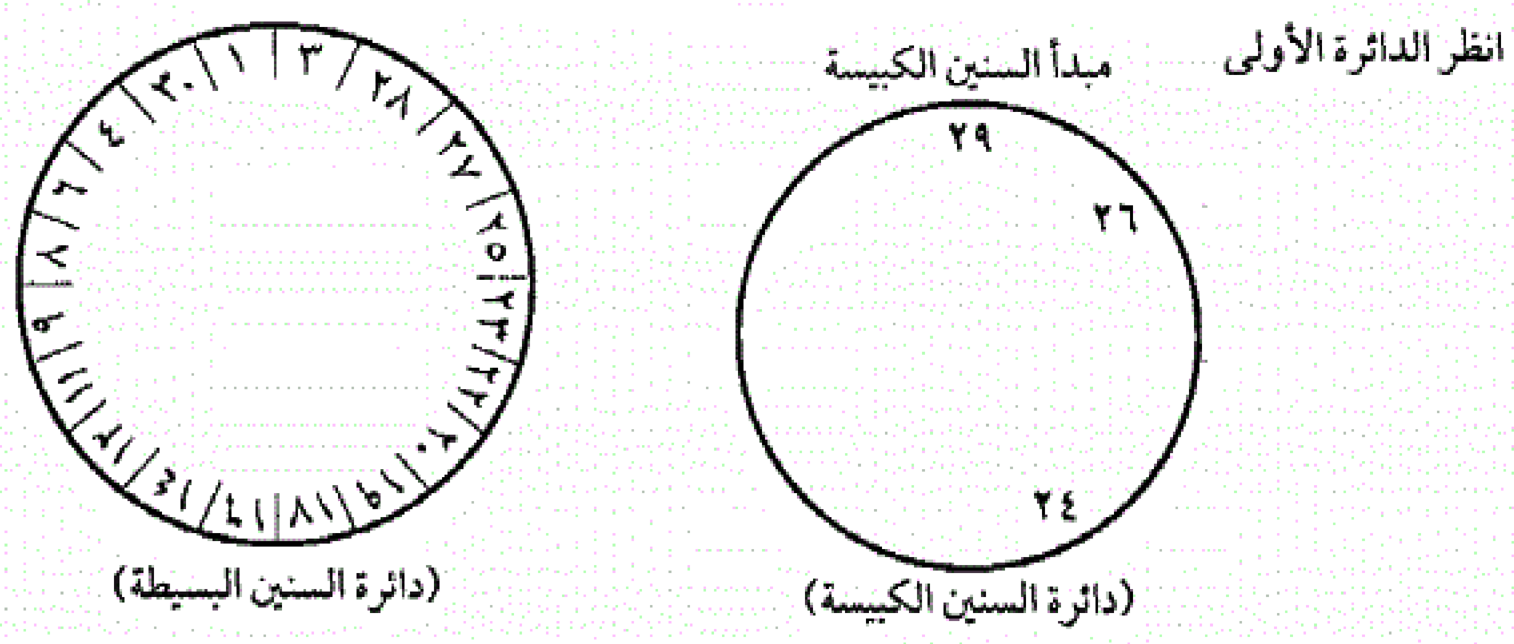
(رابعاً) الكلام على السنين البسيطة والكبيسة. إن الدورة السنوية القمرية (٢١٠) وهذه دورة كبيرة. والدورات الصغيرة (٧) كل دورة (٣٠) سنة. والسنة القمرية تكون ما بين (٣٥٤) يوماً

و(٣٥٥) يوماً فالأولى بسيطة والثانية كبيسة . ففي الثلاثين الأولى من (٢١٠) من الأعوام الهجرية تكون الكبيسة على حسب الحروف المعجمة في هذا البيت . فالحرف المعجم للكبيسة والمهمل للبسيطة .

٢ ٥ ٧ ١٠ ١٣ ١٥ ١٨ ٢١ ٢٤ ٢٦ ٢٩

إن رمت مجداً فلا ترقد دجا أبداً خوف الفوات لما ترجو من الشرف

انظر الدائرة الأولى



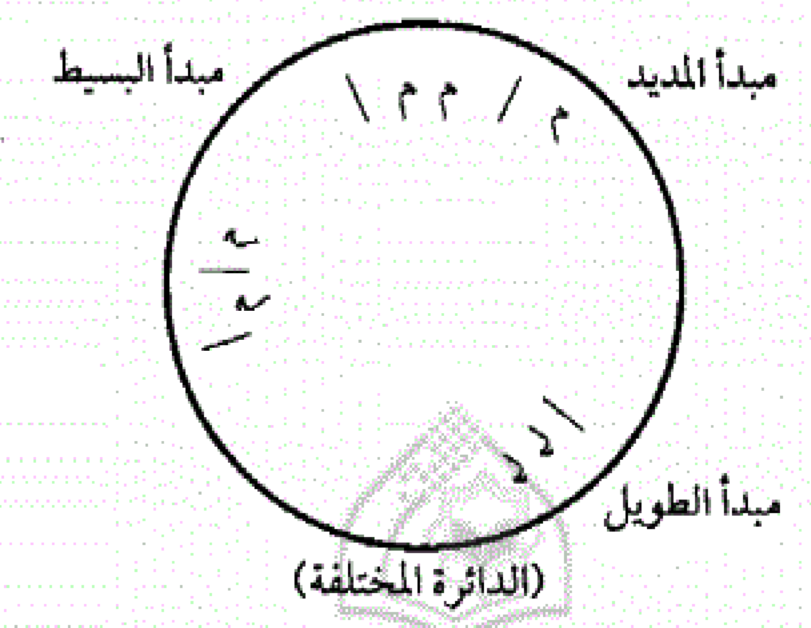
(دائرة السنين الكبيسة) (دائرة السنين البسيطة)

فالكبيسة في كل سنة (١١) يوماً والبسيطة (١٩) يوماً . (انظر الدائرة الثانية) .

فهذه الدائرة تحتوي على (١٩) عدداً لا محيص للسنة من أن تجري على مقتضاها . فالدور الأول من (٢١٠) من التاريخ الهجري هذا شأنه ، والدور الثاني على مقتضاه ، وهكذا تتم (٧) أدوار وهنا ينتهي الدور الكبير الأول ، وينحو نحوه في ذلك كله الدور الثاني والثالث والرابع وهكذا بالغاً ما بلغ ، ونحن الآن في سنة ١٣٤٩ هـ . وقد مضى (٦) أدوار لها مدة (١٢٦٠) ، ومن هذا الدور السابع قد مضى (٨٩) سنة منها دوران صغيران هما (٦٠) ونحن في الدور الثالث . وهاتان الدائرتان قد تكررتا منذ الهجرة إلى الآن (٩٠) مرة .

أليست هاتان الدائرتان اللتان رأيتهما أمامك أشبه بدوائر الموسيقى والشعر وغناء الطيور . إنها مثلها حذو القذة بالقذة ، فقال : كيف يكون ذلك؟ فقلت : اعلم أن الموسيقى والشعر وغناء الطيور كلها من واد واحد ، فهي دوائر كدوائر علم الفلك ، فقال : أوضح فإن الأمر عجب ! فقلت : إن أصول الشعر ثلاثة وهي السبب والوتد والفاصلة ، فالسبب مثل هل ومن وعن ، والوتد مثل نعم وبلى ونحن وأنت ، والفاصلة فهمت وعلمت وغلبت ، وترجع هذه الثلاثة إلى حرف ساكن وحرف متحرك ، وهذه الأصول الثلاثة في الشعر هي أصول الغناء مثل « تن . تنن . تننن » فمن هذه الثلاثة تتركب جميع الألحان والنغمات ، كما أن اللاتي قبلها تتركب منها جميع أنواع الشعر عند العرب وغير العرب ، وأنواع الغناء عند العرب ثمانية أنواع ، وهي : الثقيل الأول وخفيفه . والثقيل الثاني وخفيفه . والرمل وخفيفه . والهزج وخفيفه . وكلها مركبات من هذه الثلاثة ، كما يتركب أنواع النبات والحيوان من العناصر ، وكما تتركب أنواع الشعر العربي من الوتد والسبب والفاصلة ، ومقاطع الشعر العربي ثمانية وهي : فعولن ، مفاعيلن ، متفاعلن ، مستفعلن ، فاعلاتن ، فاعلن ، مفعولات ، مفاعلتن ، فهذه منها تتركب البحور العربية الشعرية ، ومن الثمانية قبلها تتركب سائر الألحان في الموسيقى .

فلما سمع ذلك قال : إننا الآن في تفسير آية الشمس والقمر وتقدير العزيز العليم ، ولا جرم أن هذا دعا إلى علم الفلك وعلم الشعر وعلم الألحان ، لأن ذلك كله تقدير العزيز العليم ، وسمعنا الفلاسفة يقولون إنها من واد واحد ، فأريد الآن الهجوم على نفس الموضوع خيفة أن يتشعب علينا بما نستوفيه من تلك العلوم ، فأرجو أن تأتي بمثال واحد به نعرف أن علم الشعر على مثال علم الموسيقى ونغمات الطيور ، فإذا كنا رأينا للقمر والشمس وللسنة الكبيسة وللسنة البسيطة دوائر قرأناها ؛ فأريد الساعة أن أدرس دوائر تشبهها في الشعر والموسيقى حتى تستبين الحقيقة . فقلت : اعلم أن الخليل بن أحمد لما اطلع على أشعار العرب وجدها ترجع كلها إلى خمس دوائر ، وهذه الدائرة منها وهي التي تدل على بحر الطويل والمديد والبسيط وسماها المختلفة (الدائرة الثالثة) .



(الدائرة المختلفة)

فهذه الدائرة فيها سبعة حروف متحركات وخمسة حروف سواكن أي (١٢) حرفاً سواكن ومتحركات أغنتنا في ثلاثة بحور فما عليك إلا أن تكرر هذه الحروف أربع مرات فتبلغ (٤٨) حرفاً ، فبحر الطويل إذا ابتدأ من المبدأ الذي أمامك في الدائرة له يكون فعولن مفاعيلن (٤) مرات ، وفاعلاتن فاعلن أربع مرات في المديد ، ومستفعلن فاعلن (٤) مرات في البسيط .

فانظم أيها الذكي من الأشعار ما شئت في الطويل والمديد والبسيط ، ولكنك لن تخرج عن هذه الأوزان المتقدمة في الدائرة ولا تخرج عن المتحركات والسواكن بعينها إلا في أمور عارضة يسمونها الزحافات والعلل ، لا محل لذكرها لأنها تخرج بنا عن المقصود كما هو رأيك ورأي أذكياء القراء في هذا التفسير .

واعلم أن هذه الأوزان هي الأصل ، ولكن الشعر علم له قواعد تقتضي معرفة علله وزحافاته وما الأبيات إلا كحيوان يصح ويمرض ، فحذف حرف أو تسكينه يعتبر كأنه علة ، وأغلب الشعر لا يخلو من ذلك ، فإذا أتينا بشواهد على هذه البحور فإنها من هذا القبيل .

فإذا سمعت هذا البيت وهو الشاهد لبحر الطويل وهو :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة　　يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فاعلم أن ما حذف منه تقتضيه الصناعة ، لأن آخر صدر البيت بوزن مفاعل وكذلك عجزه ، وهكذا قل فيما يأتي .

شاهد المديد

يا لبكر انشروا لي كليبا   يا لبكر أين أين الفرار

شاهد البسيط

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتال

وبهذا تم الكلام على الدائرة الأولى.

ومن عجب أن بحر الطويل هو أحد البحور الثلاثة في الدائرة المختلفة المتقدمة. له نظير في علم الموسيقى. قال: وما هو؟ قلت: أذكرك بما تقدم وهو أن ألحان الغناء العربية لها ثمانية قوانين. فلنترك الكلام على الثقيل الأول والثقيل الثاني ولنحصره في الكلام على خفيف الثقيل الأول فنجده على هذا الوزن: فعولن مفاعيلن « تنن تن، تنن تن تن »، ويسمون هذا « اللحن الماخوري »، وهو يماثل صياح الفاختة « ككوه كوه ككو كوكو »، إذن عندنا هذا الوزن في الشعر وفي الموسيقى وعند الطير، فلنرجع إلى الدائرة المختلفة المتقدمة، فماذا نجد؟ نجد أن من ينظم بحر الطويل يتم البيت بالسير على هذه الدائرة أربع مرات فعولن مفاعيلن أي أنه يأتي بخمس سواكن وسبع متحركات ويعيدها أربع مرات، ولا فرق في ذلك بين المغني وبين من يقول:

أبا منذر كانت غروراً صحيفتي   ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي

يا سبحان الله: إذن قول الفاختة ككوه كوه الخ يجري على هذه الدائرة، إذن المغني والطير والشاعر كلها تجري على هذه الدائرة في هذا المقام، ويا عجباً! أليس هذا بعينه هو ما رأيناه الآن في سير الشمس والقمر ووجوهه والسنين الكبيسة والبسيطة، أفليست الدوائر الصغرى التي تبلغ نحو (٩٠) دائرة من أيام الهجرة إلى الآن سارت كلها على نمط واحد، فأي فرق لعمرك بين دائرة الخليل التي سماها المختلفة وقد جاء فيها بحر الطويل المماثل للماخوري في الشعر ولصياح الفاختة وبين دائرة السنين الكبيسة والبسيطة.

كل هذه الدوائر منتظمات، أليس هذا هو الذي كنا نسعى لفهمه ونعرف ما يقوله أفلاطون أن علم الألحان هو من قبيل علم الفلك لا فرق بينهما، وأن الإنسان إذا أدرك عجائب الوحدة والحساب أغرم بمبدع الكون، وأن أسماعنا مخلوقة لمعرفة نظام النغمات، كما أن أبصارنا مستعدة لمعرفة نظام الحركات. وبهذا عرفنا أن النغمات وحركات الأفلاك كلها واحدة منتظمة.

وبهذا عرفت أيها الذكي ما جال بخاطري وأنا شاب في الحكاية السابقة في أول هذا المقام إذ ذكرني بحركات الأفلاك نغمات النادبات، وفهمت نفسي أن ذلك بكاه على موتها. هاهنا الفطرة من غير تعليم انتقلت من حركات النغمات إلى حركات الأفلاك. وهذا الذي حرك وجداني بطريق الوجدان والغريزة هو الذي أجمله « سقراط » فيما تقدم وهو الذي فصلناه فيما قرأته الآن.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد شرحت صدري وشرحت الموضوع شرحاً وافياً، وعرفنا بهذا أن تقدير العزيز العليم كما سرى في الأفلاك سرى في نغمات الطيور وأشعار العرب وألحان الغناء. ولكن هل الفطرة الصادقة خاصة بالعرب؟ قلت: كلا. اعلم أن الأمم كلها حكمها حكم أمة العرب،

وإذا وجدنا الطيور لها موسيقى ونغمات ، هكذا نوع الإنسان كله له اصطلاحات وأوزان لا تخرج عن الأصول التي بنيناها ، وليست بحور الشعر التي عددها (١٦) في اللغة العربية بشرط في النظم ، بل الفطرة الإنسانية فيها من الأوزان ما لا حصر له وهكذا المعاني .

فقال : هاأنا ذا عرفت الدائرة المختلفة في علم الشعر فأريد أن أعرف بقية الدوائر ، فقلت له : إن هذا يخرج بنا عن المقام ، فقال : ولكن أريد الإيجاز . فقلت : الدائرة الثانية تسمى المؤتلفة وفيها الوافر والكامل والبيت يتم فيها بست مرات . (انظر الدائرة الآتية) .

مبدأ الوافر

فالوافر مفاعلتن ست مرات والكامل متفاعلن ست مرات وهذا واضح .

شاهد الوافر :

ونشرب إذا وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

شاهد الكامل :

وإذا صحوت فما أقصر عن ندا وكما علمت شمائلي وتكرمي

وبهذا تمت الدائرة الثانية وشواهدها .

والدائرة الثالثة تسمى المجتلبة ، والبيت فيها يتم بست مرات وفيها الهزج والرجز والرمل . (انظر الدائرة الآتية) .



فهذه الأبحر الثلاثة من واد واحد كالوافر والكامل في الدائرة الثانية ، فلا فرق بين مفاعيلن ست مرات في الهزج ولا مستفعلن ست مرات في الرجز كذلك ولا فاعلاتن ست مرات في الرمل فكلها كأنها شيء واحد .

شاهد الهزج وهو مجزو : * وما ظهري لباغي الضيم بالظهر الذلول *
مفاعيلن ثلاث مرات وبعدها فعولن .

شاهد الرجز :

القلب منها مستريح سالم والقلب مني جاهد مجهود

فهذا صارت مستفعلن في آخره بوزن مفعول .

شاهد الرمل :

قالت الخنساء لما جئتها شاب بعدي رأس هذا واشتهب

هو فاعلاتن فاعلاتن فاعلن مرتين ، وبهذا تم الكلام على الدائرة الثالثة وشواهدها .

مضارع
خفيف
منسرح

والدائرة الرابعة فيها السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث . والدائرة الخامسة فيها المتقارب ويتلو ذلك كله بحر الخبب الذي يشبه خبب الخيل . (انظر الدائرة الآتية) .

فائدة : (م) للحرف المتحرك و(ا) للساكن في هذه الدوائر الخمس .

إن السريع بحسب أصله : مستفعلن مستفعلن مفعولات ، والمنسرح : مستفعلن مفعولات مستفعلن . والخفيف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، والمضارع : مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن ، والمقتضب : مفعولات مستفعلن ، والمجتث : مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن .

شاهد السريع : أزمان سلمى لا يرى مثلها الرا ... زون في شام ولا في عراق

شاهد المنسرح : إن ابن زيد لا زال مستعملاً ... للخير يفشي في مصره العرفا

شاهد الخفيف : خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد

شاهد المضارع وهو مجزو : دعاني إلى سعاد ... دواعي هوى سعاد

شاهد المقتضب وهو مجزو أيضاً : أعرضت فلاح لها ... عارضان كالبرد

شاهد المجتث وهو مجزو أيضاً : لم لا يعي ما أقول ... ذا السيد المأمول

الكلام على الدائرة السابعة : شاهد المتقارب : فعولن ، ثمان مرات

م م ا م ا
متقارب

وأروي من الشعر شعراً عويصاً ... ينسى الرواة الذي قد رووا

هي الشمس مسكنها في السما ... فعز الفؤاد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليها الصعودا ... ولن تستطيع إليك النزولا

وبهذا تم الكلام على بعض الدوائر الفلكية ، ثم جميع الدوائر الشعرية التي أبدعها الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى .

وبهذا ظهر لك أيها الذكي كيف أصبح علم الشعر وعلم الموسيقى وعلم الفلك من واد واحد فهي على مقتضى حساب منظم . ولما كان ظهور هذا التفسير موافقاً لظهور كوكب جديد وراء نبتون وجب أن أبينه هنا ، ثم أتبعه بأشكال القمر وما يتبع ذلك إيفاء لحق المقام فأقول :

الكوكب السيار الجديد

جاء في جريدة « الأهرام » بتاريخ يوم الأحد ٣٠ مارس سنة ١٩٣٠م ما نصه :

بلاغ من مرصد حلوان

في ١٢ مارس الحالي اكتشف مرصد لول بمدينة فلاجستاف في الأريزونا بالولايات المتحدة الأمريكية كوكباً سياراً علوياً جديداً وراء نبتون . ولهذا الاكتشاف أهمية عظيمة جداً للعلوم الفلكية ، فقد زاد عدد الكواكب السيارة بما في ذلك الأرض حيث يبلغ الآن عددها تسعة ، وقد اكتشف الكوكب الثامن نبتون في سنة ١٨٤٦ والكوكب السابع أورانوس سنة ١٧١١ .

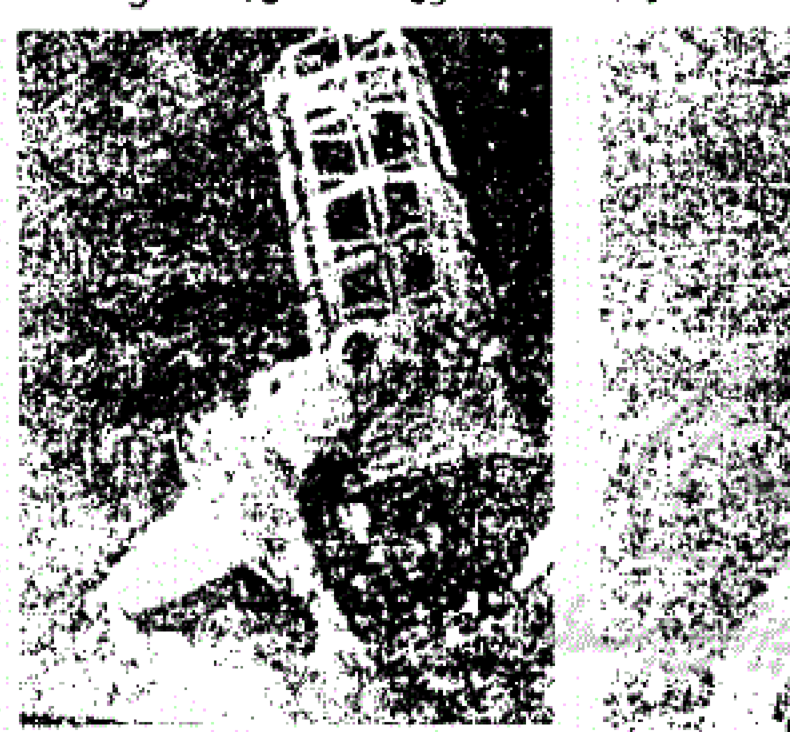
وعند وصول هذا النبأ قد أخذ الدكتور محمد رضا مدور الفلكي المقيم بمرصد حلوان عدة ألواح فوتوغرافية بواسطة نظارة رينولدز العاكسة البالغ قطرها (٣٠) بوصة ، وقد ثبت جلياً وجود الكوكب الجديد في الألواح المعرضة لموقع الكوكب مدة ساعة من الزمن في الليالي الآتية (١٨ و ٢٤ و ٢٧ مارس) .

وهذا الكوكب ضئيل اللمعان حيث يبلغ قدره الفلكي نحو (١٥ , ٠) ، فهو بذلك ألف مرة أقل لمعاناً من الكوكب نبتون ، وهو يقع في برج التوءمين بالقرب من النجم اللامع ، ولكنه لا يمكن أن يرى بالعين حتى ولو استعمل أكبر منظار ، ولا بد أن يمضي بعض الزمن حتى يمكن حساب حجمه وكتلته ،

ولكن المقادير الابتدائية تثبت أنه أكبر من الأرض وأصغر من أورانوس. ويبلغ بعده عن الشمس نحو (٤٥) مرة بعد الشمس عن الأرض. وقد دلت الفروق الصغيرة في حركات الكوكب أورانوس أنه لا بد من وجود كوكب تاسع بسبب هذه الاختلافات. وقد عمل الدكتور لول مؤسس المرصد المذكور آنفاً حساباً لموقعه في السماء. غير أن هذا الاكتشاف يرجع إلى البحث المنظم بواسطة المنظارات الفوتوغرافية منذ ٢٥ سنة تقريباً. اهـ.

وسترى في الشكل ٣٩ رسم خريطة نجمية تبين موقع السيار الجديد في صورة التوءمين وموقعه المقدر بالحساب قبل اكتشافه في برج السرطان، وموقع السيار نبتون في صورة الأسد، وفي الدائرة رسم مصغر للنظام الشمسي تظهر فيه الشمس في المركز إلى آخر ما ذكر هناك. وكذلك صورة للتلسكوب الكبير الذي اخترع حديثاً، وسترى أيضاً في الصفحات الآتية بعد ذلك صور أشكال أوجه القمر المختلفة.





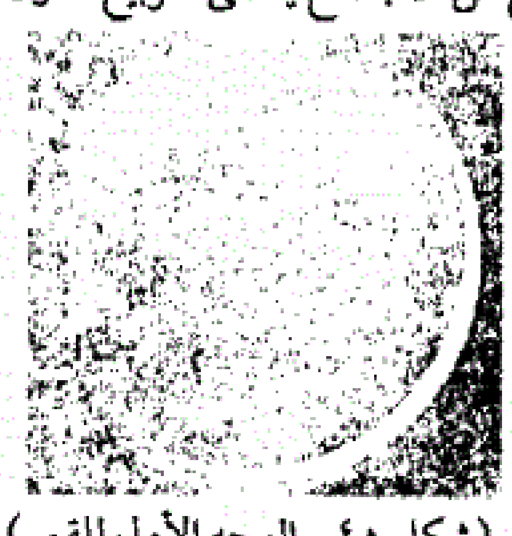
(شكل ٣٩) صورة للتلسكوب الكبير الذي أشرنا إليه غير مرة في المقتطف وسيكون له مرآة من الكوارتز المصهور قطرها مائتا بوصة، أي مضاعف قطر المرآة في أكبر تلسكوب بني حتى الآن، وينتظر أن تبلغ نفقاته ستة ملايين ريال أو مليون ومائتي ألف جنيه.

خريطة نجمية تبين موقع السيار الجديد في صورة التوءمين وموقعه المقدر بالحساب قبل اكتشافه في برج السرطان وموقع السيار نبتون في صورة الأسد، وفي الدائرة رسم مصغر للنظام الشمسي تظهر فيه الشمس في المركز ولا تظهر أفلاك عطارد والزهرة والأرض والمريخ والنجيمات والمشتري، لأنها على القياس قريبة جداً من الشمس فيتعذر رسمها هنا. ويلي ذلك فلك زحل ثم فلك أورانوس ثم فلك نبتون الذي كان في أوائل هذه السنة حد النظام الشمسي المعروف، ثم يظهر فلك السيار الجديد بخط ثخين.

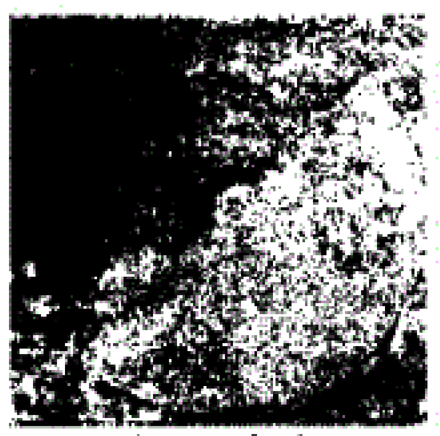
في ٢١ يناير سنة ١٩٣٠ كشف المستر كليد تمبو وهو مساعد حديث السن انضم من عهد قريب إلى مرصد لول بأرزونا في صورة فوتوغرافية عن شبح ضئيل الجسم سماوي متحرك. وكان موقعه في صورة التوءمين على نحو خمس درجات من الموقع الذي عينه الأستاذ برسكال لول بالحساب الرياضي للسيار المجهول خارج فلك نبتون. فاحتفظ علماء مرصد لول بسر هذا الاكتشاف سبعة أسابيع، والوافي أثنائها البحث والتحقيق للتثبت من أن هذا السيار يدور حقيقة في فلك خارج فلك نبتون، إذ ليس ما يمنع أن يكون إحدى النجيمات العديدة التي تدور بين المريخ والمشتري، وأخيراً ثبت لهم أنه سيار جديد وراء نبتون، وأن فلكه يتفق تقريباً مع الفلك الذي تنبأ به لول، أما بعده عن الشمس فنحو ٤٥ ضعف بعد الأرض عنها، أي نحو ٤٢٠٠ مليون ميل. وعلى هذه المسافة لا يصله من نور الشمس وحرارتها إلا جزء من ألفي جزء مما يصلنا منهما. انتهى من مقتطف مايو سنة ١٩٣٠.

أشكال القمر

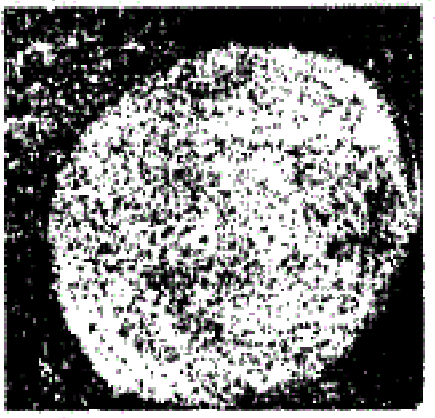
في مدة دورة اقترانية يأخذ البعد الزاوي لمركز القمر عن مركز الشمس مقدراً على الطول جميع المقادير من ٠ إلى ٣٦٠°، وفي هذه المدة يكون على وجه العموم قرصه المستدير مكوناً من جزأين: أحدهما مستنير والآخر مظلم، وشكل هذين الجزأين ومقدارهما النسبي متغير دائماً، ومنهما تتكون الظواهر المعروفة باسم أشكال القمر. وبيان ذلك أنه متى لم يكن القمر منظوراً لا ليلاً ولا نهاراً يقال له في حالة المحاق أو الاقتران أو الاجتماع أو التوليد. وسبب عدم رؤيته أن وضعه مجاور جداً في الظاهر للمحل الذي تشغله الشمس في السماء، فيوجه نحو الأرض نصف كرته المظلم المحجوب عن الأشعة الشمسية، ويمكث خفاء القمر يومين أو ثلاثة أيام، لكن لحظة الاقتران المضبوطة التي يستدل عليها من السنويات الفلكية تحصل متى كان للشمس والقمر طول واحد، وفي اليوم الثاني أو الثالث بعد تلك اللحظة يظهر القمر ليلاً بعد غروب الشمس بمدة قليلة على شكل هلال رفيع (شكل ٤٠) تحدبه نحو القطعة التي توجد فيها الشمس تحت الأفق، وبسبب الحركة اليومية يغرب القمر بعد قليل في الأفق الغربي. وفي اليوم التالي تحصل الحالة بعينها، غير أن الجزء المستنير يكون أعظم، وحيث إن القمر يكون بعيداً عن الشمس أكثر من بعده عنها في اليوم السابق يتأخر غروب القمر عن اليوم السابق، وفي اليوم الرابع (شكل ٤١) بعد الاقتران يغرب بعد الشمس بثلاث ساعات، وشكله بعد اليوم الرابع من الاجتماع يسمى التربيع الأول. (انظر شكل ٤٠ و٤١).


(شكل ٤٠ ـ الوجه الأول للقمر)


(شكل ٤١ ـ اليوم الرابع للقمر)


(شكل ٤٢)
القمر في التربيع الأول

ثم ينمو الهلال شيئاً فشيئاً، وبين اليوم السابع والثامن من لحظة الاجتماع ليظهر لنا القمر على شكل نصف دائرة ويرى مدة في النهار (شكل ٤٢)، والحركة اليومية لا تأتي به في مستوى الزوال إلا بعد مرور الشمس به بست ساعات تقريباً. وبين التربيع الأول والبدر تمضي سبعة أيام أخر في غضونهايقرب الجزء المستنير شيئاً فشيئاً من أن يصير دائرة تامة. (انظر شكل ٤٣).


(شكل ٤٣)
القمر بين التربيع الأول والبدر

ويتأخر شروق وغروب القمر شيئاً فشيئاً في مسافة هذه المدة مع كونه موجهاً دائماً نحو الغرب الجزء العلوي من قرصه، وبعد الاقتران بخمسة عشر يوماً تقريباً يظهر لنا قرصه مستنيراً بأكمله (شكل ٤٤)، وحينئذ تكون لحظة شروقه هي تقريباً لحظة غروب الشمس التي تشرق عند غروبه، ومتى ارتقى القمر إلى أعلى نقطة من سيره أعني مر بمستوى الزوال يكون نصف الليل، ووقتئذ تمر الشمس تحت الأفق بمستوى الزوال الأسفل بحيث يكون القمر مقابلاً للشمس بالضبط بالنسبة للأرض.


(شكل٤٤ ـ البدر)

وبعد ذلك يتناقص على التوالي الشكل المستدير المستنير للقرص، وينتهي بأن يظهر كما كان في أول الأمر على شكل هلال رفيع جداً تحدبه جهة الشرق، بحيث يكون نصف الدائرة المحدد للجزء المستنير موجهاً دائماً نحو الشمس، وفي وسط المسافة التي تفصل البدر عن الزمن التالي له يكون للقمر شكل كالذي كان له في التربيع الأول، غير أنه موضوع بعكسه ويسمى التربيع الثاني أو الأخير، وفي هذا الجزء الثاني من الزمن القمري يقرب الوضع الظاهري للقمر في السماء شيئاً فشيئاً من موضع الشمس، وقريباً من الأيام الأخيرة يسبق شروقها بمدة قليلة جداً حتى يدخل من جديد في أشعتها ويختفي ليعود القمر جديداً. (انظر شكل ٤٥ و٤٦ و٤٧).


(شكل ٤٥ ـ القمر بين البدر والتربيع الأخير)

(شكل ٤٦ ـ التربيع الأخير)


(شكل ٤٧ ـ القمر بين التربيع الأخير والهلال)

الضوء الرمادي

قلنا إن الجزء المستضيء من القمر الذي تنيره الشمس مباشرة يتغير شكله في مدة الدورة الكاملة للقمر من ابتداء الهلال الرفيع المضيء والشكل الأخير لغاية الدائرة الكاملة التي يظهرها الكوكب في مستويه. وأما الجزء المظلم من هذا القرص فيظهر في بعض أشكاله ضوء ضعيف جداً يسمى الرمادي (شكل ٤٠)، ويسهل رؤيته بالعين العارية، وجميع العالم يمكنهم أن يروه قبل أو بعد المحاق ببعض أيام، حيث يكون القمر وقتئذ هلالاً، وجميع جزء نصف الكرة الموجه نحونا والذي لم يتأثر بالأشعة الشمسية يرى مع ذلك متميزاً بحيث يحدد الدائرة الكاملة للقرص، والضوء الرمادي يرى ما دام الهلال ولا يختفي مطلقاً قبل التربيع الأول، ويرى بعد التربيع الأخير بقليل ولا يختفي إلا باختفاء القمر، وشدة الضوء الرمادي ربما تكفي في تمييز كلف القمر بالعين العارية.

أسباب الضوء الرمادي

قد كان الأقدمون من الفلكيين يعتبرون أن هذا الضوء ناتج من نوع تفصفر [كناية عن مادة فسفورية في القمر] لسطح مادة القمر، لكن ذلك قد بطل اليوم، وعلم أن الضوء الرمادي هو ضوء الأرض منعكساً على القمر من الأجزاء المستضيئة منها، وذلك أن الأرض يجب أن ترى من القمر بالأشكال التي يرى بها القمر من الأرض بالضبط، لكن هذه الأشكال تكون بعكس أشكال القمر، لأن وقت المحاق توجه الأرض جزءها المستنير بأكمله نحو نصف الكرة المظلم من القمر، بحيث إن نصف الكرة المذكور يتلقى بواسطة جميع الضوء الذي ترسله الشمس إلى الكرة الأرضية، وحيث إن السطح الظاهري للكرة الأرضية منظوراً من القمر هو أكبر من قرص القمر بنحو ثلاثة عشر مرة تقريباً فيعلم أن ضوء الأرض يجب أن يعطي لليالي القمر ضوءاً أعظم مما يصل إلينا من ضوء القمر، وأجزاء نصف كرة الأرض المستنير منظورة من القمر تكون مع ذلك قليلة كلما كان القمر بعيداً عن الوضع الذي يشغله في وقت الاجتماع، ومن ذا يعلم سبب عدم ظهور الضوء الرمادي بين التربيع الأول والأخير، وحينئذ فالضوء الرمادي ليس شيئاً آخر سوى انعكاس ضوء الشمس المنبعث مرة أولى من الأرض على القمر ثم مرة ثانية من القمر على الأرض. انتهى ما أردته من كتاب الفلك لحسني بك.

المنازل والبروج

وكيف كان سير الشمس والقمر فيهما بحساب لا خلل فيه على مقتضى الشهور الرومية مثل يناير فبراير وهكذا، أو الشهور السريانية مثل أيلول تشرين الأول تشرين الثاني وهكذا، والموازنة بينهما وبين الشهور القبطية مثل توت بابه هاتور كيهك طوبة أمشير وهكذا. وبيان أن أسلافنا منذ قرون جعلوا بينهما جميعاً موازنة بحيث إذا عرف الإنسان حساب الشهر القبطي كأهل مصر، أو الرومي كأهل أوروبا، أو السرياني كغيرهما، أمكنه أن يستخرج بكل سهولة نظائرها من الشهور الشمسية. وكذلك القمرية عند العرب واليهود، وهكذا يعرف أين تنزل الشمس من منازلها البالغة (٢٨) منزلة وهي: الشرطان والبطين والثريا الخ. وأين هي في بروجها البالغة ١٢ برجاً. ثم كيف نظم الناس أعمالهم على مقتضى ذلك النظام كأن يبذروا البرسيم ونحوه في شهر بابه، ويحصدوا الأرز ويجنوا

الرمان ويستخرجوا دهن الآس والليلنوفر، وهكذا في شهر توت قبله، ويعرفون أن أوله يسمى النيروز وهو رأس السنة القبطية. وفي (٧) منه يلقطون الزيتون. وفي (١٧) منه تفتح أكثر الترع بمصر، وفي (١٨) منه يبتدئ فصل الخريف. وفي (١٩) منه تهيج السوداء في البدن. وفي (٢١) منه يبتدئ بيض النعام. وفي (٢٨) منه يذهب الحر. وفي (٢٩) منه يكون أول رعي الكراكي. وفي (٣٠) منه يزرع الهليون. وهكذا بقية الشهور قد وزعت عليها أعمال الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية.

ولما كان هذا المقام لا يسع ذلك أرجأته لأكتبه مفصلاً موضحاً في سورة «الزمر» في آية: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الزمر: ٥] الخ، مع آية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾[الزمر: ٢١]الخ، وهذا هو السر في آيات الزرع متصلة بآيات سير الشمس والقمر في كثير من الآيات. ألا ترى إلى قوله هنا في «يس»: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾[يس: ٣٣] الخ، ثم أتبع ذلك بالشمس والقمر والليل والنهار، وإلى قوله تعالى في سورة «ق»: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾[ق: ٦]الخ، ثم يتبع ذلك بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾[ق: ٧-٨] الخ وهكذا في سورة «الرحمن»: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[الآية: ٥-٦] والنجم هو ما لا ساق له من الزرع والشجر ما له ساق، فسجود هذين النوعين مبني على حساب الشمس والقمر قبلهما كزرع البرسيم في شهر بابه وحصد الأرز وجني الرمان ولقط الزيتون في شهر توت قبله وزرع الهليون في آخره، وهكذا ما تقدم وما سيأتي في سورة «الزمر» قريباً إن شاء الله تعالى.

الكلام على حساب الشهور القمرية إيفاء لبعض ما تقتضيه هذه الآيات

جاء في كتاب صبح الأعشى ما نصه:

إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلاً؛ فتعد من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان في العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة، فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثني عشر، ثم تبتدئ من يوم الأحد الذي هو أول المحرم، فتعد الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، فيكون انتهاء الاثني عشر في يوم الخميس فيكون أول شعبان يوم الخميس. ومثاله في المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أول رمضان أيضاً وكان أول المحرم الأحد كما تقدم؛ فتعد ما مضى من شهور السنة وتعد منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفاً فتكملها بنصف تصير خمسة فتضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر، ثم تبتدئ عد الأيام من أول المحرم، وهو الأحد كما تقدم فيكون انتهاء الرابع عشر في يوم السبت فيكون أول رمضان يوم السبت.

ومن الطرق المعتبرة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط، كم يوماً مضى من الشهر العربي، فما كان جعلته أصلاً لتلك السنة. فإذا أردت أن تعرف أول شهر من الشهور

العربية، أو كم مضى من الشهر الذي أنت فيه؛ فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وانظر كم مضى من السنة القبطية شهراً فخذ لكل شهرين يوماً، فإذا انكسرت الأشهر وكانت فرداً فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجاً. وزد على ذلك يومين أصلاً أبداً، ثم انظر كم يوماً مضى من الشهر القبطي الذي أنت فيه فأضفه على ما اجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقي فهو عدد ما مضي من الشهر العربي. ومنه يعرف أوله.

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء، فوجدت الماضي من الشهر العربي ثلاثة أيام فكانت أصلاً لتلك السنة، ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر الذي أنت فيه أمشير مثلاً؛ فتعد من أول شهور السنة القبطية وهو «توت» إلى أمشير يكون ستة أشهر، فتأخذ لكل شهرين يوماً تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذي معك من أيام النسيء وهو ثلاثة فتصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية. ثم تنظر في الشهر القبطي الذي أنت فيه وهو «أمشير» تجده قد مضى منه يومان فتضيفها على المجموع يكون عشرة وهو الماضي من الشهر العربي الذي أنت فيه ومنه يعرف أوله. اهـ.

حساب الشهور القمرية أيضاً

وهذا نصه: لقد قرأت الجدول الآتي في كتاب العقد الفريد للملك السعيد، وحسبت بمقتضاه أول شهر رمضان المعظم في السنة الماضية سنة ١٣٤٨هـ فكان موافقاً لما جرى عليه العمل فأردت إثباته هنا.

فإذا أردت العمل به فخذ جميع سني الهجرة من أولها مع السنة التي تريد معرفة أول شهرها ومواسمها فتسقط ذلك كله مائتين وعشرة مائتين وعشرة، إلى أن يبقى أقل من مائتين وعشرة فتنظر في جدول الأعداد في بيوت العشرات وفي بيوت الآحاد، فجانب الجدول من يمينه طولاً فيه العشرات وأعلى الجدول فيه الآحاد، فالآحاد من الواحد إلى العشرة، والعشرات إلى المائتين وعشرة، فتنظر إلى المقدار الباقي بعد إسقاط عشراته في العشرات وآحاده في الآحاد، فتوضع أصبع على البيت الذي فيه تلك العشرات وأصبع على البيت الذي فيه ذلك العدد من الآحاد، ثم تمر الأصبع في السطر الذي بإزاء تلك العشرة عرضاً وتنزل الأصبع في السطر الذي تحت ذلك العدد من الآحاد طولاً؛ فحيث التقت الأصبعان في بيت واحد ينظر ما في ذلك البيت من الأسماء والصفات السلطانية فيحفظ، ثم ينظر في الجدول المعمول للشهور ويعتبر أعلاه فينظر ذلك الاسم والصفة المحفوظة، فإذا ظهر في على الجدول فتوضع الأصبع عليه ثم ينزل في السطر الذي تحته إلى محاذاة الموسم أو الشهر المطلوب معرفة أوله إن كان شهراً أي يوم هو، أو إن كان موسماً فما كان في محاذاته فهو المطلوب، واعتبار ذلك أنه إذا أريد معرفة شعبان من سنة أربع وأربعين وستمائة ومعرفة ليلة نصفه ومعرفة أول شهر رمضان، فتسقط سنوات الهجرة مائتين وعشرة مائتين وعشرة فتسقط ستمائة وثلاثون، ويبقى أربعة عشر ففي الآحاد أربعة وفي العشرات عشرة واحدة، فإذا وضعت أصبعاً على العشرة الواحدة ثم مررت في الوسط الموازي لها ووضعت أصبعاً على الأربعة ثم نزلت إلى محاذاة العشرة الواحدة التقت الأصبعان في بيت واحد فيه الاسم الكريم السلطاني نصره الله وهو يوسف، فيحفظ لا زال في حفظ الله جلّ وعلا،

ثم ينظر جدول الأشهر فيوجد الاسم الكريم المحفوظ في الطرف الأيسر من السطر الأعلى منه، فتوضع الأصبع بإزائه وتنزل إلى محاذاة شهر شعبان، فيوجد في محاذاة اسم أوله وهو يوم الأربعاء ومحاذاة نصفه تحته يوم الأربعاء ومحاذاة أول رمضان تحته يوم الخميس ومحاذاة أول شوال تحته وهو يوم العيد يوم السبت، وهكذا طريق العمل به دائماً. (انظر الجدول المذكور في هذه الصفحة والتي بعدها).

الأعداد	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١٠	خدمة	الناصر	المولى	يوسف	الملك	خدمة	صلاح	السلطان	يوسف	الناصر
٢٠	المولى	يوسف	الملك	خدمة	صلاح	السلطان	يوسف	الناصر	المولى	صلاح
٣٠	الملك	خدمة	صلاح	السلطان	يوسف	الناصر	المولى	صلاح	الملك	خدمة
٤٠	صلاح	السلطان	يوسف	الناصر	المولى	صلاح	الملك	خدمة	الناصر	لسلطان
٥٠	يوسف	الناصر	المولى	صلاح	الملك	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الناصر
٦٠	المولى	صلاح	الملك	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	المولى	صلاح
٧٠	السلطان	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	المولى	صلاح	لسلطان	خدمة
٨٠	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	المولى	يوسف	السلطان	خدمة	الناصر	لسلطان
٩٠	يوسف	الملك	المولى	صلاح	السلطان	خدمة	الناصر	المولى	يوسف	الملك
١٠٠	المولى	صلاح	السلطان	خدمة	الناصر	المولى	يوسف	الملك	خدمة	صلاح
١١٠	السلطان	خدمة	الناصر	المولى	يوسف	الملك	خدمة	صلاح	الملك	خدمة
١٢٠	الناصر	المولى	يوسف	الناصر	خدمة	صلاح	السلطان	يوسف	الناصر	المولى
١٣٠	يوسف	الملك	خدمة	صلاح	السلطان	يوسف	الناصر	المولى	صلاح	الملك
١٤٠	خدمة	صلاح	السلطان	يوسف	الناصر	المولى	صلاح	الملك	خدمة	صلاح
١٥٠	السلطان	يوسف	الملك	المولى	صلاح	الملك	خدمة	صلاح	لسلطان	يوسف
١٦٠	الناصر	المولى	صلاح	الملك	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	المولى
١٧٠	صلاح	الملك	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	المولى	صلاح	الملك
١٨٠	خدمة	الناصر	السلطان	يوسف	الملك	المولى	صلاح	السلطان	خدمة	الناصر
١٩٠	السلطان	يوسف	الملك	المولى	صلاح	السلطان	خدمة	الناصر	المولى	يوسف
٢٠٠	الملك	المولى	يوسف	السلطان	خدمة	الناصر	المولى	يوسف	الملك	المولى
٢١٠	صلاح	السلطان	خدمة	الناصر	المولى	يوسف	الملك	المولى	صلاح	لسلطان

أسماء الشهور	خدمة	المولى	السلطان	الملك	الناصر	صلاح	يوسف
المحرم	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت
عاشوراء	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين
صفر	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد
ربيع أول	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء
ربيع آخر	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس
جمادى الأولى	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة
جمادى الآخرة	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد
رجب	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين
شعبان	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء
النصف	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء
رمضان	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس
شوال	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت
ذو القعدة	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد
ذو الحجة	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء
الوقفة	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء
عيد الأضحى	الجمعة	السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس

العلم هو أعلى السعادات لنوع الإنسان

هو العلم الذي أرانا أن :

(١) السنين الكبيسة والسنين البسيطة دوائر منتظمات متعاقبات كدوائر الشعر والموسيقى ونغمات الطيور، وأن نغمات الطيور تسير على دوائر كما تقدم في الدائرة الأولى من دوائر الخليل.

(٢) التي فيها بحر الطويل المماثل.

(٣) لصياح الفاختة.

(٤) ولنظيره من الذي يسمونه الماخوري في علم الموسيقى.

(٥) ومن دوائر الكسوف والخسوف من حيث مواعيد وقوعها كالتي قبلها.

(٦) ويتبع ذلك أن للقمر وجوهاً تتكرر كل شهر فهي إذن أشبه ببحر من الشعر ذي أوزان تتكرر في كل سنة (٩٦) مرة.

(٧) وهكذا دوائر الكواكب المعروفة ومنها «الكوكب الجديد السيار» فكلها تتم دائرتها ثم تعود، كما يفعل الشاعر في شعره والمغني في غنائه. إن الله عز وجل يفعل في فلكه من سير الكوكب وحسابه ما يفعله الشاعر والموسيقي، وفعل الله في نظام العناصر وفعل الإنسان والطير في نظام الحروف والنتيجة تتبع المقدمات. اهـ.

بهجة العلوم في هذا المقام

كتب قبيل الفجر ليلة الخميس ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٠

اعلم أن النعم في هذه الحياة الدنيا إما مادية وإما معنوية، فالمادية كالمآكل والملابس وكل ما يملكه الإنسان، والمعنوية كالعلوم والمعارف، ومنها علم الفلك وبقية الرياضيات والطبيعيات وهكذا. ولا تخلو حال المنعم عليه من واحدة من ثلاث خصال: إما أن يكون من العامة، وإما أن يكون من الخاصة، وإما أن يكون من خاصة الخاصة. فإن كان من العامة فهذا تكون سعادته بالنعمة وقتية وفرحه بها فرح زائل فيكتفي من المآكل بمناظرها والاستلذاذ بطعمها والافتخار بحوز الفاكهة والحلوى ومفاخر الأطعمة، وأن يذكر الناس أنه غني ذو مال كثير، وهكذا في ملابسه وكل ما يملكه من عقار ونضار وخيل وأنعام وصيت وذكر ودولة، وإن كان من الخاصة فهذا لا يعنيه من المآكل إلا ما به يصح جسمه، ولا من الملابس إلا ما يليق له، وهكذا فهذا ينظر للمنافع في حد ذاتها ويضرب بظواهر اللذات عرض الحائط، وهكذا في كل ما يملك، فهو لا يبالي إلا بحفظ نفسه وإسعاد أمته والتعاون والتحاب بالهدايا والتحف للأهل والإخوان، ولا يكتفي من علم الفلك بحساب السنين والشهور من حيث ظواهرها كالفريق الأول، ولا في علم الموسيقى بظواهر النغمات التي يتسلى بها العامة والجهلاء كذلك، بل يتعمق في النظر وينتقل من النغمات المسموعات ومن ظواهر حساب السنين والشهور إلى أسباب ذلك من تلك النسب البديعة، وأنواع الحساب الدقيقة، ويعجب من دقتها ونظامها ونظام كل حساب في علم الكيمياء والطبيعة ونظام الأجسام الحيوانية وحسن اتساقها. فهناك يرى نظاماً واحداً ثابتاً لا خلل فيه، فهذه موسيقى علمية يطرب بها طرباً لا نهاية له، فإن فكر في الأفلاك أو في الأجسام الحيوانية أو تركيب الهواء والماء رأى نظاماً واحداً يرجع كله إلى النسبة والتناسب، وهذه النسب كلها متشابهات لا فرق فيها بين نغمات الطيور وأشعار الشعراء وسير النجوم وحساب سنيها. ولن يعرف ذلك حق معرفته أحد إلا من درس جميع هذه العلوم بجد وشوق أو اطلع على هذا التفسير أو أكثره، فهو مشحون بهذه العجائب، مثلاً بحر المتقارب في علم الشعر الذي تقدم وزنه فعول ثمان مرات. ومعنى هذا أنه هكذا: ثلاث متحركات وساكنان ثمان مرات. وبعبارة أخرى: نسبة (٣) إلى (٢) كنسبة (٦) إلى (٤) كنسبة (٩) إلى (٦) كنسبة (١٢) إلى (٨) كنسبة (١٥) إلى (١٠) إلى آخره، وحاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين، فإذا نسبت ثمن البيت إلى البيت كله كان هكذا: نسبة (٣) إلى (٢) كنسبة (٢٤) إلى (١٦) وضرب (٣) في (١٦) يساوي (٤٨)، وضرب (٢) في (٢٤) يساوي (٤٨)، وعلى هذا أبداً فقس. هكذا إذا أتيت ببحر الطويل وهو في الدائرة الأولى ونسبة ربع البيت إلى البيت كله كان هكذا: نسبة (٧) متحركات إلى (٥) سواكن وهي: فعولن مفاعيلن كنسبة (٢٨) إلى (٢٠)، وضرب (٥) في (٢٨) يساوي ضرب (٧) في (٢٠)، ولا جرم أن نفس هذا البحر كما تقدم هو ضرب من ضروب الموسيقى وهو المسمى الماخوري، فالحساب واحد هو نفسه صوت الفاختة. إذن أصبح الشعر والموسيقى ونغمات الطيور علماً واحداً وبضمها إلى علم الفلك تصبح كلها نسباً متحدة، وهذا لا يصعب عليك بعد ما قدمناه، لأنك إذا نسبت السنين الكبيسة إلى

السنين البسيطة في الأدوار الصغيرة المتقدمة ترجع في نهاياتها إلى ما رأيت من الشعر والموسيقى ونغمات الطيور، فإنك تقول: نسبة (١١) إلى (١٩) كنسبة (٢٢) إلى (٣٨) وهكذا إلى ما لا نهاية له، ولا جرم أن حاصل ضرب (١٩) في (٢٢) يساوي حاصل ضرب (١١) في (٣٨)، وعلى هذا فقس في جميع العلوم. وإذا نظر الحكيم إلى علوم الطبيعة ولواحقها يجد أموراً عجيبة طبيعية، فإنه يجد الحديد مثلاً والمغنسيوم والجير والكبريت هذه الأربعة كلها لها منافع في جسم الإنسان، فالحديد يجعل الدم أحمر ويمنع فقر الدم، والمغنسيوم يقوي العضل ويمنع الفتق، والجير يغذي العظم ويشفي الجروح، والكبريت ينظف الدم ويمنع الروماتيزم. ثم يجد أن النباتات قد فرّقت هذه العناصر عليها. ويجد أمثال السبانخ والطماطم التي تؤكل غير مطبوخة قد جمعت ذلك كله، ففيها جميع هذه العناصر ومنافعها، وتزيد السبانخ بأن فيها الفسفور الذي يغذي المخ كما يغذيه سمك البحر، وفيها الكلورين الذي يعين على الهضم وينظف المعدة كما ينظفها الصابون، وذلك بشرط أن لا تطبخ أكثر من خمس دقائق كما تراه في كتاب ويلكوكس الإنجليزي. فكما يرى في العلوم الرياضية نسباً هندسية يرى نظيرها في تراكيب الأجسام الطبيعية، ويزيد عليها نظام منافعها وعجيب إبداعها، فيدهشه الإتقان ويعجب من حديد ومغنسيوم وجير قد فرقت في الأرض ووضعت ولها نظام خاص تقدم شرحه في سورة «العنكبوت»، فهناك جدول عجيب لجميع العناصر. ثم يرى أنها لا ينتفع بها الإنسان والحيوان إلا بعد أن تمر على النبات، فيرى أن النباتات التقطت تلك العناصر فأدخلتها في جسمها وانتقلت منها إلى مخ الإنسان وإلى عظمه وإلى عضلاته، فهنالك يدخل في بحر لجي لا ساحل له.

هذه هي آراء الخواص. أما آراء خواص الخواص وهي أعلى طبقات هذا النوع الإنساني فهؤلاء بعد أن يقاسوا ما يقاسون من المشاق في الحياة والعمل لها ولرقي النوع الإنساني، يرجعون إلى أساس تلك القوانين، فتلمح نفوسهم أن وراءها حكمة وعلماً ورحمة ورأفة وإبداعاً وإتقاناً وإحسان النقش والتصوير. وأن هذا الحساب والنقش والتصوير وراءها حاسب مصور متقن، وليس ذلك مجرد خواطر كما يخيل لمن يقرأ ما أكتبه الآن. كلا. بل يكون نسبة هذه العلوم إلى ما وراءها كنسبة هدية الملك إلى مجالسته والأنس به، فمن أقبل عليه الملك وجالسه أوفر حظاً ممن أهدى إليه الهدايا ولم يره أهلاً لمجالسته والأنس به، ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى: ٤-٥]. هذا إيضاح هذا المقام والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وإنّما أخرناها إلى هنا وإن ذكرت بين الكلام على الأرض والشمس

لأنها نتائج السماوات والأرض

الله منزه عن المادة بل التحقيق أن لا مادة في هذا الوجود وما هو إلا حركات في موجود سموه الأثير، فالله تباعد عن المادة كما يبعد السابح في البحر. يا عجباً! الله منزه عن المادة، ومن شأن الجميل ألا يصدر منه إلا ما هو جميل. لذلك لم تكن هناك مادة غليظة. كلا. بل ذلك الأثير. وما هو الأثير؟

يا ليت شعري، هو أمر يشبه الأمور الروحية فرضه العلماء في عصرنا، أو هو كالذي نحس به في خيالنا من أمر موجود ألطف من المادة.

العلم الآن وفيما مضى عند القدماء قد نفى المادة بتاتاً وقال: ليست هذه الأرض ولا الماء ولا الهواء ولا النجوم ولا المجموعة الشمسية ولا المجرة ولا المجرات الأخرى ولا السدم التي كشفت حديثاً في عصرنا إلا حركات في ذلك الأثير. وبعبارة أخرى: إن هناك نقطاً ضوئية، وتلك النقط الضوئية ناجمة من كهرباء سالبة وأخرى موجبة يدور سالبها حول موجبها في الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون مرة، فتظهر تلك النقط كأنها شجر وحجر وجبل وجمل، وتختلف المظاهر باختلاف عدد الدورات في الثانية الواحدة. وهذا الموضوع ظاهر ظهوراً بيناً في سورة «النور» عند آية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[النور: ٣٥]، إذ ظهر هناك أن نقطة الماء مركبة من جواهر نحو عدد نجوم السماء المعروفة الآن، وكلها مركبات من تلك الأضواء الكهربائية الدائرة حول بعضها.

فالله لما تنزه عن المادة لم يجعل لها حقيقة ما، بل جعل لها طرفين: أحدهما: من جهة الحقيقة الثابتة فلم يكن إلا النور والحركات. وثانيهما: من جهة حواسنا نحن، فكانت تلك الأنوار والكهرباء حديداً وأشجاراً وجبالاً الخ. يقول الله: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا ﴾[يس: ٣٦]، وذكر منها نبات الأرض وأنفسنا وما لا نعلم. إذن هنا ثلاثة مباحث: النبات، ونفس الإنسان، وما لا نعلم. فالذي خلق هذه الأقسام الثلاثة حقيق بالتنزيه والتقديس. وإنما كان خليقاً بذلك لأن من ظهرت براعته من الناس في صنعة ما سواء أكانت يدوية أو عقلية كان حقيقاً بالإعظام والإجلال. والعظيم والجليل ليس مشرعة لكل وارد، ولا يرد عليه إلا الواحد بعد الواحد لحكمته وعلمه وبراعته في الصناعة. هذا كله في المخلوق البارع بديع الصنعة. المخلوق الذي ظهرت براعته في الصناعة من الناس تشتاق إليه النفوس وتحن له القلوب، ولكن لا تهجم عليه الجماهير ولا يرونه حتى ولو بالمجاهر والمناظير، لأنهم لا يصلون إليه.

وإليك حادثة قصها المستر «انسل» الذي كان سكرتيراً للمستر «أديسون» الذي بهر العالم الإنساني كله بما اخترعه من الفونوغراف وهو «الصدى»، أي الذي يسمعنا الصوت الذي مرت عليه السنون وقد ملأ الأصقاع واخترع جهاز الصور المتحركة، وطريقة لاستخلاص الذهب من الخام بسرعة وطريقة لتبديد الثلج المتساقط في المدن بسرعة، والمولد الكهربائي الذي يدور باحتراق الفحم، والمحرك الكهربائي الذي يدور بالكهرباء الحرارية المتولدة من تعاقب الحرارة والبرودة، وجهازاً لتقدير مراتب الحديد «خواصه من حيث الجودة» والدليل الكهربائي «جلعافومتر» بلا ملف أو إبرة، وجهازاً لقياس درجات الروائح، وإدخال تحسينات كبيرة على مطاحن الإسمنت، وطرقاً فنية لمعالجة خامات الذهب والنيكل والنحاس، وثلاث طرق لإحداث موجات فوق موجات الأشعة فوق البنفسجية، وطرقاً كثيرة لتغطية سطح خيوطات المصابيح الكهربائية بطبقات من السيليكوز أو الكروميوم أو غيرهما، وآلة موسيقية تحرك الأوتار الصوتية في حناجر هلمهولتز الصناعية وثلاث نماذج مختلفة من التماثيل الصناعية ومسباراً كهربائياً لإثبات أعماق المحيطات باستمرار، وجهازاً لقياس مقدار مقاومة الأنابيب الكلام

وطريقة لإرسال الصوت في اتجاه مستقيم من غير أن ينتشر في الطريق، وطريقة الملتبلكس في التلغراف أي: إرسال جملة إشارات معاً في آن واحد على سلك واحد، والتلغراف الطابع، وجهاز تقوية الصوت في التليفونات، وتوزيع القوة الكهربائية بطريق الثلاثة الأسلاك الأرضية الخ.

وهكذا قد قدم لمكتب التسجيل بأمريكا (١٤٠٠) طلب لاختراع أو تحسين. هذا هو المستر أديسون الذي ذكرنا صناعاته لنبين مقدار إعظام الناس له في قصة «المستر انسل» صاحب سره. وإنما نذكر تلك القصة كما ذكرنا بعض صناعاته لتعرف بعض سر التعبير بالتسبيح في حيز الكلام على النبات وخلق الأنفس اللذين سيظهر لك إبداع الله وإتقانه فيهما بما يدهش العقل ويحير اللب. ومن ذلك ينشأ التسبيح والإعظام بالقلب لا بمجرد اللسان، فالاقتصار عليه تسبيح الجاهلين، المستر أديسون صانع ماهر خدم كل أمة وكل فرد، والمسلمون وغير المسلمين مدينون له. فهم يعظمونه ويجلونه ولكنهم لم يروه، بل الذين حوله في أمريكا لا يستطيعون رؤيته، حتى إن المستر «انسل» الذي سقنا هذا الحديث لأجله وقلنا إنه صاحب سره يقول: إن أديسون يتساوى عنده الليل والنهار فهو دائماً يعمل، وكنت كثيراً ما أذهب إليه في المعمل أو المصنع بالليل حيث كنت أقضي النهار بنيويورك للقيام ببعض الأعمال، وقد كان يتصادف أني لا أستطيع مقابلته لفرط انهماكه في العمل إلا عند ما يتناول الطعام في منتصف الليل، فأنتهز الفرصة وأعرض عليه بعض المسائل وأسلمه البريد فيطلع عليه في دقائق معدودة، ثم يشير علي بما أتبعه ويعود هو للعمل.

هذا هو «أديسون» المخترع الشهير لا يقابل الناس لأنه يقوم بشؤونهم ويرفع من قدر الإنسانية. تباعد عنهم لإعزازهم وإسعادهم والناس أعظموه. هكذا كل صانع وعالم في الأرض يعظم عند الناس بمقدار عمله وحنكته، عرف الناس مقدار العظمة عند علمائهم وصناعهم وحكمائهم وأنبيائهم فأجلوا قدرهم لأنهم مخلوقون مثلهم، وكلما كان عمل الصانع أجدى نفعاً وأوسع فضلاً كانت النفوس له أشوق وعظمته أبعد مدى. والانتظام والحب يتبعان معرفة قدر الصنعة والعلم والإبداع والاختراع وهذا هو المخلوق. وعلى هذا القياس يكون التعظيم والإجلال لخالق هذا العالم. والحكماء والأنبياء لهم منازل على مقدار معرفة إبداع الله وإتقانه. ولا سبيل لمعرفة ذلك إلا بقراءة جميع العلوم سماوية وأرضية. روحية وجسمية. ولم يذكر في هذه الآية منها إلا خلق النبات وخلق الأنفس وما لا نعلم، والذي لا نعلمه يقاس على ما نعلمه. فإذا عرفنا نظام النبات ونظام الأنفس الإنسانية وبدائع التركيب وجمال الصنعة كان تقديسنا وإجلالنا للمبدع الحكيم، لا نسبة بينه وبين إجلال الناس لأديسون إلا كنسبة نظام صنعته إلى نظام صنعة هذا المخلوق. ولا ريب أن العقول الكبيرة في العالم هي التي تدرك تلك الحقائق العالية في الإبداع، ويكون عشقها ومحبتها وسعادتها القلبية بمقدار ما أدركت من تلك الحكم العالية. ومعلوم أننا في الدنيا لا ندرك منها إلا النزر اليسير، وبهذا النزر اليسير يكون تسبيحنا الحقيقي وحبنا الإلهي، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

فهل تحب أيها الذكي أن أحدثك في هذا المقام حديثين: حديثاً عن خلق النبات. وحديثاً عن خلق الإنسان.

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في المسائل الهامة، فقرأ هذا وقال: هذا حسن، وإن كان الإنسان في بادئ الأمر قبل الفهم يظن أن بعض القول يشبه الخروج عن الموضوع، وفي الحقيقة كله في الموضوع، اللهم إلا أن أكثر تلك الصناعات المخترعات لا يفهمها أكثر القراء لأنها أمور فنية لا يدركونها، ولكن في ذكرها تنوير للمسلمين، فيفكرون فيما ينفعهم عسى أن يفتح الله لهم باب الاختراع، وكفى الفهم الإجمالي لتلك الاختراعات.

ولكن ماذا تريد من شرح النبات والأنفس الإنسانية في هذا المقام. هذا الكتاب تقدم فيه ما فيه غنى للمستبصر في علم النفس وفي علم النبات، ففي سورة «الحجر» قد رسمت الأزهار المختلفة وشرحت كيفية إلقاحها، وبينت الحساب الرياضي في أوراقها بجداول، وفي سورة «الشعراء» كذلك، وفي سورة «طه» أمور أعجب، وفي سورة «السجدة» وهكذا.

وفي سورة «البقرة» و«الأنعام» و«الرعد» وغيرها، فهل هذا كتاب في علم النبات، فأما علم النفس وتشريح الجسم فهو كثير في الكتاب، فماذا تريد أن تكتب الآن؟ فقلت: الذي أكتبه الآن شيء لم يتقدم له نظير، وهو السحر الحلال والجمال والبهجة والحكمة، فسأريك الساعة ما لم تره لتعلم قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف: ١٠٥].

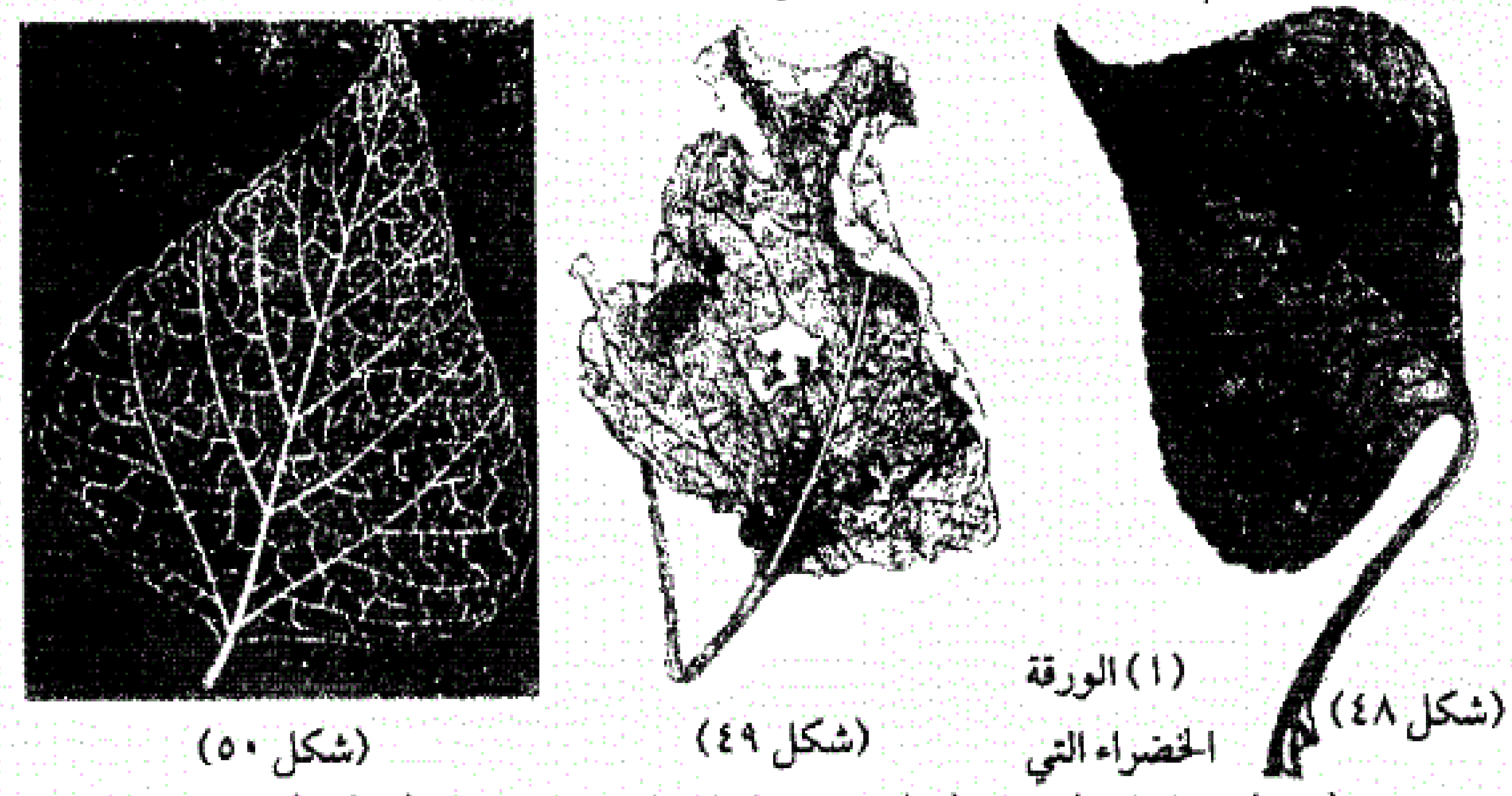
ثم قلت: أنا لا أريك زهرة ولا شجرة ولا حديقة ولا حقلاً ولا ثمراً، ولكن سأريك أمراً لا يؤبه له، يحقره الجاهل والعالم، ولكن بعد درسه الذي تراه يصبح ذلك الحقير في عظمة الشموس والأقمار والنجوم الثوابت والمجرات العظيمة. فقال: لقد شاقني وصفك. فما هو هذا؟ قلت: ورقة سقطت من شجرة والناس يزدرونها. فقال: ما السبب في اختيارك الورقة؟.

قلت: السبب فيه أني نظرت رسمها في كتاب «علوم للجميع» باللغة الإنجليزية ومقالاً شرحها، وهاك ترجمة ذلك المقال بقلم المستر «روبرت براون» الأستاذ في علوم النبات الخ تحت عنوان «الورقة الساقطة»، قال:

إن الصيف هو الزمان الذي يجني فيه علماء النبات ثمرات علومهم، وليس الخريف خالياً من مسراتهم وإسعادهم بالعلم، إنه هو الفصل الذي فيه تعقد الحبوب وتجنى الثمار الخ، وتنضج الحبوب قبل فصل الشتاء الذي هو في أقطارنا الشمالية يضعف قوة الحياة ونشاطها إلى نهايتها. وبالجملة إن أشهر الخريف هي التي فيها تسقط الأوراق.

إن الغابات ذوات الأشجار العريضة الأوراق المختلفات الأنواع والأجناس في هذا الفصل تكون أبهج للناظرين وأسحر لعقول المفكرين منها، في منتصف فصل الصيف حيث يصنع الناس الدريس، اعتاد الناس أن يروا في شهر يونيو ما لا حصر له من المساحات الواسعة المدهامات وهي غضة بهجة تسر الناظرين، أما في شهر سبتمبر وأكتوبر فإن تلك الغابات تتلون بألوان مختلفات: الأصفر والأحمر والأسمر وهكذا، مما يشعر بدنو أجل تلك الأوراق وتوديعها الحياة. إن الأشجار إذ ذاك تخلع حللها السندسية وجلابيبها البهية، وبعد حين تلبس أخرى مسرة للناظرين.

وهاهنا رسم الكاتب ثلاث ورقات . (انظر الأشكال الآتية) .



(شكل ٤٨) (ا) الورقة الخضراء التي لا يزال فيها ماء الحياة

(شكل ٤٩) (ب) الورقة الذابلة الجافة

(شكل ٥٠) (جـ) هيكل الورقة

فورقة (ا) خضراء لا تزال تترقرق بماء الحياة ، لقد انتزعناها من شجرة الحور .

وورقة (ب) قد أصبحت مصفرة ذاوية وقد فارقت الحياة .

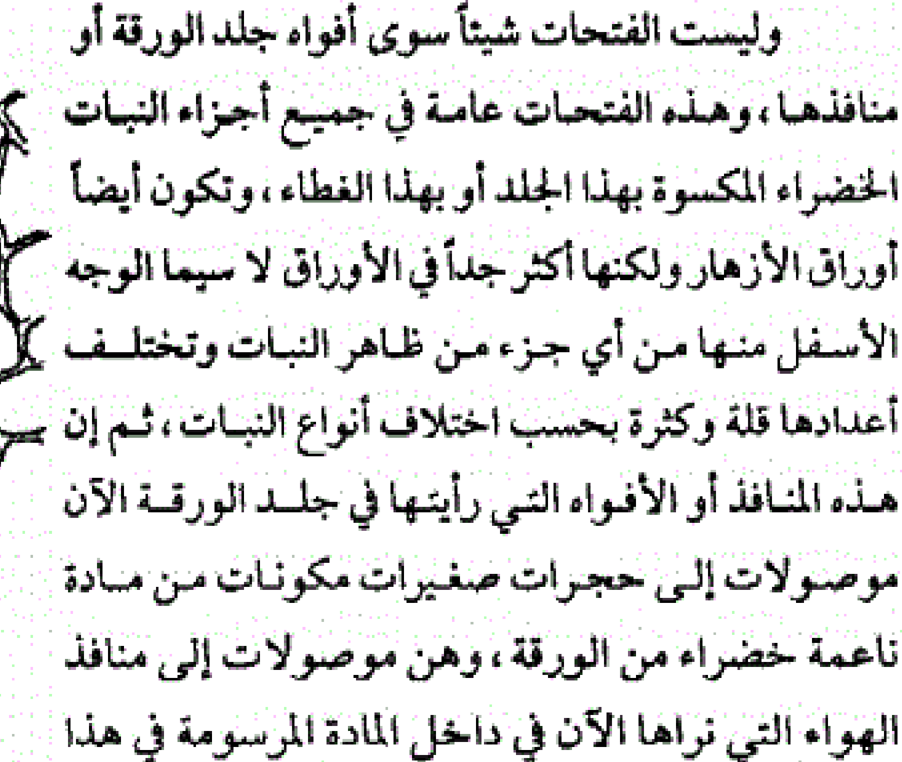
والورقة (جـ) لنفس هذا الشجر .

ولكن المادة التي تملأ ما بين خلل العروق في الورقة قد تعرت عنها وزايلتها ولم يبق إلا الهيكل الذي يقول: ألا ليت الحياة تعود يوماً فأخبرها بما فعل الممات

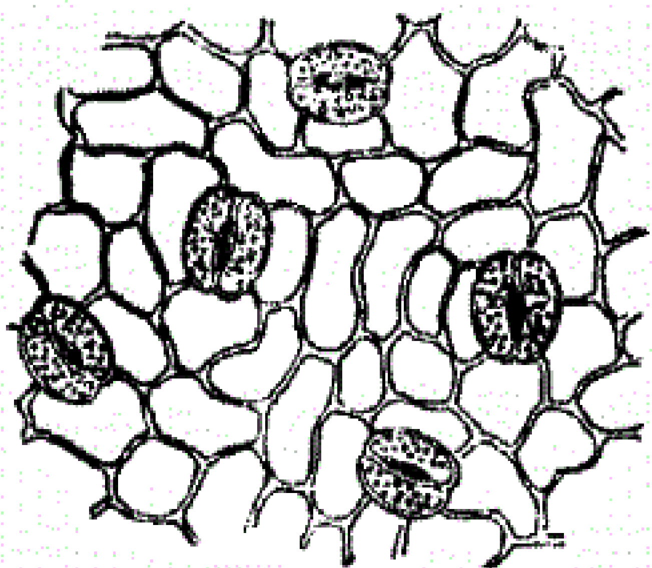
وهنا أخذ يصف الورقة فأبان أن هيكلها حافظ لشكلها الأصلي .

ثم قال : إن هذه الورقة الخضراء مدورة قليلاً أو كثيراً في هيئة رسمها شأن جميع الأوراق ، والطول يزيد كثيراً عن العرض ، وهي دقيقة الطرف حادته ، وهذه هي هيئة المثلث الذي لا إتقان فيه ، وتأملها تجد في وسطها ما يشبه العمود الفقري في الحيوان وقد تشعبت منه في الجهتين أضلاع ، وكل منها ذو فريعات أخرى يتخللها جميعها مادة ناعمة تقوم مقام اللحم في هيكل الحيوان ، بحيث يظهر كل ذلك بهيئة شبكة منسوجة جزأت الورقة أدق الأجزاء وأصغرها . ولقد غطي كل ذلك بغطاء دقيق إذا عومل بإبرة مع رفق واحتراس إذن يقسم أقساماً في غاية الدقة . وفوق كل ذلك أننا نرى ظهر هذه الورقة ـ وكل ورقة أخرى من أي نبات كانت ـ أوضح لوناً من وجهها الذي يقابل السماء ، ونرى أيضاً أن الأسفل ليس في النعومة كالأعلى .

إن كل ما ذكرناه هنا قد عرفناه بمجرد العين ، ولو لم نستعن فيه بآلة بصرية كما هو ظاهر . ولما كانت آلة الإبصار الصناعية المسماة بالمكرسكوب ممكنة الشراء لجميع الناس تقريباً لرخص ثمنها ، أمكننا أن نستعين بها في تحقيق امتحاننا في هذا المقام ، لنزل بالإبرة مع الاحتراس قطعة صغيرة من غطاء أو جلد الوجه الأسفل للورقة ، ولنضعها بكل احتراس على قطعة زجاج تحت المكرسكوب . أتدري ماذا يحصل بعد ذلك؟يكون هذا الشكل الذي تراه أمامك الآن . (انظر شكل ٥١ في الصفحة التالية) .

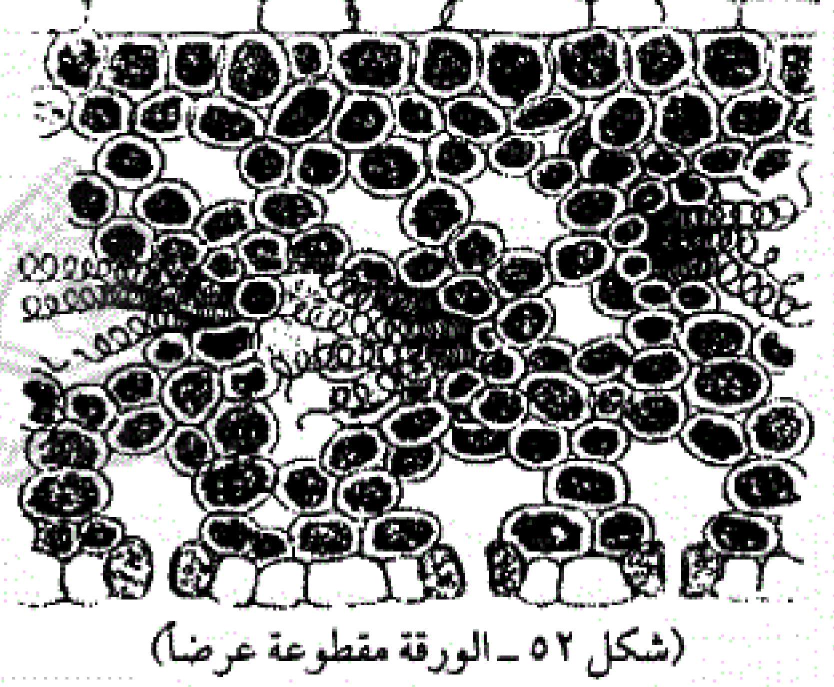


وليست الفتحات شيئاً سوى أفواه جلد الورقة أو منافذها، وهذه الفتحات عامة في جميع أجزاء النبات الخضراء المكسوة بهذا الجلد أو بهذا الغطاء، وتكون أيضاً أوراق الأزهار ولكنها أكثر جداً في الأوراق لا سيما الوجه الأسفل منها من أي جزء من ظاهر النبات وتختلف أعدادها قلة وكثرة بحسب اختلاف أنواع النبات، ثم إن هذه المنافذ أو الأفواه التي رأيتها في جلد الورقة الآن موصولات إلى حجرات صغيرات مكونات من مادة ناعمة خضراء من الورقة، وهن موصولات إلى منافذ الهواء التي نراها الآن في داخل المادة المرسومة في هذا الشكل. (انظر شكل ٥٢).



(شكل ٥١ ـ قطعة من ظاهر الورقة ترى فتحاتها وهي الأفواه)

أتدري ما عدد الأفواه التي ذكرناها في الورقة؟ إنها قد تكون في البوصة الواحدة المربعة عدد (١٢) وقد تكون (٢٤) وتزيد حتى تصل إلى (١٦٠,٠٠٠)، وقد يكون ذلك في ورق الشجيرات الصغيرات اللاتي تشبه النجم، أي ما ليس بشجر بمقدار (٧٠٨,٧٥٠) في البوصة المربعة أيضاً، بينما كان عددها في ورقة شجر «الكلس» مليوناً وثلاثاً وخمسين ألفاً (١,٠٥٣,٠٠٠).



(شكل ٥٢ ـ الورقة مقطوعة عرضاً)

وصف المادة التي في داخل الورقة

ليس من السهل امتحان المادة التي في داخل الورقة، ولكننا إذا فصلنا قطعة من جرمها اللحمي الذي تخللته تلك الشبكة رأينا تحت المكرسكوب «المنظار المعظم» منظراً كالذي استحضرناه وأريناكه فيما تقدم.

إننا هنا نلاحظ أن بين وجهي الورقة من أعلاها ومن أسفلها مادة خضراء قد جعلت بهيئة مثانة مدورة كما ترى، وما هي هذه إذن، هي المسماة بالخلايا جمع خلية في اصطلاح علماء النبات، وكل خلية من هذه التي أمامك تحتوي على مادة خضراء عائمة في مادة سائلة، وهذه المادة السائلة تسمى «خضرة الورقة»، وإذا أردت اسماً أطول من هذا قلنا لك «كلوروفيل» كما هو اصطلاح علماء النبات، ويحيط بهذه المادة المشرقة حيطان شفافة يعلوها سقف مرفوع، وما أشبه المادة الخضراء بين السقف والحيطان الأربعة إلا بسراج ذي لون أخضر أضاء على هذا السقف فظهرت الورقة بلون الخضرة البديع، إذ الجلد أو الغطاء ليس فيه مادة خضراء وإن كان من نفس مادة الخلية، وليس يحوي

غير الهواء، وهو مركب من ذرات صغيرة شبيهات باللبنات التي تبنى بها الحيطان في منازلنا، وقد وضعت وضعاً محكماً بهيئة منظمة، كل واحدة بجانب الأخرى لا يتخللها غير الهواء. إن الشبكة المنسوجة من الفروع الدقيقة مما يشبه العمود الفقري في الإنسان في وسط الورقة تمتد في وسط الخلايا، فتتخلل كل مسافة فارغة فتحشوها وتكون لها كأنها قوالب أو هياكل تحفظها.

إن هذا الامتحان السريع الذي لم نتعمق فيه فيما يشبه العمود الفقري وفروعه قد يكون كافياً، ولكننا نريد أن نزيد عليه ما هو أجمل وأكمل، ذلك أن هذه الفروع إن هي إلا حزم من الأنابيب مجتمعات أو أوان وضعت بجانب بعضها وربطت معاً، وهذه الأنابيب وظيفتها أن تحمل المواد المغذية من الساق إلى الأوراق، أفلا يحق لنا أن نسمي تلك الأنابيب بالعروق لأنها أشبهت في إيصال التغذية عروق الحيوان.

هانحن أولاء أتينا على عجالة في تركيب الورقة من علم النبات، وما هذه العجالة إلا رسالة صغيرة وضعت لإيضاح ما نحن فيه، وقد اضطررنا أن نعجل فيها لأن ذلك كاف في مقصودنا. فنحن في الأسطر القليلة المقبلة نوضح هذه المسألة بتجربة كيميائية يعرف بها الفرق بين الغازين: غاز الأكسوجين وغاز الكربونيك أي حامض الكربون، فنقول:

لنضع ورقة «الحور» التي قطعناها حديثاً في إناء من الزجاج واسع الفم، ثم لنغمرها بالماء ونعرضها لضوء الشمس الوهاج، فماذا نجد إذن؟ نجد هناك فقاقيع من الماء أخذت تطفو على وجهه، هذا في النهار. أما في الليل فإنا نجد فقاقيع مثلها كذلك خرجت من ذلك الماء. فهاهنا أمران: إما أن نكون من علماء الكيمياء فإننا نعلم علم اليقين أن الغاز الذي ظهر بالفقاقيع ليلاً غير الغاز الذي خرج بالفقاقيع نهاراً. فأما إذا لم نكن كذلك فعلينا أن نسأل أهل الذكر بهذا العلم، ومن هؤلاء إلا علماء الكيمياء، فهؤلاء يقولون لنا: إن الغاز الأول هو الأكسوجين والغاز الثاني هو غاز حمض الكربونيك، فالأكسوجين به حياة الحيوان، وغاز الكربونيك هو الذي يخرج منه بالزفير لأنه مميت له، والأكسوجين إذا سلطت شرارة نار في قطعة خشب صغيرة أمدها وقواها فأخذت تسري في جرم الخشب فتصير لهباً، فهو إذن حياة الحيوان وموقد النار. فإذا وضعنا هذه القطعة الخشبية قبل أن يتم إشعالها في إناء فيه غار الكربونيك انطفأت النار حالاً. إن غاز الكربونيك يخرج من البراكين بمقادير عظيمة، ومن أجواف الحيوان بواسطة الزفير، ومن المصانع المعروفة، وهو الذي يتبخر في الجو من النباتات التي أخذت تنحل أجزاؤها وتفسد هياكلها إذا لحقها الردى وحل بها الهلاك، إن مقادير غاز حامض الكربونيك في الجو قليلة ولا نسبة بينه وبين الهواء الجوي إلا كنسبة واحد إلى ألف ألف، وليس في الجو من الفحم الصافي إلا (١٣٨,٦١٦,٠٧٥,٨٩٢) طناً، والطن حوالي (٢٢) قنطاراً والقنطار (٣٦) أقة، وهذا المقدار الطائر في الهواء هو عينة من صنف فحم الكوك المسمى بالإفرنجية «تشرلوك»، وهو الفحم الرخيص الذي يجعله الناس في مواقدهم للتدفئة ونحو ذلك، فهذا المقدار المذكور أحد جزأي ذلك الغاز وهو حامض الكربونيك، لأن حامض الكربونيك مركب من جزء من الكربون «الفحم»، وجزأين من الأكسوجين، فالجزء المذكور هو الذي تقدم وزنه، والأكسوجين يكون في الهواء مقدار خمسه، وإذا

كان الهواء ـ على فرض أنه أصبح سائلاً بالتبريد ـ يصير عشرة أمتار على الأرض، وهو الآن في الحالة الغازية نحو(٦٠)كيلومتراً يكون حامض الكربونيك المذكور شيئاً قليلاً جداً لا يؤبه له في كلتا الحالتين.

إن النبات بتعريضه لضوء الشمس يمتص غاز الكربونيك من الجو بمساعدة الأوراق وكل جزء أخضر في النبات، فهنالك يمتصه النبات ويدور فيه دورته، ولن يكون ذلك إلا بمساعدة ضوء الشمس أولاً، وتأييد المادة الخضراء في الورق ثانياً، وما الورق إذ ذاك إلا معامل صناعية كيميائية يحلل لنا ذلك الغاز فيها، فيأخذ جرم النبات الكربون «الفحم» ليتغذى به وليقيم بنية هيكله، ويدع الجزأين الآخرين من الأكسوجين فيخرجان بالزفير كما دخلا بالشهيق. إذن بهذا نفهم أن ما رأيناه خرج بزفير الورق بهيئة فقاقيع في الماء في الاختبار المتقدم إنّما كان أكسوجيناً، ولو أننا هنا وضعنا على الزجاجة قمعاً من الفلين وغطيناها به لرأينا شرارة تتقد في ذلك الإناء وقد تصير لهباً، فأما في الليل فإن التجربة هي بعينها تفعل مثل ما تقدم، ولكن النتيجة هنا عكس ما تقدم فهاهنا تمتص الورقة الأكسوجين وتدع الغاز يخرج منها بالزفير، ولكن كميته قليلة جداً. وهاهنا بحث العلماء في هذا الغاز من أين أتى؟ أهو من نفس الأكسوجين والكربون اللذين هما في بنية النبات، أم هو غاز من الذي امتصه النبات بالنهار ولم يتم امتصاصه في بنيته؟ هذان رأيان لم يبت فيهما العلماء.

وهاهنا يسأل سائل فيقول: إذا كان النبات هذا شأنه وأنه بالليل يخرج لنا غاز الكربونيك فإنه لا جرم يفسد الهواء. وأي فرق بينه وبين فحم الكوك «تشرلوك» إذا أوقدناه كلاهما يفسد الهواء. فلو أنا أوجدناه في غرفة المقابلة أو الجلوس فإنه يضر الأحياء أو يقتلهم.

وهاهنا أجاب الكاتب قائلاً: إن هذا القول صحيح نظرياً. فأما عند العمل فلا، لأن النبات الذي يكون في النافذة مهما كثر فإن زفيره بالحامض المذكور قليل جداً. بل إذا نام قارئ هذا الكتاب في نفس ما زرع فيه النبات وحفظ فيه فلا خوف عليه من الاختناق. وكيف يستضر بهذا الغاز ونحن لا نجد في سنة آلاف نباته مزروعة في أوعية قد أحكم الغطاء عليها (١٢) ساعة ما لا يزيد عن جزء واحد و٣٩ في المائة من (١٠,٠٠٠) جزء.

قد قلنا فيما مضى: إن الشهيق والزفير يكونان بواسطة الأفواه المرسومة فيما تقدم. ومثل ما قلنا في النبات المشاهد في الأرض نقول أيضاً في نبات الماء، ولكن الامتصاص هنا يكون بجلد الورقة لا بالأفواه المتقدمة، ثم إن الأكسوجين الذي يمتصه ذلك النبات في بنيته ويتمثل فيه فيدخل أولاً في تلك الفتحات ويصل إلى تلك الخلايا، ومن هناك يدور في هيكل النبات كله واصلاً إليه بطرق هوائية صغيرة أو قنوات تحت تلك الخلايا.

النبات زبال الهواء

ألست ترى أيها القارئ بعد هذا أن النبات زبال الهواء، وكيف لا وهو الذي يأخذ منه المادة الضارة وهو حامض الكربونيك فيحولها في داخل معمله إلى كربون ضار يبقى في بنيته لأنه يناسبها وإلى أكسوجين يرجعه ثانياً إلى الهواء فيصبح صالحاً لتنفس الحيوان، عوضاً عن ذلك الغاز المضر به. وعلى ذلك نقول: إن الورق في النبات يقوم بوظيفة الرئة في الحيوانات العليا، والخلايا التي في الورق

تقوم بوظيفة الخلايا التي في الرئة، وإنّما ذكرنا الحيوانات العليا هنا في النظير لأن الحياة في أدنى درجاتها يكون العضو فيها قائماً بأعمال كثيرة. أما في مراتب الحيوانات العليا فالأعمال موزعة توزيعاً حسناً، وذلك له نظير في المدنية. فالأمم الراقية أعمالها موزعة توزيعاً حسناً، أما المنحطة فإن الفرد الواحد يعمل جملة أعمال، فهناك يقل الاختصاص ونبوغ الأفراد.

ندى الأشجار

وهاهنا أفرد الكاتب فصلاً شرح فيه الندى على الأشجار والنبات، فأفاد أن الندى لم يكن من الجو وإنّما هو عرق من هيكل النبات كعرق الإنسان، ولذلك نشم من هذا الندى رائحة النبات الذي ظهر هو عليه كما نشم من عرق الإنسان رائحته سواء بسواء، ومن الشجر ما يقطر ماء على هذا النمط. وقد مر في بعض هذا التفسير ما هو أوفى من هذا في الندى.

الورقة شجرة مصغرة أو هيكل حيوان

فلنتجاوز ذلك إلى ما ذكره المؤلف بعده بنحو ورقة من الكلام على هيكل الورقة ببيان أوضح وأجمل. قال: فإذا تصورنا عظام الحيوان وأوعية دمه وتمثلت أمامنا هيكلاً له فإننا نجد هذه الصورة مطابقة تمام المطابقة لهيئة الورقة. وهنا عجيبة أخرى ألفت إليها نظرك أيها الذكي، فانظر واعجب. إننا كثيراً ما نرى نفس هيكل الورقة يشبه جد الشبه هيئة شجرته التي تحمله، فصورة الورقة لها نظيران: هيكل الحيوان، وهيكل شجرتها.

حقاً إن الشجرة التي جردت من أوراقها أيام الشتاء مثلاً تكون صورة مكبرة للورقة التي سقطت منها. فإذا نظرت هيكل الورقة استبانت لك النسبة بين تشعب فروع هيكلها وبين عروق جسم الحيوان. فانظر إلى الأوراق المتقدمة وتأمل. ألست تجد أن فيها عموداً وسط الورق؟ وهذا العمود خرجت منه أضلاع من جانبيه. فهذه الأضلاع كوّنت مع ذلك العمود الذي في الوسط زاوية، وهذه الزاوية بعينها ترى فيما بين تلك الفروع وبين الأغصان التي تفرعت منها. فهذه الموازنة تراها جلية ظاهرة. ثم إن نفس صورة الورقة مشابهة تمام المشابهة لصورة شجرتها، فإن الزوايا الحاصلة فيما بين جذع الشجرة وفروعها هي بعينها الزوايا الواقعة بين جزء الورقة الممتد فيها وفروعها سواء بسواء. وبهذا تم الكلام في شرح هيكل الورقة وتبيان عجائبها. وملخص ما تقدم في هذا المقام أن للورقة في كل نبات:

(١) خلايا جمع خلية، وهي أشبه بالحجرات.

(٢) وهذه الخلايا مركبات من حيطان شفافة.

(٣) ولكل منها سقف مرفوع عليها يغطيها.

(٤) وهذا السقف مكون من ذرات تشابه اللبنات التي نبني بها منازلنا.

(٥) وفي داخل الحجرات سائل فيه مادة خضراء.

(٦) وهذه المادة الخضراء مضيئة تشع ضوءا على السقف، وهو خال من اللون، وليس يتخلله سوى الهواء.

(٧) وبهذا تظهر الأشجار بأنها خضراء، والحقيقة أن الخضرة في تلك الخلايا داخلها، وما هذه الخضرة إلا انعكاس.

(٨) في كل بوصة مربعة ـ البوصة تساوي سنتيين اثنين ونصف سنتي، والسنتي جزء من مائة من المتر ـ ما يبلغ (١٢) خلية (٢٤)، وهكذا إلى ما يزيد عن ألف ألف حجرة ببضع مئات.

(٩) هذه الورقة إذا وضعناها في إناء زجاجي وعرضناها للشمس نظرنا في الماء فقاقيع، وهكذا يحصل في الليل فقاقيع النهار أكسوجين، وفقاقيع الليل غاز الكربونيك المستخرج من جسم ذلك النبات ليلاً أو مما بقي مما امتصه بالنهار.

(١٠) ولو أننا أقفلنا الزجاجة بالفلين لظهر لنا المحبوس من الأكسوجين بالنهار شرراً، وإذا ازداد ذلك صار لهباً.

(١١) إن غاز الكربون الذي في الهواء قليل بالنسبة له، بحيث لا يزيد علة واحد في ألف ألف جزء منه، والكربون الذي فيه تقدم ذكر عدد طولاناته فلا نعيده.

(١٢) وما النبات بالنسبة للهواء إلا كمثل مزرعة الجبل الأصفر في بلادنا المصرية بالنسبة لمستقذرات القاهرة، فإن مراحيض القاهرة تسير في أنابيب تحت الأرض، وتسير أميالاً كثيرة، وهناك تمتزج بالماء وتسقى بها تلك المزرعة، وهناك يبقى بعض السماد ليخصب الأراضي الأخرى وزرعها. عجيب جداً، فهكذا النبات بالنسبة للهواء، فقد أخذ ما يفسده فأصلحه في جسمه ثم رده صالحاً للتنفس، وورق النبات يقوم مقام الرئة في الحيوانات الكبيرة، والخلايا في هذه كالخلايا في تلك.

(١٣) غاز الكربونيك الذي يخرج من النبات لا يضر الناس ولا الحيوان لأنه قليل جداً، فإن ستة آلاف نباتة بعد (١٢) ساعة لم يظهر منها ـ مع أن النبات مغطى ـ إلا مقدار يسير من ذلك الغاز الضار.

(١٤) للشجر وورقه عرق كعرق الإنسان يظهر بهيئة الندى المعلوم، ولذلك نراه يحمل رائحة نفس النبات، كما أن عرق الإنسان يحمل رائحته.

(١٥) إن في هيكل الورقة لشبهاً لهيكل الحيوان ولهيكل نفس الشجرة، ألم تر إلى الزوايا التي بين جذع الورقة وفروعها الكبرى، وللزوايا التي بين الفروع الكبرى وأغصانها، فهذه متساوية، هكذا ترى نفس الشجرة جذعها مع فروعها الكبرى، وفروعها الكبرى مع أغصانها، كل هذه متساوية الزوايا. انتهى ملخص الموضوع.

خطاب الورقة للناس عامة وللمسلمين خاصة في تفسير

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

تقول: أيها الناس، هاأنا ذا ترونني أسقط من شجرتي في ظلالها تحت أرجلكم، وغاية ما تفعلون أنكم تزيلونني لتنظيف أمكنتكم، ولكنكم لا تعلمون أني نور الله لتدرسوني، كما أن الحشرات نوره، أنزلت لكم لتدرسوها، ما أكثرنا نحن معاشر الورقات في الأرض، وما أكثر أنواع الحشرات الطائفات عليكم صباحاً ومساءً، أنا في حقولكم وفي بساتينكم وتحت أرجلكم، والحشرات تطوف عليكم في الهواء، أما أنا فإني علم وحكمة مجسمة واضحة أقيم عليكم الحجة لتفهموا قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يس: ٣٦]. فأما أنا فإني مما تنبت الأرض، قد اخترعني وابتدعني منظم هذا العالم وخالقه وملأني بالحكمة والعلم،

أنتم تعظمون أمثال « أديسون » المخترع الأمريكي ، وقد ساعدكم في كشف أسرار الأنوار في منازلكم ، وهو معظم عندكم منزلته سامية ، تحبونه وتهابونه بقلوبكم لأنكم أدركتم آثار صنعته ، وهاهو ذا ربي قد جعلني نموذجاً لصنعته ، فماذا صنع ، صنع لي سراجاً كما صنع « أديسون » لكم سراجاً ، ولكن سراج ربي هو الشمس ، ومن رحمته وحسن إبداعه أنه جعلها بعيدة عني بمقدار (٣٥٠) سنة بسير القطار ، و(١٢) سنة بسير قلة المدفع ، وجعل لنورها سرعة بحيث يصل إليَّ في (٨) دقائق و(١٨) ثانية .

هذا هو سراج ربي ، فهذا النور هو والمادة الخضراء في داخل حجراتي أيام حياتي ، بهما أجذب أنا مادة حامض الكربونيك المفسد للهواء ، وأهضم في جسمي ذلك الفاسد وأخرج ما يصلح الهواء ، إن الفحم الذي يفسد الهواء هو الذي يدخل في تركيب كل فاكهة وزهر وورق وشجر ، هذه الحقول وهذه الجنات لا حياة لها إلا بما تستخرج من زبالة الهواء ، فأضواء الشمس وأكسوجين الهواء والكربون المضر فيه والأشجار وأوراقها وأزهارها وأثمارها والماء و الأرض والرياح كلها متعاونات على نتيجة واحدة وهي حياتكم ، فأي نسبة بين سراج « أديسون » ومعامله وبين سراج الله وهو الشمس وبين معامله في الأرض ؟إن معمل «أديسون» وأمثاله لن تقدر أن تصنع حجرة واحدة من حجراتي بحيث تكون حيطانها شفافة وسقفها يبنى بناء محكماً وفيها سائل ، وفي السائل مادة خضراء تضيء ، وفي داخلها فروع كثيرات متداخلات فيها تحفظها حفظاً تاماً كالإطار الذي يحفظ ما هو داخله ، فالمعامل في الأرض ليس في طاقتها أن تصنع خلية واحدة كهذه فضلاً عن ١٢ ، فضلاً عن ألف ألف وبضعة آلاف في بوصة واحدة .

إن صناعات « أديسون » وأمثال « أديسون » أقرب لعقولكم ، وصنع الله لشدة عظمته يعزب تذكره عنكم ، فعقولكم أقرب إلى تعظيم صانع في أرضكم من تعظيم خلق الكون لعظمة صناعته وأنها بعيدة المثال ، ولولا رحمة ربي بغفلتكم عن فعله لهامت قلوبكم به هياماً ينسيكم أنفسكم ، ولكنه من فضله أدخل الغفلة عليكم حتى ضعفت بصائركم فعكفتم على أعمالكم الجزئية . ولكن في الأرض أناس قليلون جداً سمت عقولهم وارتقت أفكارهم . فهؤلاء يهيمون بربهم لما بهرهم من عظمة صنعته . وهم الذين يحبونه حباً جماً . فهم في الأرض يعيشون لا يبتغون من الحياة إلا أن يكونوا مسعدين لأممهم مقتدين بما يرون من أعمال ربهم لشدة حبهم إياه .

وهؤلاء هم عماد أهل الأرض وبقية الناس دونهم ، وهؤلاء ليس عندهم لذة غير ذلك الحب ، وكلما غفلوا عنه حزنوا واعتقدوا أنهم قد أذنبوا ، فهم إذن يستغفرون . وإذا جاءهم الموت فرحوا به لأنهم به يرون محبوبهم ، أولئك هم السعداء المفلحون .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[يس: ٣٦] فاقرأه فيما تقدم في سورة « السجدة » في تفسير قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[السجدة: ٥] الخ .

وأما قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[يس: ٣٦] فذلك تذكير لنا بأن هناك عوالم نظامها متسق على مقتضى هذا النظام . وهذا ما هو إلا ضرب مثل له . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك: ٣] وإلى قوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[الرعد: ٨-٩] .

وإلى هنا تم الكلام على أزواج النباتات . كتب صباح يوم الأحد أول شهر ديسمبر سنة ١٩٢٩ .

أما أزواج الحيوان فما أكثرها في هذا التفسير. ولكن لنذكر هنا ما جمل مما عثرنا عليها. فهاك مناظر جميلة لأزواج الحيوان. فنذكر أولاً أشكالاً غريبة لأربعة منها، وذلك من إحدى المجلات العلمية وهي «مجلة الجديد». وثانياً نذكر ذكاء الحيوان وأعماره. وكذلك سمك الفردوس الذي يبني أعشاشه كالطير ويسبح فوق سطح الماء. وثالثاً نذكر رؤوسه المختلفة. انظر شكل٥٣ و٥٤ و٥٥ و٥٦. وسترى أيضاً باقي الصور فيما يلي من الصفحات.

أولاً ـ الأشكال الغريبة الأربعة



(شكل ٥٣ ـ الريهيا)

نوع من أسرة النعام وقد ظهر أنها شديدة التقليد للطاووس حين جاورها في المسكن.



(شكل ٥٤ ـ لا حاجة للمرآة)

هذه النعامة تستطيع بما وهبها الله من عنق طويل ليّن أن ترى أي جزء من جسمها، فلا تعوزها المرآة، وأكثر من هذا لها طرق متعددة في النظر إلى ما حولها، وعلى الرغم من كل هذه المميزات فإن منظر الحزن والكآبة لا يكاد يفارقها.



(شكل ٥٥ ـ رسم غوريلا كبيرة يبلغ وزنها ٤٥٠ رطلاً وطولها ١٧٠ سم، وقد صادها الكولونيل «فن» من الكونغو البلجيكية).



(شكل ٥٦ ـ رسم عجل الكودو، وهو الذي صادته بعثة حديقة حيوانات لندن من أواسط أفريقيا، وفي الصورة أحد الصبيان من الأهالي وهو يرضعه من زجاجة ليأتلف به قبل ترحيله).

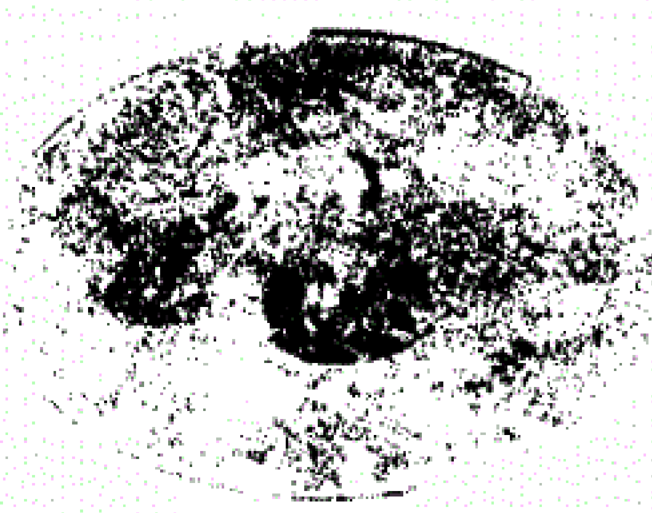


(شكل ٥٧ ـ أحدث طريقة لتحنيط الحيوانات)
أعلن أستاذ علم الحيوان في جامعة فينا أن خير طريقة لتحنيط الحيوانات والنباتات هي غمسها في حمام البرافين، إذ شاهد أن البرافين يميتها وهي في حالتها الطبيعية. كما ترى في الصور الأربعة، وفي حالة النبات يحفظ لون النبات وشكل الزهور الطبيعي. وهذا يساعد كثيراً في دراسة هذه الأحياء.

(شكل ٥٨ ـ رسم شامليون عجيب طوله ١٤ بوصة، وهو أطول شامليون عرف في العالم، صادته بعثة حديقة حيوانات لندن في تجوالها الأخير في أفريقيا).



(شكل ٥٩ ـ آكل النمل)
حيوان من أعجب الحيوانات التي أوفدت حديقة حيوانات لندن بعثة لجمعها ويدعى آكل النمل. غير أن هذا النوع لم يطل أمد تناسله، بل حلّ مكانه نوع آخر منه.



(شكل ٦٠ ـ حية يقتلها النمل)
بين أصناف الأفاعي التي صادتها بعثة حديقة حيوانات لندن هذه الحية التي افترسها النمل الأحمر هي وست مثلها في ليلة واحدة، وهي من النوع السام والذي تميت لدغته الواحدة.

سمك الفردوس يبني أعشاشه كالطير،ويسبح فوق سطح الماء

تعرف البحار الصينية بأنواع غريبة من الأسماك، ومن أغربها النوع المعروف بسمك الفردوس وهو يتخذ أعشاشاً كالطيور، ويصنعها من مادة لزجة ينفخها بفمه فتصير كالفقاقيع وتسبح فوق سطح الماء. وصناعة هذه الأعشاش خاصة بالذكور دون الإناث. فإذا باضت الأنثى أخذ الذكر بيضها بفمه واحدة فواحدة ووضعها في العش اللزج فتلتصق به. ولما كانت الأنثى في سمك الفردوس ذات طباع وحشية؛ وتحب أن تأكل بيضها وما يخرج منه من الأسماك الصغيرة؛ يرخم الأب أو الذكر على البيض حتى يفقس ويحرسه حراسة تامة حتى لا تلتهمه الأنثى. (انظر الأشكال الأربعة الآتية).



(شكل ٦١ ـ سمك الفردوس)



(شكل ٦٣ ـ الذكر من سمك الفردوس
يرخم على بيض الأنثى في العش)



(شكل ٦٢ ـ الذكر من سمك الفردوس
يتفقد بيض الأنثى في العش)



(شكل ٦٤ ـ سمك الفردوس)

ثانياً ـ ذكاء الحيوان وأعماره

وأما أعمار الحيوان وذكاء بعضه، فهاك ما جاء في «مجلة الجديد» تحت عنوان: أعمار الحيوان وهاهو ذا:

أعمار الحيوان

عثر بعض المسافرين الإنجليز عند مرورهم بجزر تونجا في الأقيانوس على سلحفاة كتب على ظهرها عام ١٨٣٧، وقد كتبها القبطان كوك عند مروره بهذه الجزيرة، وقد اتضح لهم أن عمرها يبلغ ١٥٠ عاماً. وفيما يلي بيان متوسط أعمار الحيوانات المعروفة:

التمساح من ٢٠٠ إلى ٢٥٠ عاماً، الفيل من ١٥٠ إلى ٢٠٠ عام، النسر ١٠٠ عام، البجعة ١٠٠ عام، الغراب ١٠٠ عام، الكركدن ٦٠ عاماً، الأسد ٦٠ عاماً، البغاء من ٥٠ إلى ٨٠ عاماً، الإوز ٥٠ عاماً، الجمل ٥٠ عاماً، الصقر ٤٠ عاماً، الثور ٣٠ عاماً، الوعل ٣٠ عاماً، الحمار من ٢٥ إلى ٣٠ عاماً، الحصان ٢٥ عاماً، العصفور الحسون ٢٥ عاماً، الطاووس ٢٥ عاماً، البرقش من ٢٠ إلى ٢٥ عاماً، الخنزير ٢٠ عاماً، الجاموس من ١٨ إلى ٢٠ عاماً، القط ١٨ عاماً، الكلب من ١٠ إلى ٢٥ عاماً، الدب ٢٠ عاماً، البقرة ٢٠ عاماً، الظبي ٢٠ عاماً، السرطان ٢٠ عاماً، الذئب ٢٠ عاماً، البلبل ١٦ عاماً، القنبرة ١٦ عاماً، الثعلب ١٥ عاماً، ثعبان السمك ١٥ عاماً، الشاة ١٢ عاماً، الصرصار ١٠ أعوام، عصفور الكناري ١٠ أعوام، الماعز ١٠ أعوام، العصفور الدوري ١٠ أعوام، الدجاجة ١٠ أعوام الأرنب ٨ أعوام، الأرنب البري ٧ أعوام، السنجاب ٧ أعوام، الفراشة ٧ أعوام، النملة عام واحد. وتوجد في عين الفراشة (٥٠٠٠) عدسة مختلفة و (٥٠,٠٠٠) عصب. وإذا وضعت قوقعة إلى جانب أذنك سمعت صوتاً كالموج ينشأ من تكبير الغطاء الخارجي لصوت ضربات الدورة الدموية الصادرة من أوردة الرأس. (انظر شكل ٦٥).



خريج جامعة كولومبيا

(شكل ٦٥)

جاز هذا الكلب امتحاناً عقد له خاصة في جامعة كولومبيا لاختبار ذكائه وعمره ٥ سنوات.



(شكل ٦٦ ـ رسم طير غريب، ومن غرابته أن قدميه حمراوا اللون، طول كل قدم٢٧سنتيمتراً سنتيمتراً ونصف سنتيمتراً، أما ارتفاعه فهو٥٥ فقط).

ثالثاً ـ رؤوس الحيوانات المختلفة

أما رؤوس الحيوان فاسمع ما جاء في « مجلة الجديد » تحت العنوان التالي ، وهذا نصه :

أعجب رؤوس الطير



(شكل ٦٧)

رأس البطة المعروفة بذات المشط ، وهي من أندر أنواع البط ، وذلك أن عرفها الشبيه بالمشط يكون فوق رقبتها لا فوق رأسها ، وليس لذلك أي سبب إلا أن تكون مخالفة لسواها في الشكل



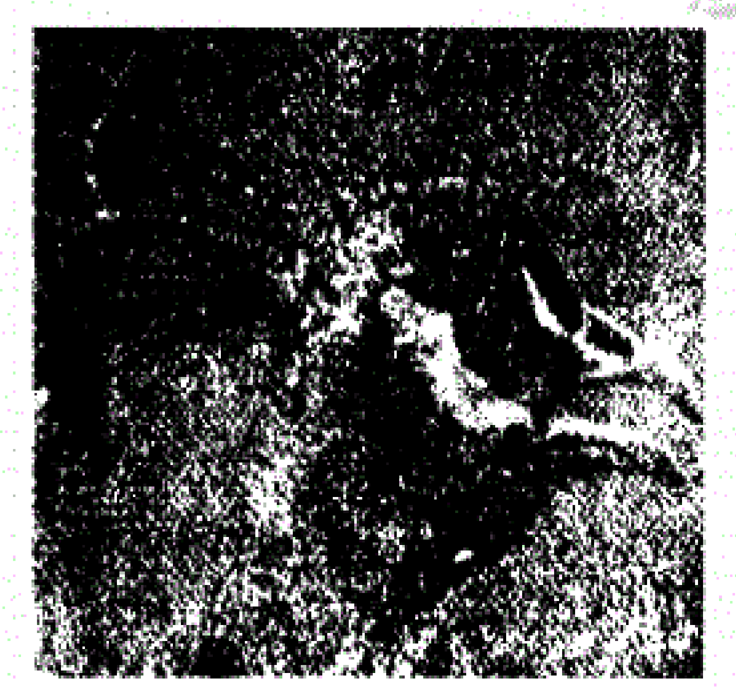
(شكل ٦٨)

الصقر المتوج ومنقاره الصغير المعقوف يحدث أشد الرعب للطير والحيوانات الصغيرة ، وهو يأكل القردة والفيران والأرانب والطيور والإوز والحملان



(شكل ٦٩)

رسم التوكان وطول منقاره كطول جسمه ويقرب منه في الحجم ، ولولا خفة هذا المنقار لما استطاع حمله



(شكل ٧٠)

رأس الطاووس ، وهو على الرغم من جماله وما يبدو عليه من الخجل تفزع منه السحالي والضفادع ، وإن كان الطاووس نفسه يفضل أن يأكل الحبوب والكلأ



(شكل ٧٢)

رسم رأس دجاجة من بلاد غينيا بأفريقيا ولها منقار صلب، وهي عارية من الريش، تتكون من عظام تشبه خوذة الفارس.



(شكل ٧١)

رسم رأس بشروش، ويعرف بطول الرقبة وضخامة المنقار الذي يشبه صندوقاً ذا غطاء محدب.



(شكل ٧٣)

رسم رأس أبيبس أو أبي منجل، ومنقاره طويل مستدق، يدفعه بسهولة في طبقة من الأرض غير قليلة السمك فيخرج الديدان والحشرات، وهو مفيد للزراعة.



(شكل ٧٤)

رسم جمل الماء وقد أعده الله بمنقار كالقربة لأنه لا يتغذى إلا بالسمك فهو يحمل الأسماك في جعبة هذا المنقار لأفراخه الصغار.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ ﴾

وكيف تكلمت الأيدي في زماننا

الإجرام في اليابان والطرق الحديثة لمكافحته

من هراء القول أو تحصيل الحاصل ذكر ما خطته اليابان في نصف القرن الأخير من التقدم العظيم في مختلف العلوم والفنون، مما أدهش العالم وجعلتها محل احترام أرقى الأمم الغربية الحديثة فإن ذلك معلوم مشهور لا يحتاج إلى بيان وتفصيل. وإنّما الذي حداني اليوم أن أكتب بعض الشيء عن ناحية معينة من نهضة اليابان، وهي ناحية الأمن والطرق الحديثة المتبعة في مكافحة الإجرام، هو ما تعمله حكومتنا الآن من تعديل نظم البوليس والأمن العام تعديلاً يتمشى مع حالة العصر الذي نعيش فيه، ويتكافأ مع النظم المتبعة في أوروبا وأمريكا حتى لا يكون هناك اعتراض من جهة ما على ما نطلبه من توحيد القضاء، ومساواة الجميع من أجانب ووطنيين أمام قانون البلاد. الذي لفتني إلى دقة نظام البوليس في اليابان وارتكازه على الطرق العلمية الحديثة هو حادث قتل ارتكب في ضاحية من ضواحي طوكيو، اطلعت عليه أخيراً في إحدى المجلات الأمريكية. وهو وإن يكن حادثاً عادياً في ذاته يحصل الكثير من أمثاله، بل ما هو أشد فظاعة وغموضاً منه في أي بلد من البلاد، وقد يصل رجال الأمن في تلك الجهات إلى معرفة الفاعل بعد تتبع إجراءات كثيرة وبذل مجهود عظيم. إنّما محل الإعجاب في موضوعنا هذا هو حسن قيام البوليس الياباني بواجبه وتوزيع العمل بين رجاله توزيعاً روعي فيه التخصص، واتكاله على الرجال الفنيين ذوي الخبرة الواسعة في كشف الجرائم وتبين أسرارها؛ هو الذي كلل مجهوداتهم بالفوز في القبض على المجرمين والأشرار في معظم الحوادث الجنائية، مما صان هيبة الحكومة في نظر الجميع. وقد أنتج ذلك أثره في تقليل الجرائم بأنواعها. ولأجل أن يحكم القارئ بنفسه على دقة نظام البوليس في اليابان وارتكازه على العلم، نسرد له باختصار هذا الحادث على سبيل المثال. وقبل ذكر موضوع الجريمة نقول: إن بصمات الأصابع كانت العامل الأكبر في إثبات شخصية المجرم.

موضع الجريمة

تاروكاوايستي شاب ياباني في العشرين من عمره، أحب فتاة من بنات جنسه تدعى تيسوك كوجيكي، عاملة في أحد المحال التجارية بطوكيو، ولكن هذه لم تبادله حبه لفظاظة أخلاقه وإدمانه الخمر، وصارت تباعده كلما حام حولها، فأدى سلوكها هذا إلى تحريك كوامن الحقد والبغض في نفسه الشريرة، وصمم على الاقتصاص منها جزاء معاملتها له.

ففي ليلة ظلماء في إحدى حارات ناحية هودوجايا من ضواحي طوكيو وجد نفسه وجهاً لوجه مع كوجيكي معشوقته، فبمجرد رؤيتها تغلبت عليه روح الوحشية والشر وطعنها عدة طعنات قاتلة في رأسها بخنجر كان قد أعده لهذا الغرض، وبعد انتهائه من فعلته الشنعاء مسح الخنجر من الدم بواسطة حزمة من الكلأ الأخضر الذي ينمو بطبيعته في الحقول المجاورة لمكان الحادث. ولكن أثناء تنظيفه للخنجر انطبعت بصمة إبهامه الأيسر على السلاح دون أن يلاحظ ذلك، وبمجرد فراغه من عملية التنظيف ألقى بالسلاح على الأرض في جهة مجاورة لمحل الحادث ولاذ بالفرار تحت جنح الظلام.

ولو كان يعلم أن في إلقائه السلاح منطبعة عليه بصمة إبهامه فيه تسليماً لرقبته للجلاد؛ لكان له رأي في احترام القانون يخالف ما قدمت يداه.

العثور على الجثة

لم تمر إلا برهة وجيزة حتى عثرت الشرطة المارة بالجثة، وفي الحال أبلغت الأمر لبوليس طوكيو. كان أول من وصل لمحل الجريمة هم رجال تحقيق الشخصية. مع الآلات الفوتوغرافية والنظارات المكرسكوبية والمواد الكيماوية والمساحيق والفرش الخاصة بإظهار البصمات الخفية، وكذلك الطبيب الشرعي. فباشروا عملهم بكل دقة وعناية حتى وصلوا إلى اكتشاف السلاح الذي ارتكبت به جريمة القتل، وبحثوه بكل دقة فوجدوا بصمة إبهام منطبعة عليه، فأسرعوا بنقلها على ورق المشمع «ورق خاص لهذا الغرض»، ووضعوا عليها غطاء من السليلويد لحفظها، وكذلك رسموا الجثة ومكان الحادث والجهات المجاورة له. وبحثوا عن كل الآثار التي قد تفيد في كشف سر الجناية. ابتدأ رجال تحقيق الشخصية في بحث البصمة التي عثروا عليها، فكبروها وصاروا يدرسون مئات الخطوط والنقط الدقيقة علهم يجدون لصاحبها سجلاً خاصاً في محفوظاتهم، وعند فراغهم من تقسيمها التقسيم الفني حفظوها في سجل خاص بها لعدم العثور على بصمات لصاحبها محفوظة في الإدارة.

وانتظروا التحريات التي يقوم بها البوليس السري، البوليس السري هناك كما هو الحال في أوروبا من رجال فنيين في علم الإجرام، ودرسوا دراسة علمية خاصة فدربوا على القيام بعملهم أحسن تدريب.

ارتكب تارو جريمته في مارس وبعد مرور سنة من ارتكابها، اعتقد أنه قد عفا النسيان على فعلته الشنعاء، فاطمأن باله وذهبت هواجسه واشتغل عاملاً في حانات الخمور والقهاوي متنقلاً من إحداها إلى الأخرى.

لم ينم الكشافون عن مواصلة بحثهم لكشف الستار عن سر هذه الجريمة، ففي أغسطس الماضي سنة ١٩٢٧ قبضوا عليه في محل للعب الميسر سيئ السمعة مشهور بأنه مجمع الأشرار وذوي السير المعوجة. لم يفزع تارو من البوليس وسخر من أخذهم لبصمات أصابعه لاعتقاده أنه ليس لبصماته سجل محفوظ من قبل حتى يمكن معرفته وإدانته في جريمة القتل. أرسلت بصماته لإدارة تحقيق الشخصية فوجدت إبهامه الأيسر مطابقاً تماماً للإبهام الذي وجد منطبعاً على الخنجر الذي استعمل في ارتكاب الجريمة. عند ذلك تأكد البوليس أن القاتل قد وقع في قبضته.

أودع تارو السجن وسردت له فيه قصة جريمة القتل التي ارتكبها منذ سبعة عشر شهراً، ووضعت أمامه الصورة الفوتوغرافية لجثة القتيلة برأسها المهشم والخنجر الذي استعمله في ارتكاب الجريمة، فأخذ الرعب يدب في قلبه وصار يهذي هذيان المحموم واعترف بما قد أثمت يداه. هذه هي خلاصة الإجراءات التي اتبعت في هذه الجريمة، وهي تدل على إحكام نظام البوليس في اليابان، وعلى أن رجال الحفظ في تلك البلاد تربوا تربية فنية خاصة، ونظموا عملهم على أحدث القواعد العلمية، بل كان لهم فضل كبير في استنباط طرق عملية لإظهار بصمات الأصابع أخذتها عنهم بلاد عريقة في المدنية والعلم.

إدارة تحقيق الشخصية والمباحث الجنائية في طوكيو هي أهم إدارات البوليس من حيث إنها عماد البحوث الجنائية، ففيها تتركز جميع المعلومات الخاصة بالجرائم في إمبراطورية اليابان وجزيرة فرموزا وكوريا. وتحفظ السجلات الخاصة بالمباحث الجنائية مع حفظ بصمات المجرمين وصورهم الفوتوغرافية. وكذلك آثار الأقدام والبصمات الفردية التي يتركها الجناة في محال الجرائم. وتسجل بصمات المجرمين وتحفظ على حسب طريقة الإجرام التي يتبعها المجرمون في ارتكاب جرائمهم. وهذا النظام يفيد كثيراً في سهولة العثور على المجرم، لأن طريقة ارتكاب الجريمة تحصر البحث في عدد معين من المجرمين اعتادوا تنفيذ جرائمهم بطريقة خاصة ليس من السهل أن يجيدوا غيرها. ويتبع هذه الإدارة رجال البوليس السري الذين يناط بهم التحري عن الجرائم وكشف أسرارها. وعلى العموم فجملة النظام المتبع في هذه الإدارة هو ما يجري عليه العمل في اسكتلنديارد في لندن وإدارة البوليس العامة في باريس.

متحف الجريمة

يوجد بالإدارة متحف هائل تحفظ به جميع الآثار التي يعثر عليها في محال الجرائم بعد أن تكون قد بحثت بكتريولوجيا. فيشاهد به مجموعة كبيرة من الأسلحة والملابس اليابانية والأوروبية على اختلاف أنواعها، والأجهزة والآلات التي تستعمل في كسر الخزائن الحديدية، وأوان زجاجية ومعدنية وغير ذلك من الآثار التي كان أو يكون لها شأن في إثبات الجرائم. ومن ضمن الآثار الهامة المحفوظة في هذا المتحف هو هذا الخنجر الذي قتل به الرئيس هارا رئيس وزارة اليابان منذ بضع سنوات في محطة طوكيو.

الأستاذ يوشيكاوا

يرأس إدارة تحقيق الشخصية والمباحث الجنائية في اليابان الأستاذ سومنيشي يوشيكاوا أحد خبراء العالم القلائل في المسائل المتعلقة بالإجرام والمجرمين، وخاصة في كشف الجرائم الغامضة، وهو أستاذ ضليع في فن بصمات الأصابع والتصوير الشمسي، وكشاف ماهر للآثار الدقيقة التي يتركها أمهر المجرمين أثناء ارتكاب جرائمهم. يستعين بالبحث الكيميائي الكهربائي والميكرسكوبي وجميع الوسائل الأخرى التي تلزم لهذه البحوث.

إن الأستاذ يوشيكاوا درس الطرق الفنية لبصمات الأصابع الجاري عليها العمل في اسكتلنديارد في لندن وفي إدارات البوليس في نيويورك وباريس وبرلين وهامبرج وفيينا. ولم يكتف بذلك، بل واصل البحث والدرس حتى جعل لنفسه مكانة علمية لم ينلها إلا القليلون في العالم. يرجع إليه الفضل في اكتشاف أنه لو استعملت نترات الفضة في إظهار بصمات الأصابع ثم عرضت البصمات بعد ذلك للأشعة فوق البنفسجية لوضحت وضوحاً تاماً. وقبل اكتشافه هذا كان كثير من البصمات يعتبر عديم القيمة لعدم وضوح رموزها وضوحاً كافياً، ولهذا كان يفلت كثير من المجرمين من يد العدالة. فتصور كم أدى هذا العالم إلى العدالة والإنسانية من الخدمات، إذ أن في الاقتصاص من المجرم حياة للمجموع.

هذا هو مجمل نظام القسم الفني الجنائي للبوليس في اليابان، ذكرناه كمثال للأنظمة الحديثة للبوليس التي أفادت كثيراً في مكافحة الإجرام وحصر دائرته .

محمد جمال الدين

مساعد مدير تحقيق الشخصية

مسامرة

حدثني أحد نظار المدارس المصرية . قال : أسلم عالم ألماني فسئل لماذا أسلمت؟ قال : لأني قرأت في القرآن المترجم بالألمانية آية : ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[القيامة : ٤] ، وعلم تحقيق الشخصية المبني على البنان لم يعرف إلا في زماننا هذا ، فعرفت أن هذا كلام الله فأسلمت . اهـ .

النطق بلا لسان

حوادث واقعية غريبة

كان العالم الإنجليزي هكسلي في مقدمة الذين يجزمون بإمكان النطق بلا لسان . وقيل : إن الذين يصابون بداء السرطان يفقدون لسانهم في بعض الأحيان ، ولكن بعضهم ينطقون ويميزون الطعم بعد فقده . ومما يروى في هذا الصدد أن هنري الظالم قطع ألسنة بعض المبشرين بالإنجيل سنة ٤٨٤ ميلادية ، فما لبث بعضهم زماناً حتى عادوا إلى الوعظ والإرشاد من غير لسان . وأن البابا ليون الثالث فقد لسانه أيضاً ولكنه لم يمتنع عن الكلام والذوق ، وفي سنة ١٧٤٢م فحصت لجنة من الأطباء في إنجلترا فتاة فقدت لسانها ورأت أنها تحسن النطق والكلام مثل غيرها من الناس . وفي بلاد الإنجليز الآن رجل بلغ السبعين من العمر قطع لسانه من نحو ١٣ سنة ، وهو يتكلم ويغني ويذوق بلا عناء . وأما التعبير عن المراد بالحركات والإشارات فمن الأمور السهلة ، ولبعض القبائل في الحديث إشارات وحركات تزيد على الألفاظ عدداً ، وأكثر الأوروبيين استعمالاً للإشارات في الكلام أهل إيطاليا وأقلهم استعمالاً لها الإنجليز ، انتهى من « المصور » .

تذكرة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

وفيها بيان أقوال علماء العصر في هذين السؤالين : الأول : متى يعيش الإنسان ١٤٠ سنة .

الثاني : كم يجب أن نعيش ترويحاً لعقلاء المسلمين مع فوائد تليق بالمقام ، فهاك ما جاء في مجلة « كل شيء » وهذا نصه :

متى يعيش الإنسان ١٤٠ سنة حديث مع الأستاذ فورونوف

الأستاذ أو الدكتور فورونوف معروف في القاهرة مذ كان طبيباً فيها في أوائل هذا القرن وطبيباً خاصاً للسراي الخديوية ، ثم لما انتقل إلى أوروبا واشتغل بتجاربه المشهورة في إطالة العمر وتجديد قوى الشيوخ بالتلقيح وتجربة ذلك أولاً في القرود وغيرها من الحيوانات ؛ طار اسمه في كل ناحية لا كطبيب بل كمبشر بإمكان إطالة الأعمار إلى ما فوق المائة ، وبإمكان عود الشباب الذي تقرحت عليه أجفان الشاعر الباكي القائل :

ونحت على الشباب بدمع عيني فلم يجد البكاء ولا النحيب

وقد جرى له حديث مع مندوب مجلة إنجليزية فقال: إن الأم التي تكون أول من يدفع إليها ولدها لتجربة عملية تجديد الشباب فيه قد تكون مؤسسة نوع إنساني جديد وقوي، أعطني أولاداً تشتعل فيهم شرارة العبقرية، وأنا أربي لك نوعاً من «السوبرمان» أي الرجال الكاملين، يكون عمر الواحد منهم فوق المائة، ويكون في الوقت نفسه قوياً ونشيطاً وعاملاً بدناً وعقلاً كالشباب منا، ومشروعي هذا الذي بدأ بعمليات تجديد القوى في الأجسام الضعيفة قد يظهر كالدجل في عيون غير العارفين، ولكني أبنت بعد امتحانات طويلة ودقيقة صحة الدعاوى التي ادعيتها من وقت إلى آخر، حتى امتلأ صدري أملاً من جهة المستقبل، واعتقدت إمكان إخراج آرائي في هذا الموضوع من القول إلى الفعل، بدأت تجاربي بالكباش، فنقلت غدة حيوية من كبش حولي إلى كبش مسن في أواخر عمره فكانت النتيجة على ما يرام حتى أعدت التجارب في حيوانات أخرى، فجاءت أحسن من الأولى، ولكن عمل الطبيب يجب أن يكون دقيقاً، فالواجب لذلك أن تعاد التجارب المرة بعد المرة بلا ملل. وقد أخذت الغدد التي لقحت بها حيواناً تجددت قواه، فحصلت بذلك على برهان مزدوج، ذلك بأن الحيوان الذي استؤصلت منه الغدد عاد فتقهقر إلى ما كان عليه، إذ جعل يهزل وفقد شهيته إلى الطعام وسقط شعره أو صوفه، حتى بلغ درجة من الانحطاط أحطّ مما كان عليه قبل عملية التجديد الأولى، فقلت في نفسي: إذا نجحت هذه العمليات في الحيوانات، فلماذا لا تنجح في الإنسان؟ ولكن عرضت هنا صعوبة وهي قلة الرجال الأقوياء الذين يقدمون أنفسهم لمساعدة الضعفاء ويضحون بمثل هذه التضحية الغالية، مع أن استئصال هذه الغدد من الأقوياء الأصحاء لا تؤثر كثيراً في أحوالهم الطبيعية، ولكن تلقيح الضعفاء بها ينفعهم أيما نفع، وهنا بدأت تجاربي في النسانيس، ويقول علماء الطب: إن الشمبانزي أقرب هذه الأصناف إلى الإنسانية، وإذا أخذت قطرة دم من الإنسان ووضعت تحت المكرسكوب هي وقطرة من دم نسناس لم تمكن معرفة الواحدة من الأخرى، وقد جاءت تجاربي في النسانيس ناجحة جداً، وفي مدة خمسين سنة أو أقل يمكن عمل عمليات مدهشة في الناس. وليس تجديد قوى الشيوخ بالتلقيح هو الغرض الأعظم، بل إن غرضي الأعظم هو تلقيح الذكور الذين سنهم بين الثامنة والعاشرة بالغدد، فتكون النتيجة إيجاد نسل من الرجال المتفوقين «سوبرمان».

أما معظم الصعوبة الآن، فقلة النسانيس، ولكني وضعت مشروعاً للمحافظة على هذه الحيوانات النافعة، وأصدرت الحكومة الفرنسية بناء على طلبي أمراً بمنع صيد الشمبانزي في المستعمرات الفرنسية، وبأن لا يصدر منها إلا لغرض طبي، ثم قصدت إلى «مدريد» وقابلت ملك أسبانيا فأصدر أمراً مثل هذا فيما يخص المستعمرات الأسبانية. وهكذا صنع ملك البلجيك عند مقابلتي إياه في عاصمته، بل أضاف إلى مثل هذا الأمر إصدار تعليمات بأن يجعل جزءاً من الكنغو البلجيكية حيث تكثر النسانيس مستودعاً لها، حتى تتم المعدات التي اتخذها لإصدارها منه، وآمل أن تساعدني الحكومة الإنجليزية بمثل هذه الطريقة. وقضيت أشهراً من السنة الماضية أفتش عن مكان بين جنوا ومرسيليا يصلح ليكون مزرعة لهذه الحيوانات حتى وجدته، وفيه الآن نحو مائة منها، فإذا نجحت وكانت المزرعة ملائمة لصحتها فلم تضعف بتغير الإقليم ففي عزمي إنشاء سلسلة منها من «نابلي»

إلى « مرسيليا » بمساعدة الحكومة الفرنسية ، ويجب أن يكون عمر الشمبانزي (٦) سنوات إلى (٨) قبلما يصلح لأن تستأصل غدتاه ويلقح بها الإنسان . ومتى تغلبت على جميع الصعوبات وامتلأت مزارعي حيوانات شديدة شرعت في تجاربي على قدر كبير . وقد عملت إلى الآن(٦٠٠) عملية ناجحة والعملية بسيطة جداً لا يحتاج فيها إلا إلى مخدر موضعي ، ولا يبقى صاحبها راقداً أكثر من أسبوع . وأقول الآن عن اقتناع إنه لا ينصرم القرن العشرون حتى يمكن تجديد قوى الشيوخ وإزالة غبار السنين عن وجوههم كثيرة الغضون والأسارير وأجسامهم المحدوبة الهزيلة . ويمكن أيضاً تأخير الشيخوخة ومضاعفة العمر الذي هو الآن سبعون سنة على الغالب ، وسيبقى الدماغ والقلب صحيحين إلى الآخر .

وقد يمكن تغيير الصفات والشخصيات والعادات بهذه الطريقة ، فتقل الجرائم وتخلق العبقريات وتفرغ الشخصيات في قوالب على حسب الطلب . ومهما يكن زمان ذلك بعيداً فمما لا ريب فيه أن القرود ستكون أساس أمة قوية عقلاً وجسماً ودماغاً وقلباً ونمواً ، وذلك كله بواسطة التلقيح بغددها . اهـ .

كم يجب أن نعيش ؟ وفوائد أخرى

يقول هوفلند أحد العلماء الذين صرفوا عنايتهم إلى درس الحياة في كتاب وضعه وجعل عنوانه « فن إطالة العمر » : إن المرء يولد مستعداً للحياة قرنين من حيث تركيب بنيته ونظام قواه قياساً على ما نراه في الحيوانات . أليس الإنسان حيواناً مثلها ، على أن هوفلند لم ينفرد في هذا الرأي ، فكل الذين يدرسون طبائع المخلوقات يرون رأيه ، ويرون طلائع النور من أبحاثهم ، بإمكان إطالة العمر ، فيسعون إلى التجارب والامتحانات المتعددة .

ومن الملاحظات الحرية بالنظر ما ذكره بعضهم عن النسبة بين عمر البلوغ والعمر التام ، فقالوا : إنها في الحيوانات على اختلاف أنواعها تكون كنسبة واحد إلى ثمانية ، أي عند الكلب يبلغ أتم نموه في سنة ونصف ، فهو يعيش إذا لم يمرض أو يقتل بحادث ما ١٢ سنة ، والحصان يبلغ أتم نموه في ثلاث سنوات فهو يعيش في ١٤ سنة ، وقس عليهما سائر الحيوانات الدنيا . وإذا اعتبرنا الإنسان من حيث تركيبه البدني حيواناً وكان نموه لا يتم قبل بلوغه الخمسة والعشرين عاماً ؛ فمن الضروري أن يعيش مائتي سنة ، ويدعم هذا الرأي ما نراه من حياة بعض الناس الذين عاشوا أعماراً طويلة .

إن هنري جنسكس الإنجليزي الذي ولد في ولاية يورك بإنكلترا عاش ١٦٩ سنة ، ولما بلغ سن ١١٢ كان يحارب في معركة فلورفيلد . وجون بافن البولندي عاش ١٥٧ سنة ، ورأى بعينيه ثلاثة من أولاده يتجاوزن المائة من أعمارهم . ويوحنا سور تنغتون النروجي الذي توفي سنة ١٧٩٧ عاش ١٦٠ سنة وكان بين أولاده من هو في المائة والخمس سنوات . وطوز مابار عاش ١٥٢ سنة . وكورتوال عاش ١٤٤ سنة . على أن أكثر من عاش بين البشر حديثاً على ما يعرف هو زنجي بلغ ٢٠٠ سنة .

والإحصاءات تدل على أن أعمار الناس أول في اسوج ونروج وإنكلترا منها في فرنسا وإيطاليا وكل جنوبي أوروبا ، كما أن الذين عاشوا هذه الأعمار الطويلة إنّما عاشوها ببساطة وكانت حياتهم حياة جد وعمل .

لا مشاحة في أن العمل والعادات والاعتدال من العوامل الرئيسية لإطالة العمر. فالإفراط في كل أمر مع الانحراف عن النظام الطبيعي إنّما هو سبب تقصير أعمارنا. ومن رأي البعض أن العبودية هي السبب الأهم في تقصير العمر. العبودية للشهوة والتقليد والبطالة والزي. فإذا حاولنا التملص من عبودية المدنية الحاضرة والانصراف إلى كل ما هو قانوني وبسيط يمكننا مع الاعتدال أن نعيش مائتي عام بشرط آخر هو أن لا يكون علينا استحقاقات شهرية ولا مسؤولية عقلية تقضي على سلام حياتنا. اهـ.

رأي نابليون في الطب

اشتهر نابليون بونابرت بميله الشديد للمطالعة وإحراز الكتب النفيسة وبتقديره للطب والهيجين وكان ميله للعلوم الطبية قوياً إلى حد أنه تعلم علم التشريح وأتقنه إتقاناً، لكنه لم يستكمل دراسة الطب لاتجاه آخر دفعه إليه القدر. أما ميله للطب والهيجين فكان بمقدار كراهيته للدواء والعقاقير، معتمداً كل الاعتماد على « الطبيعة الشافية » ومحبذاً طريقة البابليين الذين كانوا يلقون المريض على قارعة الطريق حتى إذا مر به عابر أصيب بمثل ذلك المرض وشفي منه أرشده إلى العلاج الذي كان سبب شفائه. ومن أقواله: إن الأدوية لا تفيد سوى جماعة الطراز القديم، وكان دواؤه الوحيد الحمية والاستحمام بالماء الساخن والماء المالح. وقد قال يوماً لأحد الأطباء: إن الجسم آلة تطلب الحياة، وهو مركب لهذه الغاية فقط، فلندع فيه الحياة تنمو وتحيا كما تشاء ولندعها تدافع عن نفسها بنفسها، فإنها تفعل أكثر جداً مما تفعله أدويتكم التي تشل حركتها على الدوام. ومن أقواله أيضاً: إن الجسم يشبه ساعة تسير سيراً طبيعياً منظماً مدة من الزمان، وليس لساعاتي ما أن يفتحها أو أن يعالج ما اختل في نظامها إلا باحتراس كثير وعيناه معصبتان. وإذا وفق ساعاتي واحد بعد عناء عظيم وعذاب طويل إلى أن يصلح شيئاً مما أفسده الزمان في ساعة جسمنا فكم وكم من الأغبياء يفسدون هذا الآلة العجيبة التي صنعها الخالق سبحانه وتعالى. اهـ.

وصايا طفل يخاطب والديه

في سنته الأولى: الأقمطة الشديدة تنهك جسمي النحيف الرخص، فلا تشداني بها، وإلا فعلى القليل حلا وثاقي من تلك الأربطة لأتنفس قليلاً ويجري الدم في عروقي.

في الثانية: النظافة تنفع جسمي الغض وتقويه، فاغسلاني مرة أو مرتين في اليوم كل يوم، وإلا فعلى القليل مرة في الأسبوع.

في الثالثة: القبلة تنقل إلي جراثيم الأمراض الضارة والأسقام المؤلمة، فلا تقبلا ثغري وخدي وعيني، ولا تسمحا لأحد بتقبيلي وإلا فعلى القليل قبلا يدي فإنها تكفي.

في الرابعة: النزهة خارج المدينة مفيدة لي والهواء النقي ينعشني ويقويني، فسيرا بي لأتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة المقوية، وإلا فعلى القليل اصعدا بي إلى السطح.

في الخامسة: المعاشرة الرديئة تفسد أخلاقي، فلا تتركاني تحت رحمة الخادمة أو بين أولاد الأزقة وإلا فعلى القليل اجتمعا بي وحدثاني ولاطفاني ولو ساعتين في النهار.

في السادسة : المدرسة مصدر سعادتي في المستقبل ، فانتخبا لي مدرسة وطنية جامعة لأرضع فيها لبان العلوم العالية ، وإلا فعلى القليل العلوم البسيطة .

عمر المخلوقات

جاء في مجلة « كل شيء » ما نصه :

يتقول الناس أن كثيراً من الحيوانات والطيور تعمر أكثر من الإنسان ، ولكن ظهر بعد فحص عمومي لمعدل أعمار المخلوقات على أنواعها أربعة فقط منها تعيش أكثر من الإنسان ، وذلك مع عدم الانتباه للشواذ وهاك بيانها :

(١) السلحفاة ١٥٠ إلى ٢٠٠ عاماً .

(٢) نوع من السمك الألماني ١٠٠ إلى ١٥٠ .

(٣) العقاب ذو الرأس الأبيض ٥٠ إلى ١١٨ عاماً .

(٤) النسر ٥٠ إلى ١٠٤ عاماً .

وإليك معدل أعمار بعض المخلوقات : الكلاب ٣٥ ، الخيل ٤٠ ، البقر ٢٥ ، الهر ٤٠ ، الدجاج ٣٠ ، البط ٧٥ ، الأسد والنمر ٢٥ ، والسلمون « نوع من الأسماك » يعيش عادة مائة عام . والضفدع الأوروبي ٣٦ ، ويصل عمر التمساح إلى الأربعين ، وأقصر الأعمار توجد بين الحشرات ، فنوع من الخنافس يعيش من ساعة إلى ثلاث ساعات ، والذبابة ٣٤ يوماً ، ولكن خنافس الأشجار تعيش أكثر من سائر الحشرات إذ أنها تعمر ٣٧ عاماً . انتهى ما أردته من المجلة المذكورة .

لما كان هذا التفسير يراد به ارتقاء العالم الإنساني ، لا سيما المسلمين ، انتهزت كل فرصة لإفادة العقلاء بتجارب أمثالهم ليحذوا حذوهم . فهاك ما جاء في جريدة الأهرام يوم ١٩ مايو سنة ١٩٣٠م تحت عنوان « كلمة شفيق باشا في الاحتفال ببلوغه سن السبعين » ، وهذا نصها :

سيداتي سادتي ، قضيت سبعين حجة طويلة ، مررت فيها بأيام سعيدة وليالي هنيئة ، ولكني أعد هذا اليوم أسعد أيامي ، فأنا في جمع من خلاصة أصدقائي وإخواني . ليس فيهم إلا كل بر وفي يشاطرني ما أحمل له في أعماق نفسي من حب ووفاء .

زملائي الأعزاء رجال الرابطة الشرقية ، يسرني أن أتوجه بالشكر إليكم على تذكاركم الذي يزيدني قوة ونشاطاً ، وسأحفظه بقية حياتي عنوان الثقة الغالية ، كما أشكر حضرات الذين تفضلوا فأطروني إطراء مبالغاً فيه ، وأشكر جميع الذين شرفوني والذين حالت أعذارهم دون إسعادي بوجودهم ، فأرسلوا تهانيهم بالبرق وبالبريد .

سيداتي سادتي ، سألني صديقي إسماعيل بك شيرين أن أبسط لحضراتكم ما اعتقده سر النشاط والصحة في هذه السن المتقدمة . وعندي أن ذلك يرجع إلى أسباب اتباعي أوامر الله بابتعادي عن تعاطي المشروبات الروحية . ومما ساعد على ذلك أنه كان لنا جار مدمن لا يعود إلى داره إلا وهو نشوان ، فترجح رأسه بين كتفيه وتسلمها حائط إلى أخرى ، ولا يكاد يعي ما بقوله . وذات ليلة ممطرة رأيته محمولاً إلى الدار بخفيرين أحدهما من يديه والآخر من رجليه وهو ملطخ بالوحل .

انطبعت هذه الصورة البشعة في ذهني فزادت نفوري من الخمر وكراهيتي لها. ومنها أنني لم أدخن أبداً ولم أتعاط القهوة عادة إلا قليلاً منها ممزوجاً باللبن، وقد اندهش بعض إخواني لذلك فهمست في أذنه عن السبب. واسمحوا لي فلا أفصح عنه لأنه لا يقال إلا بين الرجال. ومن ذلك أيضاً عدم الإسراف في ملاذ الحياة، فلا في الأكل كنت نهماً، ولا في غيره كنت مسرفاً، وكانت البساطة وما تزال ملاك حياتي، فإذا لم أصادف الفراش الناعم والخبز اللين رضيت مغتبطاً بالفرش الخشن والكسرة الجافة. ومنها تعودي الرياضة، فأنا مولع بالمسير على الأقدام، حيث أمشي الساعة والساعتين والثلاث في اليوم، فإذا عدت إلى مستقري أكلت بشهية ونمت براحة مبكراً كما أستيقظ مبكراً. ومنها أنني لم أتعود التفريط في وقتي فكنت منتظماً في ساعات عملي وأوقات راحتي ورياضتي، ولا أقتل الوقت في القهاوي والملاهي.

تلكم هي الأسباب الأولى عندي التي أشكر الله عليها وأسأله المزيد حتى أتمكن من أداء ما يثقل كاهلي من دين عليّ للتاريخ، ألا وهو نشر مذكراتي في نصف قرن وبعد ذلك فعلى الدنيا السلام.

انتهى كلامه. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة السادسة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾

جمال الله تجلى في الأنفس وفي الأشجار وفي كل مخلوق، المادة كما تقدم في سورة «النور» عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥]؛ عبارة عن نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها (٦) آلاف مليون مليون مرة في الثانية، فانظره هناك، فإن الشجر والحجر والأرض والسماء كلها نور تنوعت حركاته فتنوعت مناظره، فقيل: هذا حديد، وهذا ماء، وما هذا وما ذاك إلا تلك الأنوار الكهربائية الجارية حول بعضها ترسم دوائر كدوائر الكواكب حول الشمس، وبينها فرجات ومسافات وهي المسام، تعادل المسافات بين الأرض والسيارات وبين الشمس. إذن المادة لم تخرج عن كونها مادة نورية غليظة، وغلظها إنّما جاء في نظر أعيننا. هذا هو رأي علماء العصر الحاضر وهذه الحقائق اختفت عن عيوننا، فلما خلقنا الله في الأرض أحوجنا إلى الغذاء، والغذاء احتاج إلى حرارة، وهكذا أجسامنا اعتراها البرد فاحتاجت إلى الدفء، لهذا خلق الله النار، ولكنها مخبوءة في الشجر والحجر، فألهم الآباء أن يحكوا عوداً بعود فظهرت النار ففرحوا بها. الله لا يريد أن يعطينا شيئاً إلا إذا اشتقنا إليه، ومتى اشتقنا إليه طلبنا، ومتى طلبنا نلنا علماً منه بأننا لا نبالي بما لا نطلبه. هذه النار التي أوريناها من الحجر ومن الشجر عالم لطيف يذكرنا بالنور الأصلي، وهو النور الذي منه كانت المادة، وهو أقرب إلى اللطافة والجمال، ومذكر بنور الكواكب والشمس والقمر. والنار رآها موسى فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[طه: ١٠]، وقد قال بعض المفسرين: هادياً يدلني على الله. ومتى ثبت أن المادة أضواء نورية لم يبق في الوجود الحق إلا الله. ومن عجب أن هذه الفكرة هي التي يقولها الصوفية، وهي التي يقولها سقراط وأفلاطون من علماء اليونان إذ يقولون: لا معنى للوجود الذي يتغير. والمادة متغيرة، فإطلاق اسم الوجود عليها مجاز، ولا يتعلق العلم بها وإنّما يتعلق بما هو ثابت. فهاهنا عجيبتان:

العجيبة الأولى : إيقاد النار في العصور الأولى التي منحها الله البشر وهذه صورتها . (انظر شكل ٧٥) . وهذه المنحة قديمة العهد جداً مجهولة الابتداء ، ولكنها بقيت عند أقوام إلى الآن في بعض جزائر المحيط الهادي ، كما أن لهم عادات مزعجة ، إذ تفعل الأرملة بعد موت زوجها في نفسها ما يقبح فعله . (انظر شكل ٧٦) .



(شكل ٧٥)
أول طريقة لاختراع النار ، وقد توفق إليها الإنسان الفطري بشدة احتكاك قطعتين من خشب الأشجار ولا تزال مستعملة بين سكان جزائر المحيط الهادي ، فاعجب لإجهاد ستة من الرجال الأشداء كلما احتاجوا إلى ما نفعله نحن في لحظة واحدة بعود من الثقاب



(شكل ٧٦)
أرملة في بونا جبست شعر رأسها ووجهها بالجير والطين ، لأن ذلك من شعائر الحزن الواجبة على المرأة هنالك عندما تفقد زوجها

وأيضاً لهم أسلحة حجرية إلى الآن يستعملونها . (انظر شكل ٧٧) . وهكذا يضعون الورق على أجسامهم كما كان يفعل آدم عليه السلام هو وحواء (انظر شكل ٧٨) .



(شكل ٧٧ ـ أسلحة حجرية من بلاد بابوان ، وقد أصبحت نادرة في جزائر المحيط الهادي إلا في هذه الجهة) .



(شكل ٧٨)
رسم فارس من حاشية أحد الرؤساء في جزائر المحيط الهادي ، وهو مكلف بخدمة المآدب وما إليها . ولباسه الرسمي قبعة وبذلة من أوراق شجرة جوز الهند مع دهن وجهه بملاط أسود وأحمر)

واعلم أن الله أبقى هذه العجائب في المحيط الهادي إلى الآن ليرينا كيف ارتقى الإنسان في إيقاد ناره، وفي عاداته وفي أسلحته وفي ملابسه، ليعلم المسلمون الآن ومن معهم أن في هذا العالم نعماً قد خبئت لهم لا ينالونها إلا بالعمل. تمت العجيبة الأولى.

العجيبة الثانية: لا تؤخذ من الآية بطريق المفهوم ولكنها بطريق الاستتباع. ذلك أن الشجر والحجر إذا كان فيهما نار أفلا يكون في هذه النفوس الإنسانية سر تكون نسبة النفوس إلى ذلك السر كنسبة الشجر والحجر إلى النار، نعم ذلك هو السر المكنون، وهو الذي استخرجه أفلاطون قبل الميلاد بعدة قرون.

قال ما ملخصه:

مثال أفلاطون

يقول أفلاطون: إن مثل الناس في الأرض كمثل قوم عاشوا في مغارة تحت الأرض، وقد وضعوا وضعاً بحيث لا يلتفتون يمنة ولا يسرة، ووجوههم مولية تلقاء آخر المغارة من الجهة المقابلة لبابها، وهناك نار أوقدت وراءهم في الطريق، وبينهم أيضاً وبين النار سور، والناس يغدون ويروحون خلف هذا السور، أي في الجهة التي فيها النار، وهؤلاء الذين يمرون يحملون معهم صور الحيوان والنبات والشجر، فهؤلاء الذين في المغارة لا يرون إلا ضوء النار اللامع في المغارة أمام أعينهم، وهم لا يرون النار ولا السور، وإنّما يرون تلك الصور مرسومة على حيطان المغارة، أي: صور الناس والحيوان والنبات. فهؤلاء لا يعلمون من الوجود إلا تلك الظلال، فيسمون تلك الظلال بأسماء على حسب ما يتفق لهم. قال: فإذا أتيح لواحد منهم أن يخرج من المغارة إلى خارجها فإنه يرى الحقائق خلاف ما يرى إخوانه.

يرى أن النبات والحيوان والإنسان الحقيقي غير الخيالات، ويرى تلك الحقائق مجسمة فعلاً ماثلة وراء السور أمام النار. ثم ينظر فيرى إخوانه مغرورون، إذ يظنون الظلال حقائق، ثم ينظر هو فيرى أن الحيوان والنبات والإنسان وما أشبهها ما هي إلا صور صورت فوق الأرض بأسباب سماوية كضوء الشمس والقمر والكواكب، بل نفس النار آتية بحسب أصلها من آثار ضوء الشمس في الأشجار والنبات، وهناك يرى أن السبب الحقيقي لهذه المخلوقات إنّما هي الشمس، فيرى الليل والنهار والفصول الأربعة، وإذ ذاك يدهش من هذا الجمال والإبداع ويعرف أصل الوجود. اهـ.

فهناك أمران: الأمر الأول: أهل المغارة يرون خيالات. الأمر الثاني: هذه الأجسام الحقيقية والنار المتقدة أصلهما الشمس. فكما أن الخيالات في المغارة لا حقيقة لها هكذا النبات والحيوان وسائر الدواب والنيران لا حقيقة لها بالنسبة للشمس. فالشمس هي الأصل والمخلوقات على الأرض تبع لها، ثم إن أهل المغارة أشبهوا أهل الأرض، والصور الخيالية في ضوء النار بالمغارة تمثيل لكل جماد ونبات وحيوان ومخلوق على الأرض، وضوء النار في المغارة تمثيل لضوء الشمس، فالشمس وما تفرع عنها من الفصول والدهور، وما خلق بسببها من الحيوانات والنباتات خيالات وصور غير ثابتة، والوجود الحقيقي هو الخير المحض وهو الله تعالى.

فما أهل الأرض إلا عوالم لم يعرفوا الحقائق المخبوءة وراء هذا العالم، وهو الخير المحض الذي يدركونه إذا نظروا إلى نفوسهم، وهذا الخير المحض هو الله تعالى. فانظر إلى أفلاطون القائل: إن هذا العالم له مثل ـ جمع مثال ـ وتلك المثل دائمة، وهي عوالم روحانية دائمة، وإن هذا العالم فانٍ، وإنه يجب علينا أن نطلب ذلك العالم الباقي ونذر هذا الفاني، ولا يكون ذلك إلا بالجد والاجتهاد، فكما أن أصحاب المغارة لا يمكنهم أن ينظروا نور القمر ولا نور الشمس إلا تدريجاً بمعنى أن الواحد منهم ينظر بعد خروجه أولاً إلى صور الأشياء في الماء، ثم إلى نجوم الليل في الماء، ثم إلى نفس ضوء النجوم ثم إلى ضوء القمر ثم إلى صور الأشياء نهاراً في الماء ثم إلى نفس الأشياء وهكذا، كل ذلك بالتدريج. هكذا لا يمكن الناس أن يصلوا إلى الحقائق إلا تدريجاً بطرق منظمة على طريق الاحتيال. والحياة كلها يجب أن توجه النفس فيها إلى طرق العلم توجهاً تاماً لا هوادة فيه ولا عوج، وبدون ذلك لا يتسنى نيل المرغوب من الوصول لحقائق الأشياء، ويقول: إذا عرف الناس ذلك حقروا هذا العالم الفاني وأحبوا الوجود الحق.

أقول: ولكن ليس هذا فحسب الطريق التي يتبعها جهلة المسلمين النائمين. كلا. بل هي طريق العلم والعمل والجد المستمر. كل ذلك تشير له آية: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ [يس: ٨٠] الخ، فالله عز وجل ألهم الناس فاستخرجوا النار من الشجر، ثم ازدادوا علماً بالمخترعات في عصرنا الحاضر، عصر الراديوم وعصر أعجب الاختراعات، وألهم الحكماء من الناس فاستخرجوا من النظر في نفوسهم معرفة ربهم، فعاشوا في الدنيا مفكرين في إسعاد أنفسهم وأممهم، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الاثنين ١٨ مارس سنة ١٩٢٩م.

تذكرة في قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

يوم الأحد ٢ فبراير سنة ١٩٣٠ عند صلاة سنة الصبح، وأنا أردد آية: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [طه: ٩-١٠]

تباركت يا الله وتعاليت، وأعجبنا كلامك كما أدهشنا صنعك، ذكرت لنا أنك جعلت لنا من الشجر الأخضر ناراً، وبهذا تذكرنا آية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]، وأنك سميت السورة باسم النور، ولم تسم سورة باسم النار، وأن رحمتك سبقت غضبك، وأن لك شموساً كشفوها حديثاً لا حرارة فيها، وليس يخرج منها إلا ضوء، وأن الناس اليوم يريدون أن يجردوا أضواء المصابيح من الحرارة البالغة ٩٦ في المائة، ويحولوها إلى ضوء، وتصبح الحرارة ٤ في المائة والباقي يكون ضوء كشموسك التي جعلتها ضوء لا حرارة فيه.

وتذكرنا قولك في سورة «الواقعة»: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٣]، وهم الذين يكونون في الصحاري المقفرة فيقدحون الزندين ويستخرجون النار. وقولك: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، وقولك: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [طه: ٩-١٠].

اللهم إن شأن النار في قولك وفي صنعك لعظيم، النار صنعك وأنت جميل، فمصنوعك جميل يبهج العقول ويحير الأفكار، جعلت النار تذكرة كما جعلتها متاعاً لنا، إذن هي لعقولنا تنوير ولأجسامنا تدفئة، ولمائنا مخرجة على هيئة بخار من البحار ولهوائنا مجرية، وهو يحمل سحبنا، وهي لنباتنا منمية ولحيواننا منشطة، ولعالمنا الأرضي كله نعمة لا عدد لأفرادها ولا حد لأوصافها.

لولا الحرارة ما كان حيوان ولا إنسان. لولاها لم يكن سحاب ولا رياح. النار نعمة من أجل النعم، فهي والماء بهما الحياة وبهما الموت، بهما الحياة إذا اعتدلت بالميزان، وبهما الموت إذا لم يكن اعتدال الميزان بيدك. وزنت عالمنا وجعلت للنار حداً وللماء حداً، وقلت لهما معاً: ادخلا أجسام كل حيوان وكل نبات، وكونا نعمة لأهل الأرض إذا كان هناك نظام، وكونا نقمة إذا لم يكن نظام.

إن جسم الإنسان فيه حرارة وفيه رطوبة بقدر معلوم، فإن زادت الرطوبة المائية حصل الزكام والسل وجميع الأمراض الباردة، وإذا غلبت الحرارة كانت أنواع من الحمى وما يماثلها، ومتى اشتد أحدهما هلك الحيوان. إذ لا بد من الحرارة مصحوبة بالرطوبة في جسم الحيوان، وهذا يشير له قولك: ﴿ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴾[الواقعة: ٧٣]، وقولك: ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ ﴾[طه: ١٠].

وهذه الحرارة الظاهرة الناجمة من الشمس ومن جميع أنواع النيران المتقدة لها آثار في النفوس تشاكلها. وفي الحديث: «إن كل أم يتبعها ولدها». فإذا رأينا في الأجسام حرارة هكذا نرى في العقول والنفوس حرارة معنوية ولكن هذه أشد من تلك وأدوم، إذا اشتدت الحرارة على الأجسام أهلكتها، ولكن إذا اشتدت آثارها كالحسد والغضب والحقد والغيرة والتعصب والطمع وأنواع العداوات وأنواع المحبة والعشق، فكل هذه إذا غلبت على الروح كانت لها عذاباً واصباً. فإذا أهلكت النار الحسية الحي في لحظة؛ فإن النار المعنوية في النفوس تلازمها وتكون لها عذاباً واصباً كما نرى ذلك في تعاطي الخمر وأنواع التبغ والحشيش والأفيون، فكل هؤلاء أصبحت نفوسهم فيها نيران الشهوات الخاصة قد لازمتها ويشير لذلك: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾[الفرقان: ٦٥]. فهذه اللذات التي لا ترحم في مطالبتها للإنسان نيران تطلع على الأفئدة، وهي المعبر عنها في القرآن بقوله تعالى: ﴿ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت: ١٦]، وبقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[آل عمران: ١٩٤]، وأوضح هذا كله قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ ﴾[آل عمران: ١٩٢]. فإدخال النار الجسمية يتبعه الخزي، والخزي هو مثل ما نراه في الدنيا من أن الإنسان قد يسلب ماله أو ملكه فيخزى لشماتة الأعداء وفرحهم به. وهذا كله عذاب معنوي أشد من الحسي، إذ جعله في الآية أشد من الحسي لأنه سبب الفضيحة والشماتة للمعذب بها. فنحن في هذه الدنيا بين نارين: نار ظاهرة وهي إما معتدلة وهي المتقدة في منازلنا، المديرة لآلاتنا الخابزة لخبزنا الطابخة لطعامنا المجرية لسفننا المسيرة لقطرنا ولسياراتنا ولطياراتنا ولعرباتنا. فهذه نعمة علينا في الأرض والبحر والهواء وفي أجسامنا وأجسام حيواننا. وإما غير معتدلة وهي التي تشب في مخازننا وفي مدننا فجأة فتهلك الحرث والنسل. ونار باطنة وهي إما معتدلة فيكون منها الحب المورث انتظام الجماعات واستقامة الأمم. والكراهية المعتدلة التي بها يكون تفرق الجماعات على الأرض ليحصل الانتفاع بقطعها المختلفة.

ولو أن الله لم يجعل في القلوب إلا نار المحبة ولم يلطفها بما يضادها وهو الغيرة والحسد والتنافس لاجتمع الناس في صعيد واحد في الأرض وهلكوا . ولكن الغيرة والتنافس يورثان التباعد ، فيكون هناك ازدياد الخيرات والثمرات . فكما كان في النار الظاهرة نعمة لنمو النبات والحيوان ودوران الآلات هكذا في النار الباطنة نعمة . فالحب نار نافعة ، والبغض نار نافعة ، إذا كان فيهما اعتدال . فإذا لم يعتدلا وازداد الحب حتى أعمى المحب عن المساوي أو ازدادت الغيرة والغبطة والحسد حتى جاوزت المقدار كان هناك الحرب والإيذاء وخراب الديار . فالنار سواء أكانت ظاهرة أم باطنة منفعة لنا . وقد يكون فيها الهلاك . وهنا سألني بعض الإخوان قائلاً : أريد تلخيص هذا المقام فهو كثير الشعب لا ضابط له . فقلت : انظر البيان الآتي : القبس فرعان وهما : (١) الحرارة . (٢) الضوء .

الضوء : معنوي يهدي إلى العلوم والمعارف . حسي بالحواس الخمس المعروفة .

أما الحرارة : فهي معنوية وحسية : فالحرارة الحسية : إما أن تعتدل وإما أن لا تعتدل . فإن اعتدلت فهي المتاع . والحرارة التي سميناها متاعاً هي إما جامعة وإما منمية وإما مديرة وإما مثيرة . فهي في نحو الطين والعجين جامعة وفي النبات والحيوان منمية ، ولآلات الأرض كسكة الحديد وآلات الماء كالسفن البخارية ولآلات الهواء كالطيارات مديرة . وللبخار من البحار وللهواء مثيرة مبعثرة . وبهذا تمت أقسام الحرارة المعتدلة التي سميناها متاعاً . أما الحرارة التي لم تعتدل فهي التذكرة ، وهذه التذكرة تكون طاغية في الأجسام وفي المدن والحقول . فالطاغية في الأجسام تحدث أنواع الأمراض كأنواع الحميات . والطاغية في المدن والحقول تهلك الحرث والنسل . وبهذا تم الكلام على الحرارة الحسية المعتدلة والتي لم تعتدل .

الحرارة المعنوية تنقسم كأقسام الحرارة الحسية المتقدمة : أما الحرارة المعنوية فهي معتدلة وغير معتدلة . فإن اعتدلت فهي إما مثيرة للعزائم في الأعمال العظيمة . وإما مديرة لنظام الفرد والأسرة والمدينة . وإما منمية لتلك النظم . وإما جامعة للناس بأنواع المحبة . والحرارة المعنوية إن لم تعتدل فهي إما محدثة لأنواع الأمراض المختلفات . وإما موجبة للحرب والقتل بسبب العداوات المفرطة .

ثم قلت : فهذا الجدول المفرع ٢٠ فرعاً به تعرف أيها الذكي بعض أسرار قوله تعالى في هذه السورة : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[يس : ٨٠] ، فإيقاد النار عادة يكون للمتاع ، وهذا يناسب قوله في سورة « الواقعة » : ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾[الواقعة : ٧٣] ، وهذه لها تسعة فروع في هذا الجدول ، وأما التذكرة في سورة « الواقعة » فلها فرعان . وهذه هي النار الحسية وتلحق بها المعنوية بقسميها ولها ستة فروع ، والهدى المذكور في سورة « طه » له فرعان فقط . إذن التذكرة والهدى والمتاع والقبس هذه الكلمات الأربع المذكورة في سور مختلفة تفرعت عليها جميع أعمال هذه الحياة ونظمها ، ثم إن الهدى والتذكرة والمتاع آثارها في النفس باقية ، فإن حرارة شوق النفس إلى العلوم وتحصيلها على مقتضى تلك الحرارة ، ومزاولة أنواع الآلات الصناعية في هذه الحياة تحدث في النفوس ملكات تختلف باختلاف الأشخاص وهذه الملكات عملية في فروع المتاع ، علمية في فروع الهدى . ولا آخرة ولا جنة ولا لقاء لله في الآخرة ولا سعادة إلا على مقتضى هذين الأصلين : القوى العلمية بالهداية ، والقوى العملية بمزاولة أعمال متاع هذه الحياة .

اللهم إني أحمدك على العلم والحكمة، وعلى معرفة بعض أسرار التنزيل في كتابك المقدس. إنك أنت الملهم أنت المنعم، وأقول ما قاله بعض الصحابة رضوان الله عليهم.

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

فأنا يا الله لولا توفيقك وإلهامك ونصرك لعبد ضعيف مثلي ما كتبت حرفاً واحداً. وهذا هو قول المسلم في الرفع والاعتدال في الصلاة: اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، فلك الحول ولك القوة ولك الملك والملكوت.

فقال صاحبي: هذا حسن جداً واضح جميل، ولكن هذا الموضوع كان أليق بسورة «طه» أو بسورة «الواقعة». فقلت: نعم. ولكن لم يفتح الله به إلا في هذه الأيام في أوائل شهر رمضان، فأثبته في أقرب سورة إلى الطبع. فقال: استوف المقام إذن لأني أرى أن له بقية. فقلت: لا أدري ماذا تريد. فقال: أريد إتمام الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ [طه: ٩-١٠] الخ. لم هذا التشويق بجملة: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ ﴾[طه: ٩] الخ، وعلى الشمس وحرارتها فإن لها بقية صالحة. فقلت: نعم. فصلان: الفصل الأول: في التشويق بقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾[طه: ٩] الخ. الفصل الثاني: في إتمام الكلام على حرارة الشمس وضوئها.

الفصل الأول: في الكلام على التشويق بقوله تعالى:
﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾

اعلم أن القصص في القرآن أريد به بعث الهمم وشحذ الأذهان. إن هذه الأمم الإسلامية التي نامت في القرون المتأخرة ستستيقظ من رقدتها بمزاولة القرآن واستكناه معانيه. وما مثل المسلم حين يقرأ علماً أو يستفيد حكمة من أي فرع من فروع العلوم العلوية أو السفلية الحسية والعقلية إلا كمثل رجل رأى قافلة مقبلة وأهله في منزله لا قوت عندهم وقد انتظروا الطعام وأنواع الأمتعة من هذه القافلة، أو رأى سحائب أقبلت وهو في أشد الجوع والعطش، فأقبل إليهم يقول: بشراكم هاهي ذه القافلة أقبلت، أو هاهي ذه السحائب ستمطركم، وهذه عادة كل امرئ مع من يتصل به، فهو إذا رأى مغنماً قد اقترب وهم في انتظاره أسرع إليهم ويشرهم. وهل هذه إلا حال موسى عليه السلام. رأى ناراً وهو متعب في طلب أمرين: الهداية لله والدفء لأهله التي تضع ولا مغيث لها ولا معين في صحراء طور سيناء، فأراه الله النار في شجرة العليق فبشر أهله بها. وهل هذه القصة جاءت لمجرد حفظها أو فهمها أو معرفة بلاغتها أو مجرد الإيمان بها؟ كلا والله، فهذه مرتبة العجائز وصغار المتعلمين.

أيها المسلمون، لا يغرنكم البلغاء ولا الشعراء ولا صغار العلماء. أولا يعلم المسلمون في أقطار الأرض أن كتب الحكماء ككتاب كليلة ودمنة الذي جاء على ألسنة الحيوانات قد قبلته جميع الأمم، وهذه الحوادث التي فيه كحادثة ابن الملك والطائر «فنزه» فإن هذا الطائر كان له فرخ يلعب به ابن الملك فزرق في حجره فقتله، فأقبل الطائر ففقأ عين ابن الملك اقتصاصاً لابنه، فأراد الملك أن يخدع الطائر ويقول له: أقبل ويكون بيننا الصلح، فعلم الطائر أنه يريد الغدر به فلم يقبل، وكانت نتيجة ذلك هذه الحكمة: «إنه لا أمان لعدو قوي له علينا ثأر وإن أظهر لنا تضرعاً وملقاً».

وكحادثة الجرذ والسنور إذ ضرب مثلاً لرجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب، فأشرف معهم على الهلاك، فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته، فسلم من الخوف وأمن ثم وفى لمن صالحه منهم، ذلك أن الجرذ خرج يوماً فرأى السنور وقع في شبكة الصياد ورأى ابن عرس خلفه يريد أخذه، وفي الشجرة بوم يريد اختطافه أيضاً، فصالح السنور وهو أحد أعدائه لينجو منه ومن الباقي، فقطع حباله إلا واحداً حتى لا يغتاله السنور، ولما رأى ابن عرس والبوم اقترابه من عدوهما يئسا منه وانصرفا، فلما أقبل الصياد نحو السنور أقبل الجرذ فقطع الحبل الباقي فنجا السنور بذلك كما نجا الجرذ وانتهى الأمر.

فهاتان الحادثتان يفرح بهما الأطفال والجهال باعتبار ظواهرهما، أما رجال السياسة ورجال الحكمة وهم سادات الأمم في الدنيا والدين، فإنهم يقولون: إن المقصد أن الأفراد والأمم عليهم أنهم إذا وقعوا في ورطة وتألبت عليهم الأعداء أن يصالحوا بعضهم مع الاحتراس، وبهذه المصالحة ينجون من بقية الأعداء ومن نفس ذلك العدو الذي صالحوه، وهذا هو الذي فعله الإنجليز إذ صالحوا أمة شرقية هي اليابان، إذ حاربت الروسيا التي كانت تناوئ إنكلترا، وهكذا فليفعل الأفراد مع بعضهم، وهذه الطائفة إذا قرأت: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا﴾ [طه: ٩-١٠] تفهم فوق ما يفهمه الجهلاء. فماذا يقولون؟ يقولون: إن كل عاقل في الأرض لا سيما المسلمين عليه أن يسعى لغرضين: الأول: إصلاح حال الأمة من حيث الأمور المادية. الثاني: إصلاحها من حيث الهداية العلمية، وهذان يجمعان القبس والهداية، فالأول مادي والثاني عقلي، وهذا هو نظام الأمم جميعها، فلا نظام لأمة يخرج عن هذين الأصلين. وإذا كنا نجد مصالحة الجرذ للسنور ونجاته من ابن عرس والبوم جعلت رمزاً لمصالحة بعض الدول المعادية أو الجماعات للنجاة من الجميع، وهذا سر كلام فيلسوف مخلوق، أفلا يكون كلام الله أولى باستنتاج الحكمة والعلم؟. فقال صاحبي: هذا حسن ولكن هذه المعاني مصرح بها في القرآن، إذ يقول الله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، ويقول: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وأمثال ذلك في القرآن كثير فلا نطيل به. فقلت: نعم، ولكن للرموز مزية ليست للتصريح. فالرمز آثاره قيمة نافعة عظيمة الأثر. فللناس حكم مسطورة في الكتب ككتاب «الأمثال» للميداني، ولهم حكايات مختلفة الأساليب وكلها ترجع لأغراض الحياة. هكذا القرآن فهو كما يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، هو نفسه يذكر عاداً وثموداً وأصحاب الرس ويختم أخبارهم بإهلاك الكافرين وهذه طرق مختلفة لا بد منها كما اختلف الطعام والشراب والزروع والأدوية. كل ذلك لنظام الحياة على الوجه الأكمل.

آية: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠] أيضاً وآثارها عند فلاسفة اليونان

كتاب كليلة ودمنة كتاب هندي ترجم للفارسية، وترجمه ابن المقفع للعربية، وهاتان الحادثتان ذكرناهما هنا لمجرد التنظير وإن كان بينهما بون بعيد، لأن كتاب «كليلة ودمنة» قصد بظواهره الخرافة وببواطنه الحكمة والعلم. أما قصص موسى فظاهره حقيقي لأنه نسب إلى نبي مع أهله، وهذا السر وقع، بخلاف مسألة السنور والجرذ فهما خرافيان.

وهنا أمر جدير بالتعجب، وهو أن القرآن ذكر النار وقبسها، والهدى في هذه الآية التي ذكرناها هنا لمناسبة آية: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾[يس: ٨٠] الخ.

ذلك أن أفلاطون في جمهوريته ذكر النار في هذه المعاني نفسها قبل نزول القرآن بنحو(٨) قرون وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾[العنكبوت: ٤٩]، فلا زلنا نرى القرآن آيات قد تقررت وثبتت في العلم والحكمة، كالذي تقدم في سورة « النور » إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾[النور: ٤٣]الخ، مع أنه لا جبال في السماء ينزل منها برد، فظهر في الكشف الحديث أن في السماء جبالاً من ثلج يصنع فيها البرد. فهذه آيات استبانت في العلم الحديث وذكرها القرآن قبل ذلك بنحو (١٣) قرناً، وهكذا آية: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾[الأنبياء: ٣٠] الخ، فهذه لم تظهر إلا حديثاً إذ ظهر لأهل العلم أن الأرض والكواكب السيارة مشتقات من الشمس، وهكذا سيأتي في سورة « الحديد » أن الأقباط بمصر قد عثروا حديثاً على أن الرهبانية ليست من أصل الدين المسيحي، ولكنها ابتدعها رجل مصري في القرن الثالث المسيحي خاف من الوثنيين الرومانيين الذين يحكمون البلاد، ففر إلى الجبال وتبتل فنجا فصار ذلك سنة، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾[الحديد: ٢٧]، وأثبت بعض الأقباط في كتاب « الجريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة » ذلك، وقالوا: لم نكن نعرف هذا إلا في زماننا، فهكذا هذه الآية، فإن قبس النار والهدى قد جاء في كتاب « جمهورية أفلاطون »، فهي آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من اليونان وجاء بها الوحي. فإذن طابق الوحي الحكمة والفلسفة، وأصبحت أقاويل الفلاسفة شروحاً لآيات القرآن سواء أكانت قديمة العهد أم حديثة أم مستقبلة.

وهاك ملخص المقالة السابعة من جمهوريته، وقد كتبنا لها ملخصاً وجيزاً في سورة « الأنعام » عند آية إبراهيم وأنه رأى كوكبا الخ، فلنوسع المقال فيها فنقول: قال ما ملخصه: إذا أردنا أن نعرف حال النفس الإنسانية علماً وجهلاً، فلنتصور مغارة عميقة خلفها نار فيها أناس قد وضعوا في الأغلال وظهورهم إلى تلك النار ووجوههم موجهة إلى الجهة الأخرى، فلم يروا من الوجود إلا أشعة تلك النار قد أضاءت ما أمامهم من حائط المغارة، وهناك أمام النار خلف ظهورهم حائط مرتفع، وبين النار والحائط طريق يمر فيه أناس يحملون تماثيل مختلفة من أمتعة وحيوانات ونبات وجمادات، ولا ريب أن النار المتقدة تحمل تلك الصور فتلقيها مع الحائط بضوئها فيرونها. فأصحاب المغارة هم ضرب مثل لنا نحن سكان هذه الأرض، فهم لا يرون إلا الضوء والأشباح المصورة فيه، فلا ريب يسمونها بأسماء مختلفة. فإذا نبغ أحدهم وخرج من بينهم فرضاً وأراد مقابلة الشمس فربما عمي، فلا سبيل له إلا أن يبصر أولاً ظلال الأشياء خارج المغارة، ثم ظلالها في الماء، ثم نفس الأشياء، ثم صور النجوم في الماء ليلاً، ثم نفس النجوم في السماء، ثم صورة القمر في الماء، ثم نفس القمر وضوءه، ثم يرى صورة الشمس في الماء، ثم نفس الشمس وضوءها، وهنالك يعلم علماً ليس بالظن أن الأشباح التي يراها أصحابه في المغارة ليست حقائق، بل هي خيالات لصور المواليد الثلاثة وغيرها مما على الأرض. وكل ما على الأرض من حيوان ونبات وجماد هي حقائق تلك التماثيل وهذه نتائج للشمس.

فهنا أربع مراتب: الظلال، التماثيل، نفس الأشياء من نبات وحيوان الخ، الشمس. فالأصل الشمس وغيرها عنها وجد وأقلها مرتبة الظلال في المغارة.

إذن فكر في نفسه وقال: إن لي إخوة بالمغارة فلا بد من أن أرجع إليهم، فإذا تصورنا رجوعه إليهم فإنه أولاً لا يقدر أن يعيش في الظلام كما كان معهم إلا تدريجاً، فإذا استقر قراره وألقى عصاه واستقر به النوى هنالك يخاطبهم بما يقرب إلى أفهامهم لا بنفس الحقائق لئلا يكذبوه، ولأنه إذا قال هناك شمس وهناك نجوم وهناك حيوان ونبات هي أصل لهذه التماثيل كذبوه، فهو يسلك معهم سبيل الحكمة، فلا يزال يعلمهم حتى يعرفوا منه أن لهذه الأشباح أصولاً هي التماثيل، والتماثيل صور للمواليد الثلاثة ونحوها، وكل هذه من الشمس، بل نفس النار المتقدة الأصل فيها ضوء الشمس، إذ لولاها لم تكن. ويفهمهم الفصول الأربعة والسنين وكل شيء، وهناك يكون أصل هذه المغارة طوائف ثلاثة: مصدقون ومكذبون وشاكون ومتحيرون. وهذا كله مثل لحالنا، فإن المغارة هي عالمنا المحسوس، والنار ضوء الشمس، والذي خرج من بين أهل المغارة هي نفس الفيلسوف مثلاً إذا عرف الحقائق، ورجوعه ثانياً إلى أهل المغارة مثل لإرشاده لأهل بلاده وتعليمهم شفقة عليهم. فالشمس بدل النار عبر بها عن الله وضوءها بدل ضوء النار عبر به عن إفاضة رحماته ونفس المخلوقات حية وغير حية بدل التي سميت «المثل الأفلاطونية»، وهي عوالم روحية، وهذه المخلوقات صور لها ظاهرة، ونحن أهل الأرض مثل لأهل المغارة والأنبياء والحكماء مثل لذلك الذي خرج من بينهم فعرف ورجع ليرشدهم.

(١)	(٢)	(٣)	(٤)	(٥)
(١) الله	تدبيره	المثل الأفلاطونية	نحن أهل الأرض	(١) ارتقاء نفس الفيلسوف وتعليمه لأمته
(٢) الشمس	الضوء	العالم المحسوس	سكان المغارة	(٢) خروج أحد سكان المغارة ثم تعليمهم ثانياً
(٣) النار	ضوء النار	ظلاله في المغارة	تصورهم لتلك الظلال	(٣) اختلاف أهل المغارة في قول عالمهم واختلاف الناس في أقوال فيلسوفهم وكل معلم لهم

هنالك تدرك النفس حقائق الأشياء، وترى أن هذه العوالم آثار العالم المعاني، فتتوجه إلى مبدع هذا النظام. ثم قال: ولا سبيل لتعليم رؤساء الجمهورية الحقائق إلا بالتعود على الرياضات البدنية والموسيقى، ولا بد من امتحانهم في المخاطر والصبر على الملاذ، وهكذا علوم الحساب والهندسة والهيئة ثم الموسيقى لتتعود النفس المراقبة الدائمة، ثم يتلو ذلك الأعمال الحربية مدة عامين أو ثلاثة ثم علوم الرياضيات كرة أخرى، فإذا بلغ التلميذ ٣٥ سنة فلينتقل إلى علم معرفة الخير المحض والجواهر العقلية، وهذا العلم هو الأصل، وبقية الموجودات كالخيال بالنسبة له، بل هو الحقيقة وكل العلوم ظنون، وهذا يكون في خمس سنين، ثم يدربون على الأعمال الحربية وغيرها، ثم تسلم لهم المدينة في سن الخمسين. اهـ.

هذا ملخص الكتاب السابع من جمهورية أفلاطون، وهل هذا الفصل كله إلا صدى لصوت موسى ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠]، ولست أقول: إن أفلاطون قرأ هذه الآية، فهذا مستحيل لأنها نزلت بعده بقرون، ولكني أقول: هذا الله وكلام الله آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، ومن الذين أوتوا العلم أفلاطون، وأفلاطون ذكر أن أحد أهل المغارة عرف فرجع وعلم إخوانه، وهو نفسه حكاية موسى إذ رأى ناراً فرجا أن تكون له مخرجاً في أمر المعاش بالقبس من حيث حرارتها، وأمر المعاد بالهدى من حيث ضوؤها، وهذا هو ملخص الكتاب السابع لأفلاطون، فهو استنتج من النار على حائط المغارة نتائج أوصلته إلى الشمس، ثم إلى الله، وهذا هو نفس الهدى الذي جاء على لسان موسى إذ قال: ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[طه: ١٠]، فهذا الفيلسوف وجد على النار هدى بالبحث دله على الله، والنبي موسى عليه السلام نودي أن بورك من في النار ومن حولها، فجاءه الهدى بطريق الوحي عند النار.

اللهم إني أحمدك على العلم وأحمدك على التوفيق. «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»، اللهم إنك أنت الملهم والمعلم، ولو تركتني وشأني في هذا التفسير لم تكن لي قدرة أن أوازن ما بين كلام أفلاطون وهذه الآيات القرآنية، ولم يكن لي من العلم ما يجمع بين هذه الأمور المتباينة ظاهراً المتشاكلة حقيقة.

أيها المسلمون، كفى نوماً. هاهو ذا موسى عليه السلام يقول لأهله: ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ [طه: ١٠]، وهاهي ذه الحكمة في أقطار الأرض يتعلمها الناس، وهذه الجمهورية الأفلاطونية تدرس في سائر أنحاء الغرب والشرق، ومقالاتها في تربية الجند والجيش والتدريب، يتردد صداها بين أهل أوروبا الذين تنظرون لهم نظر الإعظام والإجلال. إذن علوم الحكمة قبس من أنوار القرآن، إذن لتدرسوا كل حكمة وعلم، ومن قرأ هذا التفسير أو أكثره فإنه لا محالة لا يستقر له قرار ولا يكون له اصطبار، إلا إذا سعى سعياً حثيثاً لرقي الأمم الإسلامية، بل جميع الإنسانية في الأرض. فليقل كل قارئ لهذا التفسير أو نحوه لأمته: ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾[طه: ١٠]. هذا ما خطر لي في صلاة الصبح في التاريخ المتقدم إجمالاً وكان تفصيله وقت الكتابة. انتهى الكلام على الفصل الأول في التشويق بقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾[طه: ٩].

الفصل الثاني: في إتمام الكلام على حرارة الشمس

معلوم أن الشمس تشع منها حرارة وضوء، والحرارة تثير البخار وتثير الهواء وتثير السحاب. وهذه الإثارات الثلاثة يراد بها تنمية أغذية الحيوان والإنسان وإراحتهما وإسعادهما. فهاهنا ساقت الشمس بأمر الله ماء وهو للعالم الحيواني. فلم يكن الغذاء ولم يكن الدواء ولا الروائح العطرية ولا لذائذ الذوق واللمس وجمال المبصرات آتياً من الشمس مباشرة، بل اتخذ التدبير الإلهي واسطة بين الشمس وبين الحيوان والإنسان. ولكن الشمس التي هي مصدر هذا كله لا تقف عند هذا الحد، فهي بحرارتها تحيط بجسم الحيوان كل يوم، فتميت الأحياء الذرية وهي «المكروبات» بنفسها لا بواسطة، وتفعل في الجو مع المادة الملونة «كلوروفيل» العائمة في وسط السائل الداخل في فتحات الأوراق

اللاتي تعد بمئات وبألوف وبملايين في الورقة الواحدة. انظره في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ [يس:٣٦] الخ الذي تقدم قريباً، وبهذا الاتحاد بين ضوء الشمس وبين تلك المادة، تجتذب الورقة المادة الكربونية من الهواء، وهذه المادة بها حياة الشجر، وقيام هيكلها وصلاح حالها وظهور أزهارها وأثمارها وحسنها وبهائها. إذن الشمس نفعت الأحياء بواسطة الهواء والماء تارة وبنفسها تارة أخرى. انتهت اللطيفة السابعة.

اللطيفة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾

وذلك في بيان شكل الكون وسدمه والكشف الحديث لملايين النجوم. أما شكل الكون إجمالاً فهاك ما جاء في «المقتطف» وهذا نصه:

شكل الكون وعظمته

ارتأى الفيلسوف «فيثاغورث» في القرن الخامس قبل المسيح أن الأرض كرة، فوضع أساس علم الكون «كوسمولوجيا»، ولكنه وجد من الصعوبة هو وتلاميذه في إثبات رأيه ما نجده الآن لإثبات ما يراه علماء عصرنا في شكل الكون وعظمته. والرأي المعول عليه الآن أن الكون كرة مجوفة إذا سار النور من الطرف الواحد منها إلى الطرف الآخر ماراً بمركزها استغرق سيره مائة مليون سنة، مع أنه يقطع في الثانية من الزمان (١٨٦٠٠٠) ميل، والعوالم كلها أي نجوم المجرة التي شمسنا منها والسدام كلها عوالم مثل المجرة، وهي سابحة مثلها في فراغ هذا الكون. ويظهر في بادئ الرأي أن تصور ذلك ضرب من المحال لكثرة هذه الملايين، ولكن ما من أحد يتعذر عليه أن يقابل بين حبة رمل وبين جبل كبير كجبل المقطم في مصر أو كجبل صنين في لبنان. فحبة الرمل إذا كان قطرها ربع ملليمتر تسهل رؤيتها ويسهل لمسها، وإذا اتصلت بالطعام نشعر بها ونحن نمضغه ونتألم من احتكاكها بأسناننا، ومع ذلك فنسبتها إلى جبل مثل جبل صنين من قاعه إلى قمته كنسبة واحد إلى نحو ألف مليون مليون مليون، وإلى الأرض كلها كنسبة واحد إلى ستة ملايين مليون مليون مليون مليون.

وأما سدمه فهاك ما جاء في إحدى المجلات وهذا نصه:

قد يفوق السدم بعض عالمنا المجريّ في العظمة والزهاء. وتنبأ «هرشل» بأننا إذا بحثنا في كنه هذه السدم فإننا سنجد بعضها يختلف اختلافاً بيناً عن كنه النجوم، وقد تحققت نبوءة هرشل هذه عام ١٨٦٤ حين حلل وليام هاجنز أطياف السدم، فوجدها تختلف اختلافاً بيناً عن أطياف سائر النجوم، وتدل دلالة واضحة على أن ثلث عدد السدم على الأقل من مادة غازية متخلخلة، وقد تقدم البحث في طبائع السدم تقدماً كبيراً عندما بدئ في استعمال طريقة التصوير الفوتوغرافي في الأرصاد الفلكية، ففي عام ١٨٨٠ نجح هنري دربر في الحصول على أول صورة فوتوغرافية للسديم الأكبر في برج الجبار، ثم إن كمن وروبرتس حصلا في عام ١٨٨٨ لأول مرة على صورة ظاهر فيها النظام اللولبي للسديم الأكبر في برج اندروميدا، (انظر شكل ٧٩ في الصفحة التالية)، بأن عرضا لوحاً فوتوغرافياً لمدة ثلاث ساعات أمام منظار عاكس قطره عشرون بوصة. ويبلغ عدد السدم التي يمكن تصويرها بواسطة أحد المنظارات اليوم في أنحاء السماء نحو المليون.

وتنقسم السدم بوجه عام إلى قسمين : مجرية ولا مجرية ، وذلك على حسب قربها أو بعدها عن العالم المجري . والرأي السائد أن السدم اللا مجرية تمثل عالمين في درجات متقاربة من أدوار تطورها . وقد سميت هذه العوالم بالجزر العالمية .

وبناء على هذا الرأي يكون هناك مئات الألوف من هذه الجزر العالمية متباعدة الواحدة عن الأخرى بما يقدر بملايين السنين الضوئية ، وقد قدر شدتلي قطر السديم الأكبر في برج اندروميدا بمقدار ٤٥٠٠٠ سنة ضوئية ، وقدر قطر السديم المرموز له بالرمز(٣) بحوالي ١٥٠٠٠ سنة ضوئية . وهذه الأبعاد وإن كانت تقل عن قطر عالمنا المجري إلا أنها كبيرة كبراً كافياً بحيث تسمح لنا باعتبار هذه السدم عوالم مستقلة . (انظر شكل ٨٠) . علي مصطفى مشرفه



(شكل ٧٩ـ السديم الأكبر في برج اندروميدا)
صورت يوم ١٨ سبتمبر سنة١٩٠١ بمرصد يركس



(شكل ٨٠ ـ السديم الأكبر في برج الجبار)
صورت يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠١ بمرصد يركس

نور العلم في أواخر هذه السورة

(١) انحصر العلم اليوم في النور .

(٢) ليس في الدنيا مادة محققة .

(٣) كل ما نراه أو نسمعه أو نشمه أو نذوقه أو نلمسه إن هو إلا حركات .

(٤) اقرأ هذا المقام فيما تقدم في سورة « النور » تحت عنوان « قطرة ماء » عند آية : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥] الخ ، فهناك تجد الذرات المائية ترجع إلى الكهرباء السالبة والكهرباء الموجبة التي يجري أولها حول ثانيها ستة آلاف مليون مليون في الثانية الواحدة .

(٥) فإن نقص عدد الحركات كانت المظاهر غير ذلك ، كأن نحس بها نوراً ، وهو ينحصر في عدد بين ٤٠٠ و٧٠٠ مليون مليون مرة في الثانية ، فأدناها لون الحمرة وأعلاها البنفسجي .

(٦) وإن زادت سرعة الحركات عما تقدم في الحال الرابعة كان عندنا ما نشمه ونذوقه ونلمسه من المواد كالحديد والنحاس وما أشبه ذلك .

(٧) إذن العالم الذي نعيش فيه حركات ، والحركات بتنوعها صارت كهرباء ونوراً وماء وحديداً ورصاصاً .

(٨) وهذه المظاهر التي أحدثتها الحركة يحفظها نظام بديع جميل يختلف باختلافها .

(٩) خذ لك مثلاً عرف علماء القرن التاسع عشر في النصف الأول منه، أن كل عنصر من العناصر الكيميائية لن يدخل في تركيب مادة إلا بنسبة خاصة لا يتعداها هي ومضاعفاتها، ويسمى ذلك عندهم «قانون النسب المضاعفة»، وقد تقدم بعضه في سورة «البقرة» عند آية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٠]، فالأكسوجين له رقم ١٦ وللكربون رقم ١٢، فلن يدخل الأكسوجين مع الكربون إلا على هذا العدد أو مضاعفاته، كما أن الجرثومة الأولى التي يتكون منها الحيوان والنبات تسير على طريقة المضاعفة أيضاً ١-٢-٤-٨-١٦-٣٢ وهكذا، اقرأ هذا المقام في سورة «مريم» إذ ترى هناك أن هذه العوالم كلها عند تركيبها تسير على طريقة المضاعفات في رقعة الشطرنج، فجسم الإنسان والحيوان والنبات لا يتعدى نظرية الفيلسوف «صصه بن داهر» الحكيم الهندي الذي طلب من الملك أن يمنحه حبات بر تكون بحسب المضاعفات المبدوءة بعدد ١-٢-٤-المنتهية بعدد ٦٤، وقد ظهر هناك أن القمح المزروع في الأرض كلها سنين وسنين لا يبلغ مبلغه.

أقول: نظير هذه المسألة التاريخية جميع مركبات الأجسام الحيوانية والنباتية. فالمسألة التي ذكرناها هنا وهي تركيب الأكسوجين مع الكربون على هذا النمط تسير هي وغيرها، فيكون التركيب فيهما ٣٢ من الأكسوجين مع ١٢ من الكربون أو ١٦ من الأول مع ٢٤ من الآخر وهكذا، والذرات التي حسبها أولئك العلماء في القرن الماضي وبنوا عليها ما تقدم وعلى رأسهم «دلتن» وظنوا أنها لن تتجزأ، بعد ذلك أصبحت في قرننا هذا مجزأة بحيث إن أخف ذرة من تلك الذرات تحلل إلى ١٠٥٠ جزءاً يسمونه «إلكترون»، وهل هذا الإلكترون إلا نقطة كهربائية، إذن الدنيا كلها نقط كهربائية كالذي تقدم في قطرة الماء في سورة «النور»، ومن هذا الباب عرف العلماء اليوم أن العناصر التي كشفوها وهي نحو ٧٠ ليست ثابتة، فكل عنصر منها يمكن أن يحول إلى غيره، مثل ما وجدوا أن الراديوم استخرج منه عنصر الهليون وعنصر الرصاص المعلوم الذي تصنع منه الأنابيب.

(١٠) الأستاذ «السير ارنست رذرفورد» الأستاذ بجامعة كامبردج حول عنصر الآزوت وهو غاز طبعاً يكون أربع أخماس الهواء الجوي إلى عنصر الأيدروجين الذي هو أحد عنصري الماء، وقد حصل على الأيدروجين من العناصر الآتية وهي: «البور، الفلور، الصوديوم، الألمنيوم، الفسفور».

(١١) إذن لا حواجز تحجز المواد أن ينقلب بعضها إلى بعض، وثبت ثبوتاً لا ريب فيه لعلماء عصرنا أن العالم كله نقط كهربائية، إذن نحن اليوم جميعاً في مواد نارية ولكنها ملطفة بهذه المظاهر، ولم يعرف الناس ذلك إلا بالتحليل الذي تشير له أوائل السور ومنها «الياء» و«السين»، ومن نتائجهما أن الشجر الأخضر اتقد ناراً، فإذا كان الكون كله ناراً والشجر الأخضر المذكور في الآية ضرب مثل له كله، فلنعجب إذن من القرآن وعلومه التي تنطبق كل الانطباق على مباحث علماء العصر الحاضر. فعلماء عصرنا يقولون كما سمعته الآن: إن الذرات الكهربائية ركبت منها حواسنا هذه المظاهر كلها، والقرآن يحلل الحروف في أوائل السور، ويذكر أن الشجر الكثيف الجسم حول إلى نار بالاحتكاك. ثم انتقل إلى المقصود إلى ما هو أدق، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس: ٨٢].

إن الإنسان إذا نطق فلا معنى لنطقه إلا حركات في الهواء، إن نقصت عن ٣٢ حركة في الثانية لم نسمعها، وإن زادت عن ٣٢ ألف حركة في الثانية لم نسمعها، كما أن الحركات في الأثير إن نقصت عن ٤٠٠ مليون مليون لم نرها، وإن زادت عن ٧٠٠ مليون مليون لم نرها. إذن لا صوت ولا حرارة إلا بحركات ذات عدد مخصوص، فلا فرق إذن بين كلامنا وبين ضوء الكواكب وغيرها في أنها كلها حركات. فكما أن نطقنا بالكلام توجد به عوالم الكلام هكذا تحريك الله للأثير يصدر عنه الأنوار وجميع المواد. إذن الوجود كله أمر أشبه بالمعنوي تنوعت مظاهره. لذلك ختم السورة بالحقيقة فقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[يس: ٨٣]، ذلك لأنها كلها أمور جعلت مظاهر له وإلا فهي لا شيء.

يا عجباً! اتفق العلم والقرآن اليوم اتفاقاً بديعاً، ومن أعجب العجب أن تكون الآراء العلمية التي تحفظها عقولنا ما هي إلا حركات فكرية. إذن الأجسام كلها حركات نارية، والمعاني كلها حركات فكرية قائمات بعقولنا. فكما أن الحركات القائمة بالأثير كونت ما سميناه مادة بحسب الظاهر، هكذا الحركات القائمة بعقولنا كونت ما سميناه علماً، ونحن إلى الآن لم نعرف ما هو الأثير الذي جرت فيه هذه الحركات الظاهرية، ولا ما هي أرواحنا التي جرت فيها الحركات التي سميناها علوماً.

فيا ليت شعري هل يعرف الناس بعدنا سر هذه الروح وسر هذا الأثير، ولكننا نكتفي الآن بهذه الكلمة: ﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[يس: ٨٣]. ولما كانت النتيجة من هذا الوجود إنما هي الأرواح التي تربى فيه بالعلم والأخلاق ختم السورة بقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[يس: ٨٣]، وأرواحكم تحمل علماً وأخلاقاً وعلى مقتضاهما تكون درجاتكم. إذن الحركات التي بها ظهرت المادة نتيجتها الأخيرة الحركات التي سميناها علماً، وهي التي بها تعلو العوالم الروحية، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]. كتب في صبيحة يوم الأحد ٢٩ يونيو سنة ١٩٣٠م.

تذكرة

قد كنت كتبت جملة مختصرة من أقوال أفلاطون قريباً، وهي من تلخيص العلامة «ستلانه» التلياني، ولما اطلعت عليها كاملة في نفس الكتاب المنشور حديثاً فرحت بنعمة العلم وكتبتها تامة مفصلة، والتفصيل يحسن بعد الإجمال، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وحسن توفيقه

الجزء السابع عشر من كتاب

«الجواهر»

في تفسير القرآن الكريم

ويليه

الجزء الثامن عشر

وأوله تفسير سورة «الصافات»

فهرس الجزء السابع عشر من كتاب
تفسير الجواهر

آيات العلوم في سورة يس ١٧٢